

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصليبية

الحملة الصليبية الخامسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث والثلاثون

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.

الحملة الصليبية الخامسة

تأليف وتحقيق وترجمة
الاستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨

الجزء الثالث والثلاثون

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١- الاستيلاء على دمياط

٢- تاريخ القدس

٣- منظمات الفرسان

٤- وصف الأرض المقدسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الاستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨

الجزء الثالث والثلاثون

(١)

الاستيلاء على دمياط

تأليف

أولفر أوف بادربورن

بسم الله الرحمن الرحيم توطئة

لقد استدركت أربعة أجزاء على مصادر الحملتين الثانية والثالثة، والآن بعد الفراغ من ذلك أعود إلى مسار الخطة المرسومة لأتناول ما يعرف باسم الحملة الخامسة، وهذه الحملة مكانة خاصة تختلف بها عن الحملات المتقدمة لا لأنها استهدفت مصر فقط، بل لطبيعة المسؤولية عنها.

فنحن عندما نستعرض الحملات المتقدمة، نجد الأولى منها مختلطة شعبية بالدرجة الأولى، وقد جاءت عبر البر، ولم يكن للبحر دور حاسم بالنسبة لها، ثم كانت الحملة الثانية، وهي أيضاً سلكت طريق البر، غير أنها كانت رسمية قادها أعظم حكام أوروبا في وقتهم، ثم جاءت الحملة الثالثة قسم منها سلك طريق البر فأخفق، والقسم الأعظم سلك طريق البحر فحقق النجاح، وهي أيضاً حملة رسمية، ثم جاءت الحملة الرابعة، فكانت صليبية التجار ضد بيزنطة، مع أنها بالأصل كانت خطتها تستهدف مصر.

وحين برهنت الحملة الثالثة على أهمية البحر والاستغناء عن بيزنطة جاءت الرابعة لتزيل حكم أباطرة بيزنطة الشرقية من الوجود، ولتمهد الطريق نحو الزوال النهائي للإمبراطورية، ولدى مراجعتنا لأخبار الحملة الثالثة وجدنا أن رتشارد قلب الأسد لدى اخفاقه في مهاجمة القدس خطط للزحف ضد مصر.

ومن الملاحظ أن دور مصر عند بداية الحروب الصليبية لم يكن فعالاً للوضع المتدهور الذي عاشته الخلافة الفاطمية، والشئ نفسه ينطبق على دمشق تحت حكم الدولة البورية، وهنا نستفيد درساً هاماً أن حكام

دمشق من البوريين والمتسلطين على عرش القاهرة غالباً مانشدوا الحماية من الفرنجة ضد منافسيهم من المسلمين، لكن مع أول بادرة ضعف سعى هؤلاء الحلفاء الألداء الى السيطرة على دمشق وكذلك على القاهرة، وكان اخفاق الحملة الثانية في الاستيلاء على دمشق بين أهم الأسباب التي ساعدت نور الدين على توحيد الشام الشمالي مع الجنوبي، وبفضل هذه الوحدة حيل بين الفرنجة وبين الاستيلاء على مصر.

وحين توحدت مصر مع بلاد الشام، عرفت أرض الكنانة روحاً جديدة فبفضل امكانات مصر والشام كان النصر المؤزر في حطين، وأكثر من هذا بفضل مصر بالدرجة الأولى أمكن الصمود أمام الحملة الثالثة، وهكذا وقر في أذهان الفرنجة أن الطريق الى القدس ينبغي أن يمر أولاً عبر مصر.

وكانت مصر الفاطمية تمتلك امكانات بحرية لأبس بها، لكن منذ أيام حصار عكا ظهر إلى العيان العجز بالامكانات البحرية لدى المسلمين في المشرق، مع الاخفاق بالتعاون مع الغرب الاسلامي.

هذا والمستعرض لتاريخ الأيوبيين يشهد ان جل طاقاتهم العسكرية تبددت خلال الحروب الاسلامية الداخلية، ففي حياة صلاح الدين لا يوجد سوى أقل من عقد من الزمن صرفه في الجهاد ضد الفرنجة، وفي أواخر أيام صلاح الدين، في وقت المحنة تخلص عنه تقي الدين، وكان الشخصية العسكرية الأولى في جيوش صلاح الدين، وشغل العادل، أخو صلاح الدين لأبيه دوراً نم على الأثانية وتفضيل الصالح السلطوي الذاتي على الصالح العام، وهذه السمة هي التي صبغت الأيوبيين بعد صلاح الدين، لاسيما العادل وابنه الكامل، فما من واحد من خلفاء صلاح الدين كانت للقدس مكانة لديه، وكانوا يعرضون تقديم القدس لأول طارق، وأدرك الفرنجة هذا، لذلك طلبوا أكثر من القدس، وهذا ما نراه واضحاً في أخبار حصار دمياط أثناء الحملة الخامسة، ثم في الحملة

السادسة، والمثير للانتباه أن موقف أهل الشام ومصر كان ضد هذا المسلك ، ومع هذا لم يعدم الأيوبيون بعض العلماء الذين أفتوا لصالحهم، كما فعل ابن أبي الدم الحموي، ففي كل عصر نجد من المتعممين من آثر رضا السلطان على رضا الله تعالى.

ولئن كانت الحملة الرابعة حملة ارتفع فيها صوت التجار، ففي الحملة الخامسة كان الصوت المرتفع هو صوت البابوية، فالبابوية هي التي بشرت بالحملة، ودفعت للمرتزقة، والنائب البابوي كان هو القائد الفعلي للحملة، على هذا كانت القيادة في هذه الحملة لاهوتية لا عسكرية ولاسياسية، وفيها مؤثر على تبدل السياسة البابوية نحو المشروع الصليبي، وفي ثنايا العقل اللاهوتي نجد أسرار الاخفاق النهائي لهذه الحملة.

ولحسن الحظ أن أخبار هذه الحملة جرى تدوينها من قبل أهم رجال اللاهوت الذين كانوا فيها، وأقصد هنا بالدرجة الأولى أولفراوف بادر بورن ثم جاك دي فيتري، فقد جاءت أخبار الحملة لدى الأخير في كتاب أراد التأريخ به للقدس، أهم ما فيه ما تعلق بالحروب الصليبية، أما ما جاء عما قبل ذلك فلا قيمة له لاعتماده على تلفيقات أسفار العهد القديم.

ونجد لدى مصدرينا كيف بقيت العقلية الأوروبية متحجرة تجاه الاسلام وذلك على الرغم من مضي ما يزيد على القرن على الحملة الأولى، كما ونشهد هنا خططاً جديدة لتعميد أطفال المسلمين وإرغامهم على التخلي عن دينهم.

هذا وكنا في الحملات المتقدمة قد تعرفنا إلى منظمتي فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، لكن في هذه الحملة نواجه نوعيات جديدة من الفرسان، وللفادة ألحقت بهذا المجلد ملحقاً صغيراً، لكن عظيم الفائدة

حول أهم بيوتات الفرسان، ولكي يتوازن هذا الجزء من حيث الحجم والفائدة ألحقت به أيضا وصف الأرض المقدسة من قبل جون أوف وورزبيرغ (١١٦٠-١١٧٠).

أملّي عظيمة في أن يمنحني الله العون والتوفيق لإنجاز هذا المشروع العملاق الذي أسير الآن بسرعة نحو الانتهاء من ثلثيه.

لله دوما الحمد والشكر، والصلاة الدائمة على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

سهيل زكار

دمشق ٩ ربيع الآخر ١٤١٩ / ٢ آب ١٩٩٨

مدخل

حياة أولفر المبكرة

كان بين الأعمال الأولى لبابوية هونوريوس الثالث القيام بإعلان نداء في سنة ١٢١٦ إلى المسيحيين في أوروبا من أجل القيام بحملة صليبية جديدة، وتقبلت منطقة إثر منطقة النداء، وكانت هنغاريا تحت قيادة الملك أندرو الثاني وألمانيا تحت قيادة الدوق ليوبولد صاحب النمسا، والبلدان الاسكندنافية تحت حكم الدوق كاسمير، وف بوميرانيا Casimir of Pomorania، والأمير سيغورد Sigurd النورجي، كانت بين أكثر البلدان حماسة واندفاعاً في استجابتها، أما بالنسبة للإمبراطور فردريك الثاني صاحب ألمانيا، الذي توقعه الناس جميعاً أن يكون قائد الحملة الصليبية، فقد اتخذ موقفاً مختلفاً بسبب صراعات في داخل مملكته، لكن على الرغم من كثير من المشاكل زحف الصليبيون، ووجدوا في عكا ثلاثة من الملوك ليتولوا قيادتهم، وهم ملوك هنغاريا وقبرص والقدس، وكانت وحدة الاتجاهات منعدمة، والصراع وانعدام الثقة كانتا المحصلة، وعلى الرغم من الجهود المستمرة للبابا هونوريوس، والنجاحات الصليبية الأولى تم فقدان دمياط بشكل دائم وأبدي، ونظر إلى الحملة الصليبية من قبل جميع الآخرين على أنها إخفاق محزن آخر.

وكان بين الذين رافقوا الحجاج رجال دين ذوي مراتب عليا من جميع البلدان، فلقد ضم كرادلة وأساقفة وكهنة جهودهم لدعم أعمال الجنود ولمساعدتهم، وكان بين رجال الدين هؤلاء أولفر أوف بادربورن، الذي بشر بالحملة الصليبية ودعا إليها في مقاطعته من كولون Cologne، ولقد وجد الفرصة لأن يخلد كتابة جميع ما واجهته الحملة الصليبية

الخامسة، ولقد أطلق بالأصل على كتابه عنوان « تاريخ دمياط »، وبالإضافة إلى هذا أوقف أولفر قلمه على جغرافية الأرض المقدسة وتاريخها، مع ثلاثة أعمال أخرى، سيأتي ذكرها فيما بعد، أوقفت على هذا، زد على هذا، ما يزال باقياً ما لا يقل عن عشرة رسائل كتبها أولفر.

أما بالنسبة لميلاده، وطفولته، وتعليمه المبكر، فإننا لانملك أية معلومات، والذي نعرفه أن اسمه ظهر للمرة الأولى في سنة ١١٩٦، بمثابة شاهد أسقفي في نزاع قام بين أبرشية بادربورن ودير هلمرهوز Hel-marhaus ، وحيث أن الشهود كانوا أعضاء من الجماعة اللاهوتية لكاتدرائية بادربورن، وبما أن رجال اللاهوت والشرعية كانوا إلى حد الاحتكار من الأسر النبيلة، يمكننا أن نفترض بأمان بأن أولفر انتمى إلى أسرة نبيلة من أسر الأسقفية، وعلى كل حال إنه بالإضافة إلى حادثة الأصل والولادة، يبدو أنه أعد ليشغل منصب كاهن، وهذا ظاهر بالسلمات والمزايا التي يمكن ملاحظتها في كتاباته، ويُظهر كتابه « تاريخ دمياط » على كل صفحة من صفحاته تقريباً أنه كان رجلاً صاحب تقوى، وحماسة دينية، وإيمان بسيط راسخ.

ويبدو أنه كان متميزاً بثقافته وفهمه وهو ما يزال في مرحلة الشباب، وقد حظى لهذا بلقب «ماجستير»، الذي استخدم في ذلك الوقت لتمييز انسان كان صاحب ثقافة استثنائية، ونجده في سنة ١٢٠٠ مديراً واستاذاً لللاهوت في مدرسة النحولبادربورن، ولقد شغل هذا المنصب لوقت قصير فقط، لأنه في إيلول من عام ١٢٠١ طلب منه رئيس الاساقفة في كولون أن يشغل كرسي الاستاذية في المدرسة الكاتدرائية الذي ترك شاغراً بعد شغله من قبل العالم رودولف Rudolph ، ولواحد امتلك مثل قدرات أولفر لا بد أن مثل هذه الفرصة كانت سارة جداً ومبهجة، لأن كولون كانت آنذاك في قمة قوتها، وكانت هي المعترف بها قائداً لجميع المدن الألمانية، ومركز التأثير والثقافة، لكن على كل حال كانت

الحياة السياسية فيها في وضع عنف واضطراب شديد، فقد كان فيليب صاحب سوابيا وأوتو أوف برونزويك Brunswick منشغلين في صراعهما حول العرش الامبراطوري، واستدرج هذا رجال الدين للتورط في الصراع، وكان معظمهم يؤثر أوتو، وذلك مخالفة لموقف البابا أنوسنت الثالث، وحافظ أولفر على تأثير مرض في المدينة، وذلك حسبما ظهر فيما بعد بإشارات إطرء لما قام به ولمكانته.

وكان أولفر في باريس في سنة ١٢٠٧ ، علماً بأنه ليس من المعروف كم مكث هناك في ذلك في العام، وخلال اقامته في تلك المدينة دأب في جامعته المشهورة، التي حظيت باعجاب العالم المتحضر، وأثني عليها من أجل تعليمها.

وفي هذا الوقت بالذات بدأ البابا في نشر خطه العريضة عليه للدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وبدأ أن التوقيت كان غير موائم البتة للاقلاع بمثل هذا المشروع، لأن ألمانيا كانت ممزقة ومنهكة بسبب الصراع بين الولفيين Welfs وأسرة هوهنستوفن Hohenstaufen ، وكانت فرنسا من أحد الجوانب متورطة ومشغولة بقضية الانتشار السريع للهرطقة الأليبنسانية Albigenian ، وكانت من جانب آخر مستنفرة ومتحفزة خشية مواجهة المشاكل مع انكلترا، ومع ذلك لاقت الصليبية الجديدة تأييداً حماسياً، وشعر أنوسنت بانتعاش آماله بأن القدس سوف تعود أخيراً إلى أيدي الصليبيين، وطلب في مرسوم أصدره في ٣٠ — كانون الثاني لعام ١٢٠٨، من أسقف جنيف ومن راعي دير بونيفو Bonnevaux القيام بالاشراف على أسقف غرونوبل لدى قيامه بمنح أولفر كنيسة صغيرة في ايبيني Epernay مقابل بعض الخدمات التي قدمها، ونتيجة لهذا رجع أولفر إلى كولون، حيث بقي فيما بين ١٢٠٩ و ١٢١٣، مع أنه من غير المعروف كيف جرى توظيفه واستخدامه، وأفتتح في ربيع سنة ١٢١٣ حفل جديد من النشاط أمامه،

وذلك عندما أرسلت رسائل من البابا انوسنت الى جميع العالم المسيحي التمس فيها العمل في سبيل تحرير الضريح المقدس، وتمت تسمية عدد من الرجال اتسموا بالحماسة والفصاحة للقيام بالتبشير والدعوة إلى حمل الصليب في جميع البلدان الأوروبية، وجرى تعيين أولفر مع عميد بون للتبشير في مقاطعة كولون، ونشط فيما بين ١٢١٤ — ١٢١٥ وعمل في لوتخ Luttich ، ونامور Namur ، وفلاندرز، وغلدت Geldt ، وأوترخت Utrecht ، وفريزلاند Friesland ، ومن رسالتين كتبهما في هذه الآونة يمكن الحصول على صورة واضحة عن أعماله في التبشير، ونشاطه أيضاً كمبشر، ولقد واكبه النجاح على طول طريقه، وتلقى الفريزيون رسالته بتعاطف كاد يصل إلى حد التقديس.

وفي وسط أعمال تبشيره أرسل أولفر إلى روما ليعمل بمثابة ممثل لأسقفية كولون في المجمع الكنسي الكبير في اللاتيران لعام ١٢١٥، الذي قرر ورسم ضمن أشياء إن على الصليبيين المغادرة نحو الأرض المقدسة في ١ حزيران ١٢١٧، ومع ١٠ نيسان كان أولفر مرة ثانية في لوتخ، جاهزاً لاستئناف عمله بالتبشير من أجل الحملة الصليبية، غير أننا لانستطيع تتبع آثار نشاطاته خلال السنة التي تلت، وعندما اقترب حلول يوم المغادرة المقرر، التحق أولفر بحشود الحجاج الذين تجمعوا في مرسيليا وتقاطروا عليها، حيث سافر بحراً إلى الأرض المقدسة، ووصل إما في تموز أو في آب إلى عكا.

الحملة الصليبية الخامسة وكتابات أولفر

ووصفت الحقبة التي تلت وصفاً كاملاً لنا من قبل أولفر نفسه، وذلك بالاضافة لرواية مفصلة عن الأحداث قدمت بشكل غير مباشر رؤية واضحة ونافذة حول أخلاقه وسماته، وسمحت لنا أن نكتشف أكثر من أثر للحكمة وللتسامح، واليقظة، والحماس، والعرفان بالجميل، والاخلاص، والتواضع والثقة بالرب، والحكمة، والمرونة كلها قد ظهرت

في آرائه للصليبيين، مع أن تواضعه قد منعه من تسمية نفسه على أنه الرجل الذي قدم مثل تلك النصائح الحكيمة.

ومجرد القاء نظرة على روايته حول الحملة الصليبية تمكننا من أن نلاحظ أن هذه الرواية انتاج انسان متيقظ ورجل قادر على الوصف التصويري، ومن المقدر أن الجزء الأكبر من كتاب « تاريخ دمياط » قد كتب أثناء الحملة الصليبية وبعدها مباشرة، أي فيما بين ١٢١٧ و ١٢٢٢، وهذا واضح من خلال استخدام كل من صيغتي الفعل المضارع مع صيغة المستقبل، ونراه بينا في ثنايا كتابه، وأضاف هذا حيوية الى الرواية في عدد كبير من الأماكن، هذا ومن الممكن أن القسم الأخير من الكتاب قد أكمل في مصر، لكن لا يمكن تقرير ذلك بشكل حاسم، وكان آخر تاريخ للحوادث هو في ايلول ١٢٢٢، عندما تمت الدعوة الى عقد اجتماع يكون في فيرونا يوم ١١ تشرين الثاني من تلك السنة نفسها.

وعندما نأخذ بعين التقدير أن أولفر قد كتب ثلاثة كتب أخرى بالإضافة الى « تاريخ دمياط » وذلك أثناء وجوده في مصر، وكان هذا بدون اهمال لواجبات مركزه بحكم كونه من رجال الدين، عندما نفعل هذا كله لا يمكننا أن نشكك بنشاطه وقدراته، ومن إلقاء نظرة كلية على كتاباته يمكن أن نرى حماسه وغيرة بكل وضوح، لكنها ليست أوضح منها ولا أعظم ظهوراً من جهوده التي بذلها في سبيل تحويل السلطان وأتباعه من الإسلام الى المسيحية، ويوجد في هذه الحادثة اشارات على الاقرار بالفضل والامتنان، فقد قدر أولفر تقديراً عالياً شهامة السلطان نحو الأسرى الصليبيين، ولهذا توفرت لديه الرغبة في أن يعرض عليه منحة تأتي تعويضاً على لطفه، ولهذا لم يجد هدية أفضل وأكمل — حسبما كان يعتقد — من هدية الايمان الصحيح، لكن السلطان على كل حال بقي متمسكاً بشدة بالإسلام.

وقاد الاخلاص للمسيح، وبالتالي لجميع الذين عملوا باسمه، أولفر

للحديث عن الكاردينال بيلاغوس Pelagius بطريقة تفترق بعض الشيء عن بقية المؤرخين، ففي الوقت الذي رأى معظم المراقبين عنده توفر للمطامح، وللأنانية، مع سعي نحو السلطة، رأى فيه أولفر ممثلاً للرب، وأن كلماته قد بدت وكأنها كلمات حكمة ربانية، ولهذا لم ينل النقد من أولفر، أو أن أولفر وجدته قصياً عن النقد، وهكذا لانجد في أي مكان صورة بيلاغوس على أنه كان متشدداً، وأرعناً وطاغية مستبداً، بل بدلاً عن ذلك نجد في كل مكان عبارات إطراء تثني على براعة النائب الرسولي، وعلى حكمته ونشاطه وغيرته وكفايته وقدراته، وبمبول أولفر على هذه الشاكلة نحو الكاردينال، لا بد أن القليل القليل هو الذي توفر لدى أولفر للاعجاب بجون أوف بريين، بما أن القائدين كانا متضادين بالطبع وبالنظرة إلى الأمور، وهنا نلاحظ وجود أكثر من ايباء نقد في اشارات أولفر لجون.

ولم يحصر أولفر انتقاداته بالأفراد، ولهذا نجد لديه تكراراً لوصف، أو ذكر نقاط الضعف بين الصليبيين ككل، وهكذا نقرأ في صفحات إثر صفحات عبارات من مثل قوله: « كان ذلك عقوبة على الذنوب » و « الشهوة في العيون جعلت للصوم كثيرين » و « ربما أن المدافعين عملوا بإهمال »، ومن الممكن أخذ هذا كله أنه على الرغم من محبته للمثالية، لم يكن بأي حال من الأحوال أعمى لم يستطع رؤية الحقائق الواقعية، وبدأت الآثام المؤسفة التي اقترفها الصليبيون برأي أولفر أنها السبب في الخسائر المتنوعة للجيش، ولم يكن مرد ذلك أي نوع من أنواع التفوق لدى المسلمين، مع أنه اعترف مرة أو مرتين مرغماً فأقرباً أن المسلمين كانوا مقاتلين بارعين وأصحاب خبرة في الحرب، وفي وسط الكآبة والوضع البائس سعى أولفر لاستنباط بعض العزاء من خلال ذكره للألمان وبشكل خاص للفريزيين من ذلك قوله: « أعطي معظم المدح عن جدارة لتلك الأمة النشطة والمطيعه، وذلك من بداية الهجوم على

دمياط بكثير من الشجاعة وعدم الاهتمام بالمركز من قبل كل من المتواضعين أو المنخفضين»، وتلقى الداوية أجرهم من الثناء، ومن بين العبارات التي راجت داخل الكتاب وتكررت مع شيء من التشابه قوله: « كان جيش الداوية الذي هو بالعادة الأول بالتجمع ، الأخير بالتراجع ».

وكان بإمكان أولفر أن يرى في كل واقعة ذات نهاية مأساوية بالنسبة للصليبيين تعبيراً عن حكمة ربانية، وهكذا ردد قوله: « بوساطة خطة الروح القدس »؛ « دعوا النصر ينسب إلى ابن الرب وحده »، « من خلال تدخل رحمته، انبعث نور المعجزة »، ولاشك أن مثل هذه التعابير التي وقعت بشكل مستمر، وجاءت متلاحقة في روايته، هي عبارات مغلصّة صدرت عن عقل رأى أن حضور الرب هو حقيقة مشرقة، ولهذا عدّ نفسه أكثر فأكثر مجبراً على البقاء والمتابعة والاستمرار حتى النهاية القصوى، وأن يبقى مخلصاً للميثاق الصليبي، وكان يقول: « ما هو التسويغ الذي يمكن أن يكون لديهم أمام حاكم لا يمكن رشوته أو غشه، إذا ما تسلموا فوائدهم وتلقوا منافعهم، لكن أهملوا واجباتهم التي تعهدوا بأدائها؟ ومن جهة أخرى أي جوائز كان يمكن لهؤلاء المؤمنين أن يتوقعوا، وهم الذين قدموا من بلدان نائية للمشاركة في الحرب المقدسة، وفعلوا ذلك؟ واستطرد يقول: « ومع أن جهودهم لم تتوج بالنجاح، هل الرب سوف لن يكون مسروراً بالتضحيات التي قاموا بها في مغادرتهم لأوطانهم، وحبهم للآخرين من أجله؟ ويبدو أن الخسارة لدمياط لم تترك أثراً محبطاً على نشاطه ومثابرته، لأنه تابع الكتابة إلى الكامل وإلى «حكماء مصر» لا قناعهم بقبول المسيحية.

وأظهرت آراء أولفر في بعض المناسبات ميلاً حاسماً نحو السذاجة، فقد مال نحو تأويل أي نجاح صغير على أنه معجزة، وفي وصفه لبعض الشارات والظواهر الغريبة في فريزيا نرى أن هذه السذاجة واضحة تماماً، والتمازج والاقحام الكبير للاشارات إلى نصوص من الكتابات المقدسة

نرى فيها دليلاً على معرفة كبيرة واعتياد على ما إعتقد أنه كلمات الرب المدونة، وغالباً ما اقتبس في كثير من قضاياها من الأجزاء الأقل تداولاً من نصوص كل من العهد القديم والعهد الجديد، واختياراته هذه اختيارات موائمة، وبدت وكأنها تتدفق بشكل طبيعي من خلال قلم أولفر، وكأنها كلمات من صياغته شخصياً، ومع هذا إن اهتمامه بالأشياء اللاهوتية لم يعق نشاطاته في حقل تطلب البراعة بالأشياء التطبيقية، لأننا نعلم أن أولفر كان هو الذي صمم ومن ثم أشرف على بناء برج التهديم الهائل، وقد قال عنه: «إن مثل هذا العمل من الخشب لم يعمر مثله فوق الماء»، ومما هو جدير بالذكر أيضاً إنه ليس أولفر هو الذي أخبرنا باسم المصمم لهذه الآلة من آلات العصور الوسطى، ذلك أنه كتب ببساطة وبدون إطراء ذاتي وقال بكلمات بسيطة: «كان ذلك بوساطة ما أرانا الرب إياه وقام المهندس بتجهيزه»، ولقد كان جاك دي فيتري هو الذي أعطانا اسم المهندس الذي صمم ببراعة.

ومن الجانب الأدبي يستحق «تاريخ دمياط» تقديراً مختصراً، ففي المقام الأول من الواضح أن الكاتب لم يدخر جهداً لأن يضمن عمله جميع المعلومات الضرورية، وبالنسبة لوصف المعارك هناك ثراء بالتفاصيل المفيدة، فهنا يمكننا أن نشعر بحرارة شمس مصر المحرقة، وأن نرى الخوذ اللامعة والسيوف، والنور المشع للنار الاغريقية، وزخات النشاب المدمر، ومشاعرننا وهي ترتعد من رعب المدينة التي أصابها الطاعون، ومن ساحات القتال وقد غطيت بجثث القتلى، ومن التراجع المخفق وغير المخطط له والمهين، وتبرهن الاستطرادات العديدة التي تأخذنا بعيداً عن مشاهد القتال، أنه كان لدى المؤلف بعض المعرفة بالممارسات الإسلامية والعقائد مع أن المؤلف كان جاهلاً بالعربية، وإنه لأمر يثير العجب أن انساناً مثل أولفر بفهمه وثقافته قد استخدم قليلاً جداً النصوص الكلاسيكية، وفقط مرة واحدة نجد إشارة مؤكدة: فقد

استشهد أولفر بحادث رواه كورتويوس روفوس في تاريخه عن الاسكندر الكبير، وهناك اشارتين أخريين إلى الاسكندر لعلها اعتمدتا على المصدر نفسه، وهناك اشارة إلى يوليوس قيصر، لعلها اعتمدت على سوتونيوس، مع أن ذلك كان بالواسطة كما هو محتمل.

أما اللغة فهي مثقلة بالمحسنات اللاتينية العامة، لكنها كانت واضحة بما فيه الكفاية، وتأتي في بعض الأحيان العبارات ذات الصلة معقدة ومبهمة.

كما ونجد بعض الصيغ البلاغية تتدفق من قلب متحسر تجاه المأساة التي بعث بها الرب، وهي متشوقة لتحريك الكسل والتقاعس تجاه العمل.

ومن الممكن القيام بذكر الكتابات الأخرى لأولفر، أعني غير «تاريخ دمياط» باختصار فيما يلي:

١- « وصف الأرض المقدسة » ، فلقد شعر أولفر أن هذا الوصف الجغرافي سوف يكون مفيداً بمثابة رفيق عملي لكتابات الأخرى التي عالجت تاريخ الأرض المقدسة، وهذه الكتابات غير أصيلة البتة، واعتمدت بشكل شبه مطلق على ما يعرف باسم يوجيوس فيتيلوس، وبرأي هوغيويغ Hoogeweg قام أولفر بتصنيف هذا الكتاب بحدود سنة ١٢٢٠، عندما أمضى الجيش كثيراً من الوقت بدون نشاط بعد الاستيلاء على دمياط.

٢- «تاريخ القدس ومجريات حوادثها المختلفة»، وقد بدأ هذا بآدم وتوقف مع قدوم الصليبيين لعام ١٠٩٦ - ١٠٩٩، وهم الذين استولوا على القدس من المسلمين، وفي الحقيقة هذا الكتاب مجرد تاريخ لليهود منذ الخليفة حتى الاستيلاء على المدينة من قبل تيتوس في سنة ٧٠، ثم أتبع ذلك بمجرد لائحة بأسماء الأباطرة: الرومان، والاغريق والالمان،

ومصادره الأساسية الأسفار التاريخية من العهد القديم، «والتاريخ اللاهوتي» لبطرس كومستور Petrus Comestor وبعدما وصل أولفر إلى الامبراطور كاديوس، نلاحظ أن قائمة الأباطرة لديه قد أخذت (ربما عبر وسيط) من القديس جيروم ومن بولس الشماس، ومع هذا يبدو أن عدداً من الفصول هي أصيلة، وأن بعض النقاط قد استعيرت من مصادر أخرى.

٣- «تاريخ حكام الأرض المقدسة» ونجد القسم الأول من هذا الكتاب حتى الفصل الرابع والعشرين قد اعتمد على كتاب «تاريخ القدس» لفولتشر أوف تشارترز، لكن على النشرة الثانية منه التي وصلت حتى سنة ١١٢٤، واعتمد القسم التالي على وليم الصوري، شروعاً من الكتاب الثالث عشر، واستمر هكذا حتى الفصل التاسع والثمانين، وبعد هذا يبدو أنه كان لدى أولفر مصادر أخرى، ويبدو أن استثمر كثيراً جداً ما عرف باسم «تاريخ هرقل»، ففي أماكن كثيرة هناك تطابق مدهش مع رواية أولفر، وفي الأخير وصف الكتاب محاولات البابا انوسنت الثالث للاقلاع بحملة صليبية جديدة، واجتماع اللاتيران لعام ١٢١٥، وهذا قاد إلى صليبية ١٢١٧ التي وصفها أولفر بتوسع طويل في كتابه «تاريخ دمياط» وهو أهم كتبه على الإطلاق، وكان «تاريخ الحكام» قد كتب أثناء حصار دمياط في ١٢١٩ - ١٢٢٠، كمسودة أولى، ثم ظهر في سنة ١٢٢٢ في نسخة منقحة ثانية، صممت على الانتهاء والتوقف حيث بدأ «تاريخ دمياط».

ووصلنا عشر رسائل مما كتبه أولفر، وتاريخها فيما بين حزيران ١٢١٤ إلى ١٢٢٤، وأربع منها كتبت في مصر، والرسالة الثالثة أرسلت إلى رئيس أساقفة كولون مع رجال الدين هناك، وقد تولت وصف أحداث الصليبيين من ٨ تشرين الثاني ١٢١٧ حتى نهاية آب ١٢١٨، وكتبت الرسالة الرابعة قرب دمياط في ١٤ إيلول ١٢١٨ إلى رجال الدين

والقناصل في فريزيا، وفيها تم مدح الفريزيين الصليبيين على أنهم شجعان، ومضحين ومخلصين، وكتبت الرسالة الخامسة في ١٤ ايلول سنة ١٢٢٢ الى سلطان مصر، سألته فيها قبول المسيحية وإعادة الأرض المقدسة، وكتبت الرسالة السادسة في الوقت نفسه إلى «حكماء مصر» لإقناعهم بألوهية المسيح.

وهذه الرسالة هامة بالنسبة لكتاب «تاريخ دمياط»، لأن اثنتين منهما مما كتب في مصر تشكلاّن مصدراً للجزء الأول من ذلك الكتاب، أما الرسالتين اللتان أرسلتا من قبل أولفر الى المانيا فقد دمجتا لتشكلاّن الفقرة الأولى، التي تعالج موضوع صليبية ملك هنغاريا مع موضوع الحملة التي استولت على دمياط في سنة ١٢١٩، ولهما أضيفت بعض الاضافات، تولت شرح بعض النقاط التاريخية، والجغرافية، والثقافية، وهي ليست متعلقة بشكل مباشر مع الحملة الصليبية، وأخيراً هناك فقرات أضيفت لتتولى شرح الأحداث من ١٢٢٠ إلى ١٢٢٢، وهكذا جرى اكمال تاريخ مندمج من قبل المؤلف بعد إدخاله بعض الأمور الضابطة والمكيفة.

حياة أولفر بعد الحملة الصليبية الخامسة

أنزل اخفاق الحملة الصليبية ضربة قاسية على مطامح أولفر العميقة، وهو على كل حال لم يبدد وقته في البكاء والنحيب من دون فائدة، بل عاد على الفور إلى عمله القديم في ألمانيا، ففي ١٦ شباط ١٢٢٢ قدم موعظة صيام مع قداس احتفالي في كولون، وكان البابا هونوريوس قد أصدر دعوة من أجل حملة صليبية أخرى، وتولى أوفر الآن القيام بنشاطه القديم كداعية ومبشر، مع أننا لانمتلك سجلاً يؤكد أنه عين رسمياً للقيام بمثل هذا العمل، وفيما بين شباط ١٢٢٢ وايلول ١٢٢٣، جاءت معلوماتنا عنه فقط من خلال رسالة كان قد كتبها وفيها اشارات إلى أنه كان موجوداً في فريزيا في هذه الأيام، ولقد ذكر زيارة قام بها لصديقه

الأب امو Emo في ديره في ويتويروم Wittewierum .

ووقع الآن حادث سيء الحظ في بادربورن، وجاء نتيجة وفاة الأسقف برنارد الثالث يوم ٢٨ آذار ١٢٢٣، وجرى اقتراح اختيار واحد من رجلين لخلافته وهما: أولفر وهنري فون بروكل Brokel راعي دير بوسدورف Bus-dorf، ونشب نزاع كبير حول الانتخاب، وكان السبب الرئيسي لذلك هو أن أسرة فون بروك كانت أسرة ذات نفوذ كبير منذ سنوات في الأسقفية، ولهذا لم تتحمل وجود مرشح مضاد لمرشحها، فكان أن لجأت إلى القوة لضمان اختيار مرشحها، وتم التماس تدخل روما، وأخيراً جاءت الموافقة على أولفر، لكن المسألة لم تعرف الاستقرار والتسوية لسنوات عديدة، وخلال جزء من هذا الوقت المضطرب أقام أولفر مع الكونت هنري أوف شكويرن Schwerin في نوردهوزن Nordhausen يقدم له المساعدة في صراعه مع فالدمير صاحب الدانمرك.

ونشط بعد هذا باخلاص في التبشير بالحملة الصليبية، وذلك بداية من ١٥ أيار، وفي ١ حزيران زار صديقه القديم إموفي ديره، وفي يوم الاثنين الذي أعقب عيد الحصاد، انطلق أولفر مجدداً نحو شرقي ألمانيا، لكنه تسلم أثناء ترحاله دعوة لحضور اجتماع في كولون، واستجابة منه لهذه الدعوة تخلى عن التبشير لبعض الوقت، ومع أن الاجتماع الذي دعي إليه لم يعقد، تمكن أولفر من مقابلة القاصد الرسولي، الكاردينال كونراد، وكان قادراً على دفع قضية صديقه إمو وتحسينها، وذلك أن إمو كان متورطاً في خلاف مع راعي دير هيرديركوس في سكلدوولد Herderieus of Schild Wolde.

وعاد أولفر إلى أعمال تبشيره، غير أنه وجد الأشياء غير مواتمة ولا مرضية لقضيته، فقد جلبت فيضانات متوالية المآسي والمجاعة إلى فريزيا، وكانت الرغبة ضئيلة لدى الناس لسماع الدعوات للتوجه إلى بلاد أجنبية والارتحال إليها، وكانت الحروب الخاصة منتشرة، ولم يكن

الوقت بدون أدنى شك مرضياً، ومع ذلك كان أولفر قادراً على حشد بعض الجنود للقيام بمحاولة جديدة.

وجاء تأكيد تعيين أولفر أسقفاً لبادر بورن بوساطة رسالة من هونوريوس وصلت بتاريخ ٧ نيسان ١٢٢٥، وفي تموز سافر أولفر إلى سان جرمانو ليتسلم طيلسانه من الامبراطور فردريك الثاني، الذي أخيراً وافق على تأييد الحملة الصليبية الجديدة، وأرغم أولفر بهذه المناسبة على اقتراض خمسة وسبعين ماركاً فضياً باسم جماعة رهبان كاتدرائية بادربورن.

وقليل جداً هو المعلوم عن عمل أولفر وهو أسقف، لأنه شغل هذه الوظيفة لوقت قصير، ثم إنه كان غائباً عن الأسقفية خلال معظم هذا الوقت القصير، وتعرفنا إلى إحدى الحقائق حوله من خلال إحدى الوثائق التي جاءت من عند هونوريوس: فبناء على طلب أولفر، جرى منح فرصة غفران مدتها أربعين يوماً لجميع الذين يزورون كاتدرائية بادربورن، بمناسبة ذكرى تكريسها، وبعد ذلك بوقت قصير في ١٨ إيلول، وقع أولفر مرسوماً بابوياً من أجل بادوا Padua، وكان وقتها يحمل لقباً جديداً هو «الكاردينال - الأسقف» لسانت ساينا، وكان هونوريوس قد أعلن عن هذا التعيين لرجال الكهنوت في كاتدرائية بادربورن في ٢٧ إيلول.

وجاء الذكر التالي لأولفر وهو يعمل وسيطاً فيما بين الامبراطور فردريك ومجلس الكرادلة، وذلك حول خلاف انبعث حول شغل منصب أسقفى شغره في إيطاليا، وكان أولفر قادراً على الوصول إلى تسوية، وكذلك أقنع فريدريك للقيام بكتابة رسالة إلى الفريزيين يعبر فيها عن أمتنانه وتقديره لأفاعيلهم الشجاعة عند دمياط، ومحدد تاريخ المغادرة المقبل في آب ١٢٢٧، واختفى أولفر الآن من أمام أبصارنا، والذي بقي فيه اشارات إليه هورسائل قلة تحمل توقيع، وكان آخرها تاريخه ٩ آب ١٢٢٧، وفي

١٨ ايلول جرى تعيين يو هان هالجرين

Johann Halgrin لكاردينالاً أسقفاً لسانت ساينا، ومن هذا
نستخلص أن أولفر قد مات قبل بعض الوقت فيما بين ٩ آب و ١٨
إيلول ١٢٢٧، وقد دفن في إيطاليا.

الاستلاء على دميّاط

هنا يبدأ «تاريخ دميّاط» الذي كان المعلم أولفر هو المصنف له،
والمبشر بصليب الصلبوت والداعية إلى حملة، والذي بلا شك كان
حاضراً هناك.

استهلال

« ليفرح جبل صهيون، ولتبتهج بنات يهوذا من أجل أحكامك السارة، أيها الرب، غنوا أنتم للرب لأنه صنع هذه الأشياء العظيمة». (مزامير ٤٨/١٢ جزئياً)، ولدى الكتابة والتبشير عليهم الاعلان عن روائع الرب، وهو الذي أمر رجاله المقدسين، ودعا رجاله الأقوياء أثناء غضبه، وعليهم ألا يبتهجوا بقوتهم الخاصة، «لا بأعمال في بر عملنا ها بل بمقتضى رحمته المباركة» في كل شيء في الأبدية، من «أجل الأرض التي تنتج الخبز النازل من السماء»، ومكان ميلاده قد قطع وفصل بالسيف، وكثير من الحصون جرى احتلالها من قبل الكفار، «وحجارة هذه الأرض هي موضع الياقوت الأزرق»، لأنها كانت ملك البطارقة، وموضع العناية بالأنبياء، والمعلم للحواريين، والأم للإيمان «وفيها تراب الذهب»، ولأن الوصاة على الدين، اجتمعوا مع بعضهم بالرعاية، ولم يخفقوا هناك قط، وجرى تحريرها أخيراً بعد كثير من الآلام والعديد من التنهدات، وهي الآن تبتهج بالأمل، وتثق بجودة محرريها، وبهجة سوف تبتهج عندما «سوف تؤخذ عصا الأشرار من نصيب الصديقين»، وفي الحقيقة إن الذي تمت رؤيته وتم سماعه وجرى حقاً فهمه قد كتبناه من دون أدنى مزج للزيف، وبناء عليه إن أية محاسن سوف تظهر فذلك بحمد الرب، وبشكره.

الفصل الأول

في سنة ١٢١٧، عندما انتهت الهدنة التي كانت معقودة فيما بين المسلمين والصليبيين (١)، وبعد العبور الأول الذي جاء بعد مجمع اللاتيران (٢)، احتشد جيش المولى الكبير في عكا مع ثلاثة ملوك هم: ملك القدس (٣)، وملك هنغاريا (٤)، وملك قبرص (٥)، وهم لم يحملوا معهم تقدمات طقوسية، ولم يقدموا شيئاً كان جديراً بالذكر، وكان دوق النمسا هناك (٦)، وكذلك دوق ميران (٧)، مع عدد كبير من المرافقين، ورجال من أصل رفيع، ورئيس أساقفة نيقوسيا (٨)، ورئيس أساقفة رآب (٩) Raab، ورئيس أساقفة إيرلو (١٠) Erlau، ورئيس أساقفة هنغاريا (١١)، ورئيس أساقفة بيو (١٢) Bayeux، ورئيس أساقفة بامبرغ (١٣)، ورئيس أساقفة زتز (١٤) Zeitz، ورئيس أساقفة مونستر (١٥) Munstor، ورئيس أساقفة أوترخت (١٦)، وكان معهم قوى، ورجال نبلاء، منهم اللورد ولتر أفسني (١٧) Avesnes، الذي ترك بعد عودته في عبور الربيع أربعين جندياً في خدمة الأرض المقدسة، وزودهم بتمويل وبنفقات كانت كافية لمدة سنة، وتصرف البافاريون برعونة، وبشكل مضاد لقانون الحجاج بقيامهم بتدمير حدائق وبساتين المسيحيين، لابل أكثر من هذا برميهم الاتقياء والدينين من مأويهم، وعندما لم يشبعهم هذا أقدموا على قتل المسيحيين، أما بالنسبة لدوق النمسا، وكان أميراً كاثوليكياً، فقد قاتل في سبيل المسيح طوال الوقت.

الفصل الثاني

رفع بطريرك القدس (١٨) بكثير من التواضع والتبجيل خشبة الصليب المانح للحياة، وكان بذلك ممثلاً لرجال الدين والشعب،

وانطلق من عكا في اليوم السادس الذي حل بعد عيد جميع القديسين (٦ - تشرين ثاني ١٢١٧) إلى معسكر الرب الذي انتقل الآن إلى خربة كرزاني (١٩)، وكانت هذه الخشبة الحلوة محفوظة حتى هذا الوقت، حتى من بعد فقدان الأرض المقدسة، وعندما كان الصراع بين المسلمين والصليبيين مخيفاً أيام صلاح الدين، حسبما عرفنا عن طريق أجدادنا، جرى تقطيع الصليب إلى قطع، وقسم منه هو الذي حمل إلى المعركة، وتم فقدانه هناك (٢٠)، وقسم منه هو الذي حفظ وهو الذي عرض الآن، وفي ظل مثل هذه الراية زحفنا في صفوف منتظمة خلال سهل الفولة (٢١) على مقربة من نبع طوبانيا (٢٢)، وقد بذلنا جهوداً كبيرة في هذا اليوم، وعندما أرسلنا كشافة أماننا، وذلك بعد رؤيتنا للغبار الذي ثار أماننا من قبل أعدائنا، لم نكن متيقنين فيما إذا كانوا جاءوا مسرعين للهجوم علينا أم كانوا فارين، وانطلقنا في اليوم التالي من خلال جبال جلبوع (٢٣) التي كانت عن يميننا مع مستنقع بيت شان (٢٤) عن يسارنا، حيث كان العدو قد أقام مخبأ له، لكن لخوفه من وصول جيش الرب الحي، الذي كان كبير التعداد جداً، وكان يزحف بنظام عظيم، قوض المعسكر وهرب، تاركا البلاد لتعرض للسلب والنهب من قبل جند الرب، وعبرنا من هناك الأردن ليلة عيد القديس مارتن (٧ تشرين ثاني)، وقد غسلنا أجسادنا هناك ونحن نتمتع فيه، واسترحنا هناك لمدة يومين في المكان نفسه، حيث وجدنا وفرة من الأطعمة والأعلاف، ثم أمضينا ثلاثة أيام راحة على شواطئ بحر الجليل (طبرية)، وتحولنا في خلال الأماكن التي تلتطف مخلصنا وقام فيها بعدد من المعجزات، وتحدثنا مع رجال كانوا على شكل جماعة صغيرة هناك، وتطلعنا نحو بيت صيدا (٢٥)، وهي مدينة أندرو وبطرس، ثم إنها تحولت إلى قلعة صغيرة، كما رأينا أماكن حددت لنا وفيها دعا المسيح حواربيه وسار على وجه البحر بقدمين جافين، وأطعم الحشود في الصحراء، ثم مضى وحيداً إلى الجبل ليصلي، وشاهدنا المكان الذي أكل فيه مع حواربيه بعد

القيامة، وهكذا عدنا إلى عكا، ونحن نحمل معنا مرضانا والمحتاجين من أخواننا، ومررنا من خلال كفرناحوم (٢٦)، وهم على ظهور حيوانات التحميل

الفصل الثالث

ووصلنا في الإغارة الثانية إلى سفوح جبل الطور، ووجدنا في البداية نقصاً في الماء، لكن حصلنا فيما بعد على وفرة من الماء عندما حفرنا من أجل ذلك، وخشي قادتنا من صعود الجبل حتى جاء صبي مسلم فأخبرهم بأن من الممكن الاستيلاء على المعسكر فوضعوا خطة، وفي الحقيقة مع أول أحد من شهر قدوم الرب (٣ - كانون أول) وميلاده وبعدها تمت قراءة ما جاء في الانجيل: «إذهبا إلى القرية التي أمامكما» (متى : ٢١/٢)، سار البطريك متقدماً نحو الأمام ومعه شارة الصليب، وبرفقتة الأساقفة ورجال الدين، وصعدوا إلى الجبل وهم يدعون وينشدون المزامير، ومع أن الجبل كان شديد الانحدار من جميع الجهات وعالياً، وبدا من غير الممكن تسلقه من دون توفير ممر مهد بشكل جيد، مع ذلك تمكن الفرسان مع مرافقيهم والخيالة والجنود الرجالة من تسلقه برجولة، وتمكن جون ملك القدس مع جيش الرب من الاستيلاء على القلعة مع هزيمة الأمير بأول هجوم، وجعل المدافعين عن القلعة يلجأون إلى الفرار وقد استولى عليهم الرعب، غير أنهم بدأوا يدافعون عن الجبل، وبدون خوف قاوموا الأعداء خارج أبواب الحصن، وهكذا خسر الملك وقتها كثيراً من الفخار الذي كسبه وقت الصعود، وضاع الآن كل شيء وقت النزول، لأنه بنزوله في يوم الأحد نفسه وبجعله الآخرين ينزلون منح التشجيع للمسلمين بوساطة فسحة الوقت التي منحهم إياها، لكننا لاندرى بأي أمر رباني أو بوساطة أية خطة نزل قادة جيش الرب، ثم انسحبوا بشكل مهين، وهذا على كل حال لانعرفه، لأن عين الانسان

لا يمكنها أن تنفذ إلى أسرار وبواعث الأوامر الربانية، وجرح الآن كثير من الداوية والاستبارية وبعض الجنود أثناء التسلق الثاني للجبل، وذلك بعدما تلقوا قواتاً جديدة من المعسكر، لكن قتلهم الذين ماتوا، ونحن نعتقد أن المسيح ربنا قد احتفظ بنصر الجبل هذا لنفسه وحده، لأنه قد صعد مع عدد قليل من الحواريين، وهناك أوضح عظمة القيامة المستقبلية ومجدها، زد على هذا أن الصليبيين حملوا معهم في الإغارة الأولى وفي الإغارة الثانية حشداً عظيماً من الأسرى، من رجال ونساء، لابل حتى من الأطفال، وقام الآن (جاك دي فيتري) أسقف عكا بتعميد الصغار، الذين أمكنه أن يكسبهم إلى جانبه بالهدايا أو بالالتماسات، وتولى توزيعهم فيما بين نساء الدين، وأعدهم لتلقي التعليمات والتوجيهات.

الفصل الرابع

في الاغارة الثالثة (٢٧)، التي حمل فيها البطريك شارة الصليب، والتي لم يشارك فيها رجال الدين المقدسين، عانينا من كثير من الخسائر والمصاعب، وذلك بقدر ما عانينا من قطاع الطرق، ومن شدة الشتاء، لاسيما أثناء الزحف في الليلة المتقدمة على يوم ميلاد الرب، وذلك عندما هلك كثير من الفقراء والدواب بسبب البرد، وفي ليلة الميلاد نفسها عندما تحملنا مشاق عاصفة حادة اجتاحت البلاد، ترافقت مع رياح وأمطار في منطقة صور وصيدا قرب الصرند.

الفصل الخامس

وانقسم بعد هذا جيش الرب إلى أربعة أقسام، وقد توجه ملك هنغاريا وملك قبرص نحو طرابلس، حيث أنهى ملك قبرص

الشباب (٢٨) حياته، وبعد قليل من التأخير انسحب ملك هنغاريا، مما سبب أذى كبيراً للأرض المقدسة (٢٩)، وأخذ معه حجاجاً أيضاً، وخوذاً وخيولاً، وحيوانات تحميل محملة بكثير من السلاح، مع أنه تلقى انذارات كثيرة من البطريك بوجوب عدم قيامه بالتراجع هكذا، وأخيراً تم حرمانه كنسياً، ومع ذلك ركب رأسه وغادر ومعه حاشيته، وحدث انقسام آخر بين الحجاج الكسالى والجنباء الذين رقدوا وجلسوا فاستهلكوا كميات كبيرة من الأشياء الدنيوية، وكانوا قد بقيوا في عكا، لكن ملك القدس ودوق النمسا ومعه فرسان مشفى القديس يوحنا (٣٠)، والأساقفة الذين تقدم ذكرهم وبصحبتهم بعض الآخرين، تمكنوا في وقت قصير برجولة وبايان من تحصين قلعة قيسارية في فلسطين، مع أنه أعلن مرارا عن وصول الأعداء، ومن خلال هذه القلعة بعون الرب، سوف يتم استرداد المدينة نفسها، وفي بازيليك أمير الحواريين احتفل البطريك مع ستة من الأساقفة بشكل مهيب بعيد الطهارة (٢ شباط ١٢١٨)، زيادة على هذا أن الداوية (٣١) مع اللورد وولتراوف أفسني وبعض الحجاج المساعدين، والاستبارية من أخوانية التوتون (٣٢) شرعوا في إعادة تحصين قلعة الحجاج (٣٣)، التي كانت تدعى من قبل دسترويت Destroit، وهذه قائمة في أسقفية قيسارية فيما بين حيفا وقيسارية، ووضعها هو كما يلي:

الفصل السادس

هي واسعة وعالية، وتطل بشكل عظيم على البحر، وهي محصنة بشكل طبيعي بوساطة الشعاب الجبلية في الشمال والغرب والجنوب، أما باتجاه الشرق فهناك برج قوي جرى إعماره في وقت مضى من قبل الداوية، وقد حافظ على صموده بشكل جيد في الحرب وفي أيام الهدنة، وقد أقيم هذا البرج هناك بالأصل بسبب وجود العصابات التي كانت

تهدد الغرباء الذين كانوا يصعدون الى القدس ويسيرون عبر الممرات الضيقة، ثم يهبطون عائدين منها، ولم يكن هذا البرج بعيداً عن البحر، وبسبب وجود الممر الضيق أطلق عليها اسم دسترويت، وعندما عمرت قلعة قيسارية وكملت، أخذ الداوية يحفرون بشكل متواصل وبشكل متعارض في قنة الجبل، وبعد عمل استغرق ستة أسابيع، وصلوا أخيراً إلى أول الأساسات، حيث بدا أن السور القديم كان سميكاً وطويلاً، وتم العثور على مال هناك من النقود التي لم تعد بالاستخدام وهي غير معروفة في الوقت الحاضر، وقد جاءت بمثابة هبة من خلال احسان ابن الرب لجنوده لتعين على انفاقهم أثناء عملهم، وبعد ذلك وفيما هم يحفرون وينقلون الأتربة من أحد الأماكن الأمامية تم العثور على سور آخر أقصر، ونبتت فيما بين وجه الأرض الممهد والسورين ينابيع تدفقت منها مياه عذبة، وزودنا الرب أيضاً بوفرة من الحجارة والملاط، وتمت أعمال بناء البرجين أمام الحصن بحجارة منحوتة ومناسبة وذات أحجام كبيرة، حتى أن الحجر الواحد كان يحمل بكل صعوبة على عربة شد إليها ثورين، وكان كل واحد من البرجين بطول مائة قدم، وسبعين قدماً بالعرض، ومن حيث السماكة احتويا على مظلتين لحماية الجنود، وكان ارتفاعهما أعلى بكثير من قنة الجبل، وأكمل بناء سور فيما بين البرجين مع شرافات، وكان من الممكن بواسطة العمل الحرفي البارع للفرسان المسلحين الصعود إلى أعلى البرج في الداخل والنزول، ومثل هذا جرى بناء سور آخر على مسافة صغيرة من البرجين، وقد امتد من طرف من أطراف البحر إلى الطرف الآخر، وحوى من الداخل على نبع ماء للحياة وأحيطت قنة الجبل من كلا الجانبين بواسطة سور مرتفع، امتد حتى الصخور، واحتوى الحصن على بيعة صغيرة داخل قصر مع عدد من البيوت، والفائدة الأساسية من هذا البناء هي جمع الداوية، بعدما اقتيدوا إلى خارج عكا، وهي مدينة آمنة امتلأت بجميع أنواع الدنس، وكانوا سيقون شحنة لهذا الحصن حتى يتم استرداد أسوار القدس، وفي منطقة هذه القلعة وفرة

من الأسماك، ومناجم الملح، والغابات، والمراعي، والحقول والأعشاب، وهي تسحر سكانها بكرومها التي زرعت أو التي سوف تزرع، وببساتينها وحدائقها، ولا يوجد فيما بين عكا والقدس أية قلعة بأيدي المسلمين، ولهذا تأذى المسلمون كثيراً بوساطة الحصن الجديد، ومع خوف الرب وهو يطاردهم، أرغموا على مغادرة هذه المناطق الزراعية، وامتلك هذا المبنى مرسى طبيعياً جيداً، سوف يكون أحسن عندما يعاون بوساطة العمل الفني، وهو يبعد ستة أميال عن جبل الطور، ويفترض أن بناء هذه القلعة قد كان السبب في تهديم الأخرى، لأنه في السهل الواسع القائم فيما بين منطقتي الجبال العائدين لجبل الطور وهذا المعسكر، ما من أحد يمكنه الفلاحة بسلامة وأمان أو الحصاد أو انضاج أي شيء بسبب الخوف الذين يعيشون فيه .

الفصل السابع

وسقط أسقف مونستر (٣٤) Munster نائماً في الرب في قيسارية، ووصل المعلم توماس (٣٥)، وكان لاهوتياً، وحكياً صاحب عقل واضح جيد الى نهاية أيامه في قلعة ابن الرب (٣٦).

الفصل الثامن

وعاد بعد هذا جيش الرب إلى عكا، وأعدّ أساقفة ألمانيا وآخرون كثر أنفسهم لعبور البحر، بعدما تأخروا لبعض الوقت في أرض الميعاد، وكان من المتوقع توفر عبور آخر ثاني، وخاصة مع توفر اسطول قادم من الشمال (٣٧)، كان من المؤمل أن يبحر خلال بحر قرطاج الضيق، فمن بداية الدعوة لحمل صليب المسيح أعدت منطقة كولون بحماس عظيم وبانفاق هائل، حوالي الثلاثمائة سفينة استمر بعضها بالبقاء، وهلك

بعضها الآخر بقوة العواصف، والمهم أن الجزء الأكبر وصل إلى عكا مع شجاعة عظيمة من جانب المحاربين، وقد نشأ خلاف كبير هناك، عندما رغب بعضهم في متابعة السفر، بينما رغب آخرون في امضاء الشتاء في حصار الحصن القوي جداً، المدعو الكاتيا (٣٨) Alcatia، وهناك انقسم الاسطول حيث أمضى قسم منه الشتاء في غيتا Gaeta وكورنتو Cor-neto وتولى القسم الآخر حصار الكاتيا تحت قيادة قائدين هما : الكونت وليم صاحب هولندا (٣٩) ، والكونت جورج أوف ويد Wied (٤٠)، وجرى الاستيلاء على حصن الكاتيا هذا من قبل الألمان والفريزيين، وظل في أيديهم حتى أيام قيامهم بحصار حشد كبير من المسلمين الذين قاتل ضدهم برجولة كل من فرسان الداوية وفرسان القديس جيمس (٤١)، ووقتها حاربوا مع جيش ملكة البرتغال (٤٢)، وأخيراً ألحقت الهزيمة بالمسلمين بواسطة قوة سماوية: وجرى قتل واحد من ملوكهم وقتل معه عدد كبير من المسلمين أو وقعوا بالأسر (٤٣).

الفصل التاسع

وعاشت مقاطعة كولون حالة من الجيوشان للعمل في سبيل خدمة مخلص العالم من خلال عدد من العلامات اللائي ظهرن في السماء، لأنه ظهر في السماء في مقاطعة كولون، وفي أسقفية مونستر، في قرية في فريزيا اسمها بيدوم Bedum، في شهر أيار وفي اليوم السادس قبل عيد الحصاد (١٦ — أيار)، عندما جرت الدعوة لحمل الصليب هناك، ووقتها ظهر شكل ثلاثي في السماء، شكل أبيض متجه نحو الشمال، وآخر متجه نحو الجنوب له الشكل نفسه واللون، أما الثالث فقام في الوسط، وهو مظلل باللون، وله تشعبات الصليب، وجسد انسان ممدد عليه، ويداه مرفوعتان وممدودتان مع علامات المسامير على اليدين والقدمين مع رأس مطأىء، وكان هذا الشكل الوسيط فيما بين الشكلين الآخرين، حيث لم

تظهر عليه أية علامات لشكل جسم انساني، وفي وقت آخر ومكان آخر في قرية في فريزيا، ظهر أثناء وقت الدعوة لحمل الصليب على موازاة الشمس صليب لونه أزرق ، والذين رأوا هذا كانوا أكثر عدداً من الذين رأوا المشهد المتقدم، وكان المشهد الثالث في أسقفية أوترخت في قرية دكوم Dokkum حيث كان القديس بونيفيس Boniface قد استشهد، ففي أثناء الاحتفال بعيد هذا القديس نفسه (٥ حزيران) حيث احتشد عدة آلاف من أجل هذا القديس نفسه، ظهر صليب أبيض كبير وكأنها حزمة ضوئية وضعت على الأخرى بشكل مصطنع، ورأينا هذه العلامة جميعاً، وقد تحركت الآن بشكل تدريجي من الشمال الى الجنوب، ونحن نعتقد ان المشهدين الآخرين قد ظهرا لإزالة جميع الغموض المتعلق بالمشهد الأول، وذلك مثلما يقول الرسل حول القيامة: «أنه ظهر لصفا ثم للاثني عشر، وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمائة أخ » (كورنثي: ١٥/٥ - ٦).

الفصل العاشر

في سنة النعمة لـ ١٢١٨، وفي شهر آذار، بدأت السفن تبحر نحو ميناء عكا من مقاطعة كولون مع سفن أخرى صغيرة من مقاطعة بريمن Bre-men وترير Trier ، وبذلك جرى تنفيذ الخطة التي وضعت في مجمع اللاتيران الذي انعقد في روما تحت رئاسة البابا انوسنت صاحب الذكرى الطيبة، وذلك من أجل قيادة الجيش الصليبي إلى الأراضي المصرية، وبناءً عليه في شهر أيار، بعد صعود الرب (٢٤ أيار) عندما باتت السفن معدة، والغلايين مجهزة بالأسلحة، والسفن الأخرى محملة، أقلع الجميع من عكا مع الملك جون ملك القدس، والبطريرك وبصحبه أساقفة نيقوسيا، وبيت لحم، وعكا، ودوق النمسا وبرفقتهم فرسان البيوت الثلاثة: (الداوية والاستبارية والتيتون) وحشد كبير من

الصلبيين، وصدرت الأوامر للأسطول للاجتماع عند قلعة ابن الرب، التي تدعى قلعة الحجاج، ثم إنه بعدما هبت ريح شمالية وصل الملك والدوق ومقدموا البيوت الثلاثة إلى المكان المحدد، وأقلع الحشد بسرعة كاملة، وفي اليوم الثالث وصل إلى ميناء دمياط، لكن بالنسبة للقادة الذين تقدم ذكرهم، فقد تأخروا بعض الوقت عند القلعة، ولم يتمكنوا من اللحاق بالحشد حتى اليوم السادس بعد مغادرتهم ميناء عكا، يضاف إلى هذا أن آخرين ممن لم يكونوا قد استعدوا تأخروا بعض الشيء في عكا بعد الذين أبحروا أولاً، وهؤلاء إما مكثوا بشكل نهائي في عكا، أو أنهم حاولوا السفر فرددتهم الرياح العاتية إلى عكا، أو ظلوا تتقاذفهم الأمواج وسط البحر لمدة ثلاثة أسابيع أو أربعة، وبقي رئيس أساقفة الرايمز (٤٥) Rheims وأسقف ليموز (٤٦) Limoges ، في عكا بسبب سنهما المتقدم، ومات أسقف ليموز هناك، أما أسقف الرايمز فقد عاد مع عبور الصليب المقدس، وهلك على الطريق.

وعندما جاءوا الآن للرسو عند ميناء دمياط اختاروا كونت أوف ساربروكن Saarbrucken قائداً لهم، واستولوا على الأرض المعادية في اليوم الثالث (٢٩ أيار) بدون أية خسائر بالدماء، وذلك من قبل أن يلحق بهم الملك والقادة المتقدم ذكرهم، لأنه عندما زحف قلة من المسلمين ضد الفرسان في الميناء، قام واحد من الفريزيين وقد غرس ركبته اليمنى، بالأرض ، وأمسك ترسه بيده اليسرى ، وسدد رمحاً الحديدي بيده اليمنى ، وكان واحداً من الخيالة المسلمين يراقبه فظن أنه كان يلعب، وهنا رماه الفريزي مع مطيته، فهلك وسقط إلى الأرض، وعندما هرب الباقون متخلين عن جهازهم وعتادهم، قام الصليبيون بتثبيت حدود المعسكر فيما بين شاطئ البحر وضفة نهر النيل، وأثار هذا الاعجاب العظيم للذين لحقوا بهم وذلك عندما رأوا الخيم وقد نصبت، وحقق الرب معجزة تجلت بالحقيقة التالية، وهي أنهم لدى وصولهم أولاً

كانت مياه النهر متحدة مع البحر، ومن ثم كانت في مناسبات عديدة فيما بعد ذات طعم مالح، ولقد أمكن جرّها وهي عذبة المذاق طوال الطريق إلى القلعة التي كانت تبعد حوالي الميل فوق دمياط، وبعد وقت قصير من وصول الصليبيين حدث خسوف كامل للقمر، ومع أنه بالعادة يحدث لأسباب طبيعية عندما يكون القمر بدرًا، لكن لأن مخلصنا قال: «وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم». (لوقا: ٢١ / ٢٥)، قمنا بتأويل هذا الخسوف وتفسيره على أنه شارة سوء بالنسبة للمسلمين، وكأنها تدلّل على سقوط الأشخاص الذين ربطوا أنفسهم بالقمر، واضعين قوة عظيمة في القمر المضمحل أو الشاحب اللون، ونقرأ الآن في كتاب كوينتوس كورتوريوس (٤٨) Quintus Curtius أن الاسكندر المقدوني قاهر العالم كله، عندما انطلق للحرب ضد داريوس والفرس، من بلاد الإغريق إلى بلاد آسيا، وعندما سارت أرتاله المعبأة بشكل جيد على هذا الجانب، وقع وقتها خسوف للقمر، وأول الاسكندر هذه الظاهرة لصالح الإغريق ضد الميديين والفرس، وشجع رجاله، وقاتل ضد داريوس وهزمه.

الفصل الحادي عشر

وكان هناك برج قائم في وسط النهر، توجب الاستيلاء عليه قبل العبور، وعبر الفريزيون، الذين كانوا على كل حال عديمي الصبر تجاه التأخير، النيل واستولوا على كثير من حيوانات المسلمين، ورغبوا في نصب المعسكر في الجانب الأقصى من الشاطئ، وتمسكوا بأرضهم وقاتلوا ضد المسلمين الذين جاءوا من مدينتهم للتصدي لهم، لكن أمكن إرجاعهم بواسطة الأوامر المطاعة، لأنه لم يبد أمرًا حكيماً بالنسبة لقادتنا أن يدعوا برجاً مشحوناً بالمسلمين خلف الصليبيين، وفي الوقت نفسه أعد دوق النمسا ومعه الاسبتارية سلمين وضعوهما فوق سفينتين،

وقام التيوتون والفريزيون بتحسين سفينة ثالثة مع دريئة واقية وضعت فوق حصن صغير ثبت على قمة السارية، وذلك بدون تعليق سلم، وكان رأسهم، وقائدهم، وصاحب الرأي بينهم الكونت أدولف أوف بيرغ، (٤٩) وكان رجلاً نبيلًا وقويًا، كما كان أخًا لرئيس أساقفة كولون، (٥٠) ومات الكونت أمام دمياط قبل الاستيلاء على البرج، وجرى توجيه سلمي الدوق والاستبارية ضد البرج في وقت الاحتفال بعيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ حزيران)، وكان المسلمون يدافعون عنه برجولة، وانشطر سلم الاستبارية وتحطم مع السارية، وألقى بمقاتليه من الأعلى إلى الأسفل، وتحطم سلم الدوق في الوقت نفسه تقريبًا، وبعث إلى الجنة جنوداً كانوا نشطاء ومسلحين بشكل جيد، وكانوا قد جرحوا في أجسادهم لصالح أرواحهم، وتتوجوا بشهادة رائعة، وسخر المصريون منا بعنف، ورفعوا أصواتهم، وقرعوا الطبول، وزعقوا بالأبواق، وهاجم الحزن والأسى الصليبيين، لكن سفينة الألمان والفريزيين ألقت بمراسيها فيما بين البرج والمدينة، مسببة خسائر كبيرة للمصريين بوساطة المنجنيق الذي أقيم على ظهرها، ولحق الأذى بشكل أعظم الذين كانوا واقفين على الجسر الممتد فيما بين المدينة والبرج، وهوجمت السفينة بعنف شديد من قبل مقاتلي المدينة، وبوساطة الجروح المرمية من البرج ومن الجسر، وكذلك بوساطة النفوط، وأخيراً استولت عليها النيران، ومع أن الصليبيين خشيوا أنها سوف تتدمر كلياً، تمكن المدافعون عنها من إطفاء اللهب بشجاعة، ومثل هذا كان النشاب قد خرق من كل من الداخل والخارج الحصن الذي وضع على رأس السارية، لابل خرق حتى الحبال التي تعود إلى كل من الأشرعة والسواري، وأعيدت السفينة إلى وضعها وهي تحمل الشرف العظيم للصليبيين، وكانت هناك سفينة أخرى تعرضت لكثير من الأضرار وتحملت ذلك، وعادت هذه السفينة إلى الدائرية وكانت محصنة بسواتر دفاعية لذلك صمدت أمام البرج وقت الهجوم.

الفصل الثاني عشر

وعلى كل حال أدركنا أن البرج لا يمكن الاستيلاء عليه لابوساطة قذائف العرادات أو حجارة المجانيق (لأن هذا جرب لعدة أيام)، ولا بجعل الحصن أكثر قرباً، بسبب عمق مياه النهر، ولا باستخدام التجويع بسبب وجود المدينة المحيطة به، ولا بوسيلة اللغم لصعوبة ذلك وقسوة المياه التي تتدفق هناك، وبإظهار الرب وتبينه لنا كيفية العمل وتوفيره لنا مهندساً، وبتقديم الألمان مع الفريزيين العتاد والعمل قمنا بوصل سفينتين وحزمهما معاً بقوة وثبات بوساطة العوارض الخشبية والحبال، وهكذا منعنا (بربط المنشأتين عن قرب ببعضهما) خطر الجنوح، وأقمنا أربع سوارى، والعدد نفسه من حوامل الأشرعة، وقد وضعنا في أعلاهم حصناً قوياً موصولاً بأعمدة وبشبكة دفاعية، وغطينا الحصن بالجلود من جميع الجهات، كوسيلة للوقاية من ضربات آلاتهم، وعلى أعلاه كوسيلة للدفاع ضد النار الاغريقية، ووضع تحت الحصن سلم، جرى تعليقه بحبال قوية جداً، وقد امتد إلى الأمام مسافة ثلاثين ذراعاً أمام قيدوم السفينة، وأكملت هذه العملية بنجاح في وقت قصير، واستدعي قادة الجيش لرؤيتها، حتى إذا كان هناك نقص في أي شيء توجب توفيره بوساطة المواد أو بعقريه الرجال حيث يدللون عليه ويظهرونه، ولقد أجابوا أن مثل هذا العمل الخشبي لم يشاهد له مثيل في الصنعة من قبل فوق وجه البحر، ولقد أدركنا أنه متوجب علينا الإسراع، بسبب القذائف المتوالية للمجانيق، وكان الجسر الذي ينتقل عليه أعداء العقيدة من المدينة الى البرج قد تدمر في جزء كبير منه، وبناء عليه في اليوم السادس قبل عيد القديس بارثلميو (١٨ — آب) قمنا بمسيرة بأقدام حافية الى الصليب المقدس، مع ايمان وتقوى من جانب شعبنا، وبعدها التمسنا بتواضع العون

الساوي ، وأن تكون المسألة حرة من كل حسد ، وفارغة من كل تفاخر ورعونة ، بعد هذا استدعينا للقيام بتنفيذ هذه المهمة بعض الرجال من جميع الأمم التي توفرت آنذاك في الجيش ، مع أن أمتي الألمان والفرiziين كانتا كافيتين لشغل السفن وتوجيهها .

الفصل الثالث عشر

وفي يوم عيد القديس بارثلميو (٢٤ — آب) الذي وافق اليوم السادس على فيضان النيل بشكل عنيف ، أعاق فيضان الماء وقوة التيار عملنا كثيراً ، وبصعوبة بالغة وبخطورة أمكن جر هذه الآلة في وجه التيار وذلك من المكان الذي صنعت فيه الى البرج ، ومضت سفينة صغيرة مرافقة لهذه الآلة على محاذاتها وهي منشورة الأشعة ، وسار الكهنة بأقدام عارية على الشاطئ بمشابة تأييد ودعم ، وعندما وصلت الآلة والسفينة الى البرج ، لم تستطع ترتيبات مضاعفة ادارتها وجعلها تلتفان نحو الجانب الغربي ، لكن بتقدمها نحو الأمام وضعت الآلة بشكل مباشر باتجاه الجانب الشمالي ، وأمكن بوساطة الحبال والمراسي تثبيتها أخيراً ، مع أن قوة المياه الفائضة جهدت في سبيل إعادتها الى الخلف ، وجرى وضع ست آلات قذف أو أكثر من الآلات الأخرى ، وقد تحطمت بعد عدة ضربات وتوقفت عن العمل ، غير أن الآلات الأخرى قذفن بدون إعاقه الأحجار مثل زخات البرد وكان الخطر الذي واجهته السفينة الأولى عظيماً ، ولا يقل عما واجهته الآلة ، لأنها وقفت عند أسفل البرج ، وكانت النار الاغريقية التي قذفت من برج النهر قد قذفت من مسافة قريبة ، أما التي قذفت من المدينة ، فكانت أشبه بالبرق ، وكان بإمكانها بعث الشعور بالرعب ، وقد استعان الذين عملوا في سبيل اطفاء النار بالسوائل الحامضة وبالحصباء والرمل وبوسائل أخرى .

وسجد البطريك وسط الرمال أمام خشبة الصليب ، أما رجال

الدين فقد وقفوا عراة الأقدام ، وهم يرتدون الأزياء الطقوسية ، وكانوا يصرخون رافعين أصواتهم نحو السماء ، وتمكن المدافعون عن البرج بوساطة مدّ رماحهم من تلويث واجهة السلم بالزيت ، ثم إنهم أضافوا النار ، مما جعل السلم يلتهب ، وعندما ركض الصليبيون الذين كانوا عليه لإطفاء النار ، ضغطوا على رأس السلم بوزنهم الكبير ، مما جعل الجسر المتحرك المقام قرب حافته ينحني ، وسقط حامل راية دوق النمسا من على السلم ، واستولى المسلمون على راية الدوق وخيل للمصريين أنهم كانوا المنتصرين لذلك صرخوا بشكل جنوني ، وجعلوا الهواء يضطرب بسبب صراخهم ، وترجل الصليبيون من على ظهور خيولهم ، وتمددوا وهم يتضرعون ويضربون أيديهم ، ودموعهم تنهمر على وجوههم حزناً ، وهم يعبرون عن شفقتهم نحو الذين كانوا يتحملون المخاطر في أعماق النهر ، وحزناً منهم على خسارة المسيحية كلها ، واستجابة نحو هذا الدعاء والتقوى الصادرة عن الشعب ، ولأجله ، تدخلت العناية السماوية فرفعت السلم ، وأطفأت دموع المؤمنين النار ، وهكذا جدد رجالنا نشاطهم وقاتلوا برجولة المدافعين عن البرج بمختلف الأسلحة من سيوف وفؤوس ودبابيس ووسائل أخرى ، وكان واحداً من الفرسان الشباب من أسقفية لياج أول من تمكن من الصعود الى البرج ، وكان هناك أحد الشباب الفريزيين بيده العصا التي تستخدم عادة لضرب سنابل القمح لفصل الحبوب ، وقد قام هذا الشاب بتحويل هذه الدراسة الى أداة قتال بربط سلسلة بها ، وهكذا أخذ يطوح بها ذات اليمين وذات الشمال ، فأصاب أحد الرجال ، وكان يحمل راية السلطان الصفراء ، وألقاه أرضاً وانتزع الراية منه ، وجاء واحد تلو الآخر فأهلكوا رجال الأعداء الذين كانوا معروفين بقسوتهم وشراستهم أثناء الدفاع ، ما أروعك أيها اللطف الرباني اللاحدود ، ويا أيها السرور الذي لا يمكن وصفه الذي تمتع به الصليبيون ، فبعد

الحزن والأسى ، وبعد النحيب والبكاء رأينا متعة النصر ، « نحمدك أنت يا رب » و«مبارك أنت أيها المولى رب اسرائيل » ، وأنشدوا تراتيل حمد أخرى للسماء ، وغنينا لسرورنا ، وتمازجت أصواتنا مع الدموع ، وكررنا شكرنا .

الفصل الرابع عشر

وقام بالوقت نفسه المسلمون الذين انسحبوا الى الجزء الداخلي من البرج بإشعال النار تحت الجزء العلوي من البرج ، وأحرقوه ، وصحیح أن رجالنا كانوا هم المنتصرين ، غير أنهم تراجعوا بوساطة السلم ، لعدم قدرتهم على تحمل الحرارة ، أما بالنسبة للجسر الذي أعد في الجزء الأسفل من الحصن ، فقد أنزل الى الجزء الضيق من أسفل البرج ، والماء العميق يتدفق من حوله من جميع الجوانب ، وهاجم المنتصرون الباب وبأيديهم مطارق حديدية ، بينما تولى المسلمون الدفاع عنه من الداخل ، وبقي كل من التحصينان لايرامان ، وخرقت مراقي السلم جزئياً ، مع اطار العمل الذي أمسكه مع بعضه بوساطة حبال قوية جداً ، بوساطة ضربات المجانيق واستمر هذا الخطر من الساعة التاسعة من اليوم السادس حتى الساعة العاشرة من الأحد التالي (٢٥ — آب) ، ولكن ما كان يشبه الشبكة حيث أعد لحماية السلم بقي بدون أذى ، وذلك مع الحصن الذي وضع فيه المنجنيق والعرادات ، التي تولت حمايته ، وأخيراً بعد ما تمكنا من تطويق البرج ، طلب المسلمون التفاوض ، وفي ظل المحافظة على أرواحهم وأنهم لن يتعرضوا للموت ، استسلموا لدوق النمسا باستثناء الذين رموا بأنفسهم في الليلة الماضية من النوافذ ، ونجوا من الحصار المشدد على البرج ، وكان عدد كبير منهم قد غرقوا في النهر وهلكوا ، لكن بلغ تعداد الأسرى مائة رجل .

الفصل الخامس عشر

ومع أن المصريين اضطربوا منذ ذلك اليوم وارتعبوا ، واستعدوا للفرار كما اعتقدنا ، انغمس قادتنا بالكسل والتقاعس حسبما كانت عادتهم ، وأبدعوا وسيلة لتأجيل المفاوضات ولم يقلدوا يهودا المكابي الذي « رأى أن الوقت هو لصالحه » لذلك لم يعط الأعداء أدنى راحة

الفصل السادس عشر

واستعدت السفن للانسحاب ، وكان هناك حشداً كبيراً من الفريزيين والتيوتون قد انطلقوا للسفر بعبور الصليب المقدس ، وقدم في ذلك العبور (٥١) بعض الرومان ، وجاء بعد ذلك أسقف ألبانو وكان هونائب الكرسي الرسولي (٥٢) وكان معه أمير روماني (٥٣) ، ثم جاء بعده رئيس أساقفة بوردو (٥٤) ، الذي قام بتأخير نافع ، ثم أساقفة أنغر (٥٥) Angers ، ومانوتا mantua (٥٦) ، وهومانا Humana (٥٧) وسالبي (٥٨) salppi ثم جاء من بعدهم المعلم روبرت أوف كوركون Courcon لكاردينال الأسقف للقب القديس ستيفن فوق جبل سيليو (٥٩) Celio ، وأساقفة باريس (٦٠) ، وجيرونا (٦١) ، وإيرلو Erlau (٦٢) وهنغاريا ، الذي مات قبل عبور النهر فوق رمال دمياط ، وكذلك الكاردينال روبرت ، وجاء كونت نافار (٦٣) أيضاً ، الذي عندما واجه الخطر المهدد تراجع لضرر الصليبيين وأذاهم ، وجاء كونت التخوم (٦٤) (لى - مارشي) ، وكونت أوف بار (٦٥) BAR وابنه (٦٦) وأخو وليم أوف تشارترز ، وهو مقدم جيش الداوية (٦٧) ، وهيرف أوف فيرزون (٦٨) Herve of Viertzon وإيثير أوف تاوسي (٦٩) Ithier of

Toucy وأولفرا بن ملك انكلترا ، وعدد كبير آخر من بيوتات الفروسية ، ومن عامة الناس ، حيث أنها حياتهم عند دمياط ، فكثير منهم كانوا شهداء من أجل المسيح ، وعدد أكبر اعترفوا بالمسيح ، فتمخروا من العناية الانسانية عند دمياط ، وذهبوا ماضين الى الرب .

الفصل السابع عشر

« هو حكيم القلب وشديد القوة . الفاعل عظام لا تفحص وعجائب لا تعد . الجاعل المتواضعين في العلى فيرتفع المحزونون الى أمن » (أيوب ٤/٩ ، ٩/٥ ، ١١) ، فهو وحده الذي نال التعظيم في حصار دمياط ، لأن الذي حدث هنا لم يشابه ما حدث في الحملات الأخرى ضد المسلمين ، عندما تهيأت الفرص المختلفة من خلال الحكمة البشرية ، أو من خلال جهود المقاتلين ، بل من خلاله نفسه عمل بشكل اعجازي ، وقد تمّ من خلال قواه الربانية ما لم يتصوره الانسان أو يطلبه ، ولم يعط المجد للملوك أو للأمراء الآخرين أو الأمم ، بل لاسمه ، وبذلك تحقق من خلالنا نحن المذنبين الوعد النبوي بقوله : « الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون » (الخروج : ١٤/١٤) .

الفصل الثامن عشر

بعد الاستيلاء على البرج القائم في عمق نهر النيل ، صار سيف الدين أكثر شيخوخة بسبب الأيام العاتية والمرض ، وهو الذي لم يكن الوريث لأبناء عمه ، لكنه المقتصب لممالك آسيا ، هذا الرجل مات ودفن في الجحيم ، وبعد هذا في يوم عيد القدس دنس (٩- تشرين أول) ، قدم المسلمون بشكل غير متوقع مع غلايين مسلحة

وهاجموا المكان الأهم في المعسكرات ، حيث كان الرومان قد نصبوا خيامهم ، وقد جرى صدهم بوساطة قوة صغيرة من الصليبيين ، وقاتل هناك الملك جون ملك القدس برجولة بناء على تحريض وتشجيع من أسقف بيت لحم ، وذلك عندما طاردهم ، لدى فرارهم مسرعين عائدين الى غلايينهم ، ومع ذلك هم لم يتمكنوا من النجاة من سيوف مطارديهم ولا من تيار النهر ، وحدث الآن مثلما حدث للمصريين من قبل داخل المياه الهائجة في البحر الأحمر ، فقد ابتلعت مياه النيل حوالي الألف من المصريين ، وذلك حسبما عرفناه فيما بعد من المسلمين .

وفي يوم عيد القديس ديميتريوس Denitrius (٢٦ تشرين أول) الذي قيل بأنه كان أخاً من ناحية الأم للمبارك دنس ، هاجم العدو معسكر الداوية عند الفجر ، ومع أن رجاله الحقوا بنا بعض الخسائر الطفيفة ، لقد تم صدهم بوساطة فرساننا المتيقظين ، وهربوا الى الجسر الذي بنوه على مسافة ضئيلة من الجزء الأعلى من النهر ، وقد قتل منهم حوالي الخمسمائة ، وذلك حسبما عرفنا من خلال المتخلين عن جيشهم والهاجرين له .

الفصل التاسع عشر

وبعد هذا بما أن عدداً كبيراً من الصليبيين كانوا مرضيين بالنسبة للرب ، كان من الضروري إجراء عملية امتحان لتكون برهاناً لهم ، فيونس ألقى بالبحر بسبب الاضطراب الذي عصفت به ، وسجن في داخل بطن الحوت ، ثم عاد إلى اليابسة عندما جاز الامتحان ، ونجا الرسول عندما امتحن ثلاث مرات بغرق السفينة ، واستحق شعب الرب الامتحان بعدما قام بالصوم لمدة ثلاثة أيام ، الأمر الذي راعاه رجال الدين عن

طواعية حيث صاموا على الخبز والماء، وبعدما جرت عدة مسيرات بناء على أمر اللورد بيلا غوس المبجل، وهو أسقف ألبانو، ونائب الكرسي الرسولي، ذلك أنه في عشية عيد القديس أندرو الرسول (٢٩ - تشرين الثاني)، في منتصف الليل ثارت أمواج البحر، وتضاعف حجمها، وتقدمت بشكل مخيف حتى باتجاه معسكر الصليبيين، واندفع النهر من الجانب الآخر، وأخذنا على حين غرة، فطفت الخيم، وأتلفت الأطعمة والميرة، وتكومت أسماك النهر والبحر، وكأنها لا تحشى شيئاً، في أماكن نومنا، وأمسكناهم بأيدينا، ومع هذا كنا مسرورين لأن نكون بدونها، ولولا فضل خطة روح القدس، والاعدادات التي تمت من قبل ببناء الحاجز الدفاعي الذي أقيم من أجل مصالحنا، لكانت مياه البحر قد تلاقت مع مياه النهر، وجرفت نحو الأعداء الرجال مع الحيوانات، والسفن مع الأسلحة وميرة الأطعمة، وفي وسط هذه المخاطر، كانت هناك على كل حال أربع سفن شيدت عليها قلاع من أجل الاستيلاء على المدينة، ولم تتمكن هذه السفن من النجاة، فبوساطة هجوم واحد حملن مع سفينة كانت قد وقعت في وسطهن، وتم سوقهن إلى الشاطئ المقابل بقوة الرياح، وهناك أحرقن أمام أعيننا بالنار الاغريقية . ووفر الرب جهود الفريزيين والألمان الذين بوساطتهم تم الاستيلاء على البرج، أما السفن المحملة اللائي كن واقفات في ميناء البحر فقد فقدن عندما تقطعت فجأة جباهن، واستمرت هذه العاصفة لمدة ثلاثة أيام متواصلة، وعندما انتهى هذا فإن الرب « الذي يعزينا في كل ضيقنا . انتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم . ووقف البحر عن هيجانه » (متى : ٢٦/٨، كورنثي ٢/١/٤، يونا : ١/١٥)

الفصل العشرون

الى جانب هذا أصيب عدد كبير من الجيش بأحد الأمراض الذي

عجز الأطباء عن إيجاد علاج له في براعاتهم ، وهاجم وجع مفاجيء الأقدام والأرجل ، وغطى بالوقت نفسه جلد فاسد اللثة والأسنان ، مزيلاً القدرة على المضغ ، وغطى سواد مخيف الذقون ، وهكذا بحكم المعاناة الطويلة من المرض المنتشر ، مضى كثيرون الى الرب مع كثير من الآلام ، وعاش بعضهم حتى الربيع . ونجوا ، وجاءت نجاتهم بفضل ازدياد الحرارة .

الفصل الحادي والعشرون

وبعد المعاناة المتقدمة الذكر ، استعدت السفن لعبور النهر ، وأما الذين كانوا عرضة لمخاطر عظيمة فيما بين المدينة والبرج المستولى عليه ، فقد أعاقتهم كثيراً النار الاغريقية والنشاب ، ولقد حدث أن إحدى سفن الداوية (٧١) انتزعها التيار العنيف وحملها الى الجانب الأقرب من المدينة نحو الأعداء ، الذين هاجموا بالجروح والكلاليب الحديدية ، وقذفوها بالنار الاغريقية وبالحجارة من الأبراج في الأعلى ، وبما أنهم لم يحققوا السيطرة بسبب شجاعة المدافعين عنها تسلقوا عليها بكل حماس ، ورموا بأنفسهم مباشرة فيها ، وانقضوا على الداوية وبعد قتال طويل خرقت السفينة أخيراً (لا نعرف أتم ذلك بوساطة الأعداء أم بوساطة رجالنا) ومضت نحو الأعماق مغرقة المصريين والصليبيين وهكذا بصعوبة بالغة ظهر رأس الصاري فوق وجه الماء ، ومثلما فعل شمشون حيث «كان الموتى الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته» (القضاة : ١٦ / ٣٠) فعل هؤلاء الشهداء حيث جرّوا معهم إلى أعماق المياه أكثر من الذين كان بإمكانهم قتلهم بالسيف ، وبكى أهل دمياط وناحوا من أجل نصرهم الدموي لقراءة سبعة أيام ، وبعد هذا بينما كانوا يرممون الجسر تركوا فتحة صغيرة ، وهكذا لم يعد بإمكان سفننا الذهاب من

دون خطر، لكن الألمان والفريزيون امتلأوا بالحماس وبغضب مسوغ ، فقاموا وليس معهم من عون سوى عون السماء ، فقاتلوا برجولة الجسر بوساطة السفينة الصغيرة ، التي بعونها تم الاستيلاء على البرج ، والتي يدعوها الغاليون « الأم المقدسة » ، وتسلق أقل من عشرة رجال من الأمة المتقدمة الذكر الجسر، في وجه جميع المقاومة الصادرة عن المصريين ، وكان هناك حشد كبير من الصليبيين يراقبون ما يحدث ، ويمتدحون جرأتهم ويثنون عليها ، ودمروه ، ودمروا معه السفن الأربع التي أقيم فوقها الجسر، وعادوا منتصرين ، تاركين الطريق حراً ومفتوحاً من أجل السفن التي كانت تبصر صعوداً.

الفصل الثاني والعشرون

وعندما تم انجاز هذا كله ، قام المسلمون وهم ينتظرون الخطر الذي يهددهم بتحسين طرف النهر المواجه لنا بالسواتر الدفاعية المدعومة بما يشبه الملاط والطين وقطع خشب جاهزة ، وأقاموا المجانيق والعرادات هناك وبذلك انتزعوا منا الأمل بالعبور من ذلك المكان ، وكذلك عملوا عند القلعة التي كانت على قرابة ميل من المدينة ، حيث انتهت جميع التحصينات الجديدة ، فقد أغرقوا عبر النهر كله سفيناً وغرسوا أعمدة في أماكن الدوامات ، ومع هذا فإن نائب الكرسي الرسولي ، الذي كانت لديه رغبة جيدة في محاصرة المدينة ، قام بحث السفن للاجتماع على مسافة من هناك للقيام بالعبور ، وكانت السفن محصنة ومقواه بالدفاعات وبالحصون وكذلك بالرجال المسلحين وذلك مع الغلايين والسفن الأخرى ، وكان المسيح قائدهم أثناء العبور ، فنجوا من السفن المغرقة المشار إليها أعلاه ، ولكن العدو تظاهر بالخوف ومع ذلك مركز ثلاثة أرتال من الرجال في مواجهة صفوف سفننا : وكان أول الأرتال من الجنود

الرجالة واقفاً على الشاطئ ، ومع رجاله ترسة من النوع الذين يدعونه الدرايىء ، وقد تركزوا على شكل صفوف ، ووقف الثاني من خلفهم مثل الرتل الأول، وتألف الرتل الثالث من الخيالة، وكان رتلًا طويلاً ومخيفاً، وهدد صفوف الصليبيين بوساطة زخات من الحجارة وبأسلحة أخرى.

يضاف الى هذا أنه في ليلة الاحتفال بعيد القديسه أغاثا، العذراء والشهيدة (٥ شباط ١٢١٩) عندما اجتمع الناس من المؤمنين الذين كانوا سيعبرون في اليوم التالي، أضافت الأمطار والرياح الكثير من الرعب والمصاعب لرجالنا، لكن «الرب أمين» و«لن يدعكم تمتحنون فوق ما تستطيعون» (كورنثي : ١٣/ ١٠/ ١) ، وهكذا نظر الى معسكر عبيده ، فحول الى يسر وسرور أشياء أخرى كانت لأدنى الأسباب صعبة أو غير ممكنة ، وجدد روائع قوته ، فبعد منتصف الليل ألقى رعباً هائلاً في قلب سلطان مصر وضباطه ، الى درجة أنهم تخلوا عن المعسكر بشكل كان غير معروف حتى بالنسبة للمصريين الذين تولى صفهم من أجل المقاومة ، ووضعوا آمالهم في الفرار فقط ، وقام أحد المرتدين ، الذي كان قد خرق القانون المسيحي لبعض الوقت ، وقاتل الى جانب السلطان ، بالوقوف على طرف النهر ورفع صوته صارخاً بالفرنسية : «لماذا أنتم متأخرون ؟ لماذا أنتم خائفون ؟ لماذا أنتم مترددون ؟ لقد ذهب السلطان بعيداً» ، وعندما قال هذا طلب أن يعاد الى احدى السفن ، فبوضعه تحت سلطانهم يمكنه أن يبرهن على صحة كلماته ، وبناء عليه في الفجر الباكر ، عندما بدأ قداس يوم العيد بغناء المسيحيين للكلمات التالية : «دعونا جميعاً نبتهج» تم إعلام النائب الرسولي والملك مع الآخرين ، وهكذا مع فرار المصريين عبر رجالنا بحماس وسرعة بدون عوائق من جهة العدو وبدون إراقة للدماء .

لكن أرض الأعداء كانت موحلة جداً ومن الصعب النزول عليها
وبسبب عمق المياه سبقت الخيول من دون سروج أو ركاب ، ومع ذلك
لاقت صعوبة بالغة بالوقوف ، ثم إن قادة الداوية الذين تمكنوا من
امتطاء الخيول ، رفعوا أعلامهم ، وبادروا مسرعين نحو المدينة بزحف
سريع وألقوا أرضاً الأشرار الذين قدموا بكل جرأة من الأبواب
لمقاومة الذين كانوا يتقدمون : « فالفأس لن تفتخر على القاطع بها ،
كذلك لن يتكبر المنشار على مردده » (إشعيا : ١٠ / ١٥) ، فبأي شيء
سوف نعاذل هذه المعجزة أو نقارنها إلا بما نقرأ عنه فيما يتعلق بابن
حدد ملك سورية الذي حاصر السامرة (انظر الملوك : ٢ / ٦ / ٢٤)
، وأنهكها كثيراً ، فبعث إليه الرب رعباً جعله يهرب من معسكره ،
وكما أن فرار السوريين قد أعلن للسامرة بوساطة المجذومين الذين
كانوا عند مدخل البوابة ، كذلك جاء الاعلان عن فرار المصريين
بوساطة واحد كان مصاباً بالجذام في روحه ، وأعني به المرتد السالف
الذكر ، ومثلما جمع شعب السامرة الأسلاب التي تركت في معسكر
السوريين كذلك فعل جيشنا فنهب الخيام واستولى على غنائم الذين
كانوا يفرون ، واستولى المنتصرون على كثير من الدرايم وعلى جميع
الغلايين ، مع البراكيس وبقية السفن التي وجدوها تحت القلعة بعيداً
حتى المدينة ، مع أسلاب أخرى ، وكان عدد كبير من المحاربين قد
تركوا زوجاتهم وأولادهم ، وهربوا من دمياط ، لاستيلاء الرعب
عليهم بسبب الجواز غير المتوقع ، وحوصرت المدينة بإحكام وطوقت ،
لأن الجيش قد اجتمعت عناصره بوساطة إعداد جسر كان يلامس
طرفي النهر .

الفصل الثالث والعشرون

وحدث أنه من خلال الكسل والتراخي من قبل الذين الرب

يعرف أسماؤهم أن المعظم (عيسى بن العادل) وصل ومعه رجال حلب وحشد كبير، وتجدد نشاط الأعداء واستردوا شجاعتهم، فاستولوا على المكان (٣ - أيار) الذي عبر منه رجالنا عبوراً اعجازياً وهكذا فيما نحن نحاصر المدينة لقد تولوا حصارنا بشكل أعظم خطراً، ولولا توفر إلهام رباني جعل المعسكر الأول الذي كان قائماً فيما بين البحر والنهر، يحافظ عليه من قبل الألمان، وخاصة من قبل الفريزيين، لتم الاستيلاء على الميناء مع انتزاعه منا وبذلك كان العمل سيتعرض كله الى خطر عظيم، وسوف يتعطل، ولكن حتى تغدو معجزة العبور أكثر شهرة ومن أجل أن تعزى من دون أدنى تردد الى المسيح وحده، وصل المسلمون الى درجة التهور، عند صباح السبت قبل Oculi meis semper الأحد (٩ آذار)، ولأننا لم نتوقع مثل هذا الخطر، فقد اقتربوا أكثر مع حشد عظيم، وضغطوا علينا حتى الدفاعات، لكن بوساطة العون الرباني أمكن صدّهم وردّهم الى الخلف، مع خسائر بالخيالة وبالجند الرجال.

الفصل الرابع والعشرون

في سنة النعمة لـ ١٢١٩، هدمت القدس، ملكة المدن، والتي بدت بحصانتها أنها لا ترام، هدمت من الداخل ومن الخارج من قبل المعظم عيسى ابن سيف الدين (١٩ - آذار أو ٢٥)، وتحولت أسوارها وأبرجتها الى أكوام من الحجارة باستثناء المسجد الأقصى وبرج داود، وتشاور المسلمون حول تدمير الضريح المقدس الرائع، وهددوا بهذا من خلال رسائل بعثوا بها الى سكان دميّاط لطمأنتهم وتسكينهم، لكن ما من أحد أقدم على مدّ يده الى مثل هذا العمل الجريء، بسبب تبجيل المكان، لأنه حسبما كتب في القرآن، الذي هو كتاب شريعتهم، هم يعتقدون أن يسوع المسيح إلهنا قد حملت

به العذراء مريم وولد منها ، وأكدوا أنه عاش من دون ذنب كنبى وأكدوا بكل اصرار أنه أعطى النظر للأعمى ، والشفاء للمجنوم وأقام الميت ، وهم لا ينكرون كلمة الله وروحه ، وأنه صعد وهو حي الى السماء ، لكنهم ينكرون آلامه وموته ، وأن الطبيعة اللاهوتية متحدة أيضاً بالطبيعة الناسوتية في المسيح ، ومثل هذا هم لا يعترفون بثالوث الأشخاص ، وبناء عليه ينبغي دعوتهم هراطقة ، وليس مسلمين ، ولكن استخدام الأسم الزائف هو الذي انتشر وساد ، ولهذا في أيام الهدنة ، عندما ذهب عقلاؤهم الى القدس ، طلبوا مشاهدة نسخ من الأناجيل ، وقبلوا هذه النسخ وبجلوها بسبب نقاء الشريعة التي بشر بها المسيح ، ولا سيما انجيل لوقا لأنه جاء فيه : « أرسل جبرائيل الملاك » (لوقا : ٢٦/١) ، الأمر الذي غالباً ما رددته المتعلمون منهم ، وتذكروه في أذهانهم ، ... وشريعتهم التي أعطاها محمد (صلى الله عليه وسلم) الى المسلمين قد كتبت بالعربية ، وقد بدأت بالسيف ، وقامت وحفوظ عليها بالسيف ولسوف تنتهي بالسيف ، ولم يكن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه متعلماً ، حسبما أوضح ذلك في قرآنه (تكملة هذا الفصل وقوامها خمسة أسطر بشعة ، فيها حق وجهل فاضح . وليس فيها ما يفيد لذلك أثرت عدم ترجمتها).

الفصل الخامس والعشرون

في يوم أحد السعف ، من السنة السالفة الذكر (٣١ — آذار) ، قام أعداؤنا بكثير من التهديدات ، وقالوا بأنهم سوف يدمرون أنفسهم أو يدمرونا جميعاً في يوم واحد ، وجمعوا جيشاً لا يعد ولا يحصى من الجنود الفرسان والرجال الذين لا يعرفون الخوف وانقضوا علينا ، وهاجموا سواترنا الدفاعية من جميع الجهات ، ولا سيما جسر الداوية ، ودوق النمسا ، الذي كان متحمساً للدفاع مع الألمان ، وقام العدو ،

مع نخبة من الجنود ، بالقفز من فوق ظهور خيولهم وتحاربوا بقسوة مع الصليبيين ، وركزوا جهودهم على هذا الجانب وسقط عدد كبير قتلى وجرحى ، وأخيراً تسلقوا الجسر وأحرقوا شطراً منه ، ولدى التخلي عن الجسر ومغادرته أعطى دوق النمسا أمراً إلى رجاله أن عليهم إعطاء فرصة للاقترب مع مدخل لهؤلاء الذين كانوا يضغطون علينا ، لكنهم لم يتجرأوا على الدخول بسبب جيشنا الذي عبأ صفوفه لتكون عوناً للذين يتولون الدفاع عن التحصينات ، وقامت النساء بدون خوف بجلب الماء والحجارة والخمرة والخبز إلى المقاتلين ، وثابر الكهنة على صلواتهم ، وتولوا تضييد جراحات الجرحى ومباركتهم ، ولم نعط الفرصة في ذلك اليوم لحمل سعف النخل ، بل حملنا القسي العقارة ، والقسي العادية والسهام والحراب ، والسيوف ، والترسة ، ولقد قاتلونا بعنف منقطع النظير وضيقوا الخناق علينا من شروق الشمس حتى قرابة الساعة العاشرة ، والمهم ، أن أولئك الذين قدموا لتدميرنا مع الرغبة في تحرير المدينة تراجعوا أخيراً منهكين مع خسائر عظيمة .

الفصل السادس والعشرون

لم يكن حلول عبور الربيع قريباً ، وكان دوق النمسا ناوياً على الانسحاب ، فهو الذي قاتل لمدة سنة ونصف السنة بإيمان خالص من أجل المسيح ، وكان مليئاً بالمشاعر الدينية ، ومتواضعاً ، ومطيعاً وكرماً ، فبالإضافة إلى جميع النفقات التي لا تحصى التي تحملها أثناء الحرب ومن خلال المساعدات الفردية ، من المعتقد أنه منح بيت التيوتون ستة آلاف فضي أو أكثر ، من أجل الحصول على أرض ، وأعطى من أجل الحصن الجديد العائد للداوية خمسين ماركاً ذهبياً ، ولهذا الحصن أعطى أيضاً إيرل أوف تشستر (٧٢) خمسين ماركاً ،

فضياً من أجل تقوية أسواره وأبراجه .

الفصل السابع والعشرون

بدأ في أول أيار حشد كبير من الحجاج بالانسحاب ، تاركيننا في الخطر العظيم، لكن أبانا اللطيف والرحيم ، وقائدنا وأمرنا ورفيقنا في السلاح يسوع المسيح الذي هو « وقاء ودفاع للمحتمين به ، لأنه سهل عليه الانقاذ إما بكثرة أو بقلّة ». (المزامير ١٨ / ٣١ ، الملوك ١٤ / ٦) لم يأذن لغير المؤمنين بالانقضاء علينا حتى وصول الحجاج الجدد الحاليين مع وفرة من المساعدات ، والميرة والمؤن والخيول التي بعثت بوساطة قوة سماوية لسرور حشد المؤمنين ، وبناء عليه في عيد صعود الرب (١٦ أيار) عندما تجدد تعداد جنود المسيح ، الأعداء الذين لا يوثق بهم ، انقضوا علينا وفقاً لعاداتهم براً وبحراً ، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على السيطرة ، مع أنهم قاموا بعدد كبير من المحاولات ، قاموا بتحدي رجالنا ، خاصة قرب المعسكر ، حيث تكبدوا خسائر وألحقوا بنا خسائر ، وفي يوم ٣١ تموز تقدموا ومعهم جميع القوات التي أمكنهم حشدها ، وبعد عدد من الحملات ، عبروا أخيراً السواتر الدفاعية في مواجهة لجيش الداوية، وخرقوا بعنف شديد الحواجز ، وأرغموا جنودنا الرجالة على الفرار ، الى درجة أن جيش الصليبيين كله بات في خطر عظيم ، وحاول فرسان فرنسا وجنودها ثلاث مرات ردهم الى ما وراء السواتر الدفاعية ، غير أنهم لم يكن بإمكانهم فعل ذلك ، وبعدما تمكن المسلمون من تدمير دفاعاتنا الخشبية ، مركزوا صفوفاً من الخيالة والجنود الرجالة داخل أسوارنا ، وارتفعت أصواتهم وهم يسخرون منا، وأعد الحشد كله عتاده وما لديه ، فقد سيطر الرعب بعمق على الصليبيين ، غير أن الروح التي جاءت الى جدعون شجعت الداوية ،

فقد قام مقدم الداوية مع مقدمي بقية الفرسان الذين كانوا موجودين ، بهجوم من خلال واحد من الممرات الضيقة ، وتمكنوا برجولة من إرغام غير المؤمنين على الفرار ، وعندما رأى فرسان بيت التيوتون والكونتات والفرسان الآخرون من مختلف الأمم ، أن جيش الداوية كان في وضع خطر ، بادروا مسرعين لتقديم العون من خلال ممرات توفرت أمامهم ، وهكذا ألقى رجاله المسلمين ترستهم وقتلوا فيما عدا الذين فروا دونما توقف فانتزعوا أنفسهم من براثن قتلهم ، ومضى جنودنا الرجالة خلف فرساننا ، وتراجع العدو الى مسافة قصيرة ، وظلت أرتالهم المسلحة ثابتة هنا وهناك حتى حلول المساء وانتشار الظلام ، فذلك وضع حداً للقتال ، وكان المسلمون هم أول من تراجع وأوقف القتال ، وظلت أجساد القتلى ممددة بتعاسة ومبعثرة قرب دفاعاتنا بأعداد كبيرة ، باستثناء الذين أصابتهم جراح خطيرة أو خفيفة وأعيدوا الى المعسكر ، وهكذا أنقذ الرب في ذلك اليوم الذين وضعوا أملهم فيه من خلال شجاعة الداوية والذين عملوا متعاونين معهم ، والذين كرسوا أنفسهم للصراع ، وكان عدد قليل من رجالنا قد قتلوا ووقعوا بالأسر .

الفصل الثامن والعشرون

واحترقت جميع الآلات التي أعدت ضد المدينة خلال الغارات التي جاءت من كثير من الجوانب وقام بها المدافعون عن دمياط ، وأكد البيازنة والجنويون والبنادقة (٧٣) وأصروا على الهجوم على المدينة باستخدام أربعة سفن علقت عليها السلام : « إلا أنهم لم يكونوا من نسب أولئك الرجال الذين أوتوا خلاص إسرائيل على أيديهم » (المكاييون : ٦/٢/٥) ، ذلك أنهم رغبوا في صنع اسم وسمعة لأنفسهم فتقدموا نحو الأمام ومعهم الأبواق ومزامير

القصب وكثير من الرايات ، وزودهم نائب الكرسي الرسولي بكميات كبيرة من الأموال من الخزانة العامة ، وصنع الملك مع الآخرين كميات وافرة من الحبال والمراسي والكلايب توقعاً لأن يحتاجوهم ، وهكذا هاجموا المدينة وقتلوا وجرحوا الكثيرين من اليوم الأول ، وغالباً ما قاموا بهجمات بعد هذا ، وفي الوقت نفسه تمت تقوية الأسوار بأبراج خشبية وبأسيجة ، وقاوم المدافعون المهاجمين بنشاط متزايد وبشدة أعظم ، وهكذا تعرضت السلام للأذى بالنيران مراراً عدة ، ثم أعيد ترميمها ، وأخيراً القيت بالقوة على الضفة ، وباتت المحاولة محبطة وبلا ثمار ، وبات واضحاً ومفهوماً بأنه بالقوة الالهية وحدها يمكن أن تؤول دمياط الى أيدي الصليبيين.

الفصل التاسع والعشرون

لكننا نحن الذين بلا شعور وبلا عقل أو منطق لنذكر منافع أفعال الرب التي قام بها وروعته « أغظنا عيني مجده المقدس » (أشعيا : ٨/٣) : وجعلناهما ضدنا من خلال تراخي قادتنا وشكاوى الأتباع ، فقد وجه الجنود الرجالة اللوم الى جبن الفرسان ، كما واستخف الفرسان بمخاطرات الجنود الرجالة عندما زحفوا ضد المسلمين ، وبناء عليه حدث في يوم عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان (٢٩ — آب) ، وذنوبنا العامة تتولى حثنا وتحريضنا إنه لم يعد هناك بالكاد أحد يرغب بالبقاء محبوساً في المعسكر ولهذا قدنا متقدمين جيشاً برياً وبحرياً وزحفنا نريد معسكر المصريين بين البحر والنهر ، حيث لم تتوفر هناك مياه عذبة للشرب ، واستولينا على خيامهم ، وتظاهروا بالفرار ، وعندما زحف رجالنا الى نقطة كان واضحاً منها أن خصومنا لا يرغبون في مواجهتنا في اشتباك مكشوف بدأ رجالنا نقاشاً مديداً حول هل عليهم التقدم أم التراجع ، وانقسمت الآراء

والمشاعر فيما بينهم ، وفي الوقت نفسه تفرقت الأرتال باستثناء مجموعة ربطتهم طاعتهم بالنظام العسكري ، وأظهر فرسان قبرص (٧٤)، الذين كانوا على الأجنحة اليمنى جبنهم للمسلمين لأنهم لم يقوموا بالهجوم من جانبهم ، وهرب الجنود الايطاليون الرجالة أولاً ، وتلاهم الفرسان العائدون الى مختلف الأمم وكذلك بعض فرسان الاستبارية ، وذلك في حين قام نائب الكرسي الروماني والبطيرك الذي كان يحمل الصليب المقدس فترجوها بإخلاص وأمانة للوقوف في مكانهم ، لكن عبثاً كان ، وكانت حرارة الشمس مرتفعة جداً ، وكان الجنود الرجالة مثقلون بأوزان دروعهم وأسلحتهم ، وزادت متاعب الطريق الحرارة ، والذين جلبوا معهم خمرة شربوها دونما مزج بالماء بسبب ضغط العطش الشديد عليهم ، ولانعدام الماء ، وبينما كانت هذه الأشياء تحدث ، حدث في الوقت نفسه للذين كانوا يدافعون عن أنفسهم ، لدى وقوفهم حيث هم ، وإدارتهم ظهورهم للذين هربوا أولاً وظلوا يركضون وهم منقطعي الأنفاس حتى زالوا من الوجود ، لقد حدث لهؤلاء أنهم تهاووا دون الإصابة بجراح ، لكن الملك صمد في وجه حملة المطاردين ، ومعه الداوية ، وفرسان بيت التيوتون وفرسان استبارية القديس يوحنا وكونتات : هولاندا ، وويد ، وساربروكن وتشستر ، مع وولترأوف بيرثوث - Berthout (٧٥) وعدة كونتات من فرنسا وبيزا ، مع فرسان آخرين ، وكاد الملك أن يحترق بالنار الاغريقية ، وعمل هؤلاء الرجالة بمثابة حماة للذين يفرون ، وغالباً عندما كانوا يبدون وجوههم للأعداء ، كان الأعداء يفرون ، لكن مع تراجعهم التدريجي توجب على هؤلاء الرجال تحمل ضربات أسلحة الأعداء

ووقع في الأسر أثناء الدفاع من الجانب الصليبي : الأسقف المنتخب لبوفياس (٧٦) مع أخيه (٧٧) الحاجب الأعظم لفرنسا مع ابنه (٧٨) ،

وفيزكونت أوف بلمونت Belmont (٧٩) مع أخيه أسقف أنغر Angers وجون أوف أركي ، وكان نييلاً ورجلاً نشيطاً (٨٠) ، وهنري أوف أولن (٨١) Helmen وعدد كبير آخر كانوا قد قتلوا أثناء الأسر ، ووقع في الأسر ثلاثة وثلاثين من الداوية أوقتلوا مع مقدم استبارية القديس يوحنا (٨٢) مع عدد كبير آخر من الفرسان من التنظيم نفسه ، كما أن بيت التيوتون لم ينج من دون خسائر ، وكان جيش الداوية الذي اعتاد على أن يكون الأول في الاحتشاد ، هو الأخير في التراجع ، وبناء عليه عندما وصل أخيراً في تراجعه الى دفاعاتنا توقف خارجها حتى يتمكن من جلب الذين كانوا ما يزالون أمام هذه الدفاعات الى ما ورائها ، أي الى داخل الأسوار إذا كان ذلك ممكناً ، وأخيراً عاد الذين كانوا يطاردوننا ليتولوا قيادة أسراهم وليجمعوا أسلابهم ، وعرضوا — كما علمنا فيما بعد من المسلمين — أمام السلطان خمسمائة رأس من رؤوس القتلى الصليبيين ، واستولى الحزن والأسى على رجالنا ، لكنهم لم يقنطوا ، لأننا علمنا أن هذه الانتكاسة جاءت عقوبة على ذنوبنا ، وأنه كان هناك تخفيف بالعقوبة أقل مما تستحقه الأخطاء التي اقترفناها ، ذلك أنه هو الذي يطفء العقوبات ، فهو الذي خاطب روح المذنبه بقوله : « أما أنت فقد زنت بأصحاب كثيرين لكن ارجعي إليّ يقول الرب » (ارميا : ١/٣) ، وكان من الواضح بالنسبة لنا أن المسلمين عانوا من خسائر كبيرة داخل نخبة جيشهم ، فذلك اليوم كان «يوم شدة وتأديب واهانة ربانية » (الملوك : ٢/١٩ / ٣) ، وحقاً إن الرب رحيم فهو « الذي لا ينسى في إظهار الرحمة ، وغضبه لن يغلق رحمته ، فهو الذي في أوقات المحنة يغفر الذنوب ، وهو الذي يأمر النور بإنارة الظلام ، ويحول حزننا الى بهجة » (مزامير : ٩/٧٦ . طوييا : ١٣/٣ ، كورنثيه : ٦/٤ / ٢ . استير : ١٧/١٣) ، ذلك أن السلطان بعث بواحد من أسرانا للبحث معنا

فيما يتعلق بالسلام أو بالهدنة ، واستطعنا في أثناء المباحثات أن نرمم دفاعاتنا مع بقية التحصينات .

الفصل الثلاثون

وفي الوقت نفسه كان البحارة الذين تولوا خيانة الصليبيين ، معهم عدد كبير جداً من الحجاج الذين أحبوا أنفسهم أكثر من التعاطف مع أخوانهم كانوا قد تخلوا عن عساكر المسيح وهم في وضع خطر جداً ، قبل الوقت المعتاد للعبور ، ورفعوا أشرعة سفنهم ، وغادروا الميناء ، وبذلك سببوا الاحباط لنا ، وتشجيعاً للمصريين .

وقام المصريون بقطع الإعدادات من أجل السلام عشية عيد القديسين كوزماس cosmas وداميان Damian ، وفي يوم العيد التالي (٢٦ — ٢٨ أيلول) ، لابل حتى يوم السبت التالي ، جاءوا مع غلايين وبراكيس فوق النهر ، ومعهم مجانيق ، وترسة ، وجذوع أشجار من أجل طم الخندق وتسويته بالأرض ، وهاجمونا وفق طرائقهم الشرسة والعنيفة ، لكن المقاتل الجبار «المنتصر في اسرائيل» (الملوك: ١ / ١٥ / ٢٩) استخدم لطفه المعتاد ، فدافع عن معسكره ، بارسال سافاري أوف (٨٣) مليون Savary of mauleon بواسطة البحر مع غلايينه المسلحة وعدد كبير جداً من المقاتلين ، وقد وصل وقت الأزمة والشدة ، وكنا نصرخ الى السماء ، فلم يتردد بالاندفاع نحو القتال ، بل وقف برجولة على أرضنا ، وحافظ على موقفنا ، فقتل ، وأرغم العدو بعد ما ألحق به الجراحات وسبب له الفوضى ، على الانسحاب والتخلي عما كسبه في ثلاثة أيام من القتال ، وكان هذا بفضل قوته ، فهو الذي ينقذ الذين يثقون به .

الفصل الحادي والثلاثون

وفي الوقت نفسه كانت المدينة من قبل قد تأثرت كثيراً بالحصار الطويل وبالسيف، وبالمجاعة، وبالبوباء، وكانت الأحوال أشد مما يمكن وصفه وكتابته، ووضعت أملها فقط في السلام الذي كان السلطان قد وعد به السكان، لأن المجاعة ازدادت فيها إلى درجة عالية، وانعدمت فيها الأطعمة المحتاجة، مع أن الأطعمة الفاسدة كانت فيها كثيرة ووفيرة، لأن القمح في مصر لا يعمر طويلاً، بسبب نعومة الأرض التي ينمو فيها، فيما عدا الأراضي حول القاهرة، حيث كان يحفظ هناك براءة لسنوات، وحسبنا سمعنا أن تينة واحدة بيعت في دمياط مقابل إحدى عشرة قطعة نقدية، وبسبب ضغط المجاعة هددت أنواع متعددة من الأمراض السكان، وبين الأمراض والمصائب التي عانوا منها—حسبنا قيل—أنهم لم يعودوا يبصرون شيئاً أثناء الليل، وكأنهم أصيبوا بالعمى، مع أن أعينهم كانت مفتوحة، وحثهم السلطان على عدم الاستسلام، وخدع هؤلاء الناس التعساء من يوم إلى آخر بوعود فارغة، وأغلقوا—على كل حال—أبوابهم من الداخل من أجل أن لا يأتي أحد إلينا من بين صفوفهم، فيخبرنا كيف أنزلت بهم الأيام المصاعب وإلى أي حد كانوا يعانون منها، لكن من الواضح أن الذين كان بإمكانهم النجاة بوساطة الأبواب الجانبية، أو من خلال التدي من الأسوار بوساطة الجبال، بينوا بكل وضوح الأحوال المأساوية لقومهم عن طريق أوضاع أجسادهم المتورمة ومظاهر الجوع عليها، وبدأت موارد الخبز والأطعمة بالتلاشي حتى بين الذين كانوا يحاصروننا من الخارج في جيش المسلمين، لأن النيل، يفيض بالعادة من بعد عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ حزيران) حتى عيد تمجيد الصليب المقدس (١٤—أيلول) ولكن لم يصل ارتفاع النيل الآن إلى المقاس الذي يضعه المصريون بالعادة، وبالتالي لم يتم ري سهول مصر هذه السنة

حسب المعتاد، ولهذا السبب بقيت أجزاء كبيرة من البلاد جافة، وبذلك لم يكن بالإمكان فلاحتها أو حصدها في الأوقات المناسبة، ولهذا فإن السلطان النذري خشي من القحط والمجاعة عرض على الصليبيين صلحاً بوساطة أخيه المعظم عيسى، ذلك أنه فعل ذلك رغبة منه بالبقاء على دمياط، وكانت الشروط التي عرضها: أنه سوف يعيد الصليب المقدس، الذي جرى الاستيلاء عليه من قبل أثناء انتصار صلاح الدين، وذلك مع المدينة المقدسة وجميع الأسرى الذين يمكن إيجادهم على قيد الحياة في أرجاء مملكته في مصر والشام، وأيضاً تقديم المال للقيام بترميم أسوار القدس، وبالإضافة إلى هذا كان على استعداد لإعادة مملكة القدس بأجمعها، باستثناء الكرك والشوبك، وسوف يدفع مقابل تملكها جزية طوال قيام الهدنة.

وكان هناك موضعين قائمين في العربية، احتويا على سبعة حصون قوية جداً، من خلالها يعبر بالعادة تجار المسلمين والحجاج الذاهبين إلى مكة أو العائدين منها، والذي يملك هذه المواضع يمكنه بكل جدية تسبب الأذى للقدس مع حقولها وكرومها، وأن يفعل بها كما يريد ويرغب، واعتقد الملك مع الفرنسيين وكونت أوف تشستر مع قادة الألمان، بحزم أن هذه الترتيبات كانت لصالح الصليبيين، وينبغي أن لانعجب تجاه هذا، ذلك أنهم كانوا سيقضون بالصلح الذي كان أدنى أهمية وفائدة وهو الذي عرض من قبل، لولا أنهم عارضوا بالآراء الحكيمة، وبفعالية وحزم عارض النائب البابوي مع البطريك ورؤساء الأساقفة والأساقفة، والداوية، والاستبارية، وجميع القادة الإيطاليين (٨٤)، وعدد كبير آخر من حكماء الرجال، عارضوا هذه الترتيبات، وأظهروا بشكل منطقي أن دمياط ينبغي الاستيلاء عليها قبل كل شيء، وأنتج الخلاف بالرأي انشقاقاً مالم يأت وضع حد له، وتمت تسويته بسبب الحاجة العامة، وأرسل في الوقت نفسه السلطان بشكل

سري حشداً كبيراً من الجنود الرّجاله من خلال الأماكن السبخة الى المدينة ليلة الأحد بعد عيد جميع القديسين (٢-٣ تشرين الثاني) وهاجم مائتان وأربعون منهم الأسيرة بينما كان الصليبيون نياماً، لكن صراخ الخفراء أيقظهم، وقتل - حسبما أحصينا نحن - منهم حوالي المائتين أو أكثر أو وقعوا بالأسر.

الفصل الثاني والثلاثون

في الخامس من تشرين الثاني، وفي ظل حكم غلص العالم، ومع بيلاغوس، أسقف ألبانو، وهو ينفذ بحماسة ويقظة عمله كنائب للكرسي الرسولي، جرى الاستيلاء على دمياط، بدون مقاومة، ودون أن تسلب بعنف، وبدون فوضى وضجة، وهكذا ينبغي أن يعزى النصر الى ابن الرب وحده، الذي ألهم شعبه ودلهم على مدخل مصر وتولى رعاية عونه هناك، وعندما جرى الاستيلاء على المدينة أمام أعين ملك مصر، لم يتجرأ حسبما كانت عاداته على الهجوم من خلال دفاعاتنا على جنود المسيح الذين كانوا مستعدين للهجوم، وفاض النهر بالوقت نفسه وملاً خندقنا بهاء وفير، وقام السلطان نفسه وهو في حالة من الفوضى والاضطراب باحراق معسكره والفرار، والرب الذي جمع المياه كلها في اليوم الثالث تحت قبة السماء في مكان واحد، هو نفسه الذي جلب جنوده بواسطة مياه البحر الى ميناء دمياط في اليوم الثالث من شهر شباط، وهو نفسه الذي استولى على دمياط، القائمة وسط المياه في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني.

ويمكننا تشبيه هذه المدينة، التي قهرت بالهزة الثالثة للأرض، بشور محطم، ولقد دعوناها «ثوراً» بسبب ترفها وعنفوانها، ومن أجل أسماكها وطيورها، ومراعيها، وقمحها، وحدثاتها وبساتينها، فلقد ازدادت ثروة بالتجارة وبممارسة القرصنة، ولقد فاضت بجرائمها، وابتهجت، نعم لقد

فاضت في جهنم، «لأنه في ساعة واحدة جاءت دينونتك» (رؤيا يوحنا: ١٨/ ١٠) ونحن نقول جاء «خرايها» لأن سكانها هلكوا في الهزة الثالثة للأرض، ومع ذلك بقيت هي دونها أذى بنفسها، فلقد حوصرت أولاً من قبل الاغريق واللاتين الذين غادروها وابتعدوا عنها، ثم حوصرت ثانية من قبل اللاتين تحت قيادة عموري، ملك القدس، الذي لم يحقق النجاح، لكن في المرة الثالثة: «ملك الملوك ورب الأرباب» (الرؤيا: ١٩/ ١٦) أعطاهما الى عبده، وكان يسوع المسيح هو الذي انتصر، وحكم وأمر، «وهو الذي بالنسبة للمصريين أيبس كل شيء زرع بالماء... وأخزاهم في كل ما عملوه بالكتان والذهب، والكتان الممشط لحياكة الملابس الرفيعة» (اشعيا: ١٩/ ٧-٩)، وهكذا قاتل جند المسيح دمياط، فوجدوا شوارعها مغطاة بجثث الموتى، الذين هلكوا بسبب الأوبئة والمجاعة، ووجدوا كثيراً جداً من الذهب والفضة، وكانت الأقمشة الحريية العائدة للتجار بكميات وفيرة، وكان هناك عدداً كبيراً من مخازن البضائع المليئة بمختلف الأنواع، وبالإضافة الى الموقع الطبيعي للمكان، والذي كانت محصنة به، كانت المدينة محاطة بسور ثلاثي ومحمية بقوة بوساطة عدد كبير من الأبراج الآجرية، وهي المفتاح لمصر كلها، وهي محمية بشكل جيد لوقوعها فيما بين رعمسيس وسهل تنيس في أرض جيسين (٨٥) Gessen وذلك حسبما تمكنا من استخلاصه، لأن هناك تقوم المراعي التي طلبها بنو اسرائيل من الفرعون في أيام المجاعة) انظر التكوين: ٤٧).

الفصل الثالث والثلاثون

دمياط، مشهورة بين الممالك، وهي مشهورة جداً في مجد مصر، فهي الحاكمة للبحر، والناهبة للصليبيين، لقد جرى الاستيلاء عليك، لفخار مضطهديك، بوساطة عدد قليل من السلام الصغيرة، وأنت

الآن «متواضعة تحت يد الرب القوية» (بطرس: ١/ ٥ / ٦)، ورميت بعيداً الزاني الذي احتفظت به لوقت طويل، ولقد عدت الى زوجك السالف، وأنت التي ولدت أولاد زنا أولاً سوف تلدين الآن أولاداً لصالح الايمان بابن الرب، لأنك غدت في القبضة القوية للمؤمنين بالمسيح، وحرر أسقف عكا (جاك دي فيتري) فيك الثمرات الأولى من الأرواح من أجل الرب، بقيامه بتطهير صغارك في ماء المعمودية الطاهر، وهم الذين عثر عليهم فيك أحياء بقوته، مع أنهم كانوا أقرب الى الموت، ولقد كنت عرضة لأضعاف مضاعفة من العقوبات، لأنه الى جانب الذين أخذوا أحياء فيك، بلغ تعداد موتاك من كلا الجنسين من بداية الحصار حوالي الثلاثين ألفاً وأكثر، فالرب هو الذي رماهم وأماهم بدون سيف ولانار، وأصبحت منذ الآن فصاعداً تسخرين من تحمل الدنس الذي اقترف فيك.

الفصل الرابع والثلاثون

وبناءً عليه لتبتهج الكنيسة بعودة الأعمال الجديدة بالشكر من أجل مثل هذا النصر، وليس ذلك فقط من أجل دمياط، وإنما أيضاً من أجل تدمير قلعة جبل الطور الخطرة، ولنيلنا ممراً حراً إلى القدس، التي من الممكن إعادة بناء أسوارها في الوقت الذي يراه الرب العالي، وإلى جانب هذا قلعة ابن الرب، التي يتولى جيش الداوية في ظل نفقة عظيمة جعلها مفيدة ولا ترام، وهي التي كتبنا من قبل حولها كثيراً، ابتهجي يامقاطعة كولون، وافرحي وقدمي الشكر، لأنك أعطيت من السفن، ومن آلات الحرب، ومن المحاربين ومن الأسلحة، ومن الميرة والأموال، والمعونات، أكثر مما أعطته بقية مملكة ألمانيا، هذا وشعبنا شعب الرب، متشوق كثيراً وبانتظار امبراطورنا اللامع مع ملك صقلية حتى يحققا بسرور الالتحاق بالمخاطرة، أما أنت ياكولون يا مدينة القديسين، الذين يقيمون في

حدائق ورود الشهداء، وليلك العزراوات، وبنفسج المعترفين، ابتهجي الآن بالسلام الزمني الذي تمّ نيله بوساطة رئيس أساقفتنا المبجل، وبسبب إيمان واخلاص بناتك، واركعي بقلبك أمام الرب في الأعالي، الذي لديه قوة الحياة والموت: «ولا تستكبري في ذهرك بل خافي أمامه، وزكي طريقك أمامه خشية أن عظيم غضب الرب الذي انسكب عليك». (روما: ٢/ ٢٠. أيوب: ١٣/ ١٥. أخبار الأيام: ٢/ ٣٤ / ٢١) أن يتحول إلى بردلكن بها أن أوقات السلام قد منحت منذ وقت طويل، تعبدي بعقل متفتح الذي له الشرف والمجد، والجبروت والقوة.

الفصل الخامس والثلاثون

قبل الاستيلاء على دمياط استرعى انتباهنا كتاب كتب بالعربية، قال فيه مصنفة أنه لم يكن لايهودياً ولا مسيحياً ولا مسلماً، ومهما كان هو، لقد تنبأ بالشور التي أنزلها صلاح الدين بوحشية على الشعب الصليبي، في تدميره لطبرية، وفي نصره على الصليبيين عندما أخذ ملك القدس أسيراً ومعه أمرائه، واحتل المدينة المقدسة، وهدم عسقلان، وتنبأ أيضاً كيف أنه حاول الاستيلاء على صور غير أنه لم ينجح، وأشياء أخرى كثيرة استحققتها ذنوب ذلك الحين، وتنبأ أيضاً بدمار حدائق وبساتين نخيل مدينة دمياط، الأمر الذي رأيناه يتحقق، عندما تفحصنا هذا الكتاب من خلال المترجم، ولقد أضاف بأن دمياط سوف يتم الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، وهو لم يستخدم اسم صلاح الدين، لكنه أشار إليه من خلال عينيه السوداوتين وراياته الصفراء، يضاف إلى هذا لقد تنبأ بواحد من الملوك من مسيحيي النوبة (برسترجون الذي سيأتي ذكره فيما بعد بالتفصيل) سوف يتولى هدم مدينة مكة، ولسوف يفرق عظام النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أشياء أخرى لم تحدث بعد، لكنها ستكون، وعندما ستتحقق سوف يؤدي ذلك إلى بهجة المسيحية وذل المسلمين،

ونحن نعرف أن بعض الكفار من الشعوب يمتلكون روح قدس على شفاههم، لكن ليس في قلوبهم، ولقد تنبأوا بشكل مكشوف حول المسيح، ولهذا نحن لسنا مندهشين إذا ماتدفق الماء من خلال الأقنية الحجرية.

إلى جانب هذا انتشرت تقارير في جميع أنحاء العالم تحدثت عن الاستيلاء على دمياط من قبل الصليبيين، وكان هذا هو السبب في ارسال رسالة من الجورجيين (الكرج) إلى معسكر الجاثليق، وقالت الرسالة بأن تلك الأمة غاضبة وتشعر بالعار وثائرة لذلك، وقررت وأقسمت الأيمان أنه ما أن يتمكن الملك من اقناع القادة، حتى سيتولون حصار إحدى مدن المسلمين الشهيرة، وأعلنوا أنهم يشعرون بالعار لأن الفرنجة جاءوا من مناطق نائية عبر البحر، ومن أقصى حدود الأرض، عبر محيط مليء بالمخاطر، وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة حصينة جداً بعد طول حصار، ولسوف يظلون يشعرون بالعار ومالم يقوموا هم أنفسهم بالاستيلاء على دمشق أو مكان محدد آخر بقوة أسلحتهم، ذلك أنه أسهل عليهم من الفرنجة مهاجمة العدو وقتاله، ويؤمن الجورجيون الآن بالمسيح، وهم جيران للفرس، تفصلهم عن أرض الميعاد امتدادات واسعة من الأرض، وتمتد مملكتهم حتى جبال قزوين، التي محبوس فيها عسكرا، تنتظر موعد ظهور المسيح الدجال، فوقتها سوف يتدفقون نحو الأمام ويسببون الكثير من الخراب، والجورجيون شعب محارب، ويضع رجال الدين منهم على رؤوسهم قلنسوات مستديرة، أما قلنسوات غير رجال الدين فمربعة، ونساؤهم من ذوي الأصل الرفيع قد تدربن على القتال، وعندما يمضي الجورجيون إلى قتال الأعداء في صفوف منتظمة يشرب كل واحد منهم قرعة صغيرة مملوءة بالخمرة الصرفة، ووقتها يقاتلون خصومهم يشجاعة.

ولاريب لدينا أننا بين المحظين من قبل المسيح حامينا، فقد دافع عن قادتنا وحاهم من القتلة من بين صفوف أعدائنا أثناء حصار دمياط، لأن

الحشيشية ومقدمهم «شيخ الجبل» اعتادوا على رمي خناجرهم ضد الصليبيين، لوضع حد لحياة الذين يهتمون منهم بمصالح المسيحيين وأعمالهم، فقد حدث في أيام الهدنة أنهم قتلوا بشكل متعمد (ريموند بن بوهيموند الرابع) كونت طرابلس، الذي كان شاباً جيداً، حيث مدد أمام المذبح في كنيسة العذراء المباركة في طرطوس، وبناءً عليه قام جيش الداوية بمطاردتهم بدون توقف وبعنف ديني كبير، حتى تذللوا إلى حد العبودية ووعدوا بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثة آلاف دينار إلى الداوية.

الفصل السادس والثلاثون

في أيام الحصار، توفي ليون ملك أرمينيا في سن متقدم، ومثله توفي سلطان قونية، ومن المعتقد أنه كان قد تعمد، وكان لذلك لطيفاً جداً نحو المسيحيين، حتى أنه في أثناء مشاركته في الحروب ضد بعض المسلمين كان يأمر باطلاق سراح المسيحيين الذين كان يجدهم في الأغلال داخل الحصون التي كان يتولى مهاجمتها، وكان يعطيهم حق الخيار بالعودة إلى بلدانهم، وذلك إذا مارغبوا، أو بتسلم المال منه، ومن ثم المشاركة في الحروب تحت قيادته إذا مافضلوا ذلك، وكانت علاقاته وطيدة بالمسيحيين إلى حد أنه اتخذ منهم حرسه الشخصي، مع أن والده كان قد قتل من قبل لاسكارس الاغريقي، كما أنه ساند الأفضل علي الابن المخلوع لصالح الدين ضد أبناء سيف الدين، وذلك بقدر ماسمح خليفة بغداد الذي كان بمثابة البابا لقومه.

وألقى الملك الأشرف بن سيف الدين خسائر كثيرة بالداوية عندما كانوا يحاصرون دمياط، فهو قد أحرق بلدة صافيتا، ودمر أبراجها المحصنة، لكنه عندما عاد إلى أراضيه هزم من قبل المسلمين، وفي الوقت نفسه، هاجم بوهيموند كونت طرابلس بشدة وعنف مدينة انطاكية،

وطرد منها رويين، الذي كان واحداً من أقربائه، وخلعه من حكم المدينة (٨٦)، وفضل بالحري التمتع بالذنب الدنيوي على التعاون مع الشعب المسيحي، ولهذا قام نائب الكرسي الرسولي رسمياً باعلان الحكم عليه بالجرمان الكنسي، وبتطبيق ذلك ضده وضد طرابلس والأراضي التي اقترف فيها جريمته.

الفصل السابع والثلاثون

«قد كسر الرب عصا الأشرار قضيب المتسلطين. فعله المهرب نحو بني آدم» (اشعيا: ١٤/٥. المزامير: ٧٤/١٧؛ ٦٥/٥) فهو الذي فتح بقبوته أبواب دمياط، عندما كنا داخلين إليها، وهناك واجهتنا رائحة رهيبة، ومنظر تعيس، فقد قتل الأموات الأحياء، لقد قتل الرجل زوجته، والأب ابنه، والسيد عبده لقد قتل كل واحد منهم الآخر برائحته، ولم تكن الشوارع وحدها مليئة بالموتى، لكن البيوت أيضاً، ففي غرف النوم، وعلى الفرش تمددت جثث الموتى، وعندما كان الزوج يهلك، كانت المرأة لا تمتلك القدرة على القيام وتفتقر إلى من يقدم لها العون، لذلك كانت تموت لعدم قدرتها على تحمل الرائحة، وكان الولد إلى جانب أبيه، أو العكس صحيح، هلك بالمرض، وتمدد جثة هامدة: «الأطفال يسألون خبزاً وليس من يكسره لهم» (مراثي أرميا: ٤/٤) وكان الرضع معلقون على صدور أمهاتهم وأفواههم مفتوحة وهي تحتضن واحداً من الأموات، ومات الرجال الأثرياء ذوي الحساسية العظيمة من الجوع وسط أكوام من الطحين، وكانت هذه الأطعمة تفتقر إلى ما اعتادوا عليه، وبصعوبة بالغة اشتبهوا البطيخ والتوم، والبصل، والسّمك، والطيور، وفواكه الأشجار والتوابل، وفيهم تحققت نبوءة النبي بقوله: «فيكون عوض الصيادين عصفورة، كجثة مدوسة متعفنة لاتتحد بهم في القبر» (اشعيا: ٢٤/٣؛ ١٩/١٤ — ٢٠)، ولقد هلك في المدينة قرابة الثمانين ألفاً،

وذلك حسبما عرفنا من تقارير الأسرى، وكان ذلك من بداية الحصار حتى نهايته، وذلك باستثناء الذين وجدناهم أصحاء أو مرضى، وكان تعدادهم حوالي الثلاثة آلاف، وثلاثمائة من هؤلاء كانوا هم الأكثر تميزاً بين كلاً الجنسين، وقد جرى الاحتفاظ بهم من أجل فداء أسرائنا، وقد مات بعضهم بعد النصر وجرى بيع آخرين بأسعار مرتفعة، وقسم آخر جرى تسميده واعطائه للمسيح.

الفصل الثامن والثلاثون

وكانت هذه المدينة محصنة إلى درجة عالية، حيث امتلكت سوراً أولياً لحماية الخندق، ثم سوراً ثانياً أعلى، ثم سوراً ثالثاً أعلى من الثاني، وامتلك السور الثاني ثمانية وعشرين برجاً رئيسياً واحتوى كل برج منها من ساترتين إلى ثلاثة سواتر للرماة، وقد بقيت جميعها صحيحة بدون أذى مع الأسوار، فيما عدا واحدة انشطرت بشكل واضح بسبب الرمايات المستمرة التي صدرت عن منجنيق دوق النمسا، ذلك أن جيشنا استسلم للكسل والتراخي حتى أن الفرسان كرسوا أنفسهم للمتعة مهملين عمل الرب، بينما انصرف عامة الناس إلى الحانات، وإلى التعامل بالخداع والحيل، وتمت صناعة سنورين أنفق عليهما مبالغ كبيرة من أجل طم الخندق، وأوكل أمر إحداهن إلى الملك، ووضعت الثانية تحت رعاية الرومان، وقد أحرقتا، عندما كان المدافعون عن المدينة مايزالون أقوياء وقادرين على استخدام السلاح، وجرى حفر نفقين تحت الأرض من أجل لغم أساسات التحصينات، لكن ذلك العمل أعيق بعدما كلف كثيراً، فقد رغب الرب في إعطاء المدينة بلا أذى، وبدون خسارة الذين يستولون عليها، وكان هذا بسبب قوته، وأقسمنا نحن بشكل جماعي على أن الأسلاب التي ستحمل من المدينة ينبغي أن تقسم بين المنتصرين، وأضيف إلى هذا تحريم مهيب من قبل نائب الكرسي

الرسولي، والمعتدون سوف يظلمون ينظر إليهم بازدراء دائم مع عخان الذي أخذ عند أريحا شيئاً مما كان محرماً، وفي الحقيقة جعل شره العبن كثيراً من الرجال لصوصاً، ومع هذا تلقينا لصالح الدولة وتسلمنا جزءاً كبيراً من منتجات مصر الثمينة من ذهب وفضة ولآلىء، وتفاح العنبر، وخيوط ذهبية، ومختلفة أنواع الشراريب وأقمشة حريرية ثمينة، مثلما عدد أشعيا وأحصى بقوله: «ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والصفائر والأهلة. والحلق والأساور والبراقع، والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والأحرار. والخواتم وخزائم الأنف. والثياب المزخرفة والعطف والأردية والأكياس. والمرائي والقمصان والعمائم والأزر» (أشعيا: ١٨/٣ - ٢٣)، والأشياء التي أخذت لا يمكن لإنسان أن يحصيها كاملة، ونحن نبدد وقتاً طويلاً في تقديرها، ووزعت هذه الأشياء وسط جيش الرب مع القمح الذي وجد في المدينة.

الفصل التاسع والثلاثون

ألقى نائب الكرسي الرسولي دمياط، مع كل ما هو متعلق بها بمملكة القدس إلى الأبد، وجرى تحويل مسجد دمياط من خلال تضرع الثالث المقدس الذي لا يعرف الانقسام، إلى كنيسة كرست على اسم العذراء مريم المباركة والرائعة، وبما أنه بني على شكل رباعي، كان بإمكاننا أن نرى أن عمقه يساوي تقريباً طوله، وهو محمول على مائة وواحد وأربعين عموداً رخامياً، وقد امتلك سبعة أروقة، وهناك في الوسط ساحة طويلة وعريضة مكشوفة، فيها هرم له في أعلاه شكل قبة مفتوحة، وفي الطرف الغربي هناك برج قائم على شكل الأبراج التي تحمل النواقيس، وقد بني فيه أربعة مذابح، وحمل المذبح الأول اسم مريم المباركة، وحمل الثاني اسم بطرس أمير الحواريين، وحمل الثالث اسم الصليب المقدس، وحمل الرابع اسم بارثلميو المبارك، الذي جرى يوم عيده الاستيلاء على البرج

القائم وسط النهر.

ووجدنا في دمياط أربعة مجانيق مع عرادات وعدد كبير من المجانيق العادية، وآلات قاذفة قوية جداً مع مخرطة، وبسبب تعداد الحشد الكبير لم نعرف عدد العرادات والأقواس، فقد كان هناك كل نوع من أنواع المعدات للرجال الشجعان، قد وجد محفوظاً من أجل الصليبيين، ولم يقسم الذهب والفضة والمجوهرات والأشياء السهلة النقل على شكل حصص فقط بين رجال الدين والفرسان، بل بين الخدم، والنساء والأطفال، وجرى توزيع أبراج المدينة مع بيوتها بين الممالك التي احتشد مقاتلوها من أجل الاستيلاء عليها، واحتفظ في المقام الأول بأحد الأبراج، بحكم الواجب واللياقة، لصالح الكنيسة الرومانية مع بابه الذي كان يدعى من قبل باب القاهرة، غير أنه بات يعرف الآن باسم باب الرومان، واحتفظ ببرج آخر لصالح رئيس أساقفة دمياط، ومثلما حدث من قبل حيث جرى الاستيلاء على القدس، المدينة المقدسة للرب الحي، من قبل الأعداء في الليل، هكذا أيضاً استولى الصليبيون على دمياط قبل الفجر، أما بالنسبة للآلة التي تمّ بوساطتها الاستيلاء على برج النهر فقد كرسها الألمان والفرزيون لصالح الجميع، ومنها تمت إقامة جسر جديد بين المدينة والحصن الذي بني كدفاع على ضفة النهر المواجهة للمدينة، وجرى وضع حصنين صغيرين مع بعضهما لحماية البرج، بوساطة الآلة نفسها، وإلى جانب هذا أقيم من الأشجار الأخرى التي عُلقت عليها السلام، مكان مراقبة على ذروة حصن جديد، من أجل تبيان مكان الميناء للذين كانوا يأتون مبحرين من مسافة بعيدة، وكان هناك جسر قديم، أمكنه بوساطة جزيرة قائمة في الوسط، من ملامسة كلا الضفتين، وقد هوجم مرات عدة من قبل المسلمين أيام الحصار، وتمت المدافعة عنه برجولة من قبل الصليبيين، أما الآن وقد قام بما توجب عليه، فقد احتفظ به لاستخدامات أخرى.

الفصل الأربعون

بمعجزة لم تكن أبداً أدنى، بل بالحري أعظم من سواها، أعطى الرب إلى الصليبيين حصن تنيس، في شهر تشرين الثاني، في يوم عيد كليمنت المبارك، (٢٣ — تشرين الثاني)، وكان هذا الحصن قائماً على البحر، فقد جرى إرسال كشافة كان عددهم قرابة الألف بوساطة سفن صغيرة، خلال نهر صغير يدعى نهر تنيس، وذلك بقصد أن يجلبوا ميرة لأنفسهم من القلعة، وليقوموا بكل عناية بتفحص الموقع المشار إليه، ورأى المسلمون الذين كانوا في حامية الحصن، الصليبيين فخيّل إليهم أن الجيش كله قد جاء، لذلك فروا بعدما أغلقوا الأبواب، أما رجالنا الذين كان المسيح هو قائدهم الوحيد هناك، فقد شقوا طريقهم بين الخواجز ودخلوا إلى الحصن، وبعد عودتهم أعلنوا لنا أنهم لم يشهدوا قط حصناً قام على سهل أقوى منه، فقد امتلك سبعة أبراج قوية جداً، محصنة بشرافات وطلاقات، يضاف إلى هذا أنه كان محاطاً بخندق مضاعف، كل قسم منه كان محمياً بوساطة سور، وكان هناك بحيرة تمتد بشكل عريض حول تلك المنطقة إلى حد تجعل من غير الممكن بالنسبة لخيالنا الوصول في الشتاء، وصعب جداً في الصيف، أي أنه كان من المستحيل بالنسبة لجيشنا الاستيلاء على هذا الحصن بوساطة الحصار، وحوت البحيرة وفرة من الأسماك، وكان يدفع من صائدي سمكها كل سنة أربعة آلاف مارك فضي إلى السلطان في القاهرة، وذلك حسبما جرى إخبارنا من قبل الشيوخ، يضاف إلى هذا، كانت هناك وفرة وفيرة من الطيور، وأعمال لاستخراج الملح، وعدد من القرى المحصنة منتشرة هناك تابعة لهذا الحصن، وكانت المدينة خلف الحصن، أكبر من دمياط، وكانت من قبل مشهورة، لكنها الآن مخرّبة، في ثناياها شهادة على حجم أبنيتها، فهذه هي تنيس التي ذكر النبي حقلها بقوله: «قدام آبائهم صنع

أعجوبة» [المزامير: ٧٨/١٢] وقول اشعيا: « إن رؤساء تينيس حكماء مشيرى فرعون» [اشعيا: ١٩/١١/١]، فهذه هي تينيس التي قيل بأن إرميا قد رمى بالحجارة فيها، لأنه عندما دمرت القدس من قبل البابليين [ارميا: ٥٢] وجرى قتل جدليا من قبل اسماعيل [ارميا: ٤١] ذهبت بقية الناس إلى مصر في معارضة لرأي إرميا، وأخذوا معهم إرميا الذي مكث في تينيس معهم: « وصارت كلمة الرب إلى إرميا في تينيس قائلة: خذ بيدك حجارة واطمرها في الملاط في الملبن الذي عند باب بيت فرعون» الخ. [إرميا: ٤٣/٨-٩] وقال إرميا بعد هذا لهم: « قال الرب: ها أنذا قد حلفت باسمي العظيم... فيفنى كل رجال يهوذا الذين في أرض مصر بالسيف والجوع حتى يتلاشوا» [إرميا: ٤٤/٢٦ - ٢٧]، وثار الشعب ضد إرميا، ورموه بالحجارة التي كانت مخبأة تحت الجدار الآجري، لكن المصريين شرفوا النبي ودفنوه خلف قبور ملوكهم، ذلك أنهم كانوا مقدرين للمنافع التي أظهرها لمصر، لأنه بكلماته أبعد حيوانات الماء التي يطلق عليها الاغريق اسم التماسيح، ثم كان أن جاء الاسكندر المقدوني إلى قبر هذا النبي، وتعرف عليه من خلال الطيفية الخاصة

للمكان، والأسرار المحيطة به، ونقله الى الاسكندرية، ودفنه هناك وسط تمجيد عظيم، هذا ولقد وجدنا تماسيح في دمياط وقتلناها، وهذا الحيوان متوحش يفترس الناس والحيوانات، ويعتني ببيضه ببساطة بمراقبتهم بأعين مفتوحة، وما أن يفقس صغيرها حتى يفر من أبويه وكأنهم عدوين، ذلك أنه يلتهم على الفور ويفترس أي شيء يمكنه امساكه.

وتنفصل تينيس عن دمياط بمقدار رحلة يوم واحد عبر البحر باتجاه أرض المعياد، لذلك من السهل وضع حامية عسكرية هناك أو إرسال طعام إليها من عكا أو من دمياط عبر البحر، أو عبر البر أو بواسطة النهر، وقد سببت الحاق خسائر عظيمة بالصليبيين أثناء حصار دمياط، عندما كانت السفن تأتي إلينا، أو تبتعد عنا محمولة بقوة

الرياح، لأن الشاطئ أمام تنيس منحني وبدون ميناء، عاملاً بذلك خليجاً كاملاً واسعاً، وعندما كانت السفن تقذف إليه كان لا يمكنها الانسحاب من دون هبوب رياح موافقة جداً لهم.

الفصل الحادي والأربعون

وعاد المعظم عيسى من مصر إلى فلسطين، فتولى حصار قيسارية، التي كانت تحت وصاية الملك، واستولى عليها في وقت قصير ودمرها، بينما عمل المدافعون عنها بإهمال، ومع هذا فقد نجح معظمهم لأنه توفر لديهم مدخل حر ومخرج عبر البحر، ثم سار بعد هذا إلى قلعة ابن الرب (تل الصافية) ومعه جميع جيشه، وطوقها من جميع الجهات، ثم أدرك بذلك أنه لا يمكنه الاستيلاء عليها، يضاف إلى هذا، لقد وجد الداوية على استعداد لمواجهة كل خطر، ذلك أنهم كانوا قد أمدوا المعسكر بالميرة وبجميع المعدات التي يحتاجها الرجال الشجعان، وبالوقت نفسه صد الداوية بشجاعة عصابات المسلمين من عكا، بقتل بعضهم وأسر آخرين، وطلب المعظم عيسى المساعدات من المسلمين، حتى إذا جنأوا من الشرق يمكنهم حصار عكا، وهذا أمر لم يكن يمكن انجازه بسبب الخلافات المستمرة بين أمراء تلك البلاد أنفسهم، وهذه الخلافات كانت مفيدة جداً للصليبيين، وهي خلافات بذل الخليفة—وهو باباها—جهده لإنهاءها.

الفصل الثاني والأربعون

في سنة ١٢٢٠ للتجسيد في العالم، قام أمير دمشق بتدمير صافيتا، (٨٧) وكانت صافيتا هذه أقوى الحصون التي يمتلكها الداوية، وكان صلاح الدين مدمر الصليبيين الأول قد أوصلها أثناء حصاره لها إلى حالة من

الضعف بحيث أن المدافعين هلكوا من الجوع، وقد حصلوا على إذن مقدم جيش الداوية بالقيام بتسليمها الى هذا الطاغية، وأي صوت وأي لسان يمكنه أن يكرر لنا منافع مخلصنا المتراكمة من أجلنا؟ وهي منافع صادرة عنه هو الذي امتلك الجودة والرحمة الطبيعية، وكذلك الاستمرار في مساعدة الكنيسة، فقد اقتنع بأن ينظر بعين لطيفة نحو معسكر المؤمنين، بسبب حلاوة تقواهم وإيمانهم، فالتضرع يلففه، والدموع تجبره، وكيف يمكن ليد كاتب أو لسان متكلم أن يكون كافياً بالنسبة له، لأن مدحه هو شعور مستقر في القلب تماماً، ومع ذلك هو لا يكفي؟ وعلى كل حال إنه لأمر ممتع أن نجمع، وأن نعجب بالمعجزات التي صنعت في وقت قصير من قبل الذي نزل من أبي الضياء، وكان بنو اسرائيل قرييين، يتجولون مع تابوت الرب وهم يضربون بالأبواق ويصرخون، وفي اليوم السابع تهاوت أسوار أريحا، وهكذا كان بإمكان شعب الرب أن يمتلك مدخلاً حراً، لكننا نمنا أمام دمياط واستولى علينا الجبن والاهمال، وجلسنا بلا حراك وتراخينا وأسلمنا أنفسنا للكسل، ومع ذلك سقطت أسوار القدس، وأسوار جبل الطور، وصافيتا والتحصينات الأخرى المضادة، والقائمة بطريقة معادية، يضاف الى هذا أن الرب في علينا، أعطانا دمياط، ضد ارادة بعض المسيحيين المزيفين، والى هذا أضف من مخزن كرمه حصن تنيس الذي لا يرام، مع موارد مؤنه الموجودة في البلاد المعادية، فهو الذي أنزل المن من السماء على المؤمنين به في الصحراء، ولهذا واضح للجميع، من خلال برهان المعجزة أن هذا الحج المقدس قد حظي برضا الرب وقبوله، وليصب بالحنن والحنن الذين تسلموا جوائز الملك الأعظم من كنيسته، وقاموا بالقتال بلا مبالاة، أو تراجعوا قبل الوقت المحدد، فأفسدوا حجهم، فهم سوف يقدمون حساباً الى القاضي الذي لا يمكن أن يغش أو يرثي، وعلى الكسالى القيام والنهوض، وأعني هنا الذين لم ينفذوا تعهداتهم بعد، لأنه «شرك للانسان أن يلغو قائلًا مقدس وبعد النذري سأل» (الأمثال: ٢٥/ ٢٥) فما هو

التسويغ الذي سرف يقدمه يوم الحساب والويل هذا للذي سرق جهد الآخرين وعملهم، وقتل النفوس التي أعطاها دعاة الحق الحياة، والذي اهتم بشره، وانتزع شارة الصليب من على أكتاف التعساء، الذين جعلهم يحنثون بعهودهم؟ وعليهم أن يعودوا الى الحكمة هؤلاء الذين اتهموا بهذه الجريمة، وأديننت ضمايرهم، لأنهم ادعوا زيفاً أسباباً للفقر والعجز، فقد خدعوا دين الذين امتحنوا، فقط لأن حكم الرب يكون تبعاً للصدق، لكن الذين التهموا المساعدات التي جمعت من أجل عون الأرض المقدسة، سوف يهلكون وسيكون نصيبهم مع حنانيا وسفيرا (أعمال الرسل: ٥/٩) لأنهم أخفوا ذنوبهم بالكذب أمام روح القدس، وسوف يكونون أيضاً مع يهوذا، أعظم اللصوص شراً، وهو الخائن للرب، وسيعاقبون في جهنم، لأنهم مع خيانتهم للمسيحية، احتفظوا لأنفسهم بأعطيات الرجال المقاتلين، وأعطوا نفوسهم لأشياء زائلة، وجعلهم الجشع يسرقون، ناسين أننا القدس، الممددة على الأرض، وكلها رغبة بأن تنهض من أسرها بيد المصريين العائدين الآن، كوني مطمئنة «يامدينة الرب» لأن أما سوف تأتي إليك من أماكن نائية، وهي تحمل الأعطيات، وسوف تعبد هذه الأمم الرب فيك، وسوف يلعنون الذي يزدريك، وسوف يدينون الذين دنسوك، فالمباركون سوف يبنوك حتى تبتهجي، وأنت لسوف تبتهجي، بأولادك، ومبارك كل الذين يحبوك، ولسوف يبتهجون بسلامك.

الفصل الثالث والأربعون

وحدث أثناء تبدل السنة عندما ينطلق الملك بالعادة الى الحرب، أن جون ملك القدس غادر معسكر المؤمنين (٨٨)، واخترع الكثير من الأسباب ليسوغ عمله، ووعد بعودة سريعة، لكنه كان ناسياً للماضي، وقد تحول نحو المستقبل، وعندما فتح المولى يده وملاً ميناء دمياط بوفرة من

القمح، والخمرة، والزيت، وعندما أضيف لنا أعداد كبيرة من مجموعات الحجاج والخيول، ولم يعد هناك أرضية لتقديم الأعداء من أجل الانطلاق نحو العمل الذي بدأ هكذا بسرور ، ووصل في العبور السادس رئيس أساقفة ميلان (٨٩) وكريت، وأساقفة فينزا (٩٠) Faenza ورغيو (٩١)، ورسل من عند الملك فردريك، يحملون رسائل عليها أختام ذهبية، وهي تعلن عن وصوله، وحضر هناك أسقف بريشيا (٩٢) Brescia ، وجيش كبير جداً من إيطاليا، ورأى النائب البابوي أنه بفضل امتيازات النعمة العظيمة والوفرة الربانية بات كل شيء كافياً للقيام بإجراءات المناقشات حسب المتطلبات، وأصيب بالحزن والأسف لأن الوقت كان يمر بدون فائدة، وأن فرصة عظيمة جداً قد ضاعت وبناء عليه، استدعى القادة إلى الاجتماع، وكان هو أول المتحدثين، ومن بعده رئيس أساقفة ميلان، وكذلك مثله الأساقفة الآخرون، فلقد بذلوا جميعاً غاية الجهد للحث على القيام بزحف ضد السلطان الذي أقام معسكره على النيل، على مسافة يوم واحد من دمياط، لكن الفرسان تحدثوا ضد هذا التحريض، وجاء ذلك بعدما عقدوا اجتماعاً للمناقشة والبحث، وادعوا أن السبب الأول بالنسبة إليهم هو أن ملك القدس كان بعيداً بناء على اختياره الشخصي، وأنه لا يوجد أمير آخر، الناس من مختلف الأمم على استعداد لطاعته في أن يقود شعب الرب، ولهذا اتفقوا على عدم التحرك، الأمر الذي سبب مضاعفة الشرور في المعسكر.

الفصل الرابع والأربعون

جاء في شهر تموز الكونت ماثيو أوف أبوليا (٩٣)، مع ثمانية غلايين، عاد اثنان منهم إلى القرصان، وقد تم الاستيلاء عليهما لأنها كانا يهددان المسيحيين أثناء السفر في البحر.

الفصل الخامس والأربعون

على التهور البشري والاندفاع الطائش أن ينجل، لأنه يعتمد على قواه الخاصة أو على قوى الآخرين، ومن الواضح أنه غالباً ما كان مخزياً، ولقد ظهر هذا في قضية الكونت المتقدم الذكر، فلقد أعلن تقرير متقدم عن وصوله، وذلك بوساطة أخبار متواترة، وبها أن المناقشات كانت ستسير فقط من خلاله أعيق تقدمها بوساطة ظروف دعت إلى التأخير، لكن ذكريات مثل هذا الأمل العظيم تلاشت بقوة صدمة، ولم يكن مرد المسألة إلى الكونت أن الأمل لم يتحقق ويصل إلى النتائج المرجوة، لأن ارادته—حسبما شهد النائب البابوي—كانت عالية، والتجهيزات التي جلبها والتي أضافها فيما بعد ظهرت أنها رائعة بالنسبة للجميع وكاملة وفقاً للمعرفة العسكرية، يضاف إلى هذا أنه أقام إقامة نافعة في الجيش وموائمة لوضع جنود المسيح، وكان بعدما وصل إلى دمياط عمل النائب البابوي مشاورات وتقصى ليعرف أي الأمم كانت وقتذاك في المعسكر تمتلك الحماسة الأعظم، كما وتشاور مع الكونت ماثيو نفسه، الذي بدا بالنسبة له أن الزحف ضد ملك القاهرة هو الأكثر فائدة، ثم دعا بعد ذلك أمراء الحشد وقادته، وخاطبهم بشكل علني وحث الناس الكسالى على النهوض إلى العمل والاقلاع عن التراخي والإهمال.

لكن القادة، وخاصة الفرنسيين منهم تحدثوا ضد تحريضه الشريف، وتمكنوا من التأثير على الإيرل أوف أرندل Arundel وأقنعوه للقيام بإعاقه اقتراح النائب البابوي وكان هذا الإيرل قائداً بين الانكليز ومن أعظم النبلاء مكانة بين الألمان، وكان من بين الأسباب التي تمسكوا بها غياب الملك جون، وغالباً ما احتجوا بذلك، فهو قد تصرف بشكل مضاد للاتفاقية التي أبرمت في عكا، عندما كان الحجاج على وشك الإبحار إلى مصر، فقد تعهد وقتها أنه لن يتخلى عنهم ويهجرهم مادام

حياً وحرراً، وخلافاً لهذا الاتفاق المهيّب والمؤكد عاد الى عكا، ولم يخضر للمشاركة في أعمال الصليبيين، بل حضر نفسه وقام بالسفر الى أرمينيا (٩٥)، وقد قيل بأنه قصد تولي حكم تلك المنطقة، لكن أماله تبددت، ولم يستقبل من قبل بارونات أرمينيا، وحدث في الوقت نفسه أن توفيت الملكة، مع الابن الصغير للملك، كما أن روبين أمير أنطاكية، أراد أيضاً الحصول على هذه المملكة، لكن الجاثليق، وكان زعيم تلك الأمة، قام بكل قوة بحصاره في مدينة طرسوس، ثم أخذه أسيراً، وتوفي هناك، وآثر الجاثليق الآن الابنة الصغرى للملك ليون (٩٧)، التي كان أبوها قبل موته قد جعل أمراء المملكة يقسمون على الولاء لها، ثم مات بعد ذلك بوقت قصير.

الفصل السادس والأربعون

وبعد ما قام النائب البابوي بعدة أعمال حث وتحريض عامة، حزن كثيراً لرؤيته جيشاً كبيراً بهذا العدد مقيم ولا يريد التقدم، بل يريد العودة في عملية العبور المقبلة، وقام أخيراً بضرب مثل بعمله حيث شرع يحث الناس على الالتحاق بحاشيته وأمر بخيمته فنصبت في مكان منبسط، ومع ذلك فإن معارضة القادة هي التي سادت الى درجة أن بعض الغاليين والألمان، من المرتزقة الذين قبلوا المال منه، قاموا بإعاقة خطته بالتقدم، وقد تم جرمان بعضاً منهم، وكان من المقرر حرمان آخرين فيما بعد لكن هؤلاء انزعجوا واضطربوا وأرغموا على إعادة المال الذي قبضوه وقبلوه وفقاً لتوزيع الوقت، وقام الجنود الايطاليون بأمل كاذب بخداع الحماسة الدينية لدى النائب البابوي، وذلك بعدما وعدوا بتقديم العون للزحف، لكنهم كانوا مثل بني « أفرايم النازعون في القوس الرامون انقلبوا في يوم الحرب » (مزامير: ٧٨ / ٩) ، لأنهم بينما كانوا يقدرين بوضوح اصرار النائب البابوي، والجرأة الكامنة في الزحف ضد

السلطان، قاموا بالموافقة والاتفاق مع المنشقين المتقدم ذكرهم أعلاه، وعارضوا الزحف، مع أن الصليبيين لم يكونوا يعانون من نقص بوفرة الجند والأتباع، وكانت الغلايين كثيرة جداً، وجرى إعداد البراكيس، وكان هناك حشد هائل من الرماة، كما توفرت كميات كبيرة من المؤن، وكانت موضوعة هناك في مكان مناسب بين النهر من جهة اليمين والبحيرة من جهة اليسار، وكأنما الرب كان يقول لنا: «ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له؟ لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً؟»، ذلك أنه بالاضافة الى الأشياء الأخرى التي أمدنا بها الرب للقيام بالحملة، سمعنا من كشافتنا، أنه كان لدى ملك مصر القليل من العون، وأن حشداً كبيراً من البداية قد التحقوا بنا، وهم على استعداد لتقديم زوجاتهم وأولادهم بمثابة رهائن، اذا ما علموا بأن الصليبيين قد قرروا القيام بالحملة برجولة، فهذا ما علمناه من رسائلهم ومن خلال رسلهم، ويبدو أن هذا كان ممكناً لأنهم كانوا خاضعين لدفع الجزية للسلطان، وفي الحقيقة كانوا هم من قبل قد تولوا حكم ديار مصر، حتى أخضعوا بالقوة من قبل صلاح الدين، وجرى تفريقهم في خلال قفار الصحراء.

الفصل السابع والأربعون

وانسحب النائب البابوي الى المعسكر السالف، وذلك بعد كثير من المتاعب، ولأنه واجه أتباعاً غير راضين وموافقين، ثم بشكل خاص بسبب فيضان النهر، وقام بقوة بحث صانعي التأخير، وفعل ذلك من خلال قداس عام، وأعلن أن عمل الرب طالما بدأ بداية سارة ينبغي ألا ينتهي، وأن عليهم الحكم على أنفسهم خشية أن يدانوا بقسوة من قبل قاضي الأشياء السرية.

الفصل الثامن والأربعون

مامن أحد يمكنه أن يصف فساد جيشنا، بعدما أعطانا الرب دمياط، وأضيف إليها حصن تنيس، فقد بات الناس كسالى، مخثنين، تدنسوا بأعمال المهاجع والسكر والفسق والزنا والسرقة، والربح الشرير، وبعد (٩٨) هذا قام بعض رجالنا بزحف يوم واحد داخل الأراضي العدو، وعادوا معهم أسرى، وجواميس، وخيول، ثم قام الداوية مع أتباعهم خاصة بزحف سريع نحو بلده قائمة على شاطئ البحر (إلى الغرب من دمياط) واسمها البرلس، وجلبوا معهم بعض الأسلاب فيها حوالي المائة جمل، وعدد مع الأسرى، وخيول، وبغال، وجواميس، وحمير، وماعز وملابس، مع كثير من الاثاث المنزلي، وعادوا دون التعرض الى الاذى، بعد غياب دام يومين، وعلى كل حال، مات على الطريق بسبب نقص الماء كثير من الخيول والبغال مع أن الرجال عادوا سالمين، واستقبلهم فرسان التيوتون مع آخرين بكل سرور، لكن عندما تخلفوا وراء الداوية (لسبب غير معروف تماماً)، قام الفرسان الأتراك السريعين بهجوم عليهم عند البحر، وهرب الناس من الأمم مرعوبين من حولهم، لكن الانكليز والفلمنكيون و التيوتون، وروبرت أوف بلمونت (٩٩) Belmont أخذوا بالصمود بوجه الهجوم عندما وصل المهاجمون إليهم، وتم أسر معلم بيت الفرسان أنفسهم ومقدمهم مع عدد كبير من الفرسان، وحوالي العشرين من الفرسان غير الرهبان، وقتل عدد كبير من خيول الذين هربوا للدفاع عن أنفسهم، لأن رجالنا كانوا قد خرجوا ليس من أجل القتال بل لاستقبال الداوية، ولهذا كانوا بدون رجال القسي العقارة والرماة الآخرين.

الفصل التاسع والأربعون

وصل في شهر آب الى دمياط أربعة عشر غليوناً مجهزة، وكانت مرسله من قبل دوج البندقية (١٠٠)، الذي جلب بعض المساعدة الى الصليبيين، وسلح بالوقت نفسه ملك مصر ثلاثة وثلاثين غليوناً، سببت لنا خسائر لا تقدر، لأن رجالها استولوا على سفن التجار، مع الرجال أنفسهم، الذين كانوا جالين ميرة الى دمياط، لابل لإنهم أخذوا الحجاج أسرى، ونهبوا السفن وأحرقوها، بالإضافة الى ذلك هاجموا سفينة كبيرة كانت جالبة الكونت هنري أوف سكورن Schwerin مع نبلأ تيوتون آخرين كانوا قادمين إلينا، وعلى كل حال، لقد دافعوا عن أنفسهم برجولة، وبعدما قتلوا وجرحوا عدداً كبيراً من القراصنة، لحسن الحظ نجوا، مع أنهم خسروا مركباً واحداً عائداً بملكيتة الى بيت التيوتون، وكان هذا المركب محملاً بالشعير، وقد أتلقت النار الإغريقية هذا الشخير.

الفصل الخمسون

نحن مرغمون هنا على اقحام رواية حول مصيبة، فقد كان الكونت ديثر أوف كاتزنلنبوغن (١٠٢) Diether of katzenellenbogen، قد تركنا قبل حلول وقت العبور مع حشد كبير من الحجاج، مع أنه خُرض بشدة، وتم حثه من قبل السيد نائب البابا حتى لا يقوم بركوب تلك السفينة إذا ما رغب بالذهاب الى سالونيك، بل أن يذهب في مركب أصغر مع عدد قليل من الرجال دون أن يضعف الجيش، لكنه مع قبطان السفينة وعدد كبير من الحجاج ركبوا رؤوسهم، وقاموا بالرحلة، ولهذا قام نائب الكرسي الرسولي بإنزال عقوبة الحرمان بتلك السفينة الملعونة مع جميع المبحرين عليها، وقد وقعت السفينة بين القرصان قرب

قبرص، وأحرقت، وعلى كل حال نجا الكونت من غرق السفينة، وسبح مع عدد قليل من الرجال.

الفصل الحادي والخمسين

وطلب من غلايين البنادقة والآخرين الاسراع بالاقلاع بدلاً من التأخر في ميناء دمياط، وقد ذهبوا الى رشيد ثم الى الاسكندرية بعدما عانينا من الحسائر على أيدي المسلمين وفق الطريقة التي أتينا على وصفها قبل قليل.

الفصل الثاني والخمسون

ولما علم المعظم عيسى انعدام نشاطنا، جمع جيشاً من سورية، وأكمل تدمير أسوار القدس، مدينة الرب الحي، مع أنها دمرت من قبل، ودمر الصهاريج التي كانت قد ملئت من قبل، وكان في المدينة أعمدة رخامية فحملها الى دمشق، وزحف من خلال الجبال والحقول في فلسطين فأفسد الأشجار الحاملة للفواكه والأعنان، وعرف الداوية أنه يود القيام بحصار قلعة ابن الرب، لذلك بدأوا في أعمال تهديم برج عثليت في القسم العلوي، لكنه عندما وصل الى هناك فيما بعد، دمرها وسواها بالارض وقطع أشجار الحديقة التي كانت مقامة أمامها، ثم قام أخيراً بمخاصرة القلعة مع حشد كبير من الأتراك، حيث امتدت خطوط خيمهم من النهر حتى أماكن استخراج الملح، ولقد تصرف بهذه القسوة المتناهية صدوراً عن حقيقة معرفته أن العبور السابع الذي سيكون في حوالي شهر تشرين الأول سوف يكون صغيراً، ذلك أننا كنا نعتقد أنه لن يقدم الى عوننا سوى أقل من مائة جندي مع معدات عسكرية وخيول، لكن حشداً كبيراً من الناس من أهل عكا قدموا الى دمياط، ولقد أخرجوا من ديارهم

بسبب الحرمان الصادر عن الكنيسة، وقد سمح لقسم من هؤلاء بالعودة، وهم الذين كان فقرهم معروف بالنسبة إلينا، وعاد آخرون من دون أذن، ليزيدوا من دمارهم الذاتي، وكان هناك آخرون عادوا الى ديارهم بعدما حصلوا على الأذن من خلال الغش، وكانوا قلة هم الذين امتلكوا ميولاً عقلانية، وبالتالي بقيوا معنا في المنفى.

الفصل الثالث والخمسون

وألقى المعظم الحصار، ونظراً لأنه كان يخشى من هجوم من المعسكر، أمر بإنشاء حاجز دفاعي بين الحصن وخيامه، ووضع آلة قذف، وثلاث عرادات وأربعة مجانيق، تولت مضايقة التحصينات وقتالها ليلاً ونهاراً بواسطة قذائف الآلات، ومع هذا لم يستطع زحرحة حجر واحد من مكانه في الأبراج الجديدة وفي السور الوسطي (الفصيل)، وتمكنت آلة قذف المعسكر مع عرادات ومنجنيق أقيما الى جانبها من قذف وتدمير عرادات وآلة قذف العدو، وكان زد على هذا في بيت الداوية أربعة آلاف مقاتل يتناولون الطعام يومياً، فيما عدا الذين يطعمون على حسابهم ذلك أنهم جاءوا من عكا للدفاع عنا أو ليعنا ميرة، وطلب النائب البابوي بسرعة ملكة قبرص (١٠٣)، والصليبيين، وبارونات سورية، واستدعاهم بوساطة الرسل والرسائل، لتقديم العون لحصن الصليبيين، ونال مقدم (١٠٤) الداوية مع جيش مجرب من الداوية الأذن من النائب البابوي بالعودة إلى القلعة بسبب الحاجة الملحة، وأن يستعد للقتال مع المعظم عيسى، وجلب رجال قبرص كثيراً من الجند والمال، وكذلك أعدّ بوهموند (١٠٥)، وصاحب بيروت (١٠٦)، وغي صاحب جبلة (١٠٧)، مع عدد آخر من البوليان أنفسهم بسرعة لتقديم العون، وعندما علم المعظم بهذا من خلال اليزك وبعض الخونة الصليبيين أصيب بالرعب، وبدناءة انسحب

من الحصار، وقد عانى من خسائر كبيرة على أيدي الذين كانوا في القلعة، وكانت خسائره في كل من الرجال والخيول، ومثله مثل رجل متفاخر وأرعن هدد بأنه سوف يستولي على القلعة بوساطة الحصار الطويل، غير أن القوة الإلهية أرغمته على التراجع بعدما أحرق معسكره، وكان ذلك في حوالي بداية تشرين الثاني.

وكان الآن عدد كبير من المدافعين عن القلعة قد أصيبوا بالجراح وقلة منهم ماتوا، علّ العلي القدير يتولى حماية بيته، الذي بني من أجل تمجيد ابن الرب، ولكراهية المسلمين، ولكن لمحبة المسيحيين، ذلك أنه خط الدفاع عن مدينة عكا، يارب اجعل حفظ الملائكة ودفاعهم فوق أسواره: « إلى انقضاء الدهر » (متى : ٢٨ / ٢٠) ذلك أننا بالفعل « نمتلك الايمان والثقة بالرب يسوع ». (انظر افسوس: ٣ / ١١ - ١٢) لأنه وهو الذي بدأ بتدمير أعداء الصليب مشابر على اظهار نعمته، ولسوف يتم ذلك في الوقت الذي يرضاه ويسره، فنحن الآن قد أدركنا بعض البراهين على وجود الانتقام الرباني، فلقد علمنا من كشافتنا، ثم رأينا بوضوح في ساحة القتال عدداً كبيراً من الجثث كانت مبعثرة هناك، وكان بينها جثث ثلاثة أمراء قتلوا هناك، مع مائتي مملوك، كانوا من أبرع الناس في استخدام السلاح، ولم يتوفر لدينا احصاء بعدد رماثهم مع الذين تولوا جرهم مع آلاتهم، والذين قتلوا بواسطة رماة الجروح من رجالنا، ولم يقل تعداد هؤلاء عن الثلاثمائة، يضاف إلى هذا أنه قتل في أحد الأيام مائة وعشرين فرساً لها أثمان عالية جداً، كان بينها واحداً شري بمبلغ أربعة عشر ألف درهم، وكان السلطان الأشرف ابن العادل، سلطان حلب قد أرسله هدية إلى أحد الأمراء، يضاف إلى هذا عانى المسلمون من خسائر كثيرة أخرى بالخيول (١٠٨) وبالجمال.

الفصل الرابع والخمسون

جرى في شهر تشرين الثاني، تنويج المولى فردريك ابن الامبراطور هنري (١٠٩) في روما من قبل البابا هونوريوس، وذلك وسط أهبة عظيمة للدولة ولرجال الدين، وبوفاق وسلام مع الرومان، ثم إنه جمل شارة الصليب، واستعد للذهاب لمساعدة الأرض المقدسة، وأرسل أمامه دوق بافاريا (١١٠)، الذي وصل إلى دمياط في سنة ١٢٢١، في العبور الثامن مع أسقف باسو (١١١) Passau، ومركيزبادن (١١٢) Baden، والكونت غي أوف بريين (١١٣) Brienne، مع نبلاء آخرين، وكان الوصول في شهر أيار، وأوكل الامبراطور منصبه إلى هذا القائد حتى يتولى عبور البحر شخصياً، ووقتها شرع نائب الكرسي الرسولي في تقدير موائمة الوقت، لذلك قام بالتباحث مع الدوق حول شؤون الحرب، الأمر الذي من أجله قد بقي في مصر، وبالإضافة إلى الدوق المتقدم الذكر أثار موضوع وجوب قيام حشد المؤمنين بالهجوم على معسكر السلطان، وذلك قبل أن تفيض مياه النهر حسبما هي العادة، وبناء عليه وعلى خطة أعدها جميع البارونات والفرسان وعامة الناس، بدأنا في إعداد الخيم ونصبها في أعالي النهر فيما وراء المعسكر، وكان ذلك في شهر حزيران، في يوم عيد القديسين بطرس وبولس (٢٩ - حزيران)، ولقد عرفنا من خلال ما ذكره أسقف بوفياس المنتخب والآخرين الذين كانوا بالأسر، ومما رواه عدد كبير من الناس، أنه لولا أن تتم اعاقبة النائب البابوي بوساطة المعارضة التي أبدأها أولئك الذين ذكرناهم أعلاه، ولوجرى تنفيذ أوامره بالزحف ضد السلطان قبل أو بعد فيضان النهر، لكانت مصر قد سقطت وصارت من نصيب الصليبيين، لأن قادة مصر كانوا في ذلك الوقت على خلاف مع السلطان، وتصرف المصريون الآن مثل راحاب القاهرة، التي التمت لطف الرب لشعبها ولها شخصياً، ولييتها (انظر

يشوع: ٢)، فقاموا بارسال الهدايا والأعطيات إلى اسرانا الذين لديهم في القاهرة، وترجوههم لعلهم يحصلون بوساطتهم على الرحمة على أيدي الصليبيين المنتصرين، وبدأ النائب البابوي في اليوم الثالث من عيد الرسول أوكتاف Octave (٦- تموز) صوم ثلاثة أيام، ثم إنه جمع رجال الدين والأساقفة ورؤساء الأساقفة وحمل وهو عاري الأقدام راية الصليب المخلص والحامي، في مسيرة فيما وراء دمياط إلى المعسكر القائم حيث يرتفع النهر، وعاد الملك جون في اليوم التالي إلى دمياط، جالِباً معه عدداً كبيراً من الأتباع.

الفصل الخامس والخمسون

قال الرب: «أنا سوف أبدأ وأنا سوف أعمل النهاية، انتبهوا أنا سوف أعمل كلمتي، وكل من سيسمعها سوف تطن أذناه» (الملوك الأول: ٣/ ١١-١٢)، سلطاني هو في ممالك الرجال: «قائلاً رأيي يقوم وأفعل مسرتي. لأنه من مثلي ومن يحاكمني؟ لأنه ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة تجاه الرب، وإن العالم كله أمامي مثلما ترجح به كفة الميزان وكنقطة ندى تسقط على الأرض عند السحر. ثم من الذي سوف يقول لي: ما الذي صنعت، أو من الذي سوف يعارض حكمي؟ أنا أوجدت داود عبدي وبدهن قدسي مسحته» (إشعيا: ٤٦/ ١٠. ارميا: ٤٩/ ١٩. الأمثال: ٢١/ ١٠٣٠ الحكمة: ١١/ ٢٣؛ ١٢/ ١٢. المزامير: ٨٨/ ٢١)؛ وملك الهنود الذي أمرته بالانتقام للذنوب التي اقترفت بحقي، سوف ينهض ويثور ضد صاحب رأس عدد كبير من رؤوس البهائم، فله أعطيت النصر على ملك الفرس، ووضعت شطراً كبيراً من آسيا تحت قدميه، ذلك أن ملك الفرس قد ترفع كثيراً وتغطرس، وأراد أن يكون ملك آسيا، وسار ضده الملك داود، الذين قالوا عنه بأنه ابن برسترجون، وقطف منه أول ثمار النصر، ثم إنه أخضع الملوك الآخرين والممالك

لنفسه، وحسبنا علمنا من تقارير انتشرت بالطول والعرض، أنه ليس هناك من قوة على الأرض يمكنها أن تقاومه، فمن المعتقد أنه المنفذ للانتقام الرباني، ومطرقة آسيا.

الفصل السادس والخمسون

في الحقيقة بعد الاستيلاء على دمياط، امتلك نائب الكرسي البابوي كتاباً كتب بالعربية، جرت قراءته بصوت مرتفع وباختصار بوساطة مترجم، وكان ذلك على مسمع من الحشود، وبعد تقديرنا لقدم تجليده وتأملنا به وبخرائطه، اكتشفنا أنه يتوجب علينا التقدم والزحف، وحمل هذا الكتاب عنوان: «كتاب كليمنت»، وقد كتب كما قيل سماعاً من شفتي أمير الرسل نفسه، من قبل كليمنت نفسه، فيما يتعلق بالوحي الذي عرفه بطرس من الرب فيما بين قيامته وصعوده، ويبدأ هذا الكتاب من خلق العالم وينتهي بإنهاء الدنيا، ونقرأ فيه الحلول والأراء الحكيمة فيما يتعلق بالخلاص، وأقحمت فيه نبوءات، بات من المؤكد أنها ظهرت مكتملة وواضحة في هذه الأيام، مع أن بعضها يعتمد على المستقبل، وقد قيل فيه بين أشياء أن المدينة المائتة سوف يتم الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين مع مدينة أخرى في مصر، وأضيف أيضاً أمر الاستيلاء على الاسكندرية، كما أن الاستيلاء على دمشق لم يحذف، ذلك أنها المدينة التي عذبت كثيراً وما تزال تعذب عبيد الرب، وبالإضافة إلى هذا، ورد ذكر ملكين آخرين، قيل بأن أحدهما سوف يأتي من الشرق، أما الآخر فلسوف يأتي من الغرب، إلى القدس، وذلك في السنة التي سيكون فيها عيد الفصح في الثالث من نيسان، ويتفق هذا الكتاب في كثير من الأشياء مع الكتاب الذي ذكرناه من قبل، وكتبت رسائل كثيرة حول انتصارات الملك داود، وهي جميعاً تؤيد هذه النبوءة، وذلك بالإضافة إلى الحكاية

المعروفة كثيراً والمنتشرة في أوساط المسيحيين والمسلمين ، ورأينا أيضاً برهاناً على هذا أن الأسرى المسيحيين لهذا الملك قد جرى تحريرهم من قبل رسل الملك داود في بغداد ، فهؤلاء كانوا قد أخذوا أسرى أثناء حصار دمياط ، وقام ملك مصر بإرسالهم بمثابة هدايا الى الخليفة .

الفصل السابع والخمسون

في ١٧ تموز احتشد الجيش الصليبي عند فارسكور ، وهي قلعة تبعد ثلاثة أميال عن دمياط ، وبعدما تعباً بشكل موائم في صفوف من الخيالة وأرتال من الجنود الرجالة ، زحف الجميع نحو الأمام مسرعين ، وجرى تقدير تعداد الجيش فتبين في الحقيقة أنه كان هناك اثني عشرة مائة مسلحين وفق الطرائق العسكرية ، وكانوا مزودين بكل التجهيزات الضرورية للقيام بالمهمة المعهودة اليهم ، ولم ندخل في الاحصاء التوركيبي مع عدد كبير آخر من الخيالة ولم نستطع التعرف الى تعداد جنود الرجالة المسلحين ، لأن عددهم كان كبيراً جداً ، وشبههم المسلمون وقارنوههم بالجراد لأنهم شغلوا منطقة واسعة من الأرض ، ونعتقد أنه احتشد هناك أربعة آلاف من الرماة ، كان من بينهم حوالي خمس وعشرون مائة مرتزقة ، وكان من الواضح أنه وجد بين الستائة والثلاثين سفينة كبيرة وصغيرة ثلاثمائة خوذة مع ثمانية عشر غليوناً مسلحاً ، فهذا ما أمكن تعداده ، والى جانب هذا كان هناك عدداً كبيراً من مختلف أنواع المراكب والقوارب التي حملت البضائع والميرة ، وكان عدد الأعداء حسبنا سمعنا من اللاجئين إلينا سبعة آلاف من الخيالة ، وكانت ترتيبات القتال كما يلي :

كان النهر على اليمين مغطى كله بالسفن، التي زودتنا بالحماية

وكانت بمثابة سور دفاعي، ومن الجانب الأيسر عمل الجنود الرجالة بمثابة ساتر دفاعي حيث تقدموا نحو الأمام على شكل صفوف بزحف منتظم، وبتشكيلة متراصة، وانتشرت صفوف الخيالة من النهر حتى صفوف الجنود الرجالة على شكل خط وتري، مقدمة بذلك الدعم للرجالة ومتلقيته منهم، وبقي حملة الرماح بشكل تلازمي مع الرماة، للتصدي لهجوم الأعداء برماح مشرعة ومسلطة جاهزة لأي وقت قرروا فيه الاندفاع للقيام باشتباك قريب، وفي مواجهة لخطر الخيول والخيالة تقرر العمل وفق رأي حكيم استهدف عدم تعريض حيوانات النقل والحمولة للعقر، وسار العوام من الناس، بدون سلاح بشكل آمن مع حزم أمتعتهم على طرف النهر، وحمل رجال الذين، وجنود رجالة ونساء الماء للذين كانوا بعيدين في الأمام، أما الذين كانوا أكثر خبرة ضد الكمائن وأعمال الخداع، فقد قاموا بحذر بمهمة التصدي لحملات العدو في المقدمة والساقة، وجرى تعميم أمر شديد قضي بالتخاذ الاحتياطات بمنع أي واحد بالمضي أمام الصفوف الأولى، أو أن يتخلف وراء الصف الخلفي الأخير، أو أن يخرق الصف لأي سبب كان، وقام يرك الأعداء باستعراض تقدير لقواتنا من على طرفي النهر واندشوا تجاه النظام بين صفوفنا والانضباط العسكري، وعبثاً حاولوا إلحاق بعض الخسائر بنا، ذلك أن حشد الرماة تولى مقاومتهم، حيث علمنا أن ما من واحد من رجالنا قد أسرف في ذلك اليوم، وأيضاً ما من واحد من جنودنا أصيب بجراح، وذلك من الذين مكثوا بشكل دائم داخل خطوط المعركة وصفوفها الجانبية الأربعة، ووزع النائب البابوي الأعطيات بيد كريمة على الفرسان وعلى أتباعهم وخدمهم، وسلح السفن، ولم ييخل بجسده ولا بممتلكاته في سبيل تنفيذ هذا العمل، وأبدى كل نشاط وبقطة كانت بإمكانه وقام مع الملك جون ملك القدس ودوق بافاريا، ورؤساء الأساقفة والأساقفة، ومقدمي بيوتات الفرسان ببذل الجهد والتعب في سبيل إنجاز هذه المهمة.

الفصل الثامن والخمسون

أرسل ملك مصر في ١٩ — آب أقوى برهان وأعظم دليل على ما امتلكه من قوة آنذاك، وقد أراد هؤلاء حصار شعب الرب بشكل زعديد بما فيه الكفاية، وذلك من الخارج، ومن مسافة، فقد هاجموا الصفوف النائية من الجنود الرجالة، بالنشاب، وقاومهم رجالنا بشجاعة دون أن تخرق صفوفهم أبداً بسبب هذا الهجوم، وحاصرونا في ذلك اليوم بشكل أكثر عنفاً وأرغموا رجالنا على استخدام القليل من النشاب، وجرح في هذين اليومين عدد قليل من الصليبيين جراحات خفيفة، والعدد الأقل هو الذي مات، وبهذا انتزعوا من الأعداء الأمل بنيل النصر، ثم عادوا إلى ملكهم في اليوم الثالث وبذلك فتحوا أماننا طريقاً أميناً خلال شارمساح، وقد أحرقوا قراهم الدفاعية أماننا، ومع ذلك فقد وجدنا كميات كبيرة من القمح والشعير والخضار، لابل حتى التبن، وفواكه الحدائق، وهرب السكان مع نسايتهم وأطفالهم جميعاً من أمام وجه قوات الرب.

الفصل التاسع والخمسون

في عشية عيد القديس جيمس (٢٤—آب) نصبنا مخيمنا على رأس مثلثي لجزيرة كان النيل عندها ينقسم إلى قسمين، ويفصل المعسكر السالف للسلطان عن معسكرنا، وحيث كان قد أقام هناك بعد الاستيلاء على دمياط، وفي هذه البقعة ينسحب نهر تنيس من المجرى الذي يذهب إلى دمياط، ويشكل معه جزيرة، وتمتد هذه الجزيرة اثني عشر ميلاً في الطول، وهي تحتوي على كثير من القرى، قائمة فوق الماء، وما قام منها على الشاطيء الأقصى معروف أكثر من البقية وأكثر ثراء، ومن بينها أشموم وشارمساح، التي كان فيها قصوراً فخمة عائدة

للملك، ونالت هذه الجزيرة اسماً لها، ودعيت باسم أرض دمياط، ودعي الجزء القائم عبر النهر باسم أرض تنيس، لكن الجزء الأكبر الموجود عبر نهر دمياط، يدعى المحلة، وفيها وراء نهر تنيس، وعلى مقادر سفر يوم واحد نحو الشرق تبدأ قفار الصحراء، التي توجد المياه فيها في أماكن محددة، وهي كافية للناس وللحيوانات، إذا ما زيدت بالحفر، وهي تنتهي عند الدارون وغزة، وبما أن بابليون (الفسطاط) قائمة في الجنوب، كانت السبب في تسمية بلاد مصر ببلاد بابليونا، ومخطط هذه المدينة مقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي تشكل مثلثاً، وقد بنيت مدينة بابليون نفسها فوق النيل، وهي مديدة في طولها وعرضها، وفيها شوارع ضيقة وفيها كثافة سكانية كبيرة، وهي مكتظة بسبب الأعداد الكبيرة من السكان، ويوجد فيها كثير من الكنائس العائدة إلى المسيحيين، وحشود كبيرة من هؤلاء الناس أنفسهم يخدمون أمير البلاد ويدفعون الجزية، وفيها تجدد المصنوعات والتجارات من «ليمانيا Leemanni (أسوان؟) والحبشة، وليبيا وفارس وبلدان ومناطق أخرى، ومن الجانب الآخر المواجه لدمياط وعلى مسافة قرابة الميل، تمتد القاهرة وتنتشر في أبنيتها وشوارعها العريضة، وفيها أبنية فخمة، فيها يسكن أعيان البلاد والنبلاء بين السكان، ولا تنحدر هذه المدينة تماماً نحو النهر مثلما تفعل بابليون، لكن يوجد بينهما مساحة مزروعة بما يشبه الجذور من النباتات، وعلى مسافة يقوم برج المراقبة المرتفع، وهناك تقوم القلعة الملكية، وهي واضحة للناظر إليها، محصنة ومحمية بشكل جيد بوساطة أبراج عظيمة، والأبنية معدة بطريقة مضاعفة ثلاثياً مسايرة للشكل المثلثي، وتمتد الآن الأسوار وتنزل من القلعة لتقوم بالدوران حول كل من من القاهرة وبابليون، وهناك فسحة رملية قائمة بين هذه الأبنية الثلاثة، فيها يمكن لجيش كبير أن يقيم.

الفصل الستون

ويشيرون إلى وجود كنيسة مريم المباركة فيما بين القاهرة وبابليون، فهناك يحكى أنها توقفت مع الطفل يسوع، عندما هربت إلى مصر، ووقتها سقطت أصنام مصر، وتقوم القاهرة على مسافة سفر ثلاثة أيام من دمياط، ومن القاهرة إلى حديقة البلسم هناك مسافة ميل، وهذه الحديقة التي فيها رمل زيتي مطوقة بسور، وفيها نبع في وسطها، ومنها صدرت حكاية الناس القدماء التي انتشرت في الخارج بمثابة قصة مشهورة، أفادت أن العذراء الرائعة جعلته ينبع ويجري إلى الأمام بوساطة صلواتها، فغسلت فيه ثياب الرضيع المخلص، والحديقة مزروعة الآن على شكل كروم، والجذع في هذه الحديقة له سكاكة شجيرة. وتنمو الأغصان من الجذع إلى ارتفاع ذراع على شكل جوز، ولحاء الجذع عقدي ومخطط، ولونه أقرب إلى البياض، ويدعى الخشب باسم «خشب البلسم» والبذرة باسم «ثمرة البلسم» وهي تتناثر، وتعطي ورقة تشبه ورقة عرق السوس، تدعى باسم «ورقة البلسم» وكذلك باسم «عصير البلسم» ذلك أن المزارعين يأتون إلى الأغصان، ويقطعون اللحاء في أجزاء محددة، حيث يتدفق البلسم، وهكذا يجمع السائل بدرجات، وقد يتبدد خلالها، ويجمع البلسم في الخريف بالطريقة التالية: يرم الغصن ثم يחדش بمسمار، وتتساقط من خلال الفتحات الصغيرة نقاط تجمع وتحفظ في وعاء، وبعد هذا تذاب لمدة عشرين يوماً في الشمس، وبعد ذلك تجمع قشدها فوق النار، وتوضع وتصب داخل قوارير، لأنه من الخلاصة الأصيلة، قليل من البلسم غير المخلوط هو الذي يبقى بعد التصفية، غير أن الباعة ثم الذين يعاودون البيع يقومون بالعادة بمزجه بخلاصة زيت الصنوبر أو الراتينج، وبذلك يغشون الشراة، ولذلك من النادر وجود الصافي منه على أيدي الباعة، واعتاد السلطان توزيعه في

قوارير بين أمراء الأرض بمثابة هدية عظيمة، وصاحب الحديقة هو مسيحي يعمل تحت إشرافه عمال مسيحيون ومسلمون.

الفصل الحادي والستون

ودون القاهرة هناك جزيرة تمتد لمسافة ثلاثة أميال بالطول وبالعرض، وهنا ينقسم ماء النيل الى قسمين، حيث يلامس شواطئ دمياط من أحد الجوانب ورشيد من الجانب الآخر، وكانت رشيد مدينة كبيرة، وهي الآن مهدامة، وهي قائمة فيما بين الاسكندرية ودمياط، لكنها أقرب الى الاسكندرية، وعلى مسافة يومين من القاهرة، وعند رشيد وفوقها يصبح النهر أوسع والماء أعمق، والميناء أكثر سكوناً من دمياط ويستقبل هذا الميناء سفناً أثقل حولة، ومن الممكن مركزة جيش كبير فوق الجزيرة المتقدمة الذكر، وعندما كنا عند رأسها أثناء حصار دمياط، رغب السلطان في انتزاع النهر منا، ووغالباً ما حاول، لكنه أخفق،، وعبثاً حاول جعل مياهه تتدفق في قناة، وبعد انفاق عظيم ترك مجراه للطبيعة، ومن بابليون الى الجانب الأعلى الى ليمانيا، حراثة الأرض محدودة على جانبي النهر، وهناك قفار واسعة على كلا الطرفين، وفي ليمانيا وفرة من أنواع التوابل التي تصدرها الى الخارج، والتي يحملها مختلف تجار المملكة للبيع.

الفصل الثاني والستون

وراء ليمانيا، تمتلك الحبشة أراضي واسعة جداً، وفيها ما لا يحصى تعداده من السكان المسيحيين، قسم منهم واقع تحت حكم ملوك مسيحيين، وقسم تحت حكم المسلمين، وهنا يوجد أهل النوبة

الذين يمارسون القداس عند المذبح ، ولديهم الوظائف يعقوبية المقدسة الأخرى : والنوبيون هم لوحدهم الذين يطبعون على الصغار بوساطة حديده عمادة ثلاث طبعات لصورة الصليب ، على الجهة وقرب العينين على كلا الجانبين ، ومع ذلك يتعمدون ، وتستخدم الفئة الأولى والفئة الثانية الكتابة الكلدانية ويستخدمون الخبز المخمر من أجل القربان المقدس ، ويرسمون علامة الصليب بإصبع واحدة ، ويقولون بأن طبيعتين قد اتحدتا في طبيعة واحدة للمسيح ولعلمهم يستخدمون بشكل ملتبس اسم طبيعة ، ولهذا يأخذون بالدرجة الثانية كلمة « طبيعة » بدلاف من كلمة « شخص »

الفصل الثالث والستون

الجورجيون والاغريق متفقون في كل شيء فيما يتعلق بالطقوس المقدسة ، لكن للجورجيين كتابتهم الخاصة ، وعندما كنا نتفحص بدقة كتبهم على جبل القديس سمعان العمودي ، حيث لديهم هناك كنيسة خاصة بهم ، عرفنا من خلال المترجم أن لديهم الترتيب نفسه بالنسبة للأناجيل لدى اللاتين ، وشرية الأناجيل موضوعة على أقواس أعمدة كما نفعل ، وترتيب الرسائل الانجيلية للقديس بولص هي تماماً عندهم كما هي عندنا ، فهم يضعون رسالة القديس بولص الى الرومان قبل الرسائل الأخرى

الفصل الرابع والستون

وللموارنة بطريقتهم الخاصة بهم على طرف جبل لبنان ، ولقد تسلموا خطة طقوسهم اللاهوتية من البابا إنوسنت في المجمع الأخير الذي عقد باللاتيران ، وهم متمسكون بها بقدر ما تسمح لهم

كتاباتهم التي هي بالكلدانية ، أوقرية من الكلدانية (السريانية) ، ومتصل بهؤلاء الناس على الجانب نفسه من الجبل الباطنية Neo-phorites الذين يخفون عقيدتهم ، ولا يشرحونها لأولادهم ولأحفادهم حتى يبلغون الثلاثين من العمر ، وانها لعقيدة شريرة العقيدة التي ترغب بالبقاء سرية ، وأن لا تظهر الى النور ، وعندما أردنا أن نعرف ، عندما كنا مارين خلال تلك المنطقة ، لماذا لا يبيحون معرفة شريعتهم لزوجاتهم أولبناتهم أو أخواتهم ، إلا في ذلك السن ، أخبرنا واحد من شيوخهم مجيباً بأن النساء قد صنعن من قبل الشيطان ، وقد ردنا عليه قائلين « عندما تعانقون نساءً من هذا النوع ، ألا تعانقون وقتها الشيطان ؟ » وبناء عليه ابتعد عنا مضطرباً ، ولا شك أن المسيحيين يشعرون بالأسف لامتلاكهم مثل هؤلاء الجيران

الفصل الخامس والستون

وللأرمن كتاباتهم الخاصة بهم ويجلس الكهنة منهم في الحقل الى جانب سنابل القمح التي يرغبون في أن يصنعوا منها الخبز الفطير لحشودهم وهم ينقونها ويضعونها جانباً بعزلة عن المحصول العام ، كما يطحنونها منفصلة ، وفي اليوم الذي يودون أن يكرسوا فيه جسد الرب ، مع غناء المزامير أمام المذبح ، يعدون الطحين ويرشون عليه الماء ويمزجونه ، من أجل خبز فصح حمل المسيح ، وهذا يكون وفق الشكل اللاتيني ، ويحتفلون بهذا بتقوى عظيمة ، ومهما يكن الحال ، إنهم يستحقون من أجل ما يلي لوماً عظيماً : فهم لا يحتفلون بالميلاد معنا ، بل يفلحون ويحصدون في ذلك اليوم بينما تقوم نساؤهم بغزل الصوف وتمشيطة ، ويسمون يوم عيد الغطاس باسم يوم « المعمودية » ، ويحتشدون في هذه المناسبة المقدسة ويتجمعون مع كثرة كثيرة من الناس ، ويحتفلون بميلاد الرب مع عيد الغطاس ، ويقولون بأن

الرب قد ولد في اليوم نفسه الذي تعمد فيه فيما بعد، إثر مضي عدة سنوات، ويقولون إنهم يخضعون للشرعة الرومانية، ولديهم جاثليق هو الأول والرأس بينهم، وهم يطيعونه في جميع الأشياء.

الفصل السادس والستون

وأثناء توقفنا في أنطاكية تفحصنا النساطرة الذين لديهم كنيسة خاصة بهم هناك، وهم يقولون بأنهم يعتقدون بأن الطبيعتين قد اتحدتا في شخص المسيح، ويعترفون أن العذراء المباركة هي أم الرب وأم انسان، وأنها حملت انساناً ورباً، الأمر الذي انكره نسطور، لكن هل يؤمنون بقلوبهم مثلما يعترفون بألسنتهم، الرب يعلم.

الفصل السابع والستون

ويستخدم السريان الكتابة الاغريقية، وبها ينشدون، ويقدمون الأضحية الطقوسية، لكن اللغة العربية هي الدارجة بينهم مثل المسلمين، ويستخدمونها بصكوكهم وبرسائهم التي يكتبونها.

الفصل الثامن والستون

وأخذ اليعاقبة في معظم أجزاء مصر بالختان، لكن الذين مكثوا بين الميديين والفرس هم راضون بالتعميد.

الفصل التاسع والستون

للروس لغتهم الخاصة، لكن فيما يتعلق بالطقوس المقدسة، وجدناهم مثل الاغريق في كل شيء، وهذه الأنواع المختلفة من المسيحيين مختلطون

مع المسلمين في جميع أرجاء آسيا، ولهذا لا يمكن لهذه الأمة الكافرة أن تسوغ موقفها على أساس الجهل!

الفصل السابع

إننا لم نقم بهذا الاستطراد الطويل بدون سبب، وكان القصد أن نظهر بوضوح للمؤمنين موقع مصر، ومجرى النهر، وكذلك الأنواع المختلفة من المسيحيين الذين يسكنون في آسيا، والآن في عودة إلى سياق تاريخنا دعونا نخضب هذا الكتاب بالدموع، وبالنحيب، وبالأسى من أجل خسارة المسيحية وما لحقها من عار.

لقد كان الزحف إلى بلدة شارمساح المشهورة — الذي أتينا على ذكره من قبل — مفيداً لجيش المسيح، ولهذا حدث بعد سقوط دمياط، أن نظر السلطان بحكمة وتفكر بما يمكن أن يحدث في المستقبل، فقام بتدمير البلدة، وكذلك قصره الجميل القائم على النيل، وخلف هذه البقعة ينحرف النهر، ثم ينعطف عائداً، وهناك أيضاً نهر صغير يأتي من جزيرة المحلة، ويصب فيه، واعتماداً على عمق الماء الذي كان يزداد هناك أثناء انتشار الصليبيين، كان من الممكن لهذا الماء حمل الغلايين والمراكب الأخرى ذات الحجم اللطيف المعتدل، وعندما رأى قادتنا الحال، لم يبالوا ولم يعبأوا وعبروا المكان مسرعين قاصدين رأس الجزيرة، وهرع الناس أيضاً بتشوق مثل الطيور القاصدة مصيبتها والأسماك المسرعة نحو شباكها، ذلك أنه أعلن لهم كذباً بأن السلطان يستعد للفرار، وكان هدفهم الحصول على الأسلاب، وكذلك أملهم، لكن عندما سمع ملك مصر ووصله الخبر بأن شارمساح قد أخليت من الخلف، ضم عساكر رجالته ووحدهم مع فرسان مملكته، والذين جاءوا من القاهرة، وبشكل خاص الذين جاءوا من الاسكندرية، وجعلهم يهاجمون الذين كانوا

يتقاطرون وصولاً، وفي هذا الوضع كان أسرانا قد قدروا حقيقة إخلاء القاهرة من سكانها، لذلك أعدوا خطة للاستيلاء على الأبراج وقت وصولنا، حتى يقوموا بفتحها للذين كانوا يقتربون، لكن الحكمة الربانية التي برحمة منها «سمعت أنين الأسرى الذين كانوا في الأغلال» (المزامير: ١٠١/٢١) وشهدت جهود وحزن الذين كانوا في الأصفاد، أطلقت سراحهم من خلال أسانا وأحزاننا.

الفصل الحادي والسبعون

وفيا كان هذا يحدث في مصر قام الملك الأشرف ملك الرها، مدينة الميدين، مع المعظم عيسى صاحب دمشق، مع صاحبي كل من حمص وحماه، مع حشد كبير جداً من الفرسان جمع من جميع مناطق الشرق، بالاجتماع في حمص، ونتيجة لهذا أصاب رعب شديد أهل انطاكية وعكا، والمدن الأخرى القائمة على الساحل والتي كان محاربوها غياب، لأنهم ذهبوا للمشاركة في حملتنا، وشعر الذين كانوا في صافيتا وطرابلس بخوف خاص تجاه هذا الاحتشاد.

وتناقش الأمراء المذكورين أعلاه بإخلاص وجدية لوقت طويل حول هل عليهم التوجه لعون مصر بأنفسهم، أو الأفضل شطر الجيش الصليبي بوساطة محاصرة إحدى قلاع، وأثرت عليهم قوة الملك داود وضغطت، لأنه كان المنتصر على ملك الفرس في أراضي الفرس، ولأنه كان يعمل بنشاط في المناطق التابعة لبغداد، وخشية منه، كانوا يخشون الابتعاد عن ديارهم، كما قدروا أن الاستيلاء على قلاع الاستتارية أو الداوية لن يكون بالأمراهين في وقت قصير، وأخيراً نجح رأي الذين رأوا القيام بزحف سريع إلى مصر، خاصة لأن أخاهم أرسل لهم مراسل على بريد الجمال يرجوهم القدوم إليه، وأضاف أن الصليبيين قد تمركزوا الآن في

مكان لا يمكنهم مغادرته من دون مخاطر، وأنه إذا لم يستطيعوا لدى قدومهم التغلب عليهم، يمكنهم على الأقل الإعداد لعقد صلح معهم، وكتبت ملكة قبرص إلى النائب البابوي وكتب رهبان الاسبتارية والداوية إلى مقدميهم حول هذه العساكر وحول خططهم، وحثوهما على عدم التراجع من دمياط، وأنها إذا ما خرجا وتراجعا عليهما البحث عن أماكن آمنة ل نفسيهما، لكن الآن حسبما قضت ذنوبنا، نأت الآراء الحكيمة وابتعدت عن قادتنا، وكان مثلهم مثل يوليوس قيصر، أنذروا وحذروا مراراً، ومثلهم مثل الاسكندر المقدوني أنذوا وحذروا في هدوء الليل وصمته، ولقد أهملوا اتخاذ الاحتياطات ضد المخاطر الفعلية، وقد تكلم الرب نفسه من خلال موسى إلى بني اسرائيل قائلاً: «لاتصعدوا ولا تقاتلوا، لأنني لست معكم، خشية أن تنهزموا أمام أعدائكم». (العدد: ١٤ / ٤٢)، ومع هذا ذهبوا، وسقطوا مهزومين مقهورين، وتأمل الملك جون بالقضية وتعمق بالتفكير حولها، ورأى أن من الحكمة وجوب قبول الاقتراح الذي غالباً ما تقدم به العدو، وترجيحه على ما رآه الشعب المؤمن، لأن هذا الشعب اقتيد في زحف طويل، وبات الآن عرضة لتقلبات الأحداث، لكن النائب البابوي الأعلى حرم عقد أية اتفاقية دون الحصول على موافقة الكنيسة الرومانية، ثم إن الامبراطور لم يأذن من خلال رسائله المختومة بالذهب بعقد أي صلح أو بالإعداد لأي معاهدة مع المسلمين (١١٤).

الفصل الثاني والسبعون

وقوينا بالوقت نفسه تحصيناتنا بخندق عميق، ومن الجانب المقابل قام خصومنا بإقامة سور ترابي وسواتر دفاعية على الطرفين المتقابلين للنهرين، ووضعوا عليهم آلات قذف وعرادات ومنجنيق مع مخرطة، وبذلك سببوا لنا جراحات خطيرة أصابت الناس، والحيوانات التي

كانت مأخوذة للسقاية، وازدادت قوى خصومنا يومياً، وأخذ جمعنا يتبدد مبرهنًا على عدم إيمانه، ومع اقتراب موعد العبور، إزداد الجبن بين الذين هجروا المعسكر وتخلوا عنا بشكل مكشوف أو مخادع، وعدد كبير من السفن التي ذهبت إلى دمياط لجلب الميرة، لم تتمكن من الرجوع، وفي اليوم الثامن عشر من آب جرى الاستيلاء على أربعة من غلاييننا أو أنها أغرقت في النهر، ومنح هذا شجاعة إضافية إلى الأعداء، لأن السلطان كان قد غرق بعضاً من غلايينه على طول مجرى النهر، الأمر الذي تقدم لنا ذكره أعلاه، وكذلك دون معسكرنا خلال جزيرة المحلة على ضفاف النهر بدون علم منا، وقطع هذا العبور والجواز بالنسبة لرجالنا، وبذلك لم يعد بإمكانهم الذهاب لاصعودا ولا هبوطاً، يضاف إلى هذا، بما أن حشداً كبيراً من الرجال المسلحين قد جرت مركزتهم بذكاء هناك، وتولوا أعمال الحراسة ليلاً ونهاراً، وراقبوا كلا الشاطئين حتى دمياط، لم يعد بإمكان قومننا إرسال الرسل أو استقباهم.

الفصل الثالث والسبعون

ومن اليوم الذي خسرنا فيه النهر، أخذ رجالنا يجتمعون بشكل متواصل للتشاور فيما بينهم، وليروا ما هو الأكثر مواءمة لهم: الانتظار في المعسكر حتى وصول الغلايين التي وعد الامبراطور بإرسالها، أو الخروج، دوننا اعتبار للخسائر مهما كانت، وذلك بسبب اضمحلال مخزوننا من الأطعمة، وارتأى الجزء الأكبر رأي الخروج، الذي كان أعظم خطراً بسبب وصول الأعداء، وقرار الإعاقاة المائية، لكن أحد الناس (أولفر نفسه) من الأعضاء الأدنى، وكان قد رأى وسمع هذه الأشياء، وتولى وصفها بشكل جاف، لكن بقلم صادق، اقترح اتخاذ داود مثلاً، الذي اختار بين ثلاثة أشياء، كل واحد منها كان صعباً وشديداً، فهو لم يختار الجوع لمدة سبع سنين، ولم يختار أن يغلب من قبل العدو لمدة ثلاثة أشهر

بل اختار ما كان هو الرغبة العامة للملك وفقراء الناس: الوباء لمدة ثلاثة أيام؛ وعندما سئل عن رأيه وما يقصده أجاب: بما أن الضعفاء والعاجزين الذين كانوا هناك لا توجد سفن كافية أو حيوانات لنقلهم، ينبغي انتظار وصول المساعدات في مكان حصين، لاسيما وأن المؤن، إذا ما وزعوها بحذر يمكن أن تكفي لمدة عشرين يوماً، ومع هذا لم تقبل هذه الخطة، بل قبلت خطة المغادرة، وأصبحت مع حلول الليل أكثر قبولاً، وفي هذا المقام ساد موقف أسقف باسوا Passau مع رأي البافاريين.

الفصل الرابع والسبعون

وبناء عليه حدث في يوم ٢٤ آب، ومع الهزيع الأول من الليل، أن أخلت الخيم، من قبل أوائل الناس، الذي اتبعوا مارغبوا به، وليس ما أوجبه العقل، وألقوا النار في الخيم، ثم فعل الآخرون مثلهم بحماس، وكانوا بذلك كأنها يعلنون عن هزيمتهم الخاصة، ويدعون المصريين لمطاردتهم، وبالوقت نفسه وصل النهر إلى أقصى درجات فيضانه، لابل ارتفعت مياهه وتدفقت حتى أعلى مما هو معتاد، فقد غمرت الحقول، وجاء الملوك السالفي الذكر من خلال الصحراء ووصلوا عبر نهر تنيس إلى أشموم، وهناك بني جسر، فتوقفوا وعسكروا، وأضيف إلى سوء حظنا في ذلك اليوم أن الناس كانوا في ذلك اليوم مخمورين كثيراً، نتيجة شربهم الخمر التي كانت هناك بكميات وافرة، وكان من غير الممكن حملها معهم أثناء التراجع، وبما أنها عرضت لمن أراد بدون ثمن، فقد قهرت الذين كانوا غير متيقظين، وهم الذين ظلوا غارقين بالنوم داخل المعسكر أو الذين تمددوا على الطريق، وكانوا غير راغبين بالنهوض، ولقد تخلوا في معظم الأحيان عنا، وتخلفوا إما لأنهم انقطعوا أو لأنهم أسروا، ووصل آخرون إلى الأماكن التي فاض عليها النهر في ظلمة الليل، وناضلوا

بتعاسة وسط السباح العميقة، ولهذا تخلفوا خلف الآخرين، وسقط آخرون في السفن وضغطوا عليهن بشدة بسبب أوزانهم فغرقن، وفقدنا في الليلة نفسها جمالاً وبغلاً كانت تحمل أثقالاً، بما في ذلك أوعية فضية، وملابس وخيم الأثرياء، والذي كان أكثر مأساوية فقدان نشاب الدفاع، وتولى الداوية جلب قوات الساقة في ظل مخاطرة عظيمة، ومكثوا بشكل متواصل مع بعضهم بمثابة حماية للذين مضوا في الأمام، لأنهم كانوا مستعدين بالأسلحة، وكان الذين تقدموا في الأمام، قد ساروا على طرق مختلفة، فضاءوا خلال ظلام الليل مثل أغنام شاردة، وأخبر المصريون بفرارنا بوساطة النار والدخان، فقاموا على الفور بملاحقتنا، ووصلوا إلينا بسرعة أكبر من المتوقع، وأنزلوا بالصليبيين خسائر من غير الممكن وصفها، ولم تكن أقل خطراً وأذى مما تم تحمله من قبل الذين ذهبوا بالسفن على طول الشاطئ وكانت سفينة النائب البابوي تحمل عدداً كبيراً من المرضى، وكذلك كميات من المؤن، وكانت محصنة إلى أبعد الحدود برجال مسلحين ورماة، وبدت وكأنها قلعة، وتولت بشجاعة حماية الغلايين التي بقيت بشكل طبيعي مع بعضها مترابطة متقاربة، غير أنها سارت بسرعة كبيرة جداً، ولعل ذلك كان بسبب قوة التيار، ولأنها ابتعدت بشكل رهيب عن الجيش البري، لم يعد بإمكانها تزويدنا بالطعام في الوقت المناسب، فضلاً عن هذا، ابتعدت واحدة من سفننا كانت مليئة بالمقاتلين الألمان، كثيراً عن سفينة النائب البابوي، وطوقت من جميع الجهات بغلايين الأعداء، وبعدما تمكنت من إغراق واحد من الغلايين في المياه العميقة، بعد دفاع طويل، اشتعلت فيها النيران فدمرت المقاتلين الذين كانوا فيها، وكان هناك مركب عائد للنائب البابوي يحمل كثيراً من البضائع الدنيوية، وجليون صغير عاد بملكيتته للداوية، كان فيه خمسين عرادة إلى المعدات الأخرى التي يحتاجها الرجال الشجعان، قد تم الاستيلاء عليها، وخرجت عن ملكيتنا.

لماذا أطيل أنا الوقوف للقيام بتعداد الخسائر التي سببتها تلك الليلة لنا؟ « أما ذلك الليل فيمسكه الدجى ولايفرح بين أيام السنة ولايدخلن في عدد الشهور. هوذا ذلك الليل ليكن عاقراً لايسمع فيه هتاف » (أيوب : ٦ / ٣ - ٧) ، وسارع في تلك الليلة ملك مصر بإرسال الرسل للقيام بفتح بوابات السدود وتدميرها وكذلك أقنية جرم المياه، التي كان من الممكن أن تكون ممرات لنا، وليلة هذا العمل لها ذكراها عند المصريين وعندنا أيضاً، عندما فاضت أطراف النهر إلى حدود كبيرة وتدفقت الكميات الهائلة من المياه عبر منحدرات خزانات المياه ومن خلال الأقنية فسببت تطرية الأرض، هذه الأرض التي كانت جافة بسبب طول انقطاع الماء، ثم إنها تحولت إلى أرض موحلة سميكة أمسكت بشدة بحوافر الخيول وجعلت الفسحة المفتوحة للحقول لايمكن جوازها، ولقد أعاقت كثيراً كل من الخيول والركاب.

الفصل الخامس والسبعون

في حوالي الساعة الأولى من يوم الجمعة التالي (٢٧ - آب) ظهر هناك فرسان الترك المرعبون والذين كانوا في أعداد كبيرة، وشرعوا بمناوشتنا من جانب الميمنة وذهبت الغلايين المزعجة صعوداً ونزولاً من على اليسار، وقام فيلق من الزنوج بالزحف على الأقدام، وبالضغط علينا من الخلف بقسوة متناهية، وكان هؤلاء يستخدمون الأماكن السبخة من أجل المعسكرة، وجاء أيضاً تشكيل تابع للعدو على شكل محدودب، وواجهنا هذا التشكيل من الأمام، وبذلك حرمانا من الراحة، وفي هذه الأثناء قام الملك جون بهجوم على الأتراك الذي كانوا يواجهين له، ثم عاد إلى الخط القتالي المخصص له، ولم يتهاون الداوية وإسبترية القديس يوحنا الذين كانوا آنذاك متحدنين معهم بالتعامل مع رعونة الزنوج، وقاموا وهم يقتلونهم بالضغط عليهم حتى أرغموهم على القفز إلى الشاطئ

مثل الضفادع، وكذلك قاموا بصددهم وردهم إلى الخلف عندما أرادوا الوصول إلى الشاطئ من جهتنا، وهكذا كان هناك حوالي الألف من الحشد العظيم يسبحون مبتعدين أو يعانون من الجراح، أو يموتون، وبسبب هذه الانتكاسة التي عانى منها أعداؤنا تراجعوا قليلاً، وبما أننا لم يؤذن لنا بالتقدم نحو الأمام، أمر الملك بنصب عدد قليل من الخيم، بعضها بقي في الخلف، أو أخذ إلى الأمام، ومع ذلك بقي أعداؤها خلال ذلك النهار كله على مقربة منا، وكانوا يهاجمونا بشدة متناهية بوساطة نشابهم، وقد وضعنا جنودنا الرجالة في مواجهتهم بمثابة سائر دفاعي، وكذلك استخدمناهم، لأنهم أعادوا رمي النشاب الذي وجهه ضدنا، وعمل فرساننا تحت الوزن المستمر لدروعهم وسوابغهم، وأفادوا بمثابة حماة للجنود الرجالة، وفتح المصريون في الليلة التالية بوابات الفيضان، وجعلوا المياه تتدفق فوق رؤوس الذين كانوا نائمين، ولاندري هل فعلوا ذلك بناء على أمر السلطان، أو بدون معرفته، وقبل انبلاج نور الصباح، عندما كان الظلام ما يزال يغطي الأرض، جاء الجنود الرجالة من الزنوج الذين نجوا من قبضة النهر، وكانوا راغبين بالانتقام للخسائر التي لحقت بهم، واحتشدوا مثل الجراد، ومع أنهم كانوا أشبه بالعرة، فقد هاجموا صفوفنا الخلفية، وكان من الممكن رؤية فرساننا ومعهم خدمهم يحاولون الفرار، وسط حشد متلاصق من الناس، وبما أن عوام الناس كانوا غير مسلحين، فقد أظهروا جنبهم بشكل واضح تماماً، غير أنهم كانوا محاصرين من جميع الجهات بالماء وبالأعداء، ولذلك لم يجدوا مكاناً يفرون إليه، وقام مقدم الداوية مع صفه القتالي الذي كان يقوده شخصياً بالالتفات نحو الذين كانوا يقومون بأعمال المطاردة، وأرغمهم إما على التوقف أو على التراجع، وقد فعل ذلك بعدما رفع رايته.

الفصل السادس والسبعون

في هذه الآونة أقنع الوضع اليائس الذي بات مفهوماً قادة الحشد ليقوموا بارسال رسل يعرضون المصالحة، لكن إمبرت Imbert ، وكان مقترفاً عظيماً للشروع، أخذ برفقته الذين أمكنه أن يهربهم معه، والتحق بالأعداء ، وبين الوضع المأساوي اليائس الذي كنا فيه، إلى السلطان، وكان إمبرت هذا أسوأ الخونة على الإطلاق في وقته، ومع هذا أصغى السلطان بأناة إلى الرسل، وبانتظار التأكيد، أمر رجاله بالتوقف عن إزعاجنا، مع أن أخاه، وكذلك صاحب حمص بشكل خاص — الذي كان معادياً إلى أقصى الحدود للاسم الصليبي — حاول أن يجعله يعدل عن الاتفاق، قائلين بما أن الفرنجة تحت الحصار من جميع الجهات بوساطة الماء، فلا يمكنهم النجاة، لكنه هو نفسه لكونه رجلاً حكيماً ولطيفاً متسامحاً، رغب في الإعداد للتصالح أكثر من الرغبة بسفك الدماء، ولهذا عقد اجتماعاً سرياً مع أخويه وكبار رجال مملكته، وضرب مثلاً بملك الفرس، الذي كان عاقلاً جداً ومجرباً بسبب ما واجهه من أحداث كثيرة، وقد حاول خلع نير التبعية أو العبودية للملك بابل نفسه وللملوك الآخرين في آسيا، فقد هزمه الملك داود على أرض المعركة، وانتزع منه بلاد فارس وهدم أعظم مدنها وأكثرها ثروة، وبعد هذا تكلم رسل السلام من على الجانبين، كما جرت العادة في قضايا من هذا النوع، وقلبوا أوجه المسائل جميعها خلال السبت والأحد، وتابعوا حتى المساء، لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء محدد.

الفصل السابع والسبعون

في ذكرى اليوم الذي قطع فيه رأس القديس يوحنا المعمدان (٢٩) —

آب) وفي حوالي الساعة الثانية عشرة، قام طرفنا وقد شعر بالضيق لنقص الطعام والأعلاف، وأكثر من هذا بشكل خاص بسبب الحجم العظيم للماء، فقرر أنه من الأفضل والأصون للكرامة العيش بسعادة أو الموت بشجاعة في الحرب، وذلك بدلاً من الهلاك بشكل مهين في الفيضان، وعلى هذا عندما نهض جميع الفرنجة للحرب تعبأت الصفوف هنا وهناك، ونظروا نحو بعضهم بعضاً نظرات كلها حدة ورعب شديد، ولاحظ الأتراك أنهم قد أثاروا عدواً شعر بأغلاطه وبالنير الذي وضعه على رقبتة، لذلك تراجعوا قليلاً بناء على تلقي الأوامر من ملكهم، ونظراً لحلول الظلام فقد حال ذلك دون القتال، وبالإضافة إلى هذا، بينما كانت معاهدة الصلح ماتزال معلقة، خشي الرجال العقلاء من عرض خياني، إذا ما جرى تدمير الصالح العام بواسطة قتال خطر.

الفصل الثامن والسبعون

وهكذا في اليوم الثلاثين من آب، أرغمنا على القبول بصلح مؤسف مذل بسبب الظروف المعاكسة، فاستسلمنا إلى المصريين والأشوريين، حتى يمكن أن نزود بالخبز ونطعم، وهكذا كان أن سبب فيضان الماء وقلة الطعام، وليس القوس أو السيف اذلالنا في أرض عدونا، وكان هذا أمراً مدهشاً، نعم لقد كان بالفعل شيئاً مثيراً للدهشة، شيئاً سوف يتم تداوله بالمعرفة في المستقبل: وفي الوقت نفسه ظهر الحكم الرباني العدل، وأشرق لطف الرحمة على شكل مساعدة موائمة، فلقد كانت ضخامة أفاعيلنا الشريرة، والعدد الواسع لجرائمنا يرغمان على اتخاذ قرار انتقام رباني، لكن نبع الجودة والمنفعة الطبيعي، الذي من خصائصه أن يمتلك دوماً الرحمة والتخليص، لطف قرار الحكم العادل بحدته، ولهذا وقعنا في خطر، وتأملنا أنه بواسطة الرحمة، ربما ستظهر معجزة ويشرق نورها، «فالرب لا يستأصل نفساً بل يفكر أفكاراً حتى لا يقطع عنه منفيه».

(الملوك: ٢/ ١٤/ ١٤)، ذلك أن ملاك المشورة العظيم، تكلم من أجل صالح الانسان، مثل واحد بين آلاف يتضرعون من أجلنا، معلنا عدالة الانسان (انظر أيوب: ٢٣/ ٣٣)، فصحيح أننا قد نكون مذنبين، ومع ذلك، في سبيل حمل صليبه تركنا البيوت والآباء والزوجات والأخوان والأخوات والأبناء والحقول، وكان ذلك كله من أجل رضا الذي يظهر الغضب بهدوء، ويصدر أحكامه بلطف، ويعاقب بمحبة، فضرباته مثل ضربات الأب، لكن قلبه قلب أم.

الفصل التاسع والسبعون

وهكذا عندما وضعت الشروط، وفقاً لقرارات السلطان، جرى اكمال وثائق العقود بين الطرفين، وجرى حلف الأيمان، مع تسميه الرهائن، وبناء عليه وضع السلطان يده على ورقة تولى توقيعها، وأقسم وفق الصيغة التالية: « أنا، الكامل ملك مصر، أقسم بالله، رب الأرباب وبشريعتي، من قلب نقي، وبإرادة طيبة، وبدون مواربة أو تردد، أنني سوف أرعى بايمان طيب جميع الأشياء التي كتبت في هذه الورقة، والتي تحتويها، وهي الموضوعات تحت يدي، وإذا لم أفعل ذلك لعلي أحرم من الحساب الأخير ومن صحبة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأن أكون مؤمناً بالآب والابن وروح القدس»، ووفق هذه الصيغة أقسم الملك الأشرف وكذلك الملك المعظم مع أعظم الأمراء مكانة لديهم، انتبهوا تحت كم من الأخطاء الكثيرة والتناقضات تعمل بها تلك الأمة العمياء، فثلاث مرات أتوا على تسمية الرب، لكن دون معرفة بأسرار التثليث، وهم لا يرضون بتمييز اسم الآب، واسم الابن، واسم الروح القدس، وذلك حتى يزدوا من إدانتهم، ولو أنهم أقسموا خداعاً أو مع أي تردد وتقاطع، في شكل الطقوس، هم يقولون إنهم ليسوا تحت الإكراه، والآن احتوت هذه الكتابة على ترتيبات وفق مايلي: سوف يعيدون

الصليب (١١٥) الحقيقي مع جميع الأسرى الذين أسروا في أي زمان في مملكة مصر، أو جميع الصليبيين الموجودين تحت سلطان الملك المعظم، وأنهم عندما سيتسلمون دمياط مع كل ما يتعلق بها ويعودون إليها، سيدعوننا نذهب جميعاً بكل حرية ومعنا مقتنياتنا المنقولة، ولسوف يحافظون بشرف على هدنة لمدة ثمانية أعوام، وأقسم قادتنا أنهم سوف يطلقون سراح جميع الأسرى المسلمين لديهم، المسجونين في كل من مملكتي مصر والقدس، وإنهم سوف يعيدون دمياط، ما لم يرغب ملكنا المتوج بخرق الاتفاقية، يضاف إلى هذا جرى تقديم أربع وعشرين رهينة، تولى السلطان اختيارهم وهم: النائب البابوي، وملك القدس، ودوق بافاريا، ومقدمي بيوتات الفرسان الثلاثة، مع ثمانية عشر آخرين، ومن جانب آخر أعطي لنا ابن السلطان، وريث المملكة، وواحد من اخوانه الذين توفر منهم العديد، وأبناء العديد من النبلاء، وذلك حتى عودتنا إلى بوره (قرب دمياط) وإلى ميناء دمياط.

الفصل الثمانون

لتعلم جميع الأجيال المقبلة، أننا بالنسبة لوضعنا الخطر ولحاجتنا الملحة أبرمنا صفقة رائعة، آخذين بالحسبان أننا تمكنا من استرداد خشبة مخلصنا مقابل مدينة واحدة كان لا يمكن للصليبيين أن يحتفظوا بها لوقت طويل، وأن القمح أو الطحين عرضة للتلف هناك في أقل من سنة، وأنه بصعوبة يمكن لسيد مصر نفسه الحفاظ على سكانها، ثم إن آلافاً مؤلفة من الأسرى، الذين بينهم نعد أنفسنا، من الأعلى إلى الأدنى قد أعيدوا إلى وضعهم الحر، وكان عندما دخل الامبراطور هرقل إلى فارس، قد استولى عليها بصعوبة بالغة بعد خمس سنوات متواليات، وقد هزم كسرى، وحمل صليب الرب في موكب نصر، وأعاد البطريك زكريا إلى القدس مع الأسرى من شعبه، والآن كان السلطان يحتفظ ببطريك

الاسكندرية (١١٦) بمثابة أسير، وكان رجلاً عظيم التقوى، وكامل الأخلاق، وقد أعاده وأرسله إلينا عندما كنا نسير عبر النيل، وقد حرره من أغلاله وخلصه من قذارة السجن، وأعلن أعداء الصليب أنهم قد خدعوا بهذه الاتفاقية، ورددوا قائلين إنهم استردوا مدينتهم دمياط، ودمروا القدس مع حصون أخرى من حصون هذه المملكة الرائعة، لكن الصليبيين عمروا واحداً من الحصون التي لا ترام في فلسطين نفسها، وهو خطر جداً بالنسبة إليهم، وتمت عمارته على الرغم منهم، ولو أننا دمرنا دماراً كاملاً، أو وقعنا بالأسر بعد فقداننا لجميع ممتلكاتنا، وأيضاً لو أن دمياط قد فقدت من دون أي تعويض، لباتت بقية البلاد التي بأيدي عبدة المسيح على حافة خطر حقيقي، لأن الذين بقيوا لحراسة دمياط، تركوا المدينة وفروا، ولم يهربوا لوحدهم، بل أيضاً عندما سمع الذين وصلوا حديثاً التقارير غير الموائمة هربوا عائدين، ووصل كونت مالطا (١١٧) إلى دمياط في حوالي نهاية آب ومعه أربعين شينياً، وكان القراصنة قد سلبوا اسبتارية القديس يوحنا والداوية بضائعهم، وقتلوا واحداً من النبلاء الفرسان، وواحداً من الرهبان الدينيين من الداوية، الذي كان يدافع عما عهد به إليه، وجرحوا راهباً آخر، وكان من فرسان التيوتون.

الفصل الحادي والثمانون

بدأ السلطان قبل إعادة دمياط بتنفيذ ما وعد به، فقد أمر بإطلاق سراح أسقف بوفياس المنتخب وبعض الأسرى الآخرين، وجلبهم إلى معسكرهم، وجرى إرسال مقدم جيش الداوية، ومقدم رهبان التيوتون (١١٨) من قبل القادة ليسلموا المدينة تماشياً مع التعهد وتأكيدات أيانهم، وتم تنفيذ هذا بدون صعوبات كبيرة، لأنه لم يكن بين الحجاج الجدد الذي كانوا يصلون آنذاك، رجلاً قوياً، ونشيطاً، أو مثابراً بما فيه الكفاية

لأن يكون راغباً أو قادراً على التمسك بها بعد الوقائع المتقدمة الذكر.

الفصل الثاني والثمانون

«تدخل الحيوانات المآوي وتستقر في أوجرتها» (أيوب: ٣٧/ ٨) وإذا سألت لماذا عادت دمياط سريعاً إلى المسلمين، فإن السبب واضح: لقد كانت محبة للترف، وكانت طموحة، وكانت متمردة، وبالإضافة إلى ذلك كانت غير ممتنة للرب إلى أبعد الحدود، وكذلك بالنسبة للبشر، ولنمر بأشياء أخرى، منها أنه عندما أعطيت المدينة إلينا من الأعلى من السماء، وفي أثناء توزيع الثروات التي وجدت فيها، لم يحرم من ذلك لا امرأة عجوز ولا طفل ابن عشر سنوات، وفقط المسيح وحده — المعطي لكل الأشياء — حرم من الحصّة، ولم يدفع له حتى العشر، وفيما مضى قام الرومان الوثنيون فكريسوا وعاءً ذهبياً إلى أبولو، على شكل عشر، وقال بنو إسرائيل لموسى عندما قهروا المدينيين: «فقد قدمنا قربان الرب كل واحد ما وجدته أمتعة ذهب، وحجولاً، وأساور، وخواتم، وأقراطاً، وقلائد» (العدد: ٣١/ ٥٠).

وفي أثناء توزيع الأبراج وأماكن السكن، أعطي معظم الثناء عن جدارة لتلك الأمة المطيعة والنشيطة (الفريزيون)، التي هاجمت من البداية دمياط بشجاعة كبيرة، ولم تعباً بأي وضع سواء أكان متواضعاً أو منخفضاً، فبوساطة أسطول السفن الذي جلبته، أمكن تزويد معسكر المؤمنين بالأطعمة والسلاح، وهكذا جرى الاستيلاء على برج النهر (برج السلسلة)، وتنظيم العبور إلى الجانب المواجه من النهر، وتم بناء الجسرين الأعلى والأدنى، وكذلك بناء برج المراقبة في بورة، وتحصين أسوار السواتر الدفاعية، ولديها رضا في وجه مثل هذا النكران، ذلك «أن الرب سوف يعطي الثواب الجزيل» لعباده «ولسوف يقودهم في طريق رائع»

(الحكمة: ١٧/١٠).

الفصل الثالث والثمانون

يا محب الناس، وملك المجد، ومنقذ العالم، الذي يمتلك معرفة مقدسة، وقدرة فوق كل القوى، أنت الذي تلوم بعضهم، وتسكن آخرين، لقد أنزلت فخارنا إلى الرغام بانتزاعك دمياط من غير الشاكرين، وبرحمة منك حفظت أرمينيا وأنطاكية وصنيتها في وجه جهود الناس الأشرار، لأن الذين كانوا في الحصن سببوا انزال مأساة عظيمة على المسيحية، أما الذين كانوا الوادي فأضافوا أذى إلى الشرور، عندما افتراضاً اجتمعوا في حالة نكران لفضائلك ومنافعك، ولقد ظهرت عدالتك من أحد الجوانب بوضوح، ومن الجهة الأخرى أشرقت منافعك ومحاسنك المعتادة واضحة على الذين كانوا على استعداد لفتح أعينهم.

الفصل الرابع والثمانون

كان روين الذي كان من قبل صاحب أنطاكية من معدن نبيل جداً لكن لإفترقاره إلى حسن التصرف هو لم يكن مناسباً لإدارة الأمور العظيمة، وقام بمساعدة من غورين Guerin، مقدم استبارية القديس (١١٩) يوحنا، والذين تمكن من اقناعهم، فاستولى على طرسوس، وحارب الأرمن رغبة منه في الحصول على مملكة، ولم تفت معرفة هذا الأمر وإدراكه تركمان قونية، وقد تشجعوا بالخلافات بين المسيحيين، فهاجموا أرمينيا بالجنود، ولدى قيام قادة تلك المملكة بتقديم شكواهم، أكدوا على المخاطر التي تحيق بحياتهم وبينوها، فقد نقص تعداد جيش المسيحيين في تلك المنطقة، في تلك الآونة إلى حوالي العشرين ألفاً، وذلك بعدما أحصوا الذين قتلوا أو أسروا من قبل

المسلمين، وبعدما هرب العديد بسبب فقدانهم لممتلكاتهم.

الفصل الخامس والثمانون

وبناء عليه بالاضافة لشكرك كله ، وبقدر ما تسمح ، سوف أتابع بإضافة الأشياء التالية .

الفصل السادس والثمانون

في سنة النعمة لـ ١٢٢٢ ، وفي شهر أيار، حدث أن كانت هناك هزة أرضية كبيرة في قبرص ، وفي ليماسول ، ونيقوسيا ، وأماكن أخرى في تلك الجزيرة ، لاسيما في بافوس Paphos إلى درجة أن المدينة دمرت بالكامل مع القلعة ، والمخلوقات البشرية من الجنسين الذين كانوا هناك وقت حدوث الهزة ، فقدوا بالأجمع ، وجف الميناء حيث انبعثت المياه فيما بعد ، أو خرجت على شكل ينابيع .

الفصل السابع والثمانون

حشد في شهر حزيران من تلك السنة نفسها الملك المعظم جيشاً عرمرماً من العربية ، وفلسطين وأدوم وسورية ، وكان فيه عشرة آلاف فارس ، وخمسة عشر ألفاً من الجنود الرجالة ، وزحف به ضد غي صاحب جبلة ، الذي كان رجلاً شريراً وبلا مبالاة ، لهذا لم يرغب بالمشاركة في الهدنة العامة ، ورفض إعادة الأسرى المسلمين الذين كانوا في حوزته ، ومع أنه كان محصناً بشكل جيد ، بسبب الطبيعة الوعرة للمنطقة ولنيله المساعدات من المسيحيين ، مع هذا كله خضع لشروط هدنة مع المعظم ، كانت مؤذية له ومهينة لاسم

الفصل الثامن والثمانون

في شهر حزيران من السنة نفسها ، صارالفتى فيليب بن بوهيموند ، أميرأنطاكية فارساً في أرمينيا ، وقد تزوج ابنة ليون ، الذي كان ملك أرمينيا من قبل ، وجرى تتويجه معها بشكل مهيب ، ملكاً لتلك المملكة ، وعندما جرى الاحتفال بذلك الزواج ، وكان الأرمن محتشدين مبتهجين من أجل هذه المناسبة العظيمة ، هاجم الأتراك من قونية تلك البلاد بكل قسوة مع حشد عظيم ، وقد قتلوا كل من وجدوه وحملوا معهم كثيراً من الأسلاب ، وفي الوقت نفسه كان بوهيموند أميرأنطاكية وكونت طرابلس موجوداً ومع أنه كان معه القليل من اللاتين فقط في ذلك الوقت ، لأنه لم يتوقع مثل هذه الحادثة الشؤم ، مع هذا قام مع ابنه الملك على الفور وبشباط بمطاردة الأعداء عبرطرقات طويلة وصعبة ، ومع أن عدداً كبيراً من أتباعه قتل ، لكنه بحكم كونه رجلاً نشيطاً ، وبارعاً في استخدام السلاح ، طرد الأعداء وساقهم خارج حدود ألمانيا ، وبعد هذا استرد الأرمن واحداً من المعسكرات المحصنة ، واسمه سييليا Siblia ، وكان قائماً عند الحدود بين أرمينيا وتركيا ، وكان سلطان قونية قد انتزعه منهم مع حصون أخرى بعد موت ليون

الفصل التاسع والثمانون

وفي الوقت نفسه أرسل فردريك امبراطور الألمان وملك صقلية أربعة غلايين الى عكا ، وجرى استدعاء الملك ، والبطيريك ، ومقدم إستبارية القديس يوحنا ، وبعدما اجتمعوا عبروا في شهر إيلول وأسرعوا

للمشاركة في مؤتمر فيرونا ، الذي أعلن عنه من قبل الحبر الأعظم
والامبراطور ، ليكون في عيد القديس مارتن (١١ — تشرين الثاني)
وقدم بالوقت نفسه مع الأمراء المتقدمي الذكر اللورد بيلاغوس ،
أسقف ألبانو، ونائب الكرسي الرسولي ، أما مقدم الداوية مع جيش
الرهينة نفسها فقد بقي في أرض الميعاد من أجل حماية المسيحية ،
وذلك تماشياً مع التوصية العامة للبارونات ، وذلك بعدما أرسل
رسلاً عقلاء وذوي مكانة الى ذلك المجمع .

ملحق أ

قسم الخاتمة في مخطوطة دارمستادت Darmstadt

عندما أنجز هذا كله صار حجاجنا أكثر كسلاً من خلال انعدام النشاط وحياة الاضطراب ، ولكونهم كانوا متشوقين للمرابح الأرضية فقد أثاروا غضب الرب القدير ضدهم، وعندما رأى أننا كنا ناكرين بالنسبة للمباركة التي تلقيناها، حكم أننا غير جديرين باستلام المزيد، وفي الحقيقة بما أنه لا القوة والنصر يعيشان طويلاً من دون الرب، وبسبب ذنوبنا التي بأشكالها المتنوعة الدنسة التي أغضبت صانع خلاصنا، أقدم بعض أبناء الشيطان، المتسترين خداعاً تحت العقيدة المسيحية، على الاقتراح علينا في أن ننطلق ضد السلطان مع جميع قوى جيشنا، وكان متمركزاً قرب بعض الحصون القريبة مع حشد عظيم من المسلمين، كان كبيراً بقدر مال البحر التي لا يمكن عدها، لكن على أمل منا أن الأمور سوف تسير وتنفذ من الرب مولانا وفقاً للرأي العام للحجاج، انطلقنا ضد أعداء الايمان، وبدون تدبر تركنا دمياط من دون دفاع، وعندما رأى السلطان بعد ثلاثة أيام فرار الحجاج، تظاهر من جهته بالفرار، وبشكل مخادع ترك معسكره حتى يتم نهبه من قبلنا، وبادر مسرعاً مع جميع قوات مصر إلى دمياط مستخدماً طريقاً آخر، وأقام معسكره في بقعة ضيقة دون المدينة ودوننا، وبذلك لم يعد بإمكاننا التراجع أو التداخل معها، انتبهوا كيف حدث تغيير مفاجيء في اليد اليمنى للعلي الأعلى، فقد كنا حتى آنئذ، نتحكم بقوة بأرض مصر، والآن وهو واقف ضدنا طردنا بتعاسة وغدونا فيما بين البرلس وجيزة دمياط، بين الجوع والعطش، فذلك كان اليوم الذي عنه كتب: « ذلك اليوم يوم سخط» الخ (صفنيا: ١/ ١٥) ولا يسمح لي الأسف والنحيب والدموع الجارية بوصف الرعب واليأس، والمخاطر الخاصة بالموت، وبما أنه لم يبق

لنا من شيء سوى الموت بشكل تعيس، صرخنا جميعاً بصوت واحد نحو السماء إلى ربنا يسوع المسيح، ورجوانه بتواضع العفو والسماح، غير أنه وهو الذي يقول بلطفه: «إني لا أسزيموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا» (حزقيال: ١١/٣٣)، غالباً ما تذكر وهو غاضب رحمته، ذلك أنه عادل ورحيم، وبما أنه رأى الآن أننا تطهرنا بما فيه الكفاية بالاستغفار وبالدموع الجارية، عطل قسوة وعنف أعدائنا، إلى حد أنهم بعثوا إلينا رسلاً، نحن الذين كنا نتبدد ونضمحل جوعاً، للاتفاق على الصلح والوفاق معنا، وفق الشروط التالية: يمكن للسلطان استعادة المدينة وتملكها بسلام، وأنه سوف يعطينا أماناً إليها لنصل بدون أذى يلحق بنا شخصياً أو بممتلكاتنا، وذلك بتزويدنا بما يكفي من السفن والميرة، وإننا لنعلم أن الرسل قد أرسلوا من قبل الرب، لأنه لم يكن قد ترك لنا أي شيء سوى الموت أو عار العبودية الدائم، وكنا على استعداد لتقبل ذلك، وأن نعود بتواضع لأن نراعي الشكر للرب، وعندما تم إقرار هذه الاتفاقات، وأبرموا من خلال الرهائن والأيمان، تحركت عواطف السلطان نحونا ورحمنا وأشفق علينا، حتى أنه قام لأيام كثيرة بانعاش حشدنا كله ومساعدته بدون مقابل، وأخيراً عندما عرضت قضيتنا عليه وتم إقرارها، اشترى سفناً وميرة بأسعار عادلة، وأعطانا جوازاً آمناً، فمن الذي يمكنه أن يشك أن هذا اللطف، وهذه السماحة، والرحمة لم تأت إلينا من عند الرب؟ فهؤلاء الذين قتلنا آباءهم وأولادهم وبناتهم وأخوانهم وأخواتهم بمختلف أنواع التعذيب، هؤلاء الذين ضاعت ممتلكاتهم، أو أننا ألقينا بهم عراة بعدما أخرجناهم من بيوتهم، ساعدونا على استرداد عافيتنا بوساطة أطعمتهم ذلك أننا كنا نموت جوعاً، وفعلوا هذا مع أننا كنا في قبضة يدهم وتحت سلطانهم، وهكذا غادرنا ميناء دمياط مع حزن عظيم وبكاء، وتبعاً لاختلاف أماننا تفرقنا حتى نهايتنا في النعمة السرمدية

(٢)

المنتقى من مختصر تاريخ القدس

تأليف

جاك دي فيتري

استهلال

ولد جاك دي فيتري في فيتري - سورسين ، وأصبح كاهناً شماساً لأرجنتويل Argenteuil في سنة ١٢١٠ ، وقد جعلت زيارة له لأويني منه راهباً ، وغداً بعد أمد وجيز كاهناً من كهنة أوستن في فيلابروك Villebrouik في برابانت .

وما لبث جاك أن أصبح واحداً من الرجال القياديين في أيامه ، حتى كان تأثيره على الحركة الصليبية في القرن الثالث عشر ، لا يقل عن تأثير بطرس الناسك عليها في القرن الثاني عشر ، وقد جاء هذا بشهادة معاصريه ، وهكذا قال ايتين بوربون:

<<predicaindo totam commovit franciam, quad non putat memoria aliquem ante vel post sic movisse>>

وما تزال مواعظ قداسات دي فيتري موجودة ، وهي من الصعب أن تثير كثيراً من الحماسة في هذه الأيام ، لكن لا يوجد أدنى شك حول نجاحها في أيامها ، وبشردي فيتري أولاً بالصليبية ضد الألبينيين ، ثم أوقف حياته على العمل لاسترداد الضريح المقدس ، وتقدمت الإشارة في كتاب الاستيلاء على دمياط إلى أدوار جاك دي فيتري في الحملة الخامسة ، وهي الحملة التي جاءت إثر عقد مجمع اللاتيران في ١٢١٥ ، ودعوة هذا المجمع للحرب المقدسة ويقول فللر Fuller : لا بد أن هذه الدعوة قد أنعشت الآمال في رؤية إعادة تأسيس المملكة اللاتينية في فلسطين ، ونتيجة لما بذله دي فيتري من جهود أجزيت بتعيينه أسقفاً لمدينة عكا عام ١٢١٧ .

وكانت هذه السنة سنة صليبية الملك أندور الهنغاري ، التي تم خلالها الاستيلاء على منطقة الجليل ، لكن غير هذا كان ما أنجزته

قليلاً ورافق دي فيتري في السنة التالية الجيش الصليبي لحصار دمياط ، حيث أسهم بالأعمال العسكرية هناك واهتم بتحويل أطفال المسلمين الى المسيحية وتعميدهم ، وهذه الظاهرة نراها الآن علنية للمرة الأولى في تاريخ الحملات الصليبية .

وفي سنة ١٢٢٧ ترك دي فيتري فلسطين ، وذهب عائداً إلى أويني، وقدم في سنة ١٢٢٩ الى روما مرة جديدة ، وهناك تنازل عن رسامته أسقفاً لعكا الى البابا غريغوري التاسع .

وإثر هذا صار كاردينالاً وأسقفاً للقدس، ونائباً للبابا في فرنسا وألمانيا، وغدا في آخر المطاف بطريك القدس ، وقد توفي في روما في ٣٠ نيسان لعام ١٢٤٠ ، وكان ذلك قبل أن يدخل بطركيته .

ويظهر من العرض الموجز المقدم أعلاه حياة دي فيتري أنه قد ولد في الآونة التي أصيبت فيها الحركة الصليبية بصدمة أخبار تحرير صلاح الدين لمدينة القدس ، ولابد أنه كان في صغره على دراية بتقاليد الأخبار عن غودفري وتانكرد ، وبقصص أيامه عن فيليب أغسطس ورتشارد قلب الأسد، وكان قبل أن يموت قد رأى القدس مجدداً بأيدي الصليبيين ، علماً بأنه كرجل كنسي قد قدر الامبراطور فردريك الثاني على أنه مجرد رجل مرتد ، مع أن هذا الامبراطور هو الذي تسلم القدس من السلطان الكامل الأيوبي .

وبناء عليه ، قلة هم الكتاب الذين كان بإمكانهم تصوير مشاعر الصليبيين في تلك الحقبة ، بشكل أفضل من جاك دي فيتري ، ذلك أنه نشأ بين ذكريات الصليبيين ، وعندما صار رجلاً بشراً من أجل الحركة الصليبية ، وقاتل مع الصليبيين في كل من مصر وفلسطين ، ومع هذا فإن ما عرفه عن الأرض المقدسة نفسها لم يكن كثيراً باستثناء ما سمعه عنها ، لأن جلها كان أثناء أسقفيته في أيدي

المسلمين ، ولا شك أن الذي أحسن عرضه هو مشاعر عدم الثقة والكراهية لدى الصليبيين المحليين الدهاة من أبناء الصليبيين القدامى من الحقبة البطولية ، نحو البدائيين الحمقى الجدد التي جلبتهم حملات الحجاج المتوالية ، وقد حفظت لنا نعوت الشتم التي وسم بها كل طرف الطرف الآخر ، وهي : بوليان ، وبولفان ، وأبناء الأبطال Filii Hernaudi ، ولوقت كبير لم يكن هناك اتفاق بين الباحثين حول أصل ومعنى كلمتي : بوليان وبولفان ، لكننا شرحنا ذلك بشكل علمي موثق في الجزء الثامن المتقدم ، هذا وكان السيروولتريزانت (القدس مدينة هيرود وصلاح الدين ص ٢٧٤ - ط . جديدة ١٨٨٩) قد ذهب إلى أن «مناخ سورية سبب تديناً سريعاً في الشجاعة والقوة لدى العرق اللاتيني » ، وهذا الكلام غير مقبول لعنصريته ، ثم من الذي زلزل الأرض تحت أقدام الصليبيين ثم طردهم بعد قرنين غير السوريين ؟ هذا ونجد أن اسلوب جاك دي فيتري ملئ بالنعوت ، وهكذا نراه يولول مثل امرأة غاضبة عندما يعرض شكواه عن عصره ، الذي ربما لم يكن أسوأ مما تقدمه ، ثم إن حدة الهجاء لديه وحرارته قد انتزعت منه معظم قوته .

ومهما كان رأينا بأسلوب دي فيتري ، هناك قليل من الشك أنه قد كتب هذا الجزء من الكتاب من خلال معاناته الشخصية ، هذا ولا يمكننا قول الكثير عن البقية كما أنه من الصعب تبيان كم من الوصف الطبوغرافي لديه هو أصيل ، أما تاريخه فقد اعتمد فيه الى أبعد الحدود على تاريخ وليم الصوري ، وتظهر مجموعته من الحكايات والأساطير التي أوردها في نهاية تاريخه المختصر أنه امتلك شهية لاتعرف الحدود وشرهاً نحو «العجائب» وأنه كان بلا مؤهلات نقدية مهما كان نوعها .

لقد كان مؤلف جاك دي فيتري كبيراً ، وقد ضاع منه جزء كبير ،

كما أن بعض الفصول التي وصلتنا ، تسلمناها مبتورة ، ومن المقدر أن ما ضاع من الكتاب لم يؤثر عليه أوبالحري لم يفقد ما وصلنا قيمته ، فالذي ضاع تعلق بفضائل القدس وفلسطين وبمكانتهما عند المسيحيين ، مع أوصاف جغرافية وطبوغرافية ، ونظراً لنقله عمن تقدمه فقد وقع في أخطاء كثيرة بالنقل لفقدانه القدرة على النقد والتدقيق كما أشرنا أعلاه ، يضاف الى هذا أنه مع عقليته الخاصة وتكوينه اللاهوتي كتب تاريخه في الغرب وقد تقدمت به السن ، ومع هذا ظل هذا الكتاب على ما له وما عليه وثيقة من أهم وثائق القرن الثالث عشر ، يفترض بالباحث والقارئ الاطلاع عليها والتعرف الى محتواها .

تاريخ القدس

تصنيف جاك دي فيتري

(أسقف عكا . كاردينال أسقف توسكولم . النائب البابوي في فرنسا
وألمانيا . بطريك القدس)

يبدأ هنا التاريخ المختصر للقدس

اختار الرب أرض الميعاد المقدسة ، وأحبها ، وجعلها بوساطة الملائكة المقدسين وجعلها موضع اعجاب العالم أجمع ، لأنها المفضلة من قبل الرب ، فهو جعلها تشع بحضوره فيها بالجسد ، وبناء عليه توجب إنقاذ الجنس البشري بوضعه للقرايين التي جعلنا بوساطتها أحراراً ، وعلى هذا أحب الرب هذه الأرض بمودة أكثر من الأراضي الأخرى ، وكان أن شاء الرب أن تتعرض هذه الأرض الى الكثير من المحن بسبب ذنوب الناس ، وأن تكون عرضة لمختلف الإضطرابات من قبله الذي حرم علينا إعطاء الأشياء المقدسة الى الكلاب أو رمي اللاكي أمام الخنازير ، ولقد آلت ملكيتها الى كثير من الممتلكين ذلك أن بعضهم أتى إليها ، ومضى بعضهم الآخر بعيداً ، لكن نادراً ما قام أحدهم بالتمييز بين الأشياء المقدسة والأشياء المدنسة ، واستخفوا بهذه الأرض المرغوب بها ، ذلك أنها الأرض التي تفيض بالحليب وبالعسل ، ثم إنها أرض مولانا يسوع المسيح ، والآباء المقدسين ، والأنبياء والرسل ، ولقد دنسوها بمختلف أنواع النجاسات ، حتى تحقق بذلك ما تفوه به الرب بلسان النبي بقوله : « إن الذي يمسسك بسوء يمس بؤبؤ عيني » (زكريا : ٨/٢) ، لأن العين تحب وتقدر أكثر من أي عضو من أعضاء الجسد ، ولهذا عندما يقع وسخ ما في العين نبادر مسرعين ، باذلين أقصى جهودنا ، لإزالة هذا الوسخ ، وهكذا فعل مخلصنا ، عندما أوجع ، وجلد ، وطرد المذنبين الذين سكنوا في الأرض المقدسة التي أضفى عليها امتياز حبه الخاص ، ويكون بعمله هذا قد طهرها من دنس ذنوبهم ، وعندما يتوبون وتتحول قلوبهم مرة جديدة ، يعيدهم هو برحمته الى الوضع نفسه ، ذلك أن العمق يدعو الى العمق ، أي أن عمق البؤس يدعو

الى عميق رحمته ، ولكي نبرهن على صحة ما ورد أعلاه نسوق بعض الأمثلة القديمة : كان ملكيصادق ، كاهن العلي الأعلى ، ملكاً على سالم ، التي باتت فيما بعد حسبما يعتقد غالبية الناس - تعرف باسم القدس (أور- سالم) ، وذلك حسبما نقرأ في سفر التكوين ، وقد تملك غالبية القدس من بعده ملك اليبوسيين ، وظلت بأيديهم حتى أيام داود ، وكان عندما وصل ظلمهم الى الغاية القصوى ، أحال الرب الى أيدي أبناء اسرائيل المدينة المقدسة والمكان الذي كرسه لنفسه خاصة ، وذلك حتى يتعبده هناك ، ويقدمون الأضاحي من مختلف الأنواع ، وهي كلها سوف تجسد التضحية الأعظم التي لا يمكن وصفها .

لكن فيما بعد عندما تضاعفت ذنوب سكانها، وباتت أكثر حتى من رمال البحر، وذلك في أيام الملك صدقيا، والنبي إرميا، سقطت في أيدي البابليين وظلت تحت سيطرتهم لمدة سبعين سنة.

الفصل الحادي والعشرون

بعد تخليص المدينة المقدسة وتحريرها، عاد كثير من قومنا — وقد وفوا بنذورهم وحققوا رغباتهم — وهم يشعرون بالبهجة، إلى أوطانهم، وعرف رجال كثيرون وذوي مكانة عالية، وأدركوا بشكل حكيم أنهم لا يمكنهم الحفاظ على المدينة ما لم يتمكنوا من توسيع حدودها، وإبعاد الأعداء عن حدودها وطردهم إلى أماكن قصية، ولهذا اختاروا البقاء هناك وسط المخاطر العظيمة وفضلوا ذلك على التخلي عن المدينة، وبذلك كانوا يقدمون أضحياتهم إلى الرب، ويقومون بتنفيذ أوامره، بإعطائه ليس الرأس فقط لكن الذيل أيضاً، وكانوا — على كل حال — عددهم قليل، مقارنة بالأمم التي أحاطت بهم، وكانوا مطوقين من جميع الجهات بحشود هائلة من غير المؤمنين، منهم العرب، والمآيين والعمونيين في الشرق، والأدوميين والمصريين والفلسطينيين في الجنوب، وفي الغرب حيث المدن الساحلية: عكا، وصور، وطرابلس والمدن الأخرى حتى أنطاكية، وفي الشمال قيسارية فيليب، ومنطقة الأسقفيات العشر، ودمشق، ومع هذا لقد آثروا تعريض حياتهم للخطر في سبيل المسيح على التراجع بعدما وضعوا أيديهم على المحراث، وبالتالي أن يتركوا العمل دون أن ينتهي، والآن لم ينظر هؤلاء الرجال المقدسون نحو الخلف أثناء مضيقهم نحو الأمام، بل نسيوا الأشياء التي كانت خلفهم، ووصلوا في الأمام إلى الأشياء التي مازالت تنتظرهم، ورأوا أن ما من شيء قد أنجز طالما بقيت أشياء لم تنجز، وكان الرب معهم يرشدهم ويقويهم، ويلقي الرعب الشديد في قلوب الكفار من حولهم، إلى حد أن واحداً منهم كان بإمكانه أن يطارد ألفاً، وبإمكان اثنان منهم مطاردة عشرة آلاف، وبناء عليه لم يعلقوا آمالهم على شجاعتهم أو عددهم، بل على حماية الرب، وهكذا كانوا يحملون معهم أثناء القتال راية الصليب المنقذة، وبذلك

أمكنهم إلحاق الهزيمة بأعدائهم، فقسم من هؤلاء الأعداء قتلوه وقسم أخذوه أسرى، وربحوا من أجل المسيح أقوى المدن، والقلاع التي كانت لاترام حصانة، وانتزعوا الأرض المقدسة من قبضة الكفار بشجاعة متكافئة ونجاح.

الفصل الثاني والعشرون

في أول انطلاقة لهم، وقف الصليبيون أمام مدينة يافا على شاطئ البحر، وبعنف استولوا عليها عنوة، وكانت الغاية من ذلك أن يتمكن، الذين قدموا مبحرين من بلدان ما وراء البحر، من تقديم العون للحشد الصليبي، لدى امتلاك هذا الحشد مرسى خاص بهم لسفنهم، حتى يمكنهم الركوب من تحت أسوار المدينة المتقدمة الذكر، يضاف إلى هذا كانت هناك الرملة، التي يدعوها بعضهم باسم راماثا Ramatha، والتي هي واقعة وسط سهل، وكانت مدينة عظيمة، مليئة بالسكان، محاطة بسور حجري ممتن بأبراج عالية، وكانت هناك أيضاً حيفا، التي اسمها الآخر هوبورفيريا Porphyria (كذا والصحيح أن بوفير ليست حيفا، بل تبعد عن صيدا ثمانية أميال إلى الشمال منها)، وتقوم حيفا على شاطئ البحر، عند بداية سفح جبل الكرمل، على بعد حوالي الأربعة أميال عن عكا، ومثل هذا هناك مدينة طبرية في الجليل، القائمة على بحر جنسارث، ومن اسم طبرية بات هذا البحر يعرف ببحر طبرية، وبشكل عام باسم بحر الجليل، هذا وجرى الاستيلاء على هذه المدن من قبل شعبنا، في السنة الأولى بعد الاستيلاء على القدس، وكان يقوده غوردفري، الدوق الشجاع.

الفصل الثالث والعشرون

وخرجت في أواخر تلك السنة روح غودفري من جسده، وجرى اختيار أخاه بلدوين لخلافته، وذلك باجماع عام، وكان فارساً شجاعاً في القتال، مدرباً وصاحب خبرة بالحرب منذ طفولته، وجرى تسميته ملكاً، ولقد كان رجل حرب، وحكيماً، وحريصاً في إدارته لأعماله، متشوقاً بشدة لتوسيع حدود مملكته الصغيرة، وبمساعدة الجنويين، الذين رسا أسطولهم في ميناء يافا حوالي بداية الربيع، استولى على بلدة أرسوف القائمة على طرف البحر، وهي أيضاً تعرف باسم أنتبارتس نسبة إلى أنتبارتر، والد هيرود، وهي قائمة فيما بين يافا وقيسارية في مكان بهي، تكتنفه غابات كثيفة ومروج خصبة كثيرة الأعشاب.

الفصل الرابع والعشرون

وقام بعد هذا، بمساعدة الجنويين المتقدم ذكرهم بمحاصرة قيسارية الفلسطينية من كل من البحر والبر، واستولى عليها، وكانت قيسارية هذه تدعى من قبل برج ستراتو وقد أعاد هيرود الذي ذبح الأطفال عمارة قيسارية على شرف قيصر، وهي قائمة على طرف البحر، لكنها لا تمتلك ميناءً موائماً، هذا وفيها وفرة من الحدائق والمراعي والمياه الجارية، وهي المدينة الرئيسية في فلسطين الثانية (الصحيح الأولى لأن بيسان حاضرة الثانية)، وفيها سجن القديس بولص الرسول لمدة طويلة، وقدم التماساً حتى يسمح له بالذهاب إلى روما.

الفصل الخامس والعشرون

وقام الملك بلدوين المتقدم الذكر، بعدما استولى على قيسارية، بقيادة جيشه المحتشد كله من المهمة الصغرى إلى المهمة الكبرى، وألقى الحصار على عكا، لأن عكا كانت أكثر مواءمة لإستقبال الحجاج، وتمتلك ميناءً جيداً، يهوى ملاذاً آمناً للسفن، وهاجمها الجنويون من طرف البحر مع سبعين من الغلايين، وضغط عليها قومنا من جانب البر بشدة وبدون توقف، وبعد عشرين يوماً، عندما وجد سكانها أنفسهم غير قادرين على متابعة تحمل الهجمات الحادة والمتوالية التي قام بها قومنا، سلموا المدينة إلى الملك، بشرط السماح لهم بمغادرتها ومعهم مقتنياتهم، وتمتلك هذه المدينة المتقدمة الذكر اسمين هما بتولياس Ptolemias، وعكا، وذلك بسبب أن أخوين، اسم أولهما بتولي والآخر عكون قد أسساها كما قيل، ومن ثم حملت اسميهما، وهي قائمة فيما بين البحر والجبال، ومبنية على موقع موائم على ضفة نهر بليوس Belus (النعامين وقبل ذلك بعل)، وفيها حدائق كثيرة، وكثيراً من الكروم، ويحيط بها كثير من الأراضي الصالحة للزراعة، وهي قائمة في مقاطعة فينيقية، ومدينة صور مركز مطرانيته.

الفصل السادس والعشرون

وقام شعبنا لإثر هذا بالقاء الحصار على مدينة بيروت بوساطة البحر والبر، وقد انضم إليهم برترام كونت طرابلس النبيل، وبعد شهرين من الحصار، أمكن جلب أبراج خشبية ودفعها نحو الأسوار، وإلصاقها بها بوساطة السلام، وبذلك تمكن الصليبيون من شق طريقهم إلى داخل المدينة، فقتلوا عدداً كبيراً من السكان، ووضعوا البقية في الأصفاد

وجعلوهم أسرى لديهم، ويبروت مدينة قائمة على شاطئ البحر بين صيدا وجبيل، في بلاد فينيقيا، ومدينة صور هي مركز مطرانياتها، وهي مدينة جميلة وخصبة، وفيها أشجار فواكه وكروم، وهنا حدث أن صلب اليهود تمثالاً خشبياً للمسيح استخفافاً وسخرية به، وعندما خرق من قبلهم بوساطة مسامير وحرية، تدفق الدم منه بغزارة، ولدى رؤية هذه المعجزة قام جميع اليهود بطقوس التعميد.

الفصل السابع العشرون

وفي السنة نفسها التي جرى الاستيلاء بها على بيروت لم يكن الملك كسولاً، فهو لم يتسلم نعمة المسيح عبثاً، ولهذا استطاع أن يضع مدينة صيدا تحت سلطانه، بذراع قوية، وسلاح ماضٍ، وأرغم السكان، بعدما عجزوا عن مقاومته، على التخلي عن مدينتهم وتسليمها إليه، ومدينة صيدا قائمة في مقاطعة فينيقيا، على شاطئ البحر، بين صور التي هي حاضرة المقاطعة، وبيروت، وفيها أشجار فاكهة وكروم، وغابات وحقول، بعضها مراعي وبعضها الآخر قابل للفلاحة، ولهذا كان السكان يستفيدون من ذلك كثيراً، وتلطف المولى يسوع بشخصه فزار حدودها، وذلك حسبما نقرأ في الانجيل (متى: ١٥)، وقد مضى يسوع من هناك، وخرج متجولاً في سواحل صور وصيدا، وفي سفر الملوك الثاني (كذا) قال سليمان لحيرام: «لأنك تعلم أن ليس فينا مع يعرف ينجر الخشب مثل الصيدونيين». (الملوك: ١/ ٥/ ٦).

الفصل الثامن والعشرون

والآن بعدما مدّ الملك حدود مملكته في الجانب الغربي حسبما حكينا، رغب في توسيع المملكة الصليبية إلى ما وراء الأردن في الشرق، فبنى قلعة

غاية بالقوة على جبل مرتفع في العربية الثالثة التي تعرف باسم سورية صوبال (أي صوبا) ودعيت هذه القلعة مونتريال (الشوبك) لأنها بنيت من قبل الملك، وهي غنية بالقمح، والخمرة والزيت، وهي محط إعجاب لجماها ولصحة مناخها، ويمتد سلطانها فوق المنطقة المحيطة، لابل حتى حدود مآب، ومياه الحسي Strife .

الفصل التاسع والعشرون

ومضى في السنة نفسها الملك بلدوين، صاحب الذكرى المباركة أبداً على طريق جميع الأجساد، وذلك بعدما بنى حصناً في مكان قام فيها بين عكا وصور، ويعرف هذا المكان عموماً باسم اسكندرونة، وهو مكان كثير المياه على بعد خمسة أميال من صور، وقد دفن بكل تبجيل، يليق بعظمته الملكية، عند سفح جبل الجمجمة، في مكان يعرف باسم الجلجلة، وكان خليفته نبيلاً، ورجلاً شجاعاً، صاحب ممارسة للحروب، ومتدين، ويخاف الرب، واسمه بلدوين دي بيرغ، وقد كان من مملكة فرنسا، ومن أقرباء الملك المتقدم الذكر.

الفصل الثلاثون

قد يحتاج الأمر وقتاً طويلاً، ولربما سيكون فوق مقدرتي الفقيرة أن أبين ما هية القوة والعظمة، وأن أوضح أية أصالة وأي نشاط حمل فيها الرجل المتقدم الذكر نفسه، وجنود المسيح الآخرون أنفسهم في كل مناسبة من المناسبات، فكانوا بمثابة جيل ثانٍ من المكابيين، وقد كرسوا أيديهم للرب في توسيع رقعة المملكة والحدود الصليبية، وفي قتال الأعداء، والاستيلاء عنوة على المدن الحصينة والأماكن القوية، ولسوف تروى أخبار معركتهم وانتصاراتهم في جميع كنائس القديسين حتى نهاية الزمان،

ودعونا نتكلم بلطف وباختصار عن الدويلات الأربعة النبيلة، وهن اللائي تحكم بهن لمدة طويلة الجنس الدنس من الكفار، واللائي بعون الرب عدن إلى سلطان كنيسة المسيح، وأولهن كونتية الرها في بلاد الميدين، وهي تبدأ عند غابة اسمها مرثيا Marcitha (مرعش؟) وتمتد حتى ما بعد نهر الفرات باتجاه الشرق، وتشتمل في داخلها على عدد كبير من المدن، مع كثير من القلاع والأماكن الحصينة .

الفصل الحادي والثلاثون

الرها مدينة نبيلة، وهي حاضرة الميدين، وكان اسمها القديم حسبها نقرأ في سفر توبيت راجس Rages ، وتعرف الآن بشكل عام باسم رواس Roasse ، ومنها كان توبيت قد أرسل ابنه إلى جبائيل من مدينة نينوى، التي تعرف في هذه الأيام باسم الموصل، أو موصي Mosse في العامية، وتحولت هذه المدينة إلى المسيحية بوساطة ثيودورك الرسول، وذلك بفضل تبشيره ومعجزاته، وفيها كما قيل دفن الجسد الطاهر للقدس ثاديوس thaddaeus الرسول، وحكم هنا تبعاً لما جاء في مختلف المصادر التاريخية القديمة، والتاريخ اللاهوتي، الملك أبجر، في أيام المسيح، ولدى سماعه، واندعاشه بالأعمال الرائعة للمسيح، وبالمعجزات التي لم يسمع بمثلها التي كان المولى يسوع يقوم بها في اليهودية، بعث إليه برسالة، تنازل مولانا وتلطف بكتابة جواب لها، وكانت هذه المدينة القديمة والنبيلة مملوكة من قبل اللورد بلدوين، أخو الدوق غودفري، قبل استدعائه إلى مملكة القدس، وقد قام هو وخلفاؤه الذين جاءوا من بعده بطرد المسلمين منها، وجعلوا جميع منطقة الرها تحت سلطانهم، وهذه المنطقة غنية جداً بغاباتها ومراعيها وأنهارها، وحملت هذه البلاد اسماً خاصاً بها هو الجزيرة، أو بلاد ما بين النهرين، لأنها قائمة في الوسط ما بين نهرين، (ميزوبوتاميا)، ذلك أن كلمة «ميزو»

في الاغريقية تعني «الوسط» و«بوتوماس» أيضا بالاغريقية هي الكلمة التي معناها النهر، وتوجد في هذه المنطقة مدينة حران، حيث سكن ابراهيم، عندما جاء من (أور) الكلدانيين، وذلك قبل ذهابه إلى أرض الميعاد، وهذه المنطقة المتقدمة الذكر ثلاثة رؤساء أساقفة، أحدهم للرما، والآخرون لجيروبولس Geropolis ولكوريكوس Corieus، وهم تحت سلطان بطريك أنطاكية.

الفصل الثاني والثلاثون

وكانت الإمارة الثانية هي إمارة أنطاكية، وحاضرتها هي مدينة أنطاكية، وتمتد حدودها غرباً حتى طرسوس في كليكية، مسقط رأس بولص الرسول، وحدها الشرقي هو النهر الذي يجري بين بانياس Va-lenia (الساحل) تحت قلعة المرقب، ومرقية Maraclea (نبح حسان قرب الرمال الذهبية خارج طرسوس)، وهما مدينتان على شاطئ البحر، وكان الاسم القديم لمدينة أنطاكية هوربله *، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الرابع، حيث ورد أن زكريا ملك القدس قد حمله نبوخذ نصر، ملك بابل، إلى ربله، وأنه ذبح ابنه أمام عينيه، واقتلعوا عيناه بناء على أمر الملك السالف الذكر، أي ملك بابل، ونالت بعد ذلك اسم أنطاكية من الملك أنطوخوس، الذي وسعها كثيراً، وجعلها المتقدمة والحاكمة لجميع مقاطعات الشرق، وبعدما تحولت إلى الإيمان بالرب من خلال تبشير القديس بطرس ومعجزاته، والقديس بطرس الذي هو أمير الحوارين، كان أول من تسلم الأسقفية فيها، ثم أطلق عليها اسم ثيوفيلس Theophilis، من خلال اسم ثيوفيلوس Theophilus، وهو نبيل ومواطن قوي، تمت سيامته فيما بعد ليكون الأسقف السابع هناك،

* — وهم المؤلف فربله قائمة على العاصي فيما بين حمص وبعبلق.

وهكذا فإن المدينة التي نالت اسمها أولاً من ملك كافر، حصلت على اسمها الجديد من خلال رجل مقدس ومتدين، وهو ثيوفيلوس، الذي كرس القديس لوقا الرسول — الذي جاء من المدينة نفسها — له أعمال الرسل، وفي هذه المدينة تلقى للمرة الأولى أتباع المسيح الاسم المقدس الذي أطلق عليهم من قبل الرب نفسه وبلسانه، وباتوا يعرفون به منذ ذلك الحين، وهو اسم المسيحيين، الذي اشتق من اسم المسيح، حيث كانوا يعرفون من قبل باسم الجليليين والحواريين(*)، ويحتل هذا المكان المقام الثالث بالنسبة لكنائس الرب والكراسي الرسولية، وتحت سلطان بطركها عشرين مقاطعة، أربع عشرة منها في الجزيرة تدار من قبل أساقفة مساعدين، أما الست البواقى فتدار من قبل رئيسين يحمل كل منهما لقب جاثليق، أحدهما هو جاثليق مدينة السلام أو بغداد، التي عرفت من قبل باسم بابل، أما الأخرى فهي آن An، التي تعرف أيضاً باسم أبرشية فارس، وتقوم أنطاكية في منطقة تعرف باسم سورية المجوفة، في مكان موائم جداً، بين الجبال والانهار، وتمتلك حقولاً خصبة جداً وتربة صالحة، وهي محلاة بأنهار منفردة وينابيع مياه، وإلى جوارها بحيرة فيها وفرق من الأسماك، وهي على بعد عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً عن البحر، ولها مرفأ عند مصب نهر العاصي يدعى ميناء القديس سمعان (السويدية)، وهناك إلى الشمال منها جبل يعرف باسم «التل الأسود»، ملء بالرهبان والنسك من كل ملة وجنس، مع كثير من الديرة

* — المشهور أن بولص (شاوول) الرسول بعدما سيطر على الكنيسة، قال لأتباعه في أول اجتماع عقده لهم : «أنتم أول النصارى وآخر الجليليين»، ومن المرجح أن معنى كلمة نصاري هو غنوصي — وذلك اعتماداً على وثائق الرها لمطلع القرن الميلادي الاول، وقيل حديثاً: اشتق الاسم من نقابة للصيادين وجدت في خليج العقبة وكانت تصطاد هناك سمكاً حمل اسم نصاري، ويربط بعضهم الآخر هذه التسمية بالصابئة الذي سموا أنفسهم النصارى، وربطوا ذواتهم بيوحنا المعمدان.

رهبانها من النوعين الاغريقي واللاتيني، وبما أن هذا التل مليء بالمياه الصادرة عن الغدران والينابيع، فهو يعرف باسم جبل نيروس Neros، أي المائي لأن كلمة نيرو بالاغريقية تعني ما تعنيه كلمة ماء باللاتينية، لكن الجهلة من العامة يدعونه «نوار» Noire، أي الاسود، في كلامهم الدارج.

الفصل الثالث والثلاثون

والإمارة الثالثة بين الإمارات الأربع المتقدمة الذكر هي كونيتية طرابلس، التي تبدأ عند الغدير المتقدم الذكر، الذي يجري تحت قلعة المرقب، وتنتهي عند الغدير الذي يجري بين جبيل وبيروت، وهما مدينتان قائمتان على شاطئ البحر، وطرابلس مدينة نبيلة وثرية قائمة على شاطئ البحر، في مقاطعة فينيقيا السورية، وهي قائمة في مكان مناسب، في موقع موائم جداً، يُسقى بوساطة مجاري المياه والينابيع، وهي غنية بالقمح، وبأشجار الفواكه، وبالمراعي الخضراء، وتتمتع بمنافع كبيرة من مجاورتها لجبل لبنان، وتلاله المنتشرة، وينبع عند سفح جبل لبنان في هذه الأجزاء نبع فائق (نهر قاديشا) الجمال بمياه نقية جداً، تتدفق من خلال ممر تحت الأرض في لبنان، وتسقي بوفرة جميع حدائق الكونيتية، ولقد قالوا بأن هذا هونبع الحياة الحية، الذي أتى سليمان على ذكره في نشيد الانشاد (١٥/٤)، وقرب هذه المدينة ينابيع مياه عذبة تتدفق بغزارة بين أمواج البحر المالحة والمرّة، وهنا أيضاً كروم تحمل ثمارها مرتين في العام.

وحوصرت هذه المدينة الجليلة لمدة طويلة بعد الاستيلاء على القدس، والذي تولى ذلك هوريموند (صنجيل) كونت طولوز، وكان رجلاً جديراً بالثناء في كل شيء، وفارساً شجاعاً، وعبداً تقياً للرب، وقد بنى قلعة إلى جانب المدينة حتى يتمكن بمواءمة أكبر من محاصرتها، وأطلق على هذه

القلعة اسم قلعة (تلة) الحجاج، وماتزال تحمل هذا الاسم حتى هذا اليوم لأنها بنيت من قبل الحجاج، وتابع ابنه برترام الحصار بعد وفاته، وتمكن بعد سبع سنوات من الاستيلاء على المدينة باستسلام سكانها، وتسلمها بمثابة اقطاعية من ملك القدس، الذي كان موجوداً أثناء الاستيلاء على المدينة، والذي أصبح هو الرجل التابع له.

الفصل الرابع والثلاثون

والدولة الرابعة هي مملكة القدس، التي تبدأ عند النهر الصغير (نهر ابراهيم) المتقدم الذكر، الذي يجري فيما بين جيل وبيروت، وتنتهي بالقفار المتجهة نحو مصر، فيما وراء قلعة تدعى الدارون (دير البلح)، وتمّ نيل مملكة القدس من أجل المسيح بعد جهد كبير وسفك دماء كثيرة، ولقد تمّ استردادها من قبل الأبطال المنتصرين ورفاق الرب، الذين حزموا أوساطهم بشدة، وامتوا أذرعهم، وطرّدوا أعداء الايمان بالمسيح من دان حتى بير السبع، وأخرجوهم من الأرض المقدسة.

الفصل الخامس والثلاثون

ومدينة دان التي هي الحد الشمالي لأرض الميعاد، مدينة قديمة جداً، وهي قائمة عند سفح جبل لبنان بينه وبين دمشق، وكان اسمها القديم هولشم، لكن بعدما استولى عليها أبناء دان، باتت تدعى بكل بساطة «دان»، وعلى كل حال وسعها فيما بعد فيليب الطيطراخ، الذي كان ابن هيرود الأكبر، وسماها قيسارية فيليب تكريماً للقيصر تايبيروس، وتدعى أيضاً باسم بانياس، ويطلق عليها الآن بالدارجة اسم بلياس (*).

* — يعرف الآن موقع دان باسم تل القاضي، حيث أقام الاسرائيليون عنده مستعمرة سموها دان.

وتدعى الغابة المجاورة لها أيضاً باسم بانياس، لكن في القديم كانت هذه الغابة وبقية الغابة قرب جبل لبنان تدعى غابة لبنان.

الفصل السادس والثلاثون

وتشكل بير السبع الحد الشمالي للأرض المقدسة، وتقع بير السبع في جزء اليهودية الذي صار حصّة لسبط شمعون، وتقع عند سفوح الجبال القائمة عند بداية السهل فيما بين عسقلان والجبال، وذلك على بعد عشرة أميال عن عسقلان، ومعنى اسمها وتفسيره «بئر المعاهدة» أو «معاهدة البئر»، لأن إبراهيم حفر البئر في هذا المكان، ليكون شاهداً على المعاهدة التي أقامها مع الملك أبيمالك، وتدعى أيضاً باسم بئر السبع (رقم سبعة)، ويطلق عليها في أيامنا هذه اسم جبلين(*).

الفصل السابع والثلاثون

إنها مهمة صعبة، وأكبر من طاقتي، أن أعرض وأبين البراعات في القتال، وأعمال توسيع حدود المملكة الصليبية، التي تمّ انجازها بعون الرب من قبل جنود المسيح الأماجد، وهم أصحاب الذكرى المباركة، وكان جند المسيح هؤلاء، الذين دعوا عن جدارة باسم المسيحيين، قد تمتعوا بموهبة الشجاعة ونالوها من عليين، ولقد قاتلوا لوقت طويل ضد المسلمين تحت قيادة مختلف الملوك، وحصلوا على جميع المدن والأماكن الحصينة من عند مدينة بلبس، وهي تعرف أيضاً باسم بليسيوم(**) القائمة في البرية على حدود مصر، وتمتد حتى إلى الرها

— هذا وهم فجبلين هي جبرين، وجبرين غير بئر السبع.

— بليسيوم كانت قائمة على الساحل في حين قامت بلبس على خط قناة قديمة من

النيل إلى بحيرة التماسح.

وحرّان، وحدود كونتية الرها فيما وراء نهر الفرات، في بلاد الجزيرة، ونال كثير منهم تاج الشهادة الحلوة، ووسعوا كثيراً حدود مملكة القدس والمسيحية بسفك دمائهم، في حين ضموا إلى البلاد عدداً كبيراً من المدن والبلدات والأماكن الحصينة واستحوذوا عليها ووضعوها في أيديهم، أما من جهة البحر، فهم لم يتركوا مدينة أو حصناً فيما بين المدينة المسماة الفرما، القائمة على حدود مصر، ومملكة القدس حتى إلى اللاذقية في سورية، ولم يقيموا السلطة الصليبية فيها.

الفصل الثامن والثلاثون

الفرما (الآن تل الفرما، وهي بليسيوم القديمة) مدينة قديمة جداً على شاطئ البحر، وهي ليست بعيدة عن مصب نهر النيل، من حيث يدخل الإنسان إلى مصر، وكان بلدوين، الملك اللاتيني الأول للقدس، قد استولى عليها عنوة، وحصل على عدد كبير من الأسرى، وكثير من الأسلاب له شخصياً ولأتباعه الجنود.

الفصل التاسع والثلاثون

وتأتي وراء الفرما مدينة قديمة أخرى، قائمة وسط البرية قرب شاطئ البحر، وتدعى لاريس (رمسيس)، والذي يليها هو مدينة بليس، والتي جاءت تسميتها عند الأنبياء باسم «بليسيوم»، وهي على بعد خمس غلوات عن شاطئ البحر، وأقام شعبنا سلطانه ومدّه فوق هذه المدن المتقدمة الذكر، مع أنها كانت فيما وراء حدود مملكة القدس، أي أنها بعيدة جداً خلف أقصى حصون المملكة باتجاه مصر.

الفصل الأربعون

تقوم الدارون، وهي حصن أو بلدة على الحدود بين أدوم وفلسطين، على بعد خمس غلوات عن البحر، وقد بنيت هذه القلعة من قبل عموري ملك القدس، على مكان مرتفع بعض الشيء، وبشكل مستدير، وبأربعة أبراج، وكان في هذا الموقع فيما مضى دير للرهبان الاغريق، ولهذا احتفظ باسمه القديم «الداروم» الذي معناه «دير الروم»، وتأتي غزة تلو ذلك، وهي مدينة قديمة جداً، وتبعد أربع غلوات Stadia عن الحصن المتقدم الذكر، وقد كانت فيما مضى واحدة من مدن فلسطين الخمسة، وكان بلدوين، الملك الرابع للقدس قد وجدها مخربة وبدون سكان، فأعاد عمارتها على جزء من التل المرتفع، حيث قامت المدينة السالفة الذكر، وعندما إكتمل شطره من العمل تماماً وانتهى، منحها إلى أخوانية فرسان الداوية، منحة أبدية، بغية الاحتفاظ بها والدفاع عنها ضد أعدائنا، وهي أيضاً تبعد عشرة أميال عن عسقلان، التي كانت أيضاً إحدى المدن الفلسطينية الخمسة، وهي قائمة على شاطئ البحر، وهي على شكل قوس، أو نصف دائرة، والوتر ممتد على طول شاطئ البحر، وعلى الجزء المستدير من الجانب البري المتجه نحو الشرق، وكانت هذه آخر المدن الفلسطينية التي بقيت في أيدي المسلمين، قبل أن تؤول إلى مملكة القدس، وذلك عندما تمكن الملك السالف الذكر بعد كثير من المتاعب والمزيد من المصاعب، وبعد حصار طويل، تمكن أخيراً من الاستيلاء عليها، لأنها كانت محصنة بأسوار وبأبراج كثيرة جداً مبنية بشكل دقيق، وكانت ذات شرافات وسواتر دفاعية قوية، وتحتوي على مخزون جيد من السلاح والطعام، وعدد كبير من الرجال المقاتلين، ومهما يكن الأمر، لقد أرغم سكان عسقلان على الاستسلام، بعد تأمينهم على حياتهم ومقتنياتهم.

الفصل الحادي والأربعون

وتقوم أسدود فيما بين عسقلان ويافا، وتبعد عشرة أميال عن عسقلان، وهي قائمة على مسافة غير بعيدة عن البحر، وكانت فيما مضى إحدى المدن الخمسة للفلسطينيين، غير أنها تراجعت الآن وتقلصت إلى حجم قرية صغيرة، وكانت جت (عراق المنشية) رابع مدن الفلسطينيين، وهي قائمة على تلة غير بعيدة عن اللد والرملة، وكانت قد تعرضت للتشيعث منذ مدة طويلة، ولاسيما عندما بنى فولك، الملك الثالث للقدس، من حجارها حصناً دعي باسم ابلين (بيننا)، فوق التلة نفسها، وعهد بها ووضعها تحت تصرف رجل نبيل اسمه بالين، الذي يحمل أحفاده حتى اليوم اسم «دي ابلين» نسبة إلى ذلك المكان، وكان هذا المكان مع أماكن أخرى، نذكر منها بير السبع أو جبرين (كذا) وبرج المراقبة الأبيض (تل الصافية) الذي يسمى باللهجة العامية «البرج الأبيض»، وهو قائم على مسافة ثمانية أميال عن عسقلان، حيث بنى من شعبنا قبل الاستيلاء على عسقلان ليحد من قحة أهل عسقلان، ولكبح جرأتهم وغاراتهم على مملكتنا، وتدعى خامس مدن الفلسطينيين باسم عقرون (عاقرة)، وهي قائمة على شاطئ البحر، ليس بعيداً عن أسدود.

الفصل الثاني والأربعون

وباستثناء المدن الفلسطينية الخمسة السالفة الذكر، التي نقرأ حولها في سفر الملوك الأول، بأن الفلسطينيين جلبوا إليها تابوت عهد الرب لإصابتهم بداء البواسير، تأتي المدن والأماكن الحصينة الأخرى القائمة على شاطئ البحر، نذكر منها: يافا، وأرسوف وقيسارية فلسطين، وهناك قيسارية تدعى اسم قيسارية فيليب (بانياس) أودان، ويأتي بعد هؤلاء بترانثيسا

Incisa (دوستري قرب عثليت) أوديستريكتوم Districtum بين دورا وكفرناحوم (أي بين الطنطورة وكفر لام)، وهناك أيضاً مدينة أخرى اسمها كذلك كفرناحوم على مقربة من بحيرة طبرية، حيث بشر فيها الرب وعمل عدداً من المعجزات، ثم تأتي حيفا أو بورفيريا porphyria، وتأتي بعد هذا عكا أو بتوليمياس Ptolemais ولقد قيل حول هذه الأماكن مايكفي.

الفصل الثالث والأربعون

ويأتي بعد هؤلاء صور، وهي مدينة جليلة وشهيرة، تقوم في عمق البحر، وهي محاطة من كل جانب تقريباً بالأمواج، وتمتلك ميناء مناسباً، وتوفر ملاذاً آمناً للسفن، وصور هي المطرانية والحاضرة لجميع مقاطعة فينيقيا، وهي من حيث الدفاع محاطة بسور ودفاعات وأبراج عالية، وفيها وفرة من الأسماك، ومروية بشكل جيد بالينابيع والغدران ذات المياه العذبة، وهي غنية ومحلاة بالكروم والحدائق، والأشجار المثمرة وحقول القمح، وعلى رابية في داخل أراضيها هناك نبع أو بئر قيل بأن الرب قد استراح عنده، عندما كان منهكاً من السفر، وذلك عندما سار على شاطئ صور وصيدا، ويحتوي هذا النبع على مياه نقية جداً، وهي تتدفق بوفرة، حتى أنها تروي جميع الحدائق، وبساتين البيوت، لابل في الحقيقة جميع المنطقة، وهو الذي أشار إليه سليمان في نشيد الانشاد بقوله: «وبئر مياه حية» (نشيد الانشاد: ٤/ ١٥)، والنبع هو رأس العين، وهناك صخرة خارج المدينة، لكن قرب أسوارها يوقرها السكان المحليون ويجلها الحجاج، لأن الرب قعد عليها هناك كما يقال، ووعظ الجماهير المحتشدة، ذلك أنه لم يرغب في دخول مدينة تابعة للوثنيين، ويحكى أن هذه المدينة القديمة جداً قد تأسست بعد الطوفان من قبل تيراس (حزقيال: ٢٧/ ٣) ابن يافث الذي كان ابناً لنوح، وتدعى بالعبرية

باسم «صور»، ونحن ندعوها بالدرجة أيضاً باسم «صور»، وبشأن وقارها وعظمتها ومجدها الذي تمتعت به فيما مضى، هذا واضح من سفر حزقيال، الذي قال عندما تحدث عن صور وذلك بين أشياء أخرى: «يا صور أنت قلت أنا كاملة الجمال. تخومك في قلب البحار» (حزقيال: ٢٧/٣) ومرة أخرى: «من قضى بهذا على صور، واهبة التيجان، التي تجارها أمراء، وامتكسبوها شرفاء الأرض» (إشعيا: ٢٣/٨)، وتحدث النبي وذكر المزيد حول ثروتها، وتفوقها وتجارها، وكان ملك هذه المدينة أغينور Agenor ، الذي منح ابنه فونكس اسمه لجميع المنطقة، وجاء من هذه المدينة ديدو Dido الذي أسس قرطاج في إفريقية، التي تدعى الآن «المغرب» Marroch ، وكان حيرام أيضاً ملكاً هناك، وهو الذي زوّد سليمان بخشب الأرز من لبنان، لبناء معبد الرب، وهو الذي كان عبده أبديموس Abdimus قد أجاب بعقوبة وروعه على جميع الأحاجي والألغاز التي أرسل بها سليمان إلى حيرام ملك صور حتى يجيب عليها، فإن أخفق يتوجب عليه أن يدفع إلى سليمان ببعض المغلقات حتى يتولى حلها، أو يدفع غرامة من المال، ويقول بعضهم بأن مارخول Marchol هو الذي تحاجج مع سليمان على شروط متكافئة، وكان أبولونيوس واحداً من ملوك المدينة السالفة الذكر، الذي تقرأ أعماله بتوسع في كتب الحكايات العامة، وهنا دفن أيضاً (القديس) أورجين Origen (١٨٥-٢٥٥م)، وذلك اعتماداً على مارواه القديس جيروم، الذي قال في رسالته إلى باماخوس Pammachos وأقيانوس Oceanus : «لقد مرّ حتى الآن حوالي مائة وخمسون سنة منذ أن مات أورجين في صور»، وتنتمي إلى هذه المدينة المرأة الكنعانية، وهي التي كما قيل نادى المولى يسوع المسيح من أجل ابنتها التي تلبسها الشيطان واستحوذ عليها (متى: ١٥/٢٢) وذلك تحقيقاً لنبوء داود التي جاء فيها: «وبنت صور أغنى الشعوب تترضى وجهك بهدية» (المزامير: ٤٥/١٢)، وهنا كما قيل أيضاً ولد أولبيان Ulpian

المحامي المتعلم، وقد قيل بأن الصوريين كانوا أول من اخترع الحروف، فهذا مارواه لوكان Lucan لنا وحكاه بقوله: «كان الفينيقيون—إن صدقت الآثار المروية— أول من حاول تثبيت الصوت المنتشر بوساطة شارات بدائية».

ويقال بأن الصوريين كانوا أول من صنع الصباغ الأرجواني واستخرجه من المريق Mccrex، وإلى هذا اليوم يدعى أغلى صباغ أرجواني «الصوري»؛ وكان بعدما قام بلدوين أول ملوك القدس بحصار هذه المدينة الجليلة، والمحصنة بشكل قوي، لمدة أربعة أشهر، ورأى أنه لم يحصل أية منافع، وأنفق بدون فائدة الكثير من الأموال، قام بعد هذا برفع الحصار، عازماً على العودة في وقت أكثر موثمة مع وسائل أعظم، ولكي يتمكن من تضيق الخناق على الصوريين ولزعجهم أكثر، أعاد بناء مدينة على شاطئ البحر بين صور وعكا، هي المدينة التي كان قد بناها الاسكندر المقدوني، عندما كان يحاصر صور، ودعيت بسببه باسم الاسكندرية، غير أن شعبنا يدعوها في هذه الأيام باسم سكاند يلوم، وهذا المكان مروي بشكل جيد، ويبعد خمسة أميال عن صور، زيادة على هذا بنى هيوج دي سينت أومر، صاحب طبرية، قلعة قوية جداً على الجبال المطلة على صور، بين مدينته ومدينة صور، وهي تبعد عنها مسافة عشرة أميال، وحملت هذه القلعة اسم تورون (تبين)، واستهدف من وراء ذلك أن يتمكن من هناك تضيق الخناق على الصوريين وإثارتهم عن قرب قريب، ومع هذا يتجنب مواجهة هجومهم، وقامت القلعة في منتصف الطريق فيما بين لبنان والبحر، وهي غنية جداً بالأشجار، والكروم، والأرض المفلوحة، وفيما بعد، عندما لذنوبه، الملك الثاني للقدس، بلدوين دي بورغ، أخذ أسيراً من قبل المسلمين، قام السيد بطريك القدس، مع رؤساء الأساقفة والأساقفة وبقية بارونات المملكة مع كونت طرابلس، بالمعسكرة أمام المدينة ومحاصرتها، وتلقى المساعدة أيضاً

من دوج البندقية، الذي هاجم المدينة من جهة البحر مع حشد من الرجال المسلحين، وكان معه أربعين من الغلايين مع عدد كبير من السفن الكبيرة والصغيرة، وبعدما بذلوا جهوداً عظيمة وسفكوا الكثير من الدماء، وبعدما تولوا حصار المدينة بمختلف أنواع المجانيق والآلات الحربية، أمكنهم في الشهر الخامس من الحصار إرغام السكان على الاستسلام والتخلي عن مدينتهم، وذلك بعدما لم يعد بإمكانهم متابعة تحمل المجاعة، ولقد استسلموا لشعبنا على شرط الحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم، وهكذا أمكن في المائة الحادية عشرة والسنة الرابعة والعشرين لتجسيد المسيح، الاستيلاء على مدينة صور. من قبل المسيحيين، ومن ثم إعادتها إلى المسيحية.

الفصل الرابع والأربعون

وتقع فيما وراء هذه مدينة الصرند على شاطئ البحر، وهي التي تكلم النبي إيليا عند بابها إلى المرأة الأرملة التي كانت تجمع الحطب، والتي تضاعف طعامها القليل لأنها عملت خبزاً لرجل الرب، وقد بنى المسيحيون بيعة صغيرة في هذا المكان قرب باب المدينة، ويلى هذا مدن أخرى قائمة على شاطئ البحر، وأولها صيدا، ثم بيروت، ثم بيلوس التي تعرف في هذا اليوم بشكل عام باسم جبيل، وهي قائمة على شاطئ البحر في مقاطعة فينيقيا، وقد عرفت فيما مضى باسم إيفيا *Evaia*، لأنه كما قيل قام إيفياس الابن السادس لكنعان بتأسيسها، وقد قال عنها حزقيال: «شيوخ جبيل وحكماءؤها كانوا فيك قلافوك الذين يسدون شقوقك. حكماءوك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابتك» (حزقيال: ٢٧/٨-٩ بتصرف)، ونقرأ مرة أخرى في سفر الملوك الأول- الأصحاح الخامس: «وحجارة أربعة (نحتها الجبليون) وهياؤها الأخشاب والحجارة لبناء بيت الرب»، واستولى برترام كونت طرابلس على

هذه المدينة، وذلك بمساعدة الجنويين مع سبعين من الغلايين، ثم منحها الى الجنويين، ووراء هذه على شاطئ البحر تأتي مدينة اسمها بتروم Botrum لكن اسمها بالعامية بترون، ثم تأتي قلعة اسمها نفين Nephin (رأس شكا) ثم مدينة طرابلس، ثم تأتي مدينة اسمها عرقة، وهي تبعد ميل واحد عن البحر، ثم مدينة أرواد القائمة على جزيرة قرب ساحل البحر، وقد بناها أرا دوس بن كنعان، وفيها وجد القديس بطرس الرسول أم القديس كليمنت تسأل الصدقة، وبعدما حولها الى المسيحية، أعادها الى ابنها، وذلك حسبما نقرأ في رحلة ابنها، ولقد أخبرنا أيضاً عن عمودين من الزجاج من روائع الصناعة، قد أقيما في هذه الجزيرة لإثارة اعجاب جميع الناس، ثم تأتي مدينة أنترداوم، التي عرفت بهذا الاسم لكونها تواجه أرواد، لكنها تعرف بالعامية في هذه الايام باسم طرطوس، ولدى مرور القديس بطرس وعبوره لفينيقياً في طريقه من القدس إلى أنطاكية، أسس فيها كنيسة صغيرة كرسها على اسم العذراء مريم المباركة، واحتفل بها بقداس عظيم، وتحظى هذه الكنيسة بتمجيد خاص حتى هذا اليوم، ويؤمنها عدد كبير من الناس ويتقاطرون عليها لأن العذراء المباركة قد عملت كثيراً من المعجزات، وأعادت إلى العافية أناساً مرضى جاءوا إلى المكان الذي كرس إليها من قبل الكنيسة البدائية عندما كانت في مرحلة طفولتها، وقد أوضح كثير من الناس أن هذه كانت أولى الكنائس التي كرسست للقديسة مريم، وهي موضع احترام وتقدير كبير ليس فقط من قبل المسيحيين بل أيضاً من قبل المسلمين، الذي غالباً ما يجلبون أولادهم إلى الكنيسة السالفة الذكر حتى يتعمدوا، وذلك من أجل أن يعيشوا أطول، أو أن يستردوا صحتهم الجسدية، وحدث بعد الاستيلاء على المدينة المقدسة أن وجد بعض النبلاء وهم يسافرون خلال هذه الأجزاء وهم على طريق حجهم إلى القدس، فقام هنا كونتا بواتو وبليوس مع نبلاء آخرين بانتزاع هذه المدينة من أيدي الأعداء وأعطوها إلى كونت طرابلس.

وجاء بعد هذا دور مدن ساحلية أخرى، كان منها: مرقية، وبانياس وقلعة المرقب وجبوليوم Gabulum ، التي تعرف بشكل عام باسم جبلة، ثم تأتي آخرها باتجاه أنطاكية، مدينة جميلة الموقع وغنية جداً بجميع البضائع العالمية، تدعى لاذقية سورية، وهي تعرف بالعامية باسم ليشي Liche ، واستولى على هذه المدينة النبيل الشجاع اللورد تانكرد، عندما كان يقوم بأعمال حاكم إمارة أنطاكية، ولقد استولى على هذه المدينة في اليوم نفسه الذي نال فيه مدينة أخرى جليلة تدعى أفاميا، وهكذا وسع بشكل رائع حدود إمارة أنطاكية، بإضافة مدينتين جميلتين لها في يوم واحد، وهناك (لاذقية) لوديقيا في آسيا الصغرى، وهي التي ورد ذكرها في رؤيا جاءت إلى القديس يوحنا، بين كنائس آسيا السبعة (سفر يوحنا: ١٤ / ٣)، واستولى شعبنا على جميع هذه المدن القائمة على شاطئ البحر، بكل جرأة، ولم يترك شعبنا للمسلمين ولا قلعة واحدة قرب البحر، وهكذا تدمرت قوى العدو على شاطئ البحر تماماً.

الفصل الخامس والأربعون

وكانت بعض المدن الداخلية، خاصة ما وقع وراء سلسلة جبل لبنان، قد عجز شعبنا عن الاستيلاء عليها، ومع هذا أرغمت على أن تدفع لقومنا الجزية، لأن قومنا غالباً ما شعثوا حدودهم وأرباضهم، ونصبوا الكثير من الكمائن لشعبهم، حتى وصل الأمر بالسكان إلى أن كانوا مسرورين بتحرير أنفسهم من المضايقات، وكانت مدينة حمص، التي تدعى من شعبنا شامبلا Chamele أو كامبلا Camele، ولكون بعض مدن سورية المجوفة الأخرى مثل بعلبك، التي تسمى أيضاً موبخ Maubech (وهم ومنبج غير بعلبك) وحماه وسواهم، على مقربة من قبل شعبنا، ومن السهل اثارتها ومضايقتها، آثرت الحصول على السلم والأمن مقابل كثير من المال، وفي الحقيقة لم يكن كل من

خليفة مصر وسلطانها قادرين على الدفاع عن مملكتيهما في وجه الغارات الشجاعة والجريئة لشعبنا، ولهذا اعتادا على دفع مبلغ كبير بمثابة جزية سنوية إلى ملك القدس، خاصة عندما كان المصريون يخشون من سلطان دمشق، واعتاد من جهة أخرى ملك دمشق على دفع كثير من المال للحصول على الهدنة والأمن من شعبنا الذي أقام فيما بين الدمشقيين والمصريين.

الفصل السادس والأربعون

حشد بلدوين دي بورغ، الملك اللاتيني الثاني للقدس جميع قوات مملكته وألقى الحصار على حلب، لكن حشداً من المسلمين بادر مسرعاً من الشرق لنجدة المدينة، ولهذا أرغم الملك على رفع الحصار والتراجع لأن أعداداه كانت أدنى بكثير من أعداد المسلمين، وقام الملك الرابع للقدس وهو بلدوين ابن الملك فولك ومعه كونراد امبراطور الرومان، ولويس ملك فرنسا، الذي حمل الصليب عندما دعا برنارد راعي دير كليرفو إلى الحملة الصليبية، ومعهم كذلك بطريرك القدس، وأسقف أوستيا، الذي كان نائب الكرسي الرسولي، وعدد كبير من رؤساء الأساقفة والأساقفة والدوقات، والكونتات والبارونات، من كل من فرنسا والامبراطورية، قاموا جميعاً بإلقاء الحصار على دمشق.

ودمشق مدينة قديمة جداً، وهي في الغالب المدينة الرئيسية بين مدن الشرق، بسبب حجمها وتعداد سكانها، ونالت اسمها من خادم ابراهيم الذي قيل إنه هو الذي أسسها، وهي حاضرة سورية الصغرى، المسماة لبنان أو فينيقيا، وذلك حسبما نقرأ عند النبي قوله: «رأس سورية — آرام — دمشق» (اشعيا: ٨/٧)، وهي قائمة على سهول مستوية، في المنطقة الجرداء والجافة، ذلك أنها تتمتع بهبة الماء الذي يتدفق من الجبال، ويمر

خلال أقنية ويتولى سقاية جميع السهل، وتجعله بذلك خصباً ومليئاً بأشجار الفاكهة، وعلى مقربة من المدينة السالفة الذكر مكان يدعى في هذه الأيام «ملجأ السفر» (داريا)، ناشد فيه الرب شاول عندما اقترب من دمشق وقال له: «شاول، شاول، لماذا تضطهذي؟» (أعمال الرسل: ٩/٤). وحاصر الآن الأمراء المتقدم ذكرهم المدينة مع حشد لاعد له ولا حصر، وكان الحصار من جانب واحد، من مكان في الجوار، واندفعوا من خلال أسوار المدينة، وتملكوا بقوة النهر الذي يجري إلى المدينة، وارتاب أهل دمشق في قدرتهم، وتساءلوا عما إذا كانوا يمتلكون مايكفي من قوة للمحافظة على المكان، ولأنهم كانوا غير قادرين لمدة طويلة على مجابهة رجالنا عند سور المدينة، كسبوا إلى جانبهم — كما هي عادتهم — بعض السوريين الذين عملوا أدلاء ومستشارين للأمراء الحجاج الأجانب — وكانوا معتمدين بالخشع — فأقنع هؤلاء الأمراء حتى ينقلوا الجيش إلى جانب آخر من سور المدينة، وبناءً عليه ترك الأمراء مكانهم الأول، الذي استرده المسلمون، وحصنوه ضدنا، ثم إنه بعدما شحت المؤن وافتقر الجيش إلى الماء، رأى أمراؤنا انعدام الاخلاص لدى الرجال الذين وثقوا بهم، وفي غضب وازدراء للخيانة، أو بالحري لكفر الشرقيين الذي امتلأوا بالعار والشنار، وبعدما بذلوا جهداً كبيراً ونالوا قليلاً، عادوا إلى الوطن ثانية.

الفصل السابع والأربعون

ألقى جون امبراطور القسطنطينية الحصار على مدينة قيسارية (شيزر) التي ليست بعيدة عن أنطاكية، والتي تعرف الآن باسم قيسارية الكبرى (قلعة شيزر)، وكان معه حشد من الجنود لا يعد ولا يحصى والعربات والخيول، وكذلك أمير أنطاكية، وكونت الرها، لكنه أخذ مبلغاً من المال من المحاصرين، ورفع الحصار، وعاد أدراجه، لأنه كان غاضباً بسبب تراخي الأمير المتقدم الذكر مع الكونت، ولعدم مبالاتها بالمخاطرة

ولإخفاقهما في مساعدته؛ وذهب بلدوين أيضاً، وهو الملك الرابع للقدس، وسط جهد كبير، ومخاطر عظيمة للاستيلاء على مدينة بصرى، لكنه وقد وجدها أقوى تحصيناً مما توقعه، عجز عن الاستيلاء عليها، وعاد إلى الوطن ثانية، وتعرض وهو عائد لمضايقات المسلمين الشديدة، وقد قتل كثير من شعبه، وبوستروم مدينة قديمة جداً، وهي حاضرة العربية الأولى، وتعرف بشكل عام في هذه الأيام باسم بصرى، وهي تتحكم بمقاطعة الطراخونية، التي تحدث عنها القديس لوقا في انجيله بقوله: «فيليب طيطراخ ايطورية والمقاطعة الطراخونية» (لوقا: ١/٣)، وبما أن هذه المنطقة بدون ينابيع أو أنهر، يقوم سكانها بجمع مياه الأمطار ببرك بوساطة Trocones ، أي بوساطة أقنية مائية تحت الأرض، ولهذا السبب عرفت هذه المنطقة باسم «الطراخونية» ، وأيضاً يسكن الناس في تلك المنطقة في كهوف وفي أقبية تحت الأرض، ويضعون أدواتهم وأثاثهم المنزلي في عربات. وتأتي بعد منطقة الأسقفيات العشرة (الديكابولس Decapolis) التي تمتد حدودها أو تخومها من صيدا إلى بحيرة طبريا، والتي تصل إلى مابعد مدينة طبرية باتجاه دمشق، منطقة ايطورية، الممتدة فيما وراء منطقة صيدا والجبال التي تفصلنا عن المسلمين في الوادي المسمى بوادي البقاع، وبما أنها تصل إلى سفوح لبنان، إنها تدعى أيضاً باسم غابة لبنان، ومنطقة ايطورية هذه تلي منطقة الطراخونية وتتصل بها.

الفصل الثامن والأربعون

طوق الملك عموري — أخو الملك بلدوين المتقدم الذكر — المدينة المصرية المعروفة باسم القاهرة بآلات الحصار حتى قيل بأنه بات من السهل الاستيلاء عليها عنوة، لولا أنه أخذ بالمشورة الفاسدة جداً لرجل شرير اسمه ميلو دي بلانكي Milo de Planci ، الذي أخذ مبلغاً من

المال من الأعداء، ورفع الحصار وتراجع منسحباً، وكان في الحقيقة قد حاصر أولاً مدينة الاسكندرية، وهي مدينة جليلة في مصر، التي استولى عليها شيركوه وابن أخيه صلاح الدين وانتزعاها من سلطان مصر، ولقد أرغمهما على التصالح معه والاستسلام، لكنه — تنفيذاً للاتفاق — أعطى المدينة إلى سلطان مصر، بعدما تسلم منه المال الذي وعد به، وقام هذا الملك نفسه فيما بعد بإلقاء الحصار على دمياط، التي هي مدينة قوية جداً في مصر، وكان معه عدد كبير لا يحصى من البيزنطيين، أرسلوا إلى مساعدته من قبل امبراطور القسطنطينية، وكذلك اسطول كبير تألف من كل من الغلايين والسفن الأخرى، غير أنه أخفق بفعل الجوع، والبرد، والفيضانات الهائلة، ولهذا رفع الحصار بعدما تكبد خسائر كبيرة في جيشه.

الفصل التاسع والأربعون

وبالنظر لعدم استطاعة قومنا الاستيلاء على المدن المتقدمة الذكر مع مدن أخرى، لاسيما المدن الداخلية غير البحرية، بنوا قلاعاً قوية جداً ولا ترام بينهم وبين أعدائهم، وذلك في أطراف البلاد للدفاع عن حدودهم، مثل مونتريال (الشوبك) والبتراء في القفار التي اسمها الحالي هو الكرك، وذلك فيما وراء الأردن، وصفد هي قلعة حصينة جداً قائمة فيما بين عكا وبحيرة طبريا، ليس بعيداً عن جبال جلبوع، وكوكب الهوا ليست بعيدة عن جبل الطور، قرب مدينة يزعيل (زرعيل) التي كانت فيما مضى مدينة جليلة ومكتظة بالسكان، وهي قائمة على رابية مرتفعة بين بيسان وطبرية

الفصل الحسون

ولضمان أمنها العظيم ، قسمت مملكة القدس بين مختلف الأمراء والبارونات ، الذين كان واجبهم الحفاظ على البلاد وحراستها تحت الملك ، واحتفظ الملك بيديه بأفضل أجزاء البلاد وأحسنها ، مثل مدن : القدس ، ونابلس (شكيم) وعكا ، وصور مع بلدات أخرى وقرى ، وارتبط نبلاء المملكة بيمين لخدمة الملك بعدد محدد من الفرسان ، وكان هؤلاء : كونت طرابلس ، وصاحب بيروت ، وصاحب صيدا ، وصاحب حيفا أو بورفيريا ، وصاحب قيسارية ، وأمير الجليل الذي كان أيضاً صاحب طبرية ، وكونت يافا وعسقلان ، وصاحب الشوبك وجميع ما وراء الأردن ، وصاحب أسدود ، وصاحب ايبيلين ، وبعض الآخرين ، لكن هؤلاء كانوا المقدمين بينهم والأول في المكانة والشرف .

الفصل الحادي والخمسين

وبدأت منذ ذلك الحين الكنيسة الشرقية بالازدهار من جديد ، وبدأت ممارسة الدين بالانتشار عبر الأراضي الشرقية ، وبدأت كروم الرب بإعطاء العناقيد ، ثم بدا أن الذي كتب في نشيد الانشاد قد أخذ يتحقق ، وهو قوله « : انتهوا الشتاء قد مضى والمطر مرّ وزال . الزهور ظهرت في الأرض . بلغ أوان القضب » (نشيد الانشاد : ١١/٢ - ١٢) وتدفق من مختلف أجزاء العالم ، ومن كل عرق ولغة ، ومن كل أمة تحت قبة السماء الحجاج على الأرض المقدسة وقد امتلأوا بالحماسة من أجل الرب مع رجال دين جذبتهم حلاوة خلاص الأماكن المقدسة والمبجلة ، وأعيد ترميم الكنائس القديمة وبنيت

كنائس جديدة ، بوساطة أعطيات الأمراء وهبات المؤمنين، وبنيت ديرة لرهبان منتظمين في أماكن مناسبة ، وتأسست في كل مكان بشكل لائق ومناسب أبرشيات القساوسة وجميع الأشياء المتعلقة بخدمة الرب وعبادته ، واختار رجال مقدسون اعتزلوا الدنيا أماكن للسكنى بها تتوافق مع مختلف ميولهم ورغباتهم وحماستهم الدينية ، وتتناهى مع أهدافهم وتكريس أنفسهم .

الفصل الثاني والخمسون

واختار بعضهم ممن انجذب بمثل الرب واقتدى به ، البرية المرغوب بها والمسماة القرنطل ، حيث فيها صام الرب معتزلاً لمدة أربعين يوماً بعد تعميده ، (متى : ٤) وهناك عاشوا على شكل نساك ، وتعبدوا الرب عن طوعية متناهية في خلوات متواضعة ، واختار بعضهم تقليد حياة الاعتكاف للنبي إيليا بالعيش في عزلة على جبل الكرمل ، لاسيما في الجزء المطل على مدينة بورفيريا المسماة الآن حيفا ، قرب بئر يسمى بئر إيليا ، ليس بعيداً عن دير القديسة مرغريت العذراء ، حيث هناك خلوات صغيرة تشبه قرص عسل ، ففيها عاش نحل الرب وانتجوا عسلاً روحياً حلواً ، وهناك كرمل (اقرأ : قرمول غربي البحر الميت) آخر وراء الأردن ، قرب البيداء حيث أخفى داود نفسه عندما هرب من أمام شاول ، حيث كان مكان إقامة الفلاح نابال ، هذا وإن الكرمل الذي اعتاد إيليا على العيش فيه قائم على شاطئ البحر ، على بعد أربعة أميال من عكا .

الفصل الثالث والخمسون

واختار عدد كبير أضرحة هادئة للموت فيها بعيداً عن هذه الدنيا ،

حتى يمكنهم العيش للرب وكان ذلك في وادي الأردن ، حيث اعتزل يوحنا المعمدان أثناء طفولته ، فراراً من الدنيا ، حتى يمكنه مع مزيد من الحرية الاتصال بالرب ، وفي عزله في هذه البدياء لم يأكل القديس يوحنا شيئاً سوى الجراد مع العسل ، والعادة في معظم أجزاء سورية أنه عندما تأتي أسراب الجراد الطائرة ، يقومون بجمعها والاحتفاظ بها للأكل .

وبالنسبة للعسل رأيت الكثير منه في هذه الأجزاء في قصب السكر ، وقصب السكر هو قصب مليء بالعسل ، ويحصل الناس على عصير على درجة عالية من الحلاوة ، بوساطة سحق القصب بالضغط ، ثم يتم تكثيف العصير على النار ، وبذلك يصنع الناس أولاً نوعاً من العسل ، ثم سكرأ ، ويدعى هذا القصب Can-nameles وهذه كلمة مكونة من كلمة قصب «canna و mel أي عسل لأن هذا القصب يشبه قصب البوص أو النباتات النامية

وبما أنني لم أعتقد صحة أكل المعمدان المبارك للمسيح جسد الجراد ، وهو الذي تخلى حتى عن أكل الخبز ، قمت باستفسار حثيث لواحد من الرهبان السريان ، الذي كان ديره في تلك الأجزاء ، وهو يحتوي على عدد كبير من الرهبان ، الذين يمارسون حياة قاسية جداً ، تحت رئاسة راع للدير ، وسألته : أي نوع من الجراد كان الذي — كما قيل — أكله القديس يوحنا في تلك البرية قرب الأردن ؟ فأجابني مباشرة أنه يوجد في غرفة طعامه عشبة ، غالباً ما تقدم للرهبان ، وهم يدعونها angusTae إلى «حبوب الجراد» وينمو هناك كميات كبيرة من هذه العشبة حول ديرهم ، وأضاف بأن هذا ما اعتاد القديس يوحنا أن يأكله ، زد على هذا غالباً ما يعثرون في هذه البراري — كما قال — على مخزون كبير من العسل البري يصنع من قبل النحل .

ومضى آخرون من رجال الدين هؤلاء الى البراري القريبة من بحيرة طبرية ، حيث غالباً ما وعظ الرب ، وحيث أطعم الحشود (متى : ١٤) بأرغفة من شعير وسمكات صغيرات ، ومجد المنطقة بعدة أنواع من المعجزات ، وظهر هنا لحواريه بعد قيامته (آخر اصحاب من يوحنا) ، وهنا أكل وشرب معهم ، وعلى هذا البحر كان قد مشى ، وهنا دعا بعضاً من حواريه إليه قائلاً : « ورائي فأجعلكما صيادي الناس » (متى : ٩/٤) وهنا اختاروا مساكن خلواتهم ، فسكن بعضهم في السهل ، حيث توفر كثير من القش من الأعشاب الجافة ، وسكن آخرون في الجبل المجاور الذي اعتاد الرب أن يذهب إليه ليعتكف للصلاة ، وبحيرة طبرية بحيرة ذات ماء عذب جداً ، قائمة على طرف الجليل ، وهي مليئة بجميع أنواع الأسماك ، وهي جميلة المنظر ، ممتعة أن تشرب منها ، ولأنها طويلة جداً وعريضة ، دعيت البحيرة سالفة الذكر باسم بحر ، وذلك مجازة لما اعتاده العبرانيون والمصريون ، الذين دعوا أي تجمع من الماء «بحراً» ، سواء أكان عذباً أم مالحاً ، ويعرف أيضاً باسم بحر طبرية ، لأنه ملاصق لمدينة طبرية ، وعلى مقربة منها بيت صيدا (شيخ زياد) ، وهي مدينة بطرس وأندرو ، وهي التي مجدها الرب بحضوره الشخصي ، وتعرف أيضاً باسم بحيرة جنسارث ، التي فسرت بمعنى «توليد الريح» ، لأنه من ينابيع الجبال التي تقوم من حولها ، غالباً ما تتجمع ريح قوية ، تسبب الهيجان في البحيرة ، وتتحول الى عاصفة ، حيث تقهر الأمواج العالية السفن الصغيرة ، ويجري نهر الأردن في بحيرة جنسارث المتقدمة الذكر من نبعين اسمهما : «أر» و«دان» ومنهما استمد كل من مياهه واسمه ، وهما قرب قيسارية فيليب عند سفح جبل لبنان ، ومن هناك يتدفق في كتلة واحدة من الماء ، ويجري لحوالي المائة ميل ، فيروي المناطق المجاورة ، ثم يسيل عبر الوادي الرائع الذي يدعى وادي

الملح ، الى البحر الميت ، وهناك يجري ابتلاعه ولا يظهر مرة أخرى ، وهذا قرب مكان يدعى زغر ، ويعرف في هذه الأيام بشكل عام باسم « البحر المر » paumier كما ويدعى البحر المتقدم الذكر باسم « بحيرة اسفلت » و« البحر المالح » لأنه مالح جداً ، ومرّ الى درجة أنه لا الانسان ولا الحيوان يمكنه أن يشرب منه ، وغالباً ما يقال له « بحر الشيطان » لأنه لا يمكن لأي شيء حي أن يتكاثر هناك ، كما لا يمكن لأي كائن حي أن يعيش في مياهه ، وإلى جانبه هناك جبل مرتفع من الملح ، ، زيادة على هذا ينمو على أطرافه تفاح له منظر خارجي جميل ، لكن لا يوجد في داخله شيء سوى الرماد والغبار اللادغ ، لأن الرب أمطرناراً وكبريتاً على سدوم وعموره ، وعلى مدن ثلاثة أخرى ، فقد كان سكان هذه المدن على درجة هائلة من الشرور ، وآثمين ضد الطبيعة ، يمارسون الخبائث والأمور الشائنة مع بعضهم بعضاً ، وفي هذا المكان الذي يدعى بنتابولس Pentapolis (المدن الخمسة) تقوم البحيرة المتقدمة الذكر ، التي لا يمكن لانسان إدراك قعرها ، لأن الرب بعدما أمطر النار على هذه المدن ، ألقى بها في قاعها الذي لا يدرك ، ويقدم نهر الأردن الذي أتينا للتو على ذكره كثيراً من الخدمات لجميع المنطقة القائمة بين ذلك المكان وجبل لبنان ، لأنه يروي الحدائق ويجعل الأرض تحمل فاكهة ، وهو يعطي ماء عذبا للشرب وكميات من الأسماك للأكل ، وشواطئه جيدة لنمو القصب أو البوص ، حيث يستخدمه الناس لسقف منازلهم ، وتغطية جدرانهم ، ويتساقط القطر الحلو من قصب السكر الكثير جداً الذي ينمو في الحقول القائمة على طرف النهر ، ويعطي هذا القصب وفرة عظيمة من السكر. واعتاد الحجاج ، لأبل حتى السكان المحليون على غسل أجسادهم وملابسهم بورع عظيم في مياه الأردن ، لأن مخلصنا قد تعمد فيه من قبل القديس يوحنا المعمدان ، وقدس هذا النهر بملامسة جسده الأعظم طهارة له ، ومنح طاقة مولدة وأضفاها على مياهه ، زد على هذا تولى الثالوث المقدس

كله تقديس هذا النهر السعيد والجليل جداً، لأن فوقه سمع صوت الأب، وفيه رؤيت الروح القدس على شكل حمامة، وجرى فيه تعميدهم الابن على شكل انسان، (متى: ٣: ١٣ مرقص: ١: ١٠ لوقا: ٣)، ثم إن كثيراً من كلا الجنسين، من الرجال والنساء قد جرى تعميدهم من قبل القديس يوحنا في المياه المتقدمة الذكر مع تعميد التوبة، وحولوا أنفسهم وجعلوها أهلاً لتسلم نعمة المسيح وتعميده، واعتادوا على الغطس في الماء، وكنموذج على الطهارة التي ستكون، هناك مثل نعمان السوري الذي شفي من البرص في تلك المياه، وعاد جلده نقياً مرة أخرى مثل جلد طفل صغير، وعبر يوشع مع بني اسرائيل على ممر جاف، في الوقت الذي توقفت فيه المياه وتراكمت، أما المياه التي هي في الأسفل فتابعت جريانها نحو البحر، ومن هنا من قاع النهر أخذ بنو اسرائيل اثني عشر حجراً تبعاً لعدد أسباط بني اسرائيل الاثني عشر، (يشوع: ٤-٥)، وإلى هذه الأحجار نفسها أشار القديس يوحنا المعمدان عندما قال: « إن الرب قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم » (متى: ٣/٩)، وعبر أيضاً إيليا واليشع فوق الممر الجاف، وحدث ذلك بعدما ضرب إيليا الماء بردائه، وباعد فيما بين طرفيه إلى هنا وإلى هناك، ولهذا اتخذ عدد كبير من المتدينين أماكن إقامتهم إلى جانب النهر، بسبب قداسة النهر وموائمة مياهه.

الفصل الرابع والخمسون

لقد بنوا ديراً على جبل الطور احتراماً وتشريفاً للمكان، وجبل الطور جبل مرتفع جداً وشديد الانحدار، وعلى رأسه تجلّى الرب يسوع مع موسى وإيليا بحضور بطرس وجيمس، ويوحنا، مظهراً مجد قيامته المستقبلية (متى: ١٧)، والجبل المتقدم الذكر قائم في منطقة طبريا، ليس بعيداً عن الناصرة، ويوجد عند سفحه مسيل كيشون، وعلى طرف منه

جبال جلبوع (فقوعه) وعلى الطرف الآخر منه بحيرة طبرية، وفيما يتعلق بهذه الجبال، يعلن عبثاً بعضهم بأنه لا ينزل عليهم لامطر ولاندى مطلقاً، ومراراً قد تبرهن هذا أنه مزيف، وذلك من قبل الذين يسكنون في الجوار، وبنى أتباع الرهبة السسترشيانية والبريمونستراتنشيانية Pre-monstratensian أيضاً أديرة في أمكنة مناسبة لهم، وترك كثير من الناس بلادهم وأقربائهم وبيوت آبائهم، وذلك رغبة منهم بالأرض المقدسة، ومع أن الازدحام وضغط الناس معيق للذين لقد اختاروا وفضلوا العيش وسط جمهور الناس على أن يحرموا من ميزه فضيلة العيش في المدن المقدسة مثل القدس، وبيت لحم والناصره، التي مع أنها تقع تعبق بالشذى، إنها تعبق أكثر بحضور المخلص، لأنه في الناصرة حملت العذراء مريم بالرب بوساطة الروح القدس، وقد ولد في بيت لحم، وفي القدس صلب من أجل خلاصنا، ومات ودفن.

الفصل الخامس والخمسون

القدس هي مدينة المدن (مراثي إرميا: ١/١) وقدس الأقداس، وعظيمة بين الأمم، وأميرة بين المقاطعات، وبامتياز خاص دعت مدينة الملك العظيم، وهي قائمة في وسط الأرض، وفي قلب العالم، وكل الأمم تجري إليها (إشعيا: ٢/٢)، وكانت ملكاً للبطارقة، والأم الحاضنة للأنبياء، والمعلمة للرسول، ومهد إيماننا، وبلد ربنا، وأم الايمان، حتى مثل روما التي هي أم المؤمنين، ولقد اختيرت من قبل الرب، وقدسست من قبله، لسيره بها على قدميه، ومجدت من قبل الملائكة، وترددت عليها كل أمه تحت قبة السماء، وتقوم القدس على جبل مرتفع، مع منطقة تلية تحيط بها من كل جهة، في تلك المنطقة من سورية التي تدعى اليهودية وفلسطين، وهي تفيض بالحليب والعسل، وفيها وفرة من الحبوب، والخمرة والزيت، وجميع النعم الدنيوية، وهي على كل حال تفتقر تماماً

إلى الأنهار، كما أنه ليس فيها أية ينابيع باستثناء نبع واحد يدعى سلوان، الذي يتدفق تحت جبل صهيون في خلال وسط وادي يهو شافاط، ويعطي هذا النبع أحياناً وفرة من المياه، مع أن مياهه بالعادة قليلة جداً، أو تنعدم تماماً هناك، لكن يوجد في المدينة وفي خارجها الكثير من الصهاريج من مياه الأمطار، وهي كافية لكل من البشر والبهائم ولجميع الاحتياجات الأخرى، وللمدينة العديد من الأسماء، وهي متنوعة تبعاً لتقلبات أيامها، ووفقاً لمختلف الأمم واللغات، ودعيت أولاً باسم ييوس، وبعد ذلك باسم سالم، ومن هاتين الكلمتين جاءت التسمية الثالثة، أي أورشليم، ودعيت أيضاً باسم سوليا وهيروسوليا، ولوز، وبيت ايل، وكان آخر الأسماء التي حملتها هو اسم إيلياء، وذلك نسبة إلى إيلياوس القسطور (كذا) الروماني الذي أعاد عمارتها، وذلك بعد دمارها من قبل تيتوس وفاسبيان، وكان أول أسافقتها جيمس الرسول الذي ضرب في القدس بهراوة القصار، وانتقل إلى الرب شهيداً، وامتلك القدس بعده مجرد أساقفة عاديين بدون مكانة أو تمجيد، وذلك حتى أيام الامبراطور جستنيان، ففي أيام هذا الامبراطور المحب للرب، وزوجته الامبراطورة النقية، وفي أثناء مجمع مسكوني عقد في القسطنطينية، وصدوراً عن الاحترام للمدينة المقدسة عينوا فيها بطريركاً، وأعطوه بعض الأساقفة المساعدين الذين أخذوهم من الاسكندرية ومن انطاكية، لرؤيتهم أن هذه البطريركية قد تأسست على حدود هاتين المدينتين، وبالنسبة لكنيسة الرب يأتي ترتيب بطريرك القدس الرابع بعد الكرسي الرسولي، وله تحت سلطانه أربعة مطارنة، الأول بينهم هو مطران صور الذي له سلطة على أربعة أساقفة مساعدين، هم: أساقفة عكا، وصيدا، وبيروت، وبانياس، وبانياس هي المدينة التي تعرف الآن بشكل عام باسم بانياس، وهي واقعة على سفوح جبل لبنان، وهي على مقربة من مدينة دمشق، وهي تشكل حدود أرض الميعاد، والمطران الثاني، أورئيس الأساقفة، هو رئيس أساقفة قيسارية، الذي تحته أسقف مساعد واحد، أي أسقف سبسطية.

الفصل السادس والخمسون

وكانت سبسيطة تعرف باسم قديم آخر هو اسم السامرة، حيث فيها دفن يوحنا المعمدان، وإيليا، وعوبديا النبي، وليس للمدينة المسماة حيفا أو بورفيريا أسقفاً، بل تقع مباشرة تحت إدارة رئيس أساقفة قيسارية، والمطران الثالث هو مطران الناصرة، الذي لديه أسقفاً مساعداً واحداً، هو أسقف طبرية، وطبرية هي مدينة قائمة على شاطئ بحر الجليل في منطقة الجليل، وتكثر فيها الخطة والخمرة والأسماك، وكان مقرر رئيس الأساقفة فيما مضى في مدينة سيتوبولس Citopolis (سكيثوبولس) التي تدعى الآن بيسان، وهي قائمة فوق سهل قائم بين جبال جلبوع (فقوعة) ونهر الأردن، وهي مدينة كثيرة الثمار، وتروى بمياه جداول وآبار، وكانت طبرية فيما مضى مقر مطرانية فلسطين الثالثة وجميع الجليل، لكن المقر نقل الى مدينة الناصرة، بسبب عظمة المكان واحتراماً لفهوم الرب، والمطرانية الرابعة هي مطرانية البتراء التي تمتلك أسقف مساعد واحد، هو الأسقف الاغريقي (الأرثوذكسي) لجبل سيناء، والمقيم في كنيسة القديسة كاترين العذراء، وهناك راعي دير الرهبان الموجود في ذلك المكان، والبتراء قلعة حصينة جداً، وهي التي تدعى باللغة العامية باسم الكرك، وبتراء القفار، وهي قائمة في منطقة هضبية مرتفعة بعض الشيء، فيما وراء الأردن على حدود مآب، وهي المدينة الحاضرة للعربية الثانية، وهي المكان الذي تحدث عنه النبي إشعيا بقوله: «أرسلوا خرفان حاكم الأرض من سلع (جانب البتراء) نحو البرية» الخ، (أشعيا: ١٦ / ١)، وهي على مقربة من مدينة قديمة جداً تدعى ربوث Rabboth، التي قتل أمام بابها أوريا بتحريض من داود.

الفصل السابع والخمسون

ولبطريك القدس أيضاً أساقفة مساعدين، هم تحت سلطته المباشرة، ومن هؤلاء على سبيل المثال، أساقفة بيت لحم، والخليل، واللد، وكانت كنيسة بيت لحم ديراً للكهان المترهبين حتى أيام الملك بلدوين، أول الملوك اللاتين لمملكة القدس، وصدوراً عن احترام عظمة المكان، وتمجيداً لمكان ميلاد الرب، رقاها إلى مرتبة كاتدرائية، وأقام فيها أسقفياً، تحت إشراف البابا باسكال صاحب الذكرى الطيبة وبمباركة منه، الذي منحه إشرافاً مباشراً وسلطة على مدينة عسقلان، وبالطريقة نفسها، رقيت كنيسة الخليل، التي كانت من قبل ديراً، إلى مرتبة أسقفية، بسبب عظمة المكان، حيث دفن فيه آدم وحواء، وثلاثة من الآباء هم: إبراهيم، واسحق، ويعقوب مع سارة ورفقة، وقد دفن الجميع في كهف مزدوج، وجاء هذا العمل أيضاً احتراماً لعبيد الرب، والاسم القديم لحبرون هو «أربعة» و«قريات أربعة». وعرفت مدينة اللد في يوم من الأيام باسم ديوسبولس Diospolis، وتدعى في هذه الأيام باسم القديس جرجس.

الفصل الثامن والخمسون

وزيادة على ماتقدم كان تحت سلطة البطريرك المتقدم الذكر، رعاة ديريه ورؤساء رهبان لهم الحق في حمل شارات التمجيد الحبرية، من ذلك: العصا، والتاج الأسقفى، والخاتم، والصندل، وهم يساعدون بكل احترام السيد البطريرك في القداسات الدينية، وللكنيسة البطركية التي هي كنيسة الضريح المقدس، عند سفح جبل الجعمجة، رهبانها المنتظمون الذين يرتدون الألبسة الكهنوتية في ظل أحكام القديس أوغسطين، ولهم رئيس الذي واجبه مع الرهبان السالفي الذكر القيام بانتخاب البطريرك،

الذي هو بمثابة راعي دير بالنسبة لهم، وفي كنائس هيكل الرب على جبل صهيون وجبل الزيتون رعاة ديرة ورهبان يتعبدون الرب وفقاً لأحكام النظام المتقدم الذكر أي نظام القديس أوغسطين، وفي كنائس أو ديرة (القديسة مريم) اللاتين، وتلك التي في وادي يهوشافاط، يوجد رعاة ديرة مع رهبان سود، يتعبدون الرب وفقاً لأحكام نظام القديس بنت Benet، وفي بيت حنينا، التي هي قرية مريم، ومرثا، وقرية أخيهما لازاروس (لعازر)، والتي هي على مسافة خمس عشرة غلوة Stadia، عن القدس، وراء جبل الزيتون على منحدرات ذلك الجبل، في هذه القرية دير القديس لازاروس (لعازر)، ويدعى بيت حنينا، حيث هناك راعية دير سوداء وراهبات، يأخذن بأحكام وتنظيمات القديس بنت، وهناك بيت حنينا أخرى (بيت عبرا وراء الأردن) حيث قام يوحنا بالتعميد. وينتمي إلى هذه الطريقة نفسها دير القديسة حنة، التي حملت أم الرب، وهو قائم قرب الباب المدعوباب يهوشافاط، قرب بركة الضأن، في البقعة التي يقال بأن مريم المباركة قد ولدت فيها، وهناك يوجد راعية دير مع راهبات سوداوات يتعبدن الرب في ظل أحكام نظام القديس بنت، وهو أشبه بوعاء للبخور، كان مليئاً بشخصيات مقدسات، وورعات وتقيات، من اللائي مع أنهن لم يرغمن بوساطة أية معيقات أو بالفقر فقدان الالتزام الصارم لديانتهم، وشرف وأمانة حياتهم، ودفع حنانهم وإحسانهم، ويوجد على جبل الطور هناك دير للرهبان السود تحت سلطة رئيس أساقفة الناصرة، وليس لمدينة يافا أسقف، بل تدار مباشرة من قبل رئيس وكهنة الضريح المقدس، ومثل هذا مدينة نابلس — التي تعرف (وهما) في الانجيل باسم سوخار (يوحنا: ٤)، حيث هناك بئريعقوب، الذي إلى جانبه تحدث الرب مع المرأة السامرية — ليس لها أسقف، بل تتبع مباشرة إلى راعي دير هيكل الرب، وهناك أيضاً كثير من المدن الأخرى في أرض الميعاد، كان فيهن أساقفة من كنائسهن السريانية أو الأرثوذكسية (الاعريقية) وذلك قبل عصر اللاتين، لكن بسبب عددهن

وفقرهن تولى اللاتين اخضاع كثير من الكنائس الكاتدرائية، وكثير من المدن لمدينة كاتدرائية واحدة، وذلك خشية من تقليل قيمة مرتبة الأسقف ومكانته، ودعونا الآن نضيف وصفاً لهذه الأماكن اللائي هن مكانة سامية بسبب قداستهن بين الأماكن المبجلة الأخرى.

الفصل التاسع والخمسون

الناصرة مدينة صغيرة، قائمة تقريباً عند مدخل الجليل، وتقوم بين جبلين، وبينها وبين صفورية هناك نبع يتدفق بمياه صافية، ومياهه المنبعثة منه غزيرة، وهو يعرف باسم نبع (عين) الصفورية، واعتاد ملوك القدس أن يحشدوا هنا جيوشهم بسبب منافع الماء المتوفرة هناك، ولتوفر الكلاء، وتبعاً لبعضهم، ولدت العذراء مريم المباركة في هذه المدينة (لوقا: ١)، ومما لاشك فيه أن العذراء المقدسة قد عاشت هناك بعد خطبتها ليوسف، وإلى هاهنا أرسل الملك ليعلن بداية خلاصنا، وهذه المدينة المقدسة هي محبوبة الرب [ففيها صارت الكلمة جسداً (يوحنا: ١)، والزهرة التي فاق شذى أريجها كل الطيوب، نمت في رحم العذراء، ولهذا فسر اسمها بشكل صحيح أنه الزهرة]، وتتميز هذا المدينة على سواها أنه فيها تمّ الحمل بالرب صاحب انقاذنا، وفيها نشأ وتربى، وتحت قدميه وضع الرب كل الأشياء في الأرض والسماء، وتلطف بجعلها خاضعة لوالديه، وتقوم بيت لحم على سفوح جبال القدس، ليس بعيداً عنها، أي أن تقول تبعد أربعة أميال عن المدينة المقدسة، ومعنى كلمة بيت لحم: بيت الخبز، ففيها ولد الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء، ويوجد في مدينة داود هذه الكنيسة الكاتدرائية المقدسة والمبجلة، التي كرست للعذراء المباركة، وهنا أيضاً المزود الذي تلطف للتمدد فيه، وهو الذي عرشه السموات، والأرض موطىء قدمه (إشعيا: ٦٦ / ١)، وقد وضع تبعاً للجسد في القش لتغذية المخلوقات التقية (لوقا: ٢)، وهنا

المكان الذي وجد فيه الرعاة — بناء على أمر الملائكة — الطفل ملفوفاً بقمط من ثياب رثة مع أمه مريم، وإلى هناك جاء المجوس الثلاثة، الذين استرشدوا بالنجم، فوصلوا إلى المدينة المتقدمة الذكر، وعبدوا بتواضع الملك الذي قد ولد، وقدموا إليه بعض الهدايا الرمزية، وهنا في هذه المدينة قام الملك الآثم هيروود، عدو الايمان، في أثناء بحثه عن المسيح، بقتله بوحشية عدداً من الأطفال الصغار، وهنا أيضاً ضريح راحيل زوجة يعقوب، التي توفيت في هذا المكان نفسه بعدما ولدت بنيامين، ومن هنا جاءت المرأة نعى التي جلبت راعوث المآبية من البتراء في الصحراء، وهي التي اتخذها بوعز زوجة له، والتي من نسلها كان الحمل، سيد الأرض، حيث جاء لابنة صهيون (إشعيا: ١٦ / ١)، واشتاق داود لمياه بئر بيت لحم، رغبة منه في شرب ماء الحكمة والانقاذ من بئر العذراء المباركة، واختار القديس جيروم، الذي تولى ترجمة الكتابات المقدسة إلى اللاتينية السكني في هذه المدينة المقدسة، والمحبوبة من الرب، حيث هناك تعبد الرب، وهناك دفن جسده الثمين المصنوع من طين، ووهبت بولا المقدسة وكذلك ابنتها يوستوكيوم Eus-tochium وكذلك عدد كبير من العذراوات الأخريات، وهبن أنفسهن وكرسوها على عبادة الرب، والتأمل اللاهوتي، في دير هناك، واحتقرن كل مظاهر البهجة الخارجية في سبيل حب مولانا يسوع المسيح، وتفانيا من أجل هذا المكان المقدس.

الفصل الستون

تتفوق مدينة القدس — التي صنع فيها الرب وهو ظاهر بجسده، أسرار خلاصنا — على غيرها من الأماكن والمدن في قداستها، كما وتتفوق أيضاً بعظمتها، حتى كأنها حقل مثمر يفوح شذى لأن الرب قد باركه، ولهذا جذبت إليها عدداً كبيراً من

الرجال المتدينين ، الذين زاروا الأماكن المبجلة الكثيرة في أوقات مختلفة مناسبة ومواسم ، مع توقد بالروح ، انبعثت وتصاعدت وصولاً الى حد الانقطاع التعبدي الكلي ، وذلك واحداً تلو الآخر ، ولم تعان أرواحهم ، لتتراخى من خلال إعيائهم ، بل أبقتهم متيقظين من خلال عقب حبههم ، وتقوم هذه المدينة التي غالباً ما ذكرت وستظل تذكر ، تقوم كلها على جبل مرتفع ، وهي محاطة من جميع الجهات بوساطة سور قوي ، وهي لا تشعر بالضيق لصغرها الى أبعد الحدود ، ومثل هذا ليست منزعجة من حجمها الكبير الزائد ، وقياس امتدادها من سور الى آخر هو أربع رميات قوس ، وفيها في الجانب الغربي قلعة من الحجارة المربعة ، مبنية بشكل متماسك غير قابل للكسر ، بوساطة الملاط والرصاص المذاب ، وهي تقوم من أحد الجوانب بمثابة سور للمدينة ، وتعرف باسم برج داود ، وعلى الجانب الجنوبي للمدينة جبل صهيون ، حيث سكن داود في قلعة صهيون بعدما طرد منها اليوسيين ، ودعاها باسم «مدينة داود» وعلى جانبها الشرقي يقع جبل الزيتون ، وجبل أكرا (الجمجمة) هو المكان الذي صلب عليه الرب ، ويعرف الآن باسم الجلجلة ، وموقع ضريح الرب قائم قرب ذلك المكان عند سفح جبل أكرا (الجمجمة) وظل حتى أيام الامبراطور إيلوس هدريانوس خارج أسوار المدينة ، لأن الرب تألم ودفن خارج الباب ، لكن إيلوس هدريانوس المتقدم الذكر أعاد بناء المدينة التي هدمها تيتوس وفبسيان ، وقد بناها بشكل لائق ، ورصف شوارعها وأزقتها ، وعمل مصارف من خلالها يمكن في أيام المطر للمدينة أن تتنظف من أوساخها .

الفصل الحادي والستون

وقد قام بتوسيع المدينة كثيراً ، الى حد أنه أدخل مكان ضريح الرب داخل إطار الأسوار ، وفيما بعد بنى المسيحيون فوق هذا المكان ، وصدوراً عن الاحترام لضريح الرب ، كنيسة القيامة الرائعة ، بنوها بمهارة واتقان على شكل فوريوم ، له شكل دائري مع فتحة من الأعلى ، وبذلك شكلت هذه الكنيسة مثلاً يحتذى ويقلد من قبل جميع الأماكن المقدسة الأخرى ، والمبجلة ، ففي هذا المكان تمدد جسد الرب الثمين بشكل لائق مع المروءة حتى اليوم الثالث ، لكنه قام في اليوم الثالث من جديد ، وهنا ظهر الملائكة إلى المرأة ، وغدا الجنود الذين تولوا حفظ الضريح وكأنهم رجال موتى ، ومنذ ليلة قيامة الرب فصاعداً صارت النار المقدسة تنزل من السماء ، والآن عندما تجري في كل أنحاء الدنيا قراءة كلمات : « قام الرب من الضريح ، وهو الذي من أجلنا على الشجرة » ، عندما تقرأ هذه الكلمات للمؤمنين ، نجد كهنة كنيسة الضريح المقدس ، يتمتعون لوحدهم بامتياز القول : « قام الرب من هذا الضريح » ويشيرون بشكل مرئي الى ذلك المكان ويحدث مثل هذا عندما نقرأ في الإنجيل من أجل عيد الفصح : « إنه ليس هنا ، هو قد قام » ، يقوم الشماس الذي يقرأ الانجيل بالإشارة بإصبعه إلى ضريح الرب ، ويقوم المكان المدعواً كرا (الجمجمة) ، والذي اسمه بالعبرية الجلجلة ، الى جوار كنيسة ضريح الرب ، وهو رفيع المكانة جداً بين الأماكن المقدسة ، وله قوة مؤثرة كبيرة جداً على القلب بسبب ذكريات آلام الرب ، وهنا عانى الرب من أجل خلاصنا ، فقد جرد من ملابسه ، ووضع على الصليب ، وثبت على الصليب بالمسامير ، وقد أعطي المروءة ليشرب ، وسخر منه من قبل اليهود وعدّ مع المعتدين ،

وحكم عليه بالموت بشكل مهين ، وصلى من أجل قاتليه وعهد
بالعناية بأمه الى حواريه ، ووعد اللص بالخلاص ، وبكى بصوت
مرتفع ، وسلم الروح وهويكي ، وسال منه الدم والماء من جنبه
ليغسل العالم ، وهنا تقاسموا ملابسهم فيما بينهم ، ورموا القرعة على
ردائه واهتزت الأرض وتشققت الصخور وسقط دمه على الأرض
وأظلمت الشمس واختفى الضوء منها وعندما يزور الحجاج هذا
المكان المقدس تلامس هذه الأشياء قلوبهم المرفهة والمتواضعة ،
وتسبب معاناة الآلام ذرف دموع الحزن والأسى منهم

والآن إنه بالنسبة لمدينتنا القوية ، صهيون جبل يتسم بالوفرة ،
حيث الرب كان مسروراً بالسكنى به ، وهو جبل يدر الحلاوة لابل يدر
حتى أقراص العسل والورود ذوات الأريج الطيب ، وهويلا مس
شغاف القلب ويجلب الراحة ويعيد عقل التقي ، وبواسطة قداسه
المتناهي ينشط العقول ويغذيها ، وبقي الرب هنا مع حواريه ،
ووضع منشقة حول وسطه ، وغسل أقدام الحواريين ، ضارباً مثلاً
بالتواضع ، ثم ارتدى ملابسه مرة ثانية وأكل وشرب مع حواريه ، وأقر
قواعد العهد الجديد ، حيث الخبز تحول الى جسده والنبذ الى دمه ،
وعلم حواريه بكلام مقدس ، وهنا إتكا يوحنا على صدره المقدس ،
وهنا سكنت العذراء المقدسة بعد وفاة ابنها طوال المتبقي من حياتها
مع يوحنا ، الذي إليه عهد بأمر العناية بها ، وهنا ظهر الرب لحواريه
فيما هم جلوس وراء أبواب مغلقة ، زيادة على هذا ، بقي الحواريون في
هذا المكان ، بعد صعود الرب حتى يوم عيد الحصاد ، وذلك بانتظار
قدوم الروح القدس ، وكانوا طوال ذلك الوقت صائمين مصليين ،
وعندما جاء يوم عيد الحصاد ، ازدادت قوتهم بتلقي روح القدس
على شكل لهب النار ، وكان ذلك مع معرفة كل اللغات ، وفوق ذلك
المكان اجتمع حشد كبير من اليهود ، لدى سماعهم صوتاً مفاجئاً من

السماء ولهم شرح القديس بطرس نبوءة يوئيل ، وتولى تحويل كثيراً منهم للآيمان بالرب ، وجعلت جميع هذه الأشياء هذا المكان متفوقاً بمجده على جميع الأماكن المقدسة الأخرى ، ومنحته وقاراً خاصاً وعظمة مميزة

الفصل الثاني والستون

وهيكل الرب المقدس ، الذي بنى على جبل موريا من قبل سليمان ، على أرض بيدرأورنان اليبوسي ، ليس هناك ما يضاهيه بالقداسة والمكان المبجل ، ومع ذلك كان قد دُمّر أولاً من قبل البابليين ، وبعد ذلك من قبل الرومان ، ومع هذا أعيدت عمارته مرة أخرى على البقعة نفسها من قبل المؤمنين والرجال المتدينين على شكل بناء مستدير بمهارة معماريه وبراعة متفوقة بجمالها وبأبهتها ، وفي هذا المكان ، وعلى الصخرة التي ما تزال في الهيكل ، يحكى بأن ملاك التدمير قد وقف وظهر لداود ، وقد تولى هذا الملاك نفسه قتل آلاف كثيرة من الشعب الاسرائيلي بسبب الذنب المتعلق بتعداد الناس ، الذي أجري بناء على أوامر داود ، ولهذا السبب يدعو المسلمون حتى هذا اليوم هيكل الرب باسم «الصخرة» ، وينظرون إليه نظرة وقار عظيمة الى حد أن مامن واحد منهم يتجرأ على تدنيسه بأي نوع من أنواع الدنس ، كما يفعلون بالأماكن المقدسة الأخرى ، ومنذ أيام سليمان حتى الآن يأتون من مناطق بعيدة للتعبّد هناك ، وكلما استولوا على المدينة المقدسة يقيمون تمثال (كذا) محمد (ﷺ) في الهيكل ، ولا يدعون مسيحياً يدخل الى الصخرة المتقدمة الذكر حتى هذا اليوم ، ولهذا أمر الملك يوشع ملك اسرائيل — وقد رأى أن خراب المدينة بات قريباً رأي العين — بوضع قدس الأقداس في الهيكل في مكان خفي ، هذا ونقرأ في سفر المكابيين الثاني أن النبي إرميا توجه الى الجبل الذي صعد ه موسى ، ورأى ميراث الرب

هناك حيث أخذ خيمة العهد ، والتابوت ، ومذبح البخور ، ووضعهم في كهف وجده هناك ، ووقف عند باب الكهف قائلاً: « إنه بالنسبة لهذا المكان سيبقى غير معروف حتى الوقت الذي سوف يجمع فيه الرب شعبه ولسوف يظهر مجد الرب »، وحدث في هذا المكان المقدس والمبجل ، أنه عندما أنهى سليمان عمله ، وكان يقدم أضحية الى الرب ، أن قامت غمامة فملأت البيت ، وظهر مجد الرب ، ونزلت نار من السماء والتهمت مقدمة الحرق والأضاحي ، وملاً مجد الرب البيت ، ولم يتمكن الكهنة من الدخول الى بيت الرب : وهكذا رأى أبناء اسرائيل كيف نزلت النار، ورأوا مجد الرب على البيت، ثم جثا سليمان على ركبتيه وبسط يديه نحو السماء ، صلى الى الرب داعياً : أن كل من يدخل الى الهيكل ويسأل شيئاً ما ، على الرب الاصغاء الى دعائه ، وظهر الرب اليه قائلاً: « لقد سمعت دعائك ، والتقدمات التي وضعتها أمامي ، ولقد قدست هذا البيت الذي بنيته لي ، والآن إن عيني ستظل مفتوحتان ، وأذني تصغيان الى الدعاء الذي يصنع في هذا المكان ، لأنني اخترت هذا المكان لنفسي ، ولنفسى قدسته » ، ونقرأ في سفر المكابين الثاني أنه عندما جرى ارسال هيليود وروس Heiodorus من قبل الملك انطوخيوس (اقرأ: سلوقس) ليقوم بخرق حرمة المعبد ، وليأخذ بالقوة المال الذي كان مودعاً بالخزانة ، ظهر هناك فرس على ظهره راكب مرعب ، مزين بغطاء جميل جداً ، وركض الفرس مسرعاً وبحدة ركل هيليود وروس بقائمتيه الأماميتين ، وبدأ الذي جلس على الفرس لديه مقود كامل من الذهب ، زيادة على هذا ظهر أمامه رجلان شابان ، عظيمي القوة بهيان بالجمال ، وحسنا اللباس ، ووقفوا الى جانبه كل واحد منهما على طرف وجلدها بشكل مستمر ، وسددا اليه الكثير من الضربات المؤلمة ، وقيل إنه هنا خدمت العذراء المباركة قبل أن تخطب الى يوسف، وذلك مع فتيات أخريات ، كن يعملن على تجهيز الأوعية والملابس للكهنة

الذين كانوا يدرسون الكتابات المقدسة ويصومون ، ويتأملون ، ويصلون ، ويدرسون بحكمة وبتواضع النصوص المقدسة فضلاً عن هذا عندما جلبت من قبل والديها الى الهيكل ، وهي طفلة ، لتمثل أمام الرب ، يحكى بأنها صعدت لوحدها جميع الدرجات المؤدية الى الهيكل بدون صعوبة ، الأمر الذي بدا أنه أمراً مذهشاً في أعين الناس جميعاً ، ولم يسمع بشيء من هذا القبيل قد صنع من قبل ، من قبل طفل صغير، وحدث في هذا المكان أنه عندما كان زكريا المقدس يقدم بخوراً الى الرب، أن ظهر الملاك له، وأخبره أن دعاءه قد سُمع من قبل الرب—حيث كان جميع الكهنة يصلون الى الرب في وقت البخور، ويدعونه من أجل قدوم المسيح وتخليص الناس—وأضاف أن زوجته العاقرة إيلزابث ستحمل منه ولداً، وفي هذا المكان أحضر مولانا يسوع المسيح من قبل والديه مع حمامة وفرخ طائر، ووضع على ذراعي سمعان، ثم كان أن تحدثت إليهم جميعاً حنة الأرملة المقدسة في أن ينتظروا الخلاص في القدس، وهنا، عندما وصل الى سن الثانية عشرة، ولكي يضرب مثلاً على فهمه ودراسته للكتابات المقدسة، جلس وسط الحكماء يصغي إليهم ويسألهم أسئلة، وهكذا دهش الذين سمعوه بسبب فهمه واجاباته، وعندما صعد الى الهيكل للصلاة، طرد من هناك الذين كانوا يبيعون ويشترون، وقلب مناضد الذين كانوا يقومون بتبديل النقود، وكذلك مقاعد الذين كانوا يبيعون الحمام، وألجمهم بقوله: «سوف يدعى بيتي باسم بيت الصلاة»، وصعد في احدى المرات الى برج الهيكل، حيث حاول الشيطان إغواءه، بأن اقترح عليه أنه ينبغي أن يرمي بنفسه الى الأسفل، وعندما باتت آلامه وشيكة الوقوع، كان يتولى الوعظ والتبشير طوال النهار، ويذهب في المساء الى بيت حنينا، ويعود مع بزوغ نور الصباح، ولدى موته تشقق حجاب هذا الهيكل من الأعلى الى الأسفل حتى يفسح الطريق نحو قدس الأقداس، وسقط من برج هذا الهيكل القديس جيمس الرسول بينما كان يصلي، ثم تلقى تاج شهادته بضربة من

عصا القصار، ويوجد في القدس هيكل آخر له حجم كبير واتساع، ومن خلاله نالت الأخوانية العسكرية للداوية اسم فرسان الهيكل، وكان يدعى هذا الهيكل باسم هيكل الرب، ويقع جبل الزيتون، جبل الخصب، وجبل الزيتون، وجبل الأنوار الثلاثة، وهو التل المقدس والمقبول، على مسافة ميل من القدس، وعلى منحدره تقوم «بيت فاج»، التي تفسر بمعنى «بيت الفك»، وهي قرية الكهنة، وبيت حنينا، وهي قرية: مرثا، ومريم، ولعازر، وهناك دهنت مريم قدمي الرب، ومسحتها بشعرها، وعندما كانت مرثا مشغولة بصنع قداس للرب، جلس عند قدميها يصغي بتشوق الى الكلمات التي كانت تنفوه بها، وعلى هذا الجبل أقام المسيح لعازر، وإلى هناك غالباً ما تلطف وتنازل أن يكون ضيفاً، حتى يقوم بالتبشير وصنع المعجزات، وعلى هذا الجبل الأعظم قداسة وتبجيلاً، كان الرب جالساً عليه مقابل الهيكل، عندما سأله حواريه: ماهي العلاقات التي ستكون حول قدوم حكمه، ونهاية الدنيا؟ وغالباً ما ذهب الى هذا الجبل مع حواريه للصلاة، وبخاصة بشكل أكثر كثافة عندما باتت الآلام وشيكة الحصول، وعلى هذا الجبل جرت تحيته بشكل تمجيدي من قبل الأطفال العبرانيين الذين التقوا به، وهم يحملون سعف النخيل، ومن هذا المكان سار منتصراً راكباً على ظهر أتان، مع تراتيل الكهنة، وصعد من هذا الجبل، بحضور حواريه، بمجد الى السماء.

الفصل الثالث والستون

وهناك أماكن أخرى مقدسة ومبجلة في كل من داخل المدينة وخارجها، نذكر منها: وادي يهوشافاط، بين جبل صهيون وجبل الزيتون، ولقد أخبرنا أنه خلف وادي قدرون هناك قرية صغيرة اسمها جيسماني، وعلى مقربة منها الحديقة التي ألقى فيها القبض على الرب من قبل اليهود، وقد دفنت العذراء المباركة في هذا الوادي، ومن المعتقد أن

الرب سوف يأتي الى هنا ليحكم بالعالم، وتوجد هنا بركة استحمام سليمان حيث شفى الرجل من العمى، وهناك كنيسة القديس ستيفن، أول شهيد على تلك البقعة حيث رجمه اليهود بالحجارة. وتقوم قرية عمواس على نحو ستين غلوة بعيداً عن القدس، وعلى مقربة منها مودين، مدينة المكابيين، ومدينة جبعون أيضاً على مقربة منها، وفي مدينة عمواس قام الرب بكسر الخبز وبتقديم الشكر، وكان معروفاً بينهم تكسير الخبز، وهناك أماكن أخرى كثيرة تفضل الرب بزيارتها وبتقديسها بحضوره الجسدي، لأن أي مكان داسه الرب بقدميه عدّه المؤمنون مقدساً، وكرسوه، ومن الآثار الثمينة، ولاعجب - بناء على هذا - أن أرض الميعاد تفيض بالحليب والعسل، وهي أطيب ريحاً من العطور، ولهذا جذبت الى نفسها ليس فقط رجال الدين، أو العلمانيين، بل كل من الفرسان والمدنيين، جذبتهم الى حد التخلي عن آبائهم وعن ماورثوه عن أسلافهم، وعاشوا هنا في ظل نظام ما، وبعض هؤلاء في القدس هم الاسبتارية، أو أخوانية مشفى القديس يوحنا، وآخرون هم أخوانية فرسان الداوية، وآخرون أيضاً هم أخوانية مشفى القديسة مريم من الألمان (التيتون).

الفصل الرابع والستون

كانت بداية مشفى القديس يوحنا في أيام السريان والأرثوذكس (الاغريق) عندما كانت المدينة المقدسة ماتزال تقبع تحت سلطان المسلمين، على النحو التالي: ومهما يكن الأمر، فقد حدث بسبب أماننا، أنه في الزمن الذي سيطر فيه المسلمون سيطرة كاملة على جميع أرض الميعاد، مع هذا كره كثيرون من المسيحيين من الأمة السورية ترك بلادهم، واستمروا يعيشون بين المسلمين، مع أنهم أنزلوا الى حالة متدنية، واضطهدوا بنير للعبودية شديد، وكان أمير مصر، الذي كان سيداً

لجميع البلدان من اللاذقية في سورية حتى الاسكندرية التي هي أبعد مدينة في مصر، قد منح ربع مدينة القدس الى جانب الضريح المقدس الى السريان وبطريكتهم للسكنى فيه، آخذين بالاعتبار دفع جزية سنوية، هذا وسكن المسلمون في الأجزاء الثلاثة الأخرى، وكان المسيحيون قد اعتادوا على القدوم من الغرب الى أرض الميعاد، بعضهم من أجل التجارة، وعرض بعضهم أنفسهم الى مخاطر عظيمة وجاءوا بدافع من ايمانهم للقيام بالحج، لزيارة الأماكن المقدسة، وكانوا يدفعون الجزية للمسلمين، وكان بعضهم من اللومبارد وخاصة من الأمالفيين، أي أهل مدينة أمالفي، التي لا تبعد أكثر من سبعة أميال عن مدينة سالرنو المجيدة، وكان هؤلاء يجلبون التجارات الأجنبية، وقد جعلوا أمير مصر صديقاً لهم بإعطائه الجزية وهدايا، وقد حظيوا بمكانة عليا لديه، وبسهولة أقنعه هؤلاء الناس في أن يسمح لهم ببناء كنيسة لاتينية تبعد رمية حجر عنها، وكان السبب لهذا هو أن السوريين كانوا يتبعون عادات وأحكام الكنيسة الأرثوذكسية (الاعريقية) أثناء أدائهم للقداسات الدينية، وبناء عليه ما تزال هذه الكنيسة المتقدمة الذكر حتى هذا اليوم تعرف بكنيسة القديسة مريم للاتين، ذلك أنهم أقاموا هناك راعي دير مع رهبان يتولون إدارة القداسات وفقاً للطقوس اللاتينية، ومع مرور الأيام، كان الدير المذكور بلا أسوار، وقد رأى الرهبان فيه أنه من غير اللائق تمكين النساء من الحجاج من الإقامة فيه، ولهذا أسسوا ديراً آخر كرسوه للقديسة مريم المجدلية، وجعلوا فيه أخوانية نسائية من النساء المتدينات، ليتولين شؤون النساء اللاتينيات في ذلك المكان والترفيه عنهن، وفيما بعد ومع تدفق الحجاج الى هناك، ولكون الديرين سالفين الذكر لم يعودوا يكفيان لإقامة الفقراء والمرضى والمصابين من الناس، قام راعي الدير المتقدم الذكر والرهبان، باختيار مكان في الموقع نفسه بجوار كنيستهم، فبنوا مشفى وبيعة لاستخدام الناس المرضى والفقراء، وكرسوها للقديس يوحنا المعطاء، وكان هذا الرجل المقدس، مرضياً من قبل الرب

وجديراً بالثناء في كل شيء، وكان قبرصياً من حيث الانتماء، وبفضل قداسته جرى تعيينه بطريراً للاسكندرية، ولأنه كان متميزاً بكرمه وبالأعمال التقوية الأخرى، صار يدعى باسم «المعطاء»، أي أن تقول «المحسن»، ورأى في البداية راعي دير القديسة مريم اللاتيني أن المشفى المتقدم الذكر أو الـ *Xenodochium* ، أي مشفى القديس يوحنا كان بلاموارد وليس له لاميزانية ولا ممتلكات، وبحكم مكانته الدينية السامية، اعتاد أن يزود المرضى والمحتاجين من فئات الطعام وفضلات الموائد في الديرين، ومن خلال صدقات المؤمنين، لكن عندما تفضل الرب برحمته فأمكن بوساطة الدوق غودفري وبقية الشعب المسيحي المؤمن، تحرير مدينة مخلصنا من الكفار واعادتها الى الديانة المسيحية، كان هناك رجلاً صاحب حياة مقدسة، وإيمان مجرب، اسمه جيرارد، قد قام بناء على طلب من راعي الدير بإدارة شؤون الفقراء من الناس في المشفى المتقدم الذكر، لمدة طويلة وبإخلاص، وكان يعاونه آخرون من الرجال الشرفاء والمتدينين، وقد أخذ الجميع على أنفسهم عهد الرهبان النظاميين، ووضع هو صليباً أبيض على ثيابه الخارجية فوق صدره، وربط نفسه بميثاق للاحتراف رهيب، في أن يرعى جميع أحكام النظام والعادات الحسنة، وانضم اليه في إدارته لشؤون الفقراء سيدة اسمها أغنس، وكانت من أصل روماني، وكانت نبيلة من حيث الانحدار الجسدي، لكنها كانت أعظم نبلاً فيما يتعلق بحياتها المقدسة، وكانت قد شغلت منصب راعية دير للنساء، وأخذت على نفسها الآن العهد بمراعاة أحكام النظام نفسها مع الحياة المتواضعة، وخدمت الأخت المتقدمة الذكر الرب بتواضع وإخلاص، وأدارت بنشاط شؤون الفقراء والمحتاجين، وكانت تتولى دفن الموتى منهم في حقل حمل اسم أكليداما، أي حقل الفاخوري، وكان قد شري من قبل اليهود لدفن الغرباء، وكان ثمنه ثلاثين قطعة فضية، ألقاها يهوذا في الهيكل، وطوال الوقت الذي كانوا فيه فقراء لم يرفضوا طاعة راعي دير القديسة مريم

للاتين واحترامه، لأنه هو الذي أسس المشفى سالف الذكر، وأطعم فقراء مرضاه من مائدته، وقد احترموه أيضاً احتراماً زائداً القديس يوحنا المعطاء، لأنه راعاهم الأول ومعينهم، ولأنه المدافع المسؤول عنهم وعن مشفاهم أمام الرب، واعترفوا به شفيعاً لهم وسيداً، وفي الوقت نفسه أطاعوا بإخلاص السيد بطريرك القدس، ودفعوا له بدون تردد عشر بضائعهم وذلك تبعاً لقوانين ومفاهيم العهدين القديم والجديد، وكانوا ملازمين للصلاة، ينهكون أنفسهم بالصوم وبالسهر، ويكثرون من أعمال الرحمة، وعاشوا عيشة تميزت بالاعتقاد والتقشف بالنسبة لهم أنفسهم، غير أنهم اعتادوا على الانفاق بسخاء على الفقراء الذين اعتادوا على دعوتهم باسم «سادتهم»، وكانوا يؤثرون المرضى بخبز القمح النقي، ويبقون النخالة لاستخدامهم الشخصي، وكان إذا ما أذنب واحد منهم واقترب أي خطيئة، لم يتركوه مطلقاً دون عقوبة، خشية أن يؤدي التساهل تجاه الذنوب إلى التشجيع على اقترافها، وكانوا يعالجون الأمر حسبما يقتضيه الحال، بالنسبة لدرجة الذنب ووضع المذنب، فبعض هؤلاء كان ينزع الصليب من على ملابسهم، ومن ثم يطردون وينبذون تماماً كأهم أعضاء فاسدين، وكان بعضهم يصفدون بالسلاسل ويودعون في السجن، وكان يقضى على بعضهم الآخر بأكل وجبات ضئيلة جداً على الأرض عند أقدام أخوانهم، حتى يكونوا قد أدوا الكفارة المناسبة، وكانوا محبوبين من قبل الجميع، لأن الرب كان معهم، ولهذا مضى صوتهم في البلاد كلها، ووصل صيت تقواهم إلى أواخر الدنيا، وكان بعدما جرى استرداد الأرض المقدسة أن تقاطر الناس المؤمنون من كل أمة، وعشيرة ولغة على القدس، لزيارة ضريح الرب، وأصبحوا بفضل مساعدات الأمراء وصدقات المؤمنين في وقت قصير أغنياء جداً، وحصلوا على موارد وافرة من كل بلد في الغرب، وصاروا ممتلكين لبلدات وقرى، وتملكوها وأداروها وكأنهم سادة البلاد.

الفصل الخامس والستون

والآن بعد هذا، أخذ الناس مع مضي الوقت من جميع أجزاء العالم، من بين غني وفقير، وشاب وفتاة، وشيخ وطفل، أخذوا بالذهاب الى القدس لزيارة الأماكن المقدسة، واعتاد بعض اللصوص، وعصابات الرجال، وقطاع الطرق على نصب الكمائن للحجاج غير الحذرين، ونهبوا كثيراً منهم، كما قتلوا بعضهم، وهنا عزم بعض الفرسان الأتقياء، الذين أحبههم الرب، بدافع من العاطفة المتشوقة لأداء الاحسان، الأمر المشهور في العالم، فجعلوا من أنفسهم عبيداً مكرسين للمسيح، وبواسطة الاحتراف الديني، ويمين التكريس، أوقفوا أنفسهم على الدفاع عن الحجاج ضد اللصوص المتقدمي الذكر، وكذلك حراسة الطرق العامة، والعيش مثل الرهبان النظاميين في الفقر والعفة والطاعة، حسبما يليق بجنود ملك الملوك، وكان مقدموهم رجالاً محترمين مبجلين، يحبهم الرب: هيودي بينز Payens، وجيوفيري دي سينت أومر، وفقط انخرط في البداية تسعة في هذا المشروع المقدس، وظلوا يخدمون لمدة ثمانية أعوام، يرتدون لباساً مدنياً، وذلك حسب مانالوه من الصدقات، وقام الملك مع فرسانه، وقد رحموا وعطفوا على هؤلاء النبلاء السالفي الذكر، الذين تخلوا عن كل شيء من أجل المسيح، وتعاونوا مع السيد البطريك، فدعموهم من مصادره الخاصة، وأعطوهم فيما بعد الهبات والمنح من أجل راحة أنفسهم، وبما أنهم لم يكونوا قد تملكوا بعد أية كنيسة خاصة بهم أو أي مقر إقامة محدد، سمح لهم مولانا الملك بالاقامة لبعض الوقت في قصره، قرب هيكل الرب، وأعطاهم راعي دير هيكل الرب مع رهبانه مكاناً مكشوفاً، امتلكوه قرب قصر الملك لاستخدامه مكاتب لهم، وبما أنهم سكنوا قرب هيكل الرب، عرفوا فيما بعد باسم «أخوانية فرسان الهيكل» وبعدها أمضوا تسع سنوات في هذا الاحتراف، وفي فقر

مقدس، عاشوا حياتهم بشكل جماعي بفقر مقدس، وبعدما أقاموا بوثام وبتفكير واحد في البيت، حدث في سنة النعمة لـ ١١٢٨، في ظل رعاية مولانا البابا هونوريوس، والمولى ستيفن بطريرك القدس، أنهم منحوا نظاماً (طريقة) ورداء أبيض بدون صليب مطلقاً، وجرى اقرار هذا في مجمع عام عقد في تروي Troyes في شامبين تحت رئاسة المولى أسقف ألبا، نائب الكرسي المقدس، وذلك بحضور رئيسا أساقفة الرايمس وسنس، ورؤساء الدير السستر شيانية، ورؤساء كنائس آخرين، وحدث بعد هذا، أنهم قاموا في أيام مولانا البابا يوجينوس (الثالث: ١١٤٥-١١٥٣)، بتعليق صلبان حمراء على الجوانب الخارجية من ملابسهم، واستمروا بارتداء الملابس البيضاء بمثابة رمز على البراءة، وأشاروا بوضعهم للصليبان الحمراء الى الشهادة، ووفقاً لشروط أحكام نظامهم، كانوا مكرسين لسفك دمائهم دفاعاً عن الارض المقدسة، وليتغلبوا برجولة على أعداء صليب المسيح، ولطردهم وإبعادهم عن حدود المسيحية، وكانوا يباشرون القتال بناء على أمر قائدهم، وليس الاندفاع بشكل فوضوي، بل العمل بحكمة مع جميع الاحتياجات، وذلك أنهم كانوا أول من يهاجم وآخر من يتراجع، ولم يكن مسموحاً لهم بادرة ظهورهم والفرار ولا التراجع بدون أوامر، وهكذا باتوا جند المسيح الأقوياء والشجعان، مثل جيل ثان من المكابيين، الذين لم يعتمدوا على قواهم الخاصة، لكن كان أملهم في قوة الرب، وكانت ثقتهم كلها في صليب يسوع المسيح، ولقد عرضوا من أجله أجسادهم للموت، التي كانت ثمينة جداً في نظر الرب، ولقد قاتل الرب معهم، وقاتل من أجلهم، وهكذا باتوا مرعيين جداً لأعداء الايمان المسيحي، حتى اعتاد واحد منهم على مطاردة ألف وألفين منهم، لابل عشرة آلاف، ولدى استدعائهم لحمل السلاح، ماكانوا يسألون كم عدد الأعداء الذين كانوا هناك، لكن أين هم، فلقد كانوا أسوداً في الحرب، وودعاء مثل الحملان في البيت، وكانوا على أرض القتال جنوداً حادين، وكانوا في الكنيسة مثل النساك أو الرهبان، وكانوا قساة

ومتوحشين نحو أعداء المسيح، لكنهم كانوا لطفاء وخيرين نحو المسيحيين، وكانت رايتهم بيضاء وسوداء، أسموها بوسنت Bauceant، حملوها أمامهم، وكانت تدلل على أنهم كانوا لطفاء ورحماء نحو أصدقائهم، لكنهم سود، ومرعبين نحو أعدائهم، والآن وقد رأوا أن الحماسة الدينية لا يمكن الحفاظ عليها من دون نظام دقيق، أقدم هؤلاء الرجال العقلاء والمؤمنين منذ البداية على تحصين أنفسهم، واتخاذ الاحتياطات من أجل الادارة الجيدة لخلفائهم من بعدهم، وبالعزم على عدم التراخي المطلق، أو ترك أي اهمال أو خرق لنظام أخوتهم، وكانوا يزنون بكل عناية، ويقيسون بالتمام بشاعة الجريمة، وظروف المذنب، ولقد انتزعوا من بعضهم صلبانهم وطردوهم طرداً أبدياً، خشية أن ينقل الجدي المريض العدوى الى جميع قطيع الماشية، وحكموا على آخرين بأن يأكلوا وجبات صغيرة جداً على الارض، من دون غطاء للمائدة، وذلك أن قيامهم بالتكفير عن ذنوبهم بشكل مناسب، وبوسيلة الإهانة العلنية هذه، يمكن أن يتوردوا خجلاً، ويمكن للآخرين أن يخافوا، وزيادة في فوضاهم وعقوبتهم لم يكن يسمح لهم بطرد الكلاب الذين أكلوا معهم، وجرت العادة بالنسبة لآخرين بصفدهم بالسلاسل، وسجنهم إما لوقت محدد، أو لمدى الحياة، وبعد هذا، ووفقاً لما يروونه مناسباً، كانوا يطلقون سراحهم من سجن جهنم، ووفق طرائق أخرى، تبعاً لمبادئ انظمتهم بشكل عام، بما أنهم كانوا متمردين ومعاندين رافضين للسير وفقاً لطرائق وأحكام النظام، والمحادثة المشرفة، وقد أظهروا طاعة لائقة واحتراماً وتواضعاً للمولى بطريك القدس، الذي يدينون له بتأسيس حركة رهبنتهم، وتزويدهم بالأشياء الدنيوية، بإعطاء العشور وبقية الأشياء الدنيوية وفق قاعدة: «أعط مال الرب للرب، وما لقيصر لقيصر» (لوقا: ٢٠ متى: ٢٣)، ولم يشكلوا عبئاً على أي أحد، بل كانوا محبوبين من قبل الجميع، بسبب تقواهم وتواضعهم، وهكذا حدث أن انتشرت شهرتهم مع مجدهم، وسمعة قداستهم في جميع أنحاء العالم، مثل

وعاء البخور ذي الرائحة الفواحة، ولقد ملأ عبيدهم جميع البيت للكنيسة المقدسة، وكانت ذكراهم حلوة مثل العسل في فم جميع المؤمنين، ولسوف تتم تلاوة أخبار شجاعتهم، ومعاركهم، وانتصاراتهم الرائعة على أعداء المسيح في جميع كنائس القديسين، وحذا حذوهم فرسان من جميع أجزاء العالم — ليس الفقراء فقط، بل دوقات وأمراء — فحطموا قيودهم الدنيوية، وتنازلوا عن كل شيء في سبيل المسيح، وتدفقوا عليهم، عن رغبة منهم بالانتماء الى رهبنتهم الدينية: لقد تخلوا بالكامل عن جميع مظاهر الالهة، وغرور هذه الدنيا، وجميع مسرات الجسد، ونظروا إليهم على أنهم مجرد قذارة، وفي ظل الهام رباني تبناوا بإيمان عظيم، خدمة المسيح، وتواضع الرهبان، ولهذا تزايد عددهم في وقت قصير كثيراً، حتى بات لديهم في ديرهم أكثر من ثلاثمائة فارس، جميعهم يرتدي الأردية البيضاء، وذلك دون أن نحسب رجال الخدمة الذين كانوا لا حصر لهم، وقد تزايدوا بشكل استثنائي بوساطة ممتلكاتهم على كل من هذا الجانب وفيما وراء البحار، ذلك أنهم تملكوا القرى، والمدن والبلدات، وذلك وفقاً لطرائق أخوانية مشفى القديس يوحنا، حيث اعتادوا على ارسال مبلغ محدد كل سنة من أجل الدفاع عن الارض المقدسة، وذلك الى مقدمهم الاعلى، الذي كان مقره الرئيسي في القدس، ووفق الطريقة نفسها أرسل أمناء صناديق بيوت رهبانية مشفى القديس يوحنا — الذين يدعونهم باسم المعلمين — مبلغاً محدداً سنوياً الى مقدمهم الاعلى، لأن أخوانية المشفى المتقدم الذكر، في تقليد منهم لفرسان الهيكل أذرعة الجسد، تقبلوا الفرسان مع أتباعهم في زميرتهم، ربما ليتحقق ما تكلم به النبي إشعيا حول قيام الكنيسة ووضعها الذي ستكون عليه: «سوف أجعلك فخراً أبدياً فرح دور فدور» (إشعيا: ٦٠ / ١٥)، وقوله ثانية: «الذئب والحمل يريان معاً والأسد يأكل ومعهما ستسكن الأغنام» (إشعيا: ٦٥).

الفصل السادس والستون

والآن، بما أنه ليس من السهل قطع الثلاثي البرم، تفضلت الحكمة الربانية باضافة بيت ثالث الى البيتين المتقدمي الذكر، وهو بيت كانت الارض المقدسة بحاجة ملحة إليه، وقد تشكل وفقاً لنظامي البيتين الآخرين، واتبع هؤلاء الرجال أحكام وتنظيمات رهبانية فرسان الهيكل في كل من السلم والحرب، وكانوا مثل أخوانية مشفى القديس يوحنا يقدمون العون الى المرضى والغرباء وآخرين في مشفاهم، الذي عرف باسم مشفى القديسة مريم للتيوتون في القدس، وأن يكونوا جيدين، ويقدموا خدمة كافية مع جميع التقوى والتبجيل بطاعة وتواضع للمولى البطريرك ولبقية رجال الكنيسة الآخرين، وقدموا الأعشار الكاملة عن كل ما امتلكوه، تماشياً مع متطلبات الشريعة والأوامر المقدسة، وألا يسيئوا الى رؤساء الكنائس، وهؤلاء الذين بدأوا من مصدر ضئيل ومتواضع، قد ازداد حجمهم الى نهر عظيم، وقد خدموا القديسة مريم راعتهم بتقوى وتواضع، لأنها جعلتهم يزدهرون، وأعطتهم الزيادة في كل من الأشياء الدنيوية والروحية، وبعدما جرى استرداد المدينة المقدسة المتقدمة الذكر، سكنت هذه المدينة من قبل المسيحيين وكثير من التيوتون والألمان الذين ذهبوا الى القدس للحج، وكانوا غير قادرين على التحدث بلسان أهل المدينة، وهنا ألهم الرب واحداً من أعيان التيوتون ومتدبريهم، ممن سكن في المدينة مع زوجته، ألهمه لبناء مشفى على حسابه الخاص، حيث يمكن فيه استضافة فقراء ومرضى التيوتون، لكن بما أن كثيراً من فقراء الحجاج اعتادوا على ارتياد بيته، حتى يمكنهم التكلم باللغة التي عرفوها، قام بموافقة من البطريرك، بإرادة طيبة فبنى بيعة خاصة قرب المشفى المتقدم الذكر، وكرسها لأم الرب، مريم المباركة، وقام لوقت طويل، وفي ظل فقر عظيم، بمعالجة شؤون المرضى والمحتاجين

من موارده الخاصة، ومن المساعدات التي كان يجمعها من المؤمنين، ثم إن بعض الناس، وبشكل رئيسي من أمة الألمان، عندما رأوا صدقات الرجل المتقدم الذكر، وأعماله الجيدة، تخلوا عن كل مامتلكوه، وخلعوا ووضعوا جانباً ثيابهم الدنيوية، وربطوا أنفسهم بعهد، حيث كرسوا أنفسهم للرب، وللمشفى المتقدم الذكر، لخدمة الفقراء، ومع مضي الوقت، وبما أنه ليس فقط فقراء الناس، بل الفرسان الأتقياء والنبلاء من المانيا، قطعوا على أنفسهم عهد المشفى السالف الذكر، واختاروا لأنفسهم عن طوعية الفقر، وفضلوا أن يسكنوا كرجال فقراء في بيت ربهم على أن يسكنوا في خيام غير الاتقياء، واعتقدوا أنه سيكون مرضياً للرب ومقبولاً لديه ليس مجرد معالجة شؤون المرضى والمحتاجين، بل أيضاً أن يكرسوا حياتهم من أجل المسيح، في أن يصبحوا جنود المسيح في الجسد وكذلك بالروح، بالقيام بالدفاع عن الأرض المقدسة ضد أعداء المسيح، وبناء عليه، لقد تبنوا—كما قلنا من قبل—أحكام وممارسات فرسان الهيكل، وفضلاً عن هذا حتى لايتخلوا عن أعمال التقوى والضيافة التي ترضي الرب، مثل مخلوقات الكتاب المقدس، الذين امتلكوا في وقت واحد وجه انسان ووجه أسد، صرفوا أنفسهم بتقوى عظيمة وبحماس للعمل في المجالين معاً، وبذلك نالوا النعمة والحظوة لدى كل من الرب والانسان، ولكي يتميزوا ارتدوا صلباناً سوداء على عباات بيضاء فضفاضة، واستمروا حتى هذه الأيام في فقر وتواضع وغيرة دينية، وإنني أدعو الى الرب حتى يحميهم من الثروة، التي تجعل الناس متكبرين، وجشعين، ومشاكسين، وممتلئين بالقلق، ومن أعداء الدين، لأنه مالذي سيفيد الانسان إذا ربح العالم أجمع وخسر روحه.

الفصل السابع والستون

فضلاً عن هذا، ازدهرت الأرض المقدسة مثل حديقة للبهجة، وذلك بكثير من التنظيمات الكهنوتية، وبأشخاص متدينين، ونساك ورهبان، وكهنة، وراهبات، وعذارى منقطعات كرسن أنفسهن للرب، وأرامل عفيفات مقدسات، وعبقت بشذى عطر جميل كأنه صادر عن الورود، والزنبق، والبنفسج، وبارك الرب بداية السنة بخيراته، وجعل القفار زاخرة الى حد أن الأماكن التي كانت تقطنها التينيات والأفاعي كان هناك نباتات خضراء وقصب، ومع أن الرب كان قد تركها لبعض الوقت مقفرة، غير أنه بحبه العظيم ولطفه قد جمع أبناءها وحشدهم، وجعل الأرض مكتظة بالسكان من مختلف الاعراق، ومختلف اللسان والامم، حيث بدا هناك تحقيق النبوة القائلة: «يأتي بنوك من بعيد وتحمل نباتك على الايدي، حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأن تتحول إليك ثروة البحر ويأتي غنى الامم» ورأت البلاد ذلك جلياً، فتعجبت، وكان قلبها مسروراً، عندما تدفقت الحشود الى هناك من البحر، خاصة من جنوى، والبندقية وبيزا، وإليها جاءت قوى الامم لاسيما من فرنسا وألمانيا، وجاءها رجال الحرب، وكانت الامة الاولى أكثر قوة في البحر، أما الثانية فكانت أقوى على الأرض، والامة الاولى أفضل في القتال البحري، وأحسن قدرة على القيام بمعارك فوق وجه الماء بوساطة ممارساتهم واستخداماتهم.

أما الآخرين فكانوا جنوداً أحسن على الأرض، وبارعين في الحرب، ومقاتلين أشداء على ظهور الخيول بوساطة السيف والرمح، وكان مجد المتقدمين في غلايينهم، والمتأخرين في خيولهم. والايطاليون أكثر جدية وبراعة، ويتسمون بالحكمة والحذر، ومقتصدين بالاكل، ومعتدلين في الشراب، ويلقون خطابات طويلة ومنمقة، ويتسمون بالعقلانية في

استشاراتهم، وغيورين ومتحمسين على توسيع مصالح دولهم، ولديهم الحرص والزاد للمستقبل، ولا يرغبون بالخدمة تحت إمرة الآخرين، ويدافعون عن حريتهم فوق كل شيء، وهم يصنعون شرائعهم وأحكامهم الخاصة بهم تحت إمرة مقدم من اختيارهم، ويحافظون عليها بشكل دقيق، والارض المقدسة بحاجة إليهم، ليس فقط من أجل القتال، لكن من أجل أعمال الملاحقة، ونقل التجارات، والحجاج، والأطعمة، ولأنهم يقتصدون بالطعام والشراب، أمكنهم العيش في الشرق أطول من الأمم الغربية الأخرى.

وإن الألمان، والفرنسيين، والبريتانيين، والانكليز، والآخرين من وراء الألب، أقل جدية، وأكثر كسلاً، وأقل عناية في معاملاتهم، وأكثر إسرافاً في المأكول والمشرب، وأكثر تبذيراً في النفقات، وأقل حذراً في الكلام، ومتسرعين وأقل حكمة في خططهم، وفي الكنيسة أتقياء، وأكثر إحساناً في تقديم الصدقات وبقية أعمال الرحمة، وكانوا أكثر شجاعة في القتال، ولا سيما البريتانيين منهم، فهؤلاء صالحين جداً للارض المقدسة، ويخافهم المسلمون الى أبعد الحدود، ونظراً لإفراطهم بالمسكرات ولطيشهم دعاهم البوليان باسم الحمقى، والبوليان هو اسم أطلق على الذين ولدوا في الارض المقدسة بعد تحريرها، إما لأنهم كانوا قادمين جدد - وكأنهم فراخ، أو مقارنة بالسوريين - أو لأن القسم الأكبر من أمهاتهم - تبعاً للجسد - كن من الامة الأبولية، لأنه كان بين شعبنا الذين جلبوا الى الأرض المقدسة هناك عدد ضئيل من النساء، مقارنة بالرجال الذين كانوا في جيش الأمراء الغربيين، والذين بقيوا في الأراضي المقدسة استدعوا نساء من مملكة أبوليا، لأنها كانت الأقرب الى الأرض المقدسة من سواها، وتزوجوا منهن، وعلاوة على ذلك في الأراضي المقدسة المتقدمة الذكر كثير من الأمم الأخرى، مع عادات مختلفة، وهم يختلفون كثيراً عن بعضهم بعضاً في قداساتهم اللاهوتية وطقوسهم الدينية، ونذكر

منهم: السريان، والأرثوذكس، واليعاقبة. والموارنة، والنساطرة، والارمن، والكرج، الذين لهم فائدة كبيرة للأرض المقدسة، ولها بهم حاجة عظيمة من أجل التجارة، والزراعة، والمصالح الأخرى، ذلك أنهم يبذرون الأرض، ويغرسون الكروم، لتعطيهم غلاتاً أكثر.

الفصل الثامن والستون

وعندما رأت الأرض المقدسة أن الغيوم أنزلت الخصب، بناء على أمر الرب، أعطت ثمارها، وركض الناس هناك بمرح، تماشياً مع البهجة بالحصاد، وفعلوا كما يفعل الناس عندما يقتسمون الأسلاب، ونادى نبي نبي آخر، والذين سمعوه، سمعوه يقول: «هلم نصعد الى جبل الرب، الى بيت إله يعقوب» (إشعيا: ٢ / ٣)، لأن الرب زار الأرض، وباركها، وجعلها مثمرة جداً، ليس فقط من سبأ، بل من جميع أنحاء العالم، جاءوا يحملون الذهب والبخور الى القدس، معلنين الحمد للرب، وكان ضريحه معجداً، ولهذا إن النبوة قد تحققت حرفياً: «سيتأسس جبل بيت الرب على قمة الجبال، وسوف يعلو على جميع التلال، وسوف تندفق جميع الأمم إليه، ولسوف يذهب كثير من الناس..... وسيقولون عن القدس الذي نقرأه في سفر طوييا: تتلألئين بسنى بهيج، وجميع شعوب الأرض لك يسجدون. تزورك الأمم من الأقاصي بقرايينها وتسجد فيك للرب» (طوييا: ١٣ / ١٣ - ١٤)، ثم شوهد أنه قد تحقق فيها ما لم يحققه الرب في أيام اليهود، حيث ورد مكتوباً في سفر التثنية: «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان. من النهر نهر الفرات الى البحر الغربي يكون تحمكم» (تثنية: ١١ / ٢٤)، والآن عندما تنفشت كروم الرب المتقدمة الذكر شذى حلواً يصل حتى الى نهاية البلاد، لن يستطيع الثعبان القديم، والتنين السام، عدو البشرية، تحمل هذا الأريج لوقت طويل، ولا سيما عندما يرى التغير العظيم الذي أحدثته اليد

اليمنى للعلي الأعلى في الشرق، والتهديد الخطير، ومن ذلك نذكر وجوب اتساع الكنيسة المقدسة، وانتشار العبادة اللاهوتية، واضطراب الكفار، وسرور المسيحيين وارتفاع شأنهم، ووجوب تجديد شارات ومعجزات، مثل نزول النار في عيد الفصح من السماء على كنيسة قيامة الرب، واجتماع الناس معاً بإيمان لإظهار مجد الرب، ولتعظيم أعماله الرائعة، ولكي يتقلص الكفار، وليستهج المؤمنون بالرب، والذي أبهره النور العظيم، وأصيب بجرح مميت، بسبب شروره، بدأ يتحرك ويخطط، ويبدع خططاً متنوعة، يمكنه بوساطتها صب سموه بشكل سري، ويبحث كرم الرب، ويبذر بيقية في حقل الرب.

الفصل التاسع والستون

وبحث (الشیطان عن مكان) يرتع فيه، فلم يجد في البداية أحداً بين أوائل الحجاج، الذين كانوا ما يزالون فقراء، أضنتهم المتاعب الكثيرة، لكنه وجد في النهاية بيتاً كان فارغاً، نظيفاً ومزيناً، والمقصود بهذا: رجال الترف، الذين كانوا يعيشون بدون خوف، والذين ازداد قمحهم وخمرهم وزيتهم، والذين كانوا ممثلين حتى الشمالة بجميع الامتعة الدنيوية، ثم اتخذ سبعة أرواح أخرى أكثر شراً منه نفسه، أو بالحري أن تقول اتخذ سبعة ذنوب مميته، وقد دخل في هؤلاء الناس، الذين أدى بهم كفران النعمة الى الانحطاط، وباتت حالتهم الأخيرة أسوأ من حالتهم الأولى، ولقد أنتنت جراحهم، وفسدت بسبب حماقاتهم، ولقد سمنوا وغلظوا واكتسوا شحماً، ومن بين غناهم وترفهم ظهرت شرور الحماقات، وعندما أكلوا حتى شبعوا، اقترفوا الزنا، وحشدوا أنفسهم على شكل أرتال في مؤاخير الزواني، حتى أنهم تدفقوا مثل الماء، وسعوا وراء شهواتهم الجسدية، ولم يصبوا من إناء الى إناء، بل استلقوا مثل البهائم في روثهم، وكانوا مثل الخيول المملوكة، يسهل كل واحد منهم خلف زوجة جاره، وقد تلاشوا وتبددوا،

ولم يعودوا يرون الشمس، ولقد أداروا عيونهم نحو الأرض، لأنهم كانوا متكبرين، ومتعجرفين، ورافضين، ومتمردين، يقاتل أحدهم الآخر، ويذرعون الخلاف بين الأخوة، وكانوا كريهين، استسلموا الى السحر والشعوذة، والى الغضب وعدم العدل، وعرفوا بالكسل والفساد، وغلب عليهم الجشع، يكثرون من الشرب، تراهم سكارى، تلوثوا بالشور والاثام، لصوص، وقطاع طرق، يمارسون اللواط، ورجال دمويين، وخونة، وعاقين لوالديهم وللشيوخ، وكانوا حمقى ساذجين، ليس لديهم، لا اخلاص، ولا رحمة، ونستخدم بحقهم كلمات النبي: «لعن وكذب وقتل وسرقة وفسق يعتنفون ودماء تلحق دماء» (هو شع: ٤ / ٢)، وبناء عليه وسع الشيطان حدود نفسه بلا نهاية، وأعدّ أماكن لكل رذيلة وجريمة ليسكن فيها، ووسع تعذيبه كثيراً، وهكذا اتجهت أفكار جميع هؤلاء الناس الأشرار نحو الشيطان، ولقد أفسدوا طريقهم على الأرض، وتبددت جميع الطيبة، والتدين الحقيقي، وفترت حماسة الكثيرين وغدت باردة، ولم يجد ابن الانسان إيماناً على الأرض، لأنه بات من النادر إيجاد أي واحد يمكن أن يبدي تمييزاً بين المقدس والمدنس، أو بين الثمين والرخيص، وكان الجميع منحدرين نحو الدمار، والفوضى، ومن أخص القدمين الى قمة الرأس، لم تكن هناك سلامة فيهم، وصار الناس سواء الكهنة فيهم والناس العاديين.

الفصل السبعون

لنبدأ بمعبد الرب، الذي يدفع العالم كله تقريباً له الجزية على شكل صدقات وتقاديرم قرايين، ويقدمون مختلف أنواع الأعطيات الى رؤساء الكنائس، والكهنة النظاميين، ولقد أطعم الرعاة أنفسهم بأخذهم الصوف والحليب من قطعانهم، دون إعطاء أي اهتمام لأرواحهم، بل إنهم ضربوا مثلاً للذين أدنى منهم، مثل ثور سمين في جبال السامرة، ولقد

أصبحوا أثرياء من خلال فقر المسيح، ومتكبرين من خلال تواضعه، ووقحين من خلال حياته، وسمنوا، وازدادوا ثروة بوساطة ميراث المصلوب، وعندما قال الرب لبطرس « ارفع خرافتي » (يوحنا: ٢١ / ١٦-١٧)، لم نجد في أي مكان أنه قال: « جز خرافتي »، ولقد اهتموا بأرباحهم، ولم يحرصوا على الأشياء العائدة ليسوع المسيح، وغدوا قادة عميانا لكلام عميان وخرسان، لا يمكنها العواء، وذهبوا الى بيت الرب بأبهة وفخر، وكان معهم مفتاح المعرفة، لكنهم لم ينهلوا منها، ولم يسمحوا للآخرين بالأخذ منها، ولقد أصيبوا بجذام جيحزي (انظر الملوك الثاني: ٥ / ٢٧)، ولقد أقاموا في كل مكان في كنائسهم كراسي لهم، حيث يباع الحمام، وحيث موائد مال الصيارفة، التي قلبها الرب، وقالوا مثلما قال يهوذا الخائن: « ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه لكم؟ » (متى: ٢٦ / ١٥)، ولقد أحبوا جميعاً الهدايا، وسعوا وراء العائدات المالية، وقد أخذوا المفاتيح من سمعان بطرس وأعطوها الى سمعان مجوس، وغرقوا في الترف من مختلف الأنواع، وباتوا ضعفاء وسط كسل مخزي، ولم يكتفوا باستخدام الفتات الذي سقط من مائدة الرب، بل الأرغفة كلها التي توفرت لإطعام النسل الذي حصلوا عليه من الخليلات الفاجرات، مع فجور أعظم لأنفسهم.

الفصل الحادي والسبعون

بعد ما تأثر رجال الدين النظاميين بعدوى سموم الأغنياء، وحصلوا على كثير من الممتلكات، تخلوا عن طاعتهم لمن هم أعلى منهم، وحطموا روابطهم، وألقوا جانباً بالتزاماتهم نحو هؤلاء، وأصبحوا عدوانيين ليس نحو الكنيسة فقط وشعب الكنيسة، بل أصبحوا يحسدون بعضهم بعضاً، ويقلل أحدهم من شأن الآخر، مما شكل فضيحة قاسية للمسيحية كلها، وسعوا نحو الإهانات المكشوفة، وأظهروا الكراهية، ووصلوا إلى حد

القتال بين أحدهم والآخر، وغالباً ما تشاجروا ليس فقط بالكلمات ولكن باللكمات، وعندما شرعوا ببناء برج بابل، كانوا منفصلين، ومنقسمين بين بعضهم بعضاً بتخليط اللسان، ولم يكونوا مختلفين فقط بين أحدهم والآخر، بل أقاموا تحزبات، وتحسسوا على بعضهم بعضاً.

ومع هذا كان العديد منهم يمتلكون طباعاً أحسن، وكانوا مستقيمين ويخشون الرب، ولقد حافظوا بقدر ما استطاعوا في ذلك الحين على الأنظمة بشكل عام، وعلى المؤسسات المقدسة لرهبانياتهم، وكانوا بذلك مثل القمح بين التبن، والسوسن بين الأشواك، ولقد أحزنهم هذا، وقطع نياط قلوبهم، وأصابهم الأسى الشديد ولم «يسلكوا في مشورة الأشرار، ولا في طريق الخطاة وقفوا، وفي مجلس المستهزين لم يجلسوا» (المزامير: ٧١). وتعاضمت أعمال اللاتقوى والانحراف عن الطريق القويم لهؤلاء الرجال الأشرار، حتى أنهم لم يخشوا من الاقدام على تقديم القربان المقدس لأناس وضعوا تحت الحرمان من قبل الأساقفة، وجرموا بالاسم، وكان الذين توجب عليهم الابتهاج معهم عندما ابتهجوا، والبكاء معهم عندما بكوا، وحدهم الذين ابتهجوا عندما بكى الآخرون، وبناء عليه إن الالتزام بأنظمة الكنيسة بدأ يتراخى، وضرب رجال الدنيا الفاسدون عرض الحائط بقرارات الإدانة التي صدرت بحقهم من قبل أساقفتهم، ولم يعبأوا قط بسيف العدالة الروحي، ورمى رعاة الدير، ومقدموا الرهبان مع رهبانهم المأجورين، وصغار القساوسة، جانباً الخوف من الرب، ولم يترددوا في وضع منجلهم في قمع الآخرين، وتضافروا مع الخارجين على الشريعة، أو الأشخاص الأشرار في الزواج المقدس، وزاروا المرضى بدافع الجشع، وليس بدافع الشفقة، وأقاموا القداسات لهم ضد إرادة رعاة أبرشياتهم الشرعيين، وبذلك كانوا يربطون نفوساً ويطلقون حرياتهم، أمر العناية بها ليس معهوداً إليهم، وذلك مراغمة لشريعة الرب وللقوانين المقدسة حيث يقول الرسول: «من أنت الذي تدين عبد

غيرك». (روما: ١٤ / ٤)، واعتاد هؤلاء على السماح بدفن الموتى بحرية ضد إرادة الأساقفة، وبذلك منحوا بشكل غير قانوني أنفسهم حقوق كهنة الأبرشيات، فواجبات الرهبان البكاء والصلاة وليس القيام بأعمال القداسات لعوام الناس، وليس فقط الرهبان هم الذين لم يطيعوا رؤساءهم، بل الراهبات فعلن الشيء نفسه، حيث ألقين جانبا الالتزام بالنظام، وخرجن من عزلتهن «فانهالت حجارة المعبد في رأس كل شارع» (مراثي إرميا: ١ / ٤)، وترددن بشكل لاديني على الحمامات العامة برفقة أشخاص مدنيين، وأنا لم أدون الأشياء أعلاه لأنسب جرائم سلفهم إلى الأجيال التالية، أو إلى الأجيال الحالية، لكن لكي يقوموا بغسل أيديهم بدماء غير الأتقياء، ولتعلموا تقليد الأتقياء، ولكي يكرهوا الشر ويمقتوه، ويتوجب عليهم أن يتعلموا كيف يتواضعون بأنفسهم مع المسيح، وليحتضنوا فقره بشكل نقي، وكذلك إحسانه، ولكي يقوموا بالتخلي عن العالم الخارجي، ليس فقط في ملابسهم، فبصبرهم يمكنهم اقتناء أنفسهم.

الفصل الثاني والسبعون

وكانوا كلما ازدادوا قوة وأصبحوا أعظم مكانة بين الشخصيات الكنسية والعلمانية، كلما أصبحت طرقهم أكثر دماراً وفساداً، فلقد كانوا جيلاً شريراً ومنحرفاً، وأبناء أشرار ومنحطين، ورجالاً فاسدين، هؤلاء الذين انحدروا من الحجاج المتقدمي الذكر، ومن الرجال المتدينين، المقبولين من الرب والذين امتلأوا نعمة، صافين صفاء الخمرة من التفل، والزيت من العكارة، والقمح من البيقية، والفضة من الصدأ، ولقد ورثوا آباءهم في ممتلكاتهم، لكنهم لم يرثوهم بأخلاقهم الحميدة، ولقد بعثروا الثروة الدنيوية التي كسبها أسلافهم بسفك دمائهم، وبقتالهم برجولة ضد الكفار في سبيل مجد الرب.

ونشأ أولادهم الذين يدعون باسم «بوليان» في ترف ورفاهية، ونعومة وفسولة، وكانوا معتادين على الحمايات أكثر من اعتيادهم على المعارك، وأدمنوا الاعتياد على الحياة القذرة والصاخبة، وكانوا يلبسون مثل النساء ثياباً ناعمة، ويتزينون حتى مثل زوايا الهيكل المزخرفة، ولكم كانوا بطيئين وكسالى وجبناء ومتراخين، فهذا ما برهنوه بأنفسهم أمام أعداء المسيح، ومامن أحد يشك بالقدر الكبير الذي هم فيه محط إزدراء المسلمين، فلقد كان الحشد من المسلمين يفر من أمام آبائهم حتى لو كان عددهم قليل، فلدى سماعهم لصوتهم الذي شابه الرعد كانوا يبادرون إلى الفرار، لكنهم لا يخشون الآن من أبنائهم أكثر من خشيتهم من أية امرأة، ما لم يكن معهم بعض الفرنسيين أو غربيين آخرين، ولقد أقاموا معاهدات مع المسلمين، وتراهم مسرورين لكونهم يعيشون بسلام مع أعداء المسيح، تراهم يبادرون مسرعين إلى التخاصم أحدهم مع الآخر، ويتناوشون وينشبون الحرب الأهلية فيما بين بعضهم بعضاً، وغالباً ما يستجدون بأعداء العقيدة ليساعدوهم ضد المسيحيين، ولا يستحون من تبديد القوى والأموال التي يتوجب استخدامها ضد الكفار في سبيل مجد الرب، إنهم يبددون في القتال ضد بعضهم بعضاً ولا يذاء المسيحية، ولقد أجادوا تعلم إخفاء مقاصدهم بكلمات منمقة، مغطاة ومزينة بأوراق لكن بدون ثمار، مثل شجرة جوز عارية، وبلغ الأمر حداً أن الذين لم يجربونهم ويعرفونهم تمام المعرفة، يتعذر عليهم فهم مقاصدهم، وكشف خداع كلماتهم، أو النجاة من أحابيلهم، وهم يشكون بزوجاتهم ويغارون عليهن، ويغلقون عليهن في سجون مقفلة، ومحروسة بكل دقة وعناية إلى حد أن أخوانهن وأقربائهن المقربين يمكنهم بصعوبة القدوم إليهن، ويحظرون عليهن حظراً مطلقاً زيارة الكنائس، والمشاركة في المسيرات والاستماع للوعظ بكلمات الرب، ومسائل أخرى تتعلق بخلاصهن، حتى أنه من النادر بالنسبة لهن الحضور إلى الكنيسة مرة واحدة في السنة، ومع ذلك هناك بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم

بالذهاب ثلاث مرات في الاسبوع إلى الحمام تحت حراسة مشددة، وأقدم بعض ذوي القوة منهم، بقصد اظهار أنهم مسيحيين، ولكي يسوغوا سلوكهم بعض التسويغ، على إقامة مذابح قرب أسرة زوجاتهم، ومن ثم عقد القداسات بوساطة بعض الشمامسة المحتاجين والكهنة أنصاف المشهورين، لكن كلما زاد البوليان من تضيق الخناق على زوجاتهم، زادت هذه الزوجات من ابداع آلاف الحيل، وما لانهاية له من وسائل النضال حتى يجدن طريقهن الى الخروج، فلقد تعلمن بشكل مريع ولا يمكن تصديقه، السحر، ومكائد لاعدائها ولا حصر، وقد تعلمن ذلك على أيدي النساء السوريات، ونجد الآن أن الحجاج الذين جاءوا وسط مشاق عظيمة، ونفقات مدمرة، ومن أماكن نائية، يدفعهم الايمان لتقديم المساعدة لهم، حيث يقدمون أنفسهم وكل ما يملكون إلى الرب، نجدهم لا يعاملون بالجحود من قبل هؤلاء البوليان فقط، بل جعلوا من أنفسهم عدوانيين نحوهم بمختلف الطرق، ذلك أنهم يؤثرون الانغماس في كسلهم، وإشباع رغباتهم الجسدية والدنيوية على حرب المسلمين، عندما تحرق الهدنة أو تنتهي، ولقد أقدموا بجشعهم على أخذ مبالغ كبيرة مقابل الإسكان، والنقل، وتبديل العملة، وأنواع أخرى كثيرة من التجارة، وتولوا غش الحجاج وسلبهم، وبذلك حصلوا على ثروات كبيرة، ثم صبوا خساستهم على هؤلاء المحاربين، والمتغربين من أجل المسيح، وأهانوهم، ودعوهم بـ «الأغبياء»، وكأنهم حقى وأنصاف عقلاء، وتولوا لوم هؤلاء الناس الذين كانوا على نية القتال لصالحهم... والأعظم من هذا كله والأشد سوءاً هو الفساد الذي لا يمكن مجاراته، والشروع الهائلة لهؤلاء الناس الذين يبتهجون بفعل الشر، وينتشون في ممارسة الشرور، فلهم تم حفظ السواد والظلام إلى الابد، وهم في الحقيقة يمضون أيامهم وسط الأشياء الجيدة بالفعل، وسيمضون في لحظة إلى أعماق الجحيم، والآن إننا لنكره شرور غير الأتقياء، ونفعل ذلك مثلما قال النبي « إنه ليحزنني رؤية المعتدين، لأنهم لا يحافظون على شريعتك ». (المزامير: ١١٩/١٥٨)،

ومرة أخرى. (إنني أكرههم كراهية تامة، وأعدهم أعدائي.) (المزامير: ١٣٩/٢٢)، وهكذا نودع الرب الأناس الطيبين إذا كان قد بقي أحد منهم، وإذا ما غضب أحد مما قلته، عليه أن يبرهن أنه هو نفسه ليس كذلك.

الفصل الثالث والسبعون

وبالنسبة لهؤلاء الناس الذين هم من المدن النبيلة: جنوى، وبيزا، والبندقية، مع بقية أجزاء إيطاليا، والذين يسكنون في سورية، والذين كسب أبائهم وأجدادهم لأنفسهم شهرة لاتنفى، وتاجاً أبدياً لانتصاراتهم الرائعة على أعداء المسيح، سوف يكونون مرعبين جداً بالنسبة للمسلمين لو أنهم توقفوا عن غيرتهم وجشعهم، ولم يستمروا في القتال والخصام فيما بين بعضهم بعضاً، ولكن بما أنهم ينشبون القتال أحدهم ضد الآخر وليس ضد الكفار الخونة، ويهتمون أكثر بالتجارة والسلع من الاهتمام والانزعاج من أجل المسيح، فإن هؤلاء الذين كان آبائهم الشجعان والمولعين بالحرب مرعبين جداً للكفار، قد جعلوا الآن من أنفسهم سبباً للبهجة ولانعدام الخوف.

الفصل الرابع والسبعون

هناك قوم آخريين، قد سكنوا البلاد منذ العصور القديمة، وعاشوا في ظل سادة متنوعين، وحملوا نير العبودية بشكل متتابع، تحت سلطان الرومان ثم البيزنطيين (الإغريق)، ثم اللاتين والبرابرة ثم المسلمين والمسيحيين وهؤلاء الناس عبيد في كل مكان، ويدفعون الجزية دوماً، محتفظ بهم من قبل ساداتهم من أجل الأعمال الزراعية والاستخدامات المزرولة الأخرى، وهم جميعاً ليسوا من أهل الحرب،

ومثل النساء بلا فائدة في القتال ، باستثناء بعضهم الذين يستخدمون القوس والنشاب ، وهم غير مسلحين وجاهزين للفرار ، ويعرف هؤلاء الناس باسم «السوريين» ، إما اشتقاقاً من اسم مدينة صور ، التي كانت في العصور القديمة المدينة الرئيسية بين مدن سورية ، أو من اسم Syria بتبديل حرف لا بحرف ا، والذين عرفوا من قبل الكتاب القدماء باسم السوريين يعرفون الآن باسم «السريان» ، وهؤلاء على العموم لا يمكن الوثوق بهم، وذوي وجهين ، وثعالب مكرين ، مثلهم مثل الاغريق ، كذبة ، يبدلون الولاءات ، ويحبون النجاح وخونه ، ومن السهل كسبهم بالرشوة ، وهم أناس يقولون شيئاً ويعنون شيئاً آخر ، ولا يكثرثون بالسرقة والسلب ، ففي مقابل مبلغ صغير من المال يصبحون جواسيس ويخبرون بجميع أسرار الصليبيين الى المسلمين ، الذين نشأوا بينهم ، والذين يتكلمون بلغتهم بدلاً من الكلام بلغة أخرى ، كما أنهم يقتلدونهم بطرقهم الملتوية ، ولقد اختلطوا بالكفار ، وتعلموا أعمالهم ، ويتولون حجر نسائهم تماشياً مع اسلوب المسلمين ، ويلفونهم مع بناتهم بالثياب حتى لا يمكن رؤيتهن ، وهم لا يخلقون لحاهم مثلما يفعل المسلمون والأرثوذكس ومعظم المشاركة ، بل يعتنون بهن عناية فائقة ، ويمجدوهن تمجيذاً خاصاً ، ويرون في اللحي علامة على الرجولة ، وعلى شرف الوجه ، ودليلاً على إباء الانسان ومجده ، ومثل حال الخصييان الذين هم بلا لحي تماماً ، وينظر اليهم من قبل اللاتين على أنهم أخساء ومخشيين ، وهكذا يعتقد هؤلاء أن أعظم الإهانات لا في قص اللحي ، بل بانتزاع شعرة واحدة منهم ، ولهذا عندما حلق حانون ملك العمونيين أنصاف لحي عبيد داود ليظهر استخفافه بـداود ، لم يقم هؤلاء بحلاقة البقية بل اختبأوا في أريحا حتى نمت لحاهم . ومثل هذا ، عندما أطلق بلدوين ، كونت الرها لحيته وفق الأسلوب الشرقي ، وتزوج من ابنة دوق نبيل اسمه

جبرائيل ، وكان من أصل أرمني ، لكن أرثوذكسي الديانة ، ولأنه كان رجلاً فقيراً ، ولكي ينال المال من ختته الغني ، عندها أخبره أنه أرغم على رهن لحيته لبعض الدائنين ، مقابل مبلغ كبير من المال ، وبناء عليه دهش جبرائيل كثيراً وحزن ، وبات على استعداد لإنقاذ ابنته وصهره من عار أبدي ، وأعطاه ثلاثين ألف قطعة نقدية bezants ، شريطة أن لا يقوم بعد الآن برهن لحيته مطلقاً، مهما كان فقيراً ، أو مهما كانت المشاكل التي نزلت به . ويستخدم السريان اللغة العربية في استخداماتهم العامة وحديثهم ، كما يستخدمون الكتابة العربية في صكوكهم وأعمالهم مع الكتابات الأخرى ، باستثناء الكتابات المقدسة والكتب الدينية الأخرى حيث يستخدمون الحروف الإغريقية وبناء عليه فإن سوادهم الأعظم ، الذين يعرفون اللغة العربية فقط لا يفهمون عليهم لدى استخدامهم في القداسات الدينية الإغريقية هذه ، بينما نجد الاغريق الذين يستخدمون اللغة نفسها في محادثاتهم العامة وفي كتاباتهم ، يستطيعون أن يفهموا على كهنتهم في كنائسهم ، وفي لغتهم المكتوبة ، التي هي لغة الحديث نفسها ، ويتبع السوريون تماماً أحكام وعادات الاغريق في الطقوس الدينية والمسائل الروحية الأخرى ، ويطيعونهم على أنهم رؤساء لهم ، أما فيما يتعلق بالأساقفة اللاتين الذين يقيمون في أبرشياتهم ، فإنهم يطيعونهم كلاماً ، لكن ليس فعلاً ، ويظهرون فقط أنهم يطيعونهم ويقولون ذلك خوفاً من سادتهم تبعاً للجسد ، لأن لديهم أساقفة أرثوذكس (إغريق) خناصين بهم ولا يخشون من الحرمان أو أي قرار يتخذ ضدهم من قبل اللاتين ولا بشكل من الأشكال ، هذا ويتجنب السواد الأعظم من قومننا جميع المعاملات معهم أو العلاقات والشؤون الأخرى : لأنهم يقولون بين أنفسهم : إن جميع اللاتين واقع عليهم الحرمان ، وبناء عليه لا يمكنهم اصدار قرار عقوبة بحق أي كان ، وفي

مجمع نيقية الذي كان واحداً من المجامع الأربعة الرئيسية ،
المتقبلة قراراتها من قبل جميع الكنائس كلياً مثل تقبل الأناجيل
الأربعة، كان عدد الحضور في ذلك المجمع ثلاثمائة وثمانية عشر
أسقفًا ، وقد تقرر هناك بين نقاط عديدة ، بأن روح القدس انبثق
عن الأب ، وأعلنوا في الختام أن أي واحد يضيف أي شيء ، أو
يحذف أي شيء من أعمال المجمع سوف يكون محروماً من الكنيسة ،
ومع أنهم قالوا مقررين أن روح القدس صادر عن الأب ، لم يقولوا
: إنه غير صادر عن الابن : ذلك أن أشياء كثيرة لم تقرر أو تعلن في
البداية غير أنها تقرررت وحددت من قبل الرجال المقدسين في أوقات
تالية لنفي أية غلط ، وبناء عليه في الوقت الذي لدى الأرثوذكس
(الاغريق) في عقيدتهم : « إنني أومن بروح القدس ، وبالرب ،
وبواهب الحياة » ، يقول الاغريق بوضوح أكبر : « انبثق عن الأب
وعن الابن » ، ومثل هذا عندما يقول الأرثوذكس : « إن روح القدس
من الأب ، لم يصنع ، ولم يخلق ولم يولد ، لكن انبثق » ، يضيف
اللاتين : «روح القدس من الأب ومن الابن » ، ولا يضيفون أي شيء
مخالف : ولهذا توجب فهم الجملة الأخيرة ، وأنها موجهة ضد الذين
أضافوا أية أشياء مضادة ، وهكذا قال القديس بولص في رسالته الى
الغلاطيين : « إن كان أحد يشرككم بغير ما تلقيتم فليكن ملعوناً
(أناثيا) » (غلاطيه : ٩ / ١) ، والآن من المؤكد أن القديسين بشروا
بأشياء كثيرة الى جانب ما بشر به بولص ، لكن مضاد لما بشر به
بولص : ولهذا ينبغي أن نفهم هذا التحريم ، ومن المحزن من أجل
ذلك أن كل من السريان والأرثوذكس أساءوا فهم ما تمت صياغته
من قبل الآباء المقدسين في مجمع نيقية ، وأعلنوا أن روح القدس لم
ينبثق عن الابن ، ومهما يكن الحال لقد نفخ المولى يسوع على حواربيه
وقال لهم : « اقبلوا الروح القدس » (يوحنا : ٢٠ / ٢٢) وبذلك
يتبرهن بوضوح أنه نفخ روح القدس . وأن روح القدس قد انبثق

منه مع أنه انبثق من الأب ، وذلك بمثابة عهد محبة منهما ، وبناء عليه يقول هو نفسه في الانجيل : « إنني علمت أن قوة قد خرجت مني » (لوقا : ٤٦/٨) ، لأنه بفضل قوة روح القدس التي خرجت منه شفى المرأة التي لمست طرف كسائه ، لأنه عندما قال للأب : « كل مالي هولك ومالك هولي » (يوحنا : ١٧/١٠) واضح أنه كما أن روح القدس من الأب ، إنه كذلك من الابن ، وهكذا قال القديس بولص : « أرسل الرب روح ابنه الى قلوبنا ، ولهذا ننادي أبا ، أيها الرب » (غلاطية : ٤/٦) ويقول القديس يوحنا أيضاً في رسالته العامة : « مسحته مسحتكم عن كل شيء » (يوحنا : ٢٧/٢) ويقول مرة أخرى : « المسحة التي نلتموها منه تثبت فيكم » ومن هذا نرى بوضوح أن روح القدس — أو المسحة ، التي هي الشيء نفسه هو روح الابن مثلما هو روح الأب ، أي أن الابن أرسله ، مثلما أرسله الأب ، وذلك من خلال شهادته حيث قال : « إن ذهبت أرسله لكم » (يوحنا : ١٦/٧) ، وعلى هذا روح القدس مشترك بين الشخصين وانبثق منهما معاً ، ويقول دانيال : « ومن أمامه يجري ويخرج نهر من نار » (دانيال : ١٠/٧) ولهذا السبب نجد مثلما اللاتين يعتقدون كلهم أن روح القدس انبثق من الابن ، كذلك العقلاء من الأرثوذكس لا ينكرون هذا ، مع أنهم لا يؤكدون ذلك رسمياً ، لأن عبارة « انبثق من الابن » غير موجودة في عقيدتهم ، والآن بما أن الأرثوذكس والسريان — كما سلف القول — يرون أن اللاتين جميعاً محرومين ، اعتادوا على غسل المذابح ، حيث كان اللاتين يقيمون التنداسات ، وذلك قبل قيامهم بقداستهم ، زد على هذا ، هم لا يقيمون أدنى اعتبار لقرايينا المقدسة ، ولا يقومون عندما يمر كهنتنا عابرين وهم يحملون خبز القربان لزيارة المرضى ، وفي الوقت الذي نجد فيه الكنيسة الرومانية المقدسة وجميع الغريين ، يقومون تقليداً منهم للرب فيصنعون خبز القربان خبزاً فطيراً ، لأنه بعدما

أكل حمل الرب مع خبز فطير - وذلك تقليداً لليهود - تولى تحويل الخبز الذي استخدم عند العشاء الى جسده : نرى أن الأغريق من الجهة الأخرى ، يرفضون هذا الطقس ، ويحتفلون بالقربان المقدس بخبز مخمر ، ومع هذا تعلمنا : « لنعيّد ليس بخميرة عتيقة ، ولا بخميرة الشر والخبث ، بل بفطير الاخلاص والحق » ، (كورنثي: ٨/٥) ، هذا ويخالف هؤلاء المنشقون تعاليم كنيسة روما المقدسة ، والسامية في أشياء أخرى كثيرة ، منتهكين بذلك النظام الرباني الذي عين روما لتكون المطرانية والمدينة العاصمة للعالم أجمع ، ولحكم المؤمنين بالأمور الروحية مثلما تحكم بالأمور الدنيوية : لأن كيفاس - الذي معناه الحرفي : الرأس ، والمعني بهذا بطرس - قد عينه الرب رأساً لجميع العالم ، عندما قال الرب ، دون أن يعطي أي استثناء « سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السموات » (متى : ١٦ / ١٩) ، وقال أيضاً « ارفع غنمي » (متى : ١٧ / ٢١) ، وهو لم يقل اللاتين فقط أو الغربيين ، بل قال ببساطة : « غنمي » ، أي أن يكون هناك قطيع واحد وراعي واحد ، ثم إنه من الواضح أن كنيسة المسيح قد بنيت على هذه الصخرة ، أي بطرس الذي صلى من أجله الرب حتى لا ينقص إيمانه ، وكل الذين ابتعدوا عن كنيسة روما عبثاً يعملون ، لأنهم بنوا من دون أساس ، وانفصلوا عن الذي دعاه الرب باسم « كيفاس » ، وسوف يعدون تينينات رهيبة بلا رؤوس . ويتفق السريان مع الأرثوذكس بعدم السماح بزواج رابع ، والكهنة والشمامسة لديهم غير مسموح لهم أثناء ارتباطهم اللاهوتي بعقد الزواج ، ومع هذا مسموح لهم باستخدام الزوجات اللائي تزوجن منهن قبل رسامتهم ، وهم لا يعدون من كان بمرتبة مساعد شماس ضمن الهيئة المقدسة ، ويقوم الكهنة برسم علامة الصليب بالزيت المقدس على جباه الأطفال بعد تعميدهم مباشرة ،

الأمر غير المسموح بالقيام به لدى اللاتين إلا للأساقفة فقط ولرؤسائهم، لأن الأساقفة يقومون مقام الرسل في كنيسة الرب: لأنه بالاستلقاء على أيدي الرسل وهبت روح القدس للتقوية والراحة، ويعدون يوم السبت يوماً مقدساً جداً إلى حد عدم السماح بالصوم في يوم السبت إلا إذا كان السبت يوم عيد الفصح، ويطبقون القداسات العظيمة في يوم السبت مثل التي يقيمونها يوم الأحد، ويحتفلون بشكل رائع في ذلك اليوم، ويأكلون اللحم تقليداً لليهود، لكن هذه المراعاة الطقوسية ملومة من قبل اللاتين خشية الظهور بمظهر المتبع لعادات اليهود.

الفصل الخامس والسبعون

فضلاً عن هذا، هناك في الأرض المقدسة، وفي أجزاء أخرى من الشرق أمماً بربرية أخرى، تختلف في كثير من النقاط عن الإغريق واللاتين، من هؤلاء قوم عرفوا باسم اليعاقبة، وقد نالوا اسمهم من معلم لهم اسمه يعقوب، وكان من تلاميذ بطريرك الاسكندرية، وكانوا قد تعرضوا منذ زمن بعيد إلى الحرمان الكنسي، وجرى طردهم من قبل الكنيسة الأرثوذكسية (الإغريقية) على يد ديوسكورس Dioscorus ، بطريرك الاسكندرية، وسكنوا بأجزاء كبيرة من آسيا وجميع الشرق: ويقطن بعضهم وسط المسلمين، ويمتلك بعضهم الآخر بلداناً خاصة بهم، دوناً انسجام مع الكفار، ومن هذه البلدان: النوبة المتصلة بمصر، والجزء الأكبر من أثيوبيا، وكل البلاد امتداداً حتى الهند، وهي أكثر من أربعين مملكة، وقد أعلنوا أنها عائدة إليهم، وهم جميعاً مسيحيين وجرت هدايتهم من قبل الحواري القديس متى، وبعض الرسل الآخرين، لكن بعد أمد زرع العدو البيقية بينهم، وهم تاهوا لوقت طويل وسط ظلام محزن وخطيئة، ويقومون في أعظم الأجزاء بختن أولادهم من كلا الجنسين وفق طرائق المسلمين، دوناً فهم أن نعمة التعميد قد جعلت الختان بلا

فعالية، مثل زهور سقطت وذبلت عندما تكون الثمار جاهزة للقودم، وهكذا يقول القديس بولص برسالتة إلى غلاطية: «إن اختنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» وقال ثانية: «لكن أشهد أيضاً لكل انسان مختن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس. قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتررون بالناموس، سقطتم من النعمة» (غلاطية: ٥/٢-٣)، وخطيئة أخرى من أخطائهم، ليست أقل مما تقدم هي أنهم يعترفون بذنوبهم ليس إلى الكهنة بل إلى الرب وحده بشكل سري، ويضعون البخور على النار إلى جانبهم، وكأن ذنوبهم سوف تصعد من هناك مع الدخان إلى الرب، وهم بهذا يخطئون بتعاسة، غير فاهمين للكتابات المقدسة، ويهلكون خلال عقيدة مزيفة، ويخفون جراحهم عن أطبايهم الروحانيين، ويفرض الكفارة عليهم، وللربط وللحل، وفقاً لما تسلموه من مفاتيح، وليقوموا بتأدية الصلوات خاصة للذين اعترفوا لهم، ولهذا قال الرب في الإنجيل للمجدومين: «إذهبوا واعرضوا أنفسكم على الكهنة» (لوقا: ١٣/١٤)، وقرأنا عن القديس يوحنا المعمدان بأن رجالاً كانوا يتعمدون من قبله ويعترفون بذنوبهم» (متى: ٣/٦)، ثم إن الشعور بالخجل، والقلق والعار، والتواضع، أثناء الاعتراف هو الجزء الأكبر من الكفارة، ويكون الناس أكثر عرضة للذنب إذا اعتقدوا أنهم لا يحتاجون إلى إظهار أفاعيلهم الشريرة للناس، لأنه قد كتب: «من يكتنم خطاياهم لا ينجح، ومن يقر بها ويتركها يرحم» (أمثال: ٢٨/١٣)، والخطيئة الثالثة، والجهل القبيح مثل الظلام الذي يمكن الشعور به لهؤلاء اليعاقبة المتقدم ذكرهم، أن عدداً كبيراً منهم يقومون قبل تعميد أولادهم، بوسم أولادهم بحديدة محماة حتى الإحمرار، وبذلك يرسمون وسماً على جباههم، ويقوم آخرون بوسم أطفالهم بشارة الصليب على الوجنتين، أو على الصدغين، مفترضين بشكل خاطئ أنهم يقومون بالتكفير عن ذنوبهم بالنار الفعلية، لأنه كتب في إنجيل القديس متى بأن القديس يوحنا المعمدان قد قال عن المسيح: «هو سيعمدكم بالروح القدس وبالنار» (متى:

١١/٣) مع أنه من الواضح لجميع المؤمنين أن غفران الخطايا سوف يكون بنار روحية، أي بالروح القدس، وليس بنار مريئة، ونجد في كتب الأنبياء أن الرب غالباً ما وجه اللوم إلى بني إسرائيل، وهددهم بعنف لأنهم قاموا ومرروا أولادهم خلال النار كما فعل غير اليهود، لأن الرب يقول في سفر التثنية على لسان النبي موسى: «لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم. لا يوجد فيك من يميز ابنه أو ابنته في النار، ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر» (التثنية: ١٨/٩-١٠) والمسيحيون جميعاً يعلمون أنه لا الرب ولا رسله، أو أي من الآباء المقدسين، تركوا أية عادة من هذا النوع في الكنيسة، أو أمروا بعمل مثل هذا النوع من الوسم، وأنا رأيت بنفسي كل من اليعاقبة والريان الذين يسكنون بين المسلمين، مع صلبان وسمت على أذرعهم بحديدة محماة، وكأنهم يريدون أن يقولوا إنهم يفعلون ذلك لتمييز أنفسهم عن الكفار، وصدوراً عن الاحترام للصليب المقدس، قاموا بطبع صورة الصليب على أنفسهم، وتقصيت بالبحث بين الريان والأرثوذكس، فوجدت أنهم يبخسون اليعاقبة، وقد طردوهم من جماعتهم، وقالوا إن السبب الرئيس أنهم وقعوا في أعمال الارتداد شراً وإدانة، بإعلانهم أن المسيح كان له اقنوم واحد فقط، وبذلك له طبيعة واحدة فقط، والهراطقة من هذا النوع محرومين كنسيا ومدانين من قبل مجمع خلقدونية (سنة ٤٥١م)، وأصر بعضهم بشكل خاطئ على أن المسيح بعدما اتخذ طبيعتنا لم يعد موجوداً بطبيعتين، بل بقيت فيه الطبيعة اللاهوتية فقط، وجلب هذه الخطيئة إلى الكنيسة يوتيكس Eutyches، وكان راعي دير في القسطنطينية، وأعلن آخرون أن الطبيعتين في المسيح صارتا واحدة، ومقترف هذه الخطيئة وفاعلها أسقفان من الاسكندرية اسمهما ثيودوسيوس Theodosius، وغالانوس Galanus، هذا ونحن نعرف بشكل مؤكد أن يسوع المسيح: جاع، وعطش، وشعر ببقية الحاجيات تبعاً لطبيعته البشرية، لا بل حتى إنه عانى من الموت على الصليب، وقام بالوقت نفسه تبعاً

لطبيعته اللاهوتية، بإقامة الميت وعمل معجزات أخرى، ووفقاً لهذه الطبيعة قال: «قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن» وقال ثانية: «أنا من البدء ما أكلمكم به أيضاً» (يوحنا: ٨ / ٢٥، ٥٩)، ومرة أخرى: «أنا وأبي واحد» (يوحنا: ١٠ / ٣٠)، وقال الشيء نفسه بالنسبة لطبيعته البشرية: «أبي أعظم مني» ومرة أخرى عندما كان عليه تناول كأس المضي من الحياة: «ليس كما أريد بل كما أنت تريد»، والآن عندما يرون هناك طبيعة واحدة فقط في المسيح، قالوا بالنفي، وأنا لأعرف هل هم قد تأثروا بالخوف أو بسبب آخر، وعندما سألتهم: لم يستخدمون اصبعاً واحداً ليصلبوا أنفسهم بها، أجابوا بأنهم يرمزون بالاصبع الواحد لكائن إلهي واحد هو الثالوث في ثلاثة أشخاص، وأنهم بذلك يحصنون أنفسهم بشارة الصليب باسم الثالوث المتحد، لكن الأرثوذكس والسريان يقولون في نقد لهم، بأنهم يرسمون على أنفسهم باصبع واحد بسبب الطبيعة الواحدة التي يمتلكها المسيح حسب اعتقادهم. ويستخدمون الأحرف الكلدانية، وبعضهم الآخر العربية التي ندعوها الإسلامية، ويستخدم سواد الناس منهم لهجات مختلفة في كلامهم العام، وذلك تبعاً لاختلاف أممهم وبلدانهم، ولا يفهمون اللغة التي يستخدمها رجال الدين لديهم في الكتابات المقدسة، لأنه صحيح أن هؤلاء يستخدمون الأبجدية العربية، إن الذي يكتب ليس اللغة العامية العربية، بل لغة خاصة مفهومة فقط من قبل المتعلمين.

الفصل السادس والسبعون

هناك أمم أخرى لاتقطن فقط في الأرض المقدسة وبين المسلمين، بل يقطنون مستقلين بأنفسهم في الجزء الأكبر من الهند، وهم قوم يعرفون باسم النساطرة، صدوراً عن مهرطق رئيس اسمه نسطور، الذي أصاب معظم الشرق بالسموم القاتلة لعقيدته، وخاصة الذين يسكنون في بلاد

ذاك الأمير القوي جداً والهمجي الذي يعرف باسم «برسترجون» وجميع هؤلاء مع ملكهم نساطرة، وقد قيل إنهم مع اليعاقبة أكثر عدداً من اللاتين أو الأرثوذكس، وعن أولئك الذين سكنوا منفردين، والذين أعدادهم لا تحصى، سوف لن نتحدث، لكن هناك بين المسلمين كثير من المسيحيين وهم منسجمين مع المسلمين، ويخضعون لقانونهم مثل خضوع المسلمين أنفسهم، وصحيح أن هؤلاء الناس لم يأخذوا بالشرعية المثيرة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) إنهم مع ذلك فسدوا بشكل بائس بالهرطقات، ويذهب نسطور ابن الجحيم، الذي كان (رئيس) أساقفة القسطنطينية إلى القول مع زبانيته: إن مريم العذراء المباركة لم تكن أمّاً لرب، لكنهم يقرون أنها كانت أم المسيح الانسان، ويعلنون أنه لم يكن في المسيح شخص إلهي وشخص بشري، وأنه تبعاً لطبيعته يوجد في المسيح شخصين متميزين، وهم لا يعتقدون أن كلمة الرب والجسد كانا مسيحاً واحداً، بل يؤمنون بوجود شخصين منفصلين متميزين: أحدهما ابن الرب، والآخر ابن الانسان؛ وكانت هذه الهرطقة البغيضة قد أدينّت من قبل مجمع افسوس (٢٢ حزيران ٤٣١ م) الذي شهدته ثلاثمائة من آباء الكنيسة، لأنه كما هو معقول النفس والجسد في انسان واحد، كذلك معقول وجود الرب والانسان في مسيح واحد، ومع أن طبيعة الروح تختلف عن طبيعة الجسد، ليس هناك انسان واحد تبعاً للروح وآخر تبعاً للجسد، ثم مع أن طبيعة الحديد شيء، وطبيعة النار شيء آخر، نجد أن الحديد المحمّاة حتى اللون الأحمر شيء واحد، وتبعاً للهرطقة المتقدمة الذكر، ينبغي أن لا يستخدم الانسان كلمات: «المسيح هو رب وانسان؛ وتوفي ابن الرب ودفن»، لأنه احتراماً له لكونه ابن الرب، لا يمكنه أن يعاني ولا أن يموت، ومع هذا يقول إشعيا: «لأنه يولد لنا ولد... ويدعى اسمه... إلهاً قديراً» (إشعيا: ٩ / ٦)، وكان هذا الرب طفلاً صغيراً، وهذا معارض لعقيدتهم الهرطقية، ويتحدث إرميا بالاسلوب نفسه عن ابن الرب قائلاً: «وتراءى فيما بعد على الأرض وتحدث مع الناس» (باروخ: ٣ /

(٣٧)، وذلك مع أنه كرب هو غير مرئي، وقال القديس بولص: «أرسل الرب ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس» (غلاطية: ٤ / ٤). وواضح من هذا أن ابن الرب ابن العذراء، وهكذا كانت مريم أم الرب: «وسيُقال هذا الانسان ولد فيها، وهي العلي يثبتها» (المزامير: ٨٧ / ٥)، وهكذا فإن الانسان الذي ولد من العذراء مريم قد تولى أيضاً خلقها، وأن ذلك الانسان كان هو الرب، وبالطريقة نفسها ينبغي أن نقر أن ذلك الطفل قد خلق السموات، ومن أهد الآبدن كان من عنصر الآب نفسه ومساوياً له، لأن «الكلمة صارت جسداً وحل فينا» (يوحنا: ١ / ١٤) الآن ونحن نرى أنه قد قال هو نفسه: «أنا ذلك الذي كلمتكم عنه منذ الابتداء» (يوحنا: ٨ / ٢٥ - الترجمة اللاتينية لجيروم)، مامن انسان عاقل يمكنه أن يشكك أن ذلك الشخص نفسه هو الابتداء والخالق لجميع الأشياء، وأنه تحدث مع البشر، وأنه بناء عليه واضح بدون أدنى شك أن الشخصين: الإلهي والبشري هما واحد ونفسه، الأمر الذي ينكره النساطرة التعساء. وهم يستخدمون الأبجدية الأكادية في الكتابات المقدسة، والخبز المخمر في القداس مثل الاغريق.

الفصل السابع والسبعون

هناك شعب آخر يسكن فوق جبال لبنان، في مقاطعة فينيقيا، ليس بعيداً عن مدينة جبيل، وأعداد هذا الشعب كبيرة، ويستخدمون القسي والشباب، ويتسمون بالسرعة والمهارة في القتال، ويعرفون باسم الموارنة نسبة الى معلمهم، وهو انسان اسمه مارون، وكان مهرطقاً، بشر بأن المسيح كانت له ارادة واحدة ونشاط واحد، وكان مقترف هذه الخطيئة أسقفاً لأنطاكية واسمه مكاريوس، وقد أدين مع أتباعه على أنه رأس للهرطقة، وطرد من كنيسة الشعب المؤمن بالمسيح، وقيد بقيد الحرمان واللعنة من قبل المجمع السادس للقسطنطينية، الذي اجتمع فيه مائة

وخمسين من آباء الكنيسة، لأنه كما يوجد في الانسان العادي إرادة عقل واحد وإرادة أخرى للشهوة، كذلك كان في المسيح إرادة بشرية جعلته يرغب بالأكل والشرب، الى أن عبرت الكأس عنه، ورغبة لاهوتيه أخرى، وهي التي كانت واحدة مع رغبة الآب، وقد أظهر بشكل واضح هاتين الرغبتين عندما قال: «ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت» (متى: ٢٦/٣٩)، ومن الذي لا يعرف أن الأكل والشرب والحاجيات الأخرى التي خضع لها المسيح كإنسان ليست سوى عمليات بشرية، وليس لها أدنى علاقة مع أبدية الرب ؟ لكن لأن يقيم الميت ، ولأن يستأنف الحياة بعد الموت لا علاقة لهما بالبشرية بل بالقدرة الإلهية فقط ، وبهذا إنه لمن الواضح أن عمل الانسان يختلف عن عمل الرب ، ووفق هذه الطريقة علمنا القديس بولص بوضوح أن ارادة الانسان مزدوجة ، وذلك عندما قال في رسالته الى الرومان : « إني لا أعرف ما أنا عامله ، لأن ما اریده من الخير لا أعلمه بل ما أكرهه من الشر إياه أعمل » (رومية : ٧/١٥، ١٩) وانظر كم هو الصراع عظيم هنا بين إرادة العقل وإرادة الشهوة ، وقال مرة ثانية : « الإرادة حاضرة عندي ، وأما أن أفعل الحسنی فلست أجد » (رومية ٧/٨) « وأما الروح فنشيط » (متى : ٢٦/٤١) ولكن الجسد ضعيف ، لأنه يعمل وفقاً للإرادة المنطقية ، وتبعاً لهذا أخذ أحدهم بطرس وقاده الى حيث لم يرغب ، ومع هذا فإنه بوساطة عمل إرادته العقلانية عاد الى روما طواعية ، واختار أن يصلب ، وبين الرسول بولص هاتين الارادتين على أنهما ناموسين متنازعين معاً داخل الانسان فقال : « ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني الى ناموس الخطية الكائن في أعضائي » . (رومية : ٧/٢٣) ، والآن إن مارون المتقدم الذكر ، الذي كان أعمى بقوة باهرة أرسلها الشيطان، كان له أتباع كثرة في خطيئته، وهم الذين عرفوا باسم الموارنة، وظلوا لقراية الخمسمائة سنة

منفصلين عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وعن الاتصال مع المؤمنين يقيمون القداسات بأنفسهم منعزلين: ومع هذا عادوا فيما بعد الى قلوبهم، وقاموا بحضور الأب المبجل أما لرك، بطريرك أنطاكية بالإعلان عن إيمانهم بالعقيدة الكاثوليكية، وأقلعوا عن الخطيئة المتقدمة الذكر، واتبعوا عادات كنيسة روما، ومعروف أن الأساقفة الشرقيين — باستثناء اللاتين فقط — لا يستخدمون الخواتم، ولا القلائس الأسقفية، ولا يحملون الصولجانات الأسقفية بأيديهم ولا يستخدمون النواقيس بل اعتادوا على دعاء الناس الى الكنيسة، بالضرب على لوح من الخشب بعصا أو بمطرقة، وقام الموارنة المتقدم ذكرهم إظهاراً منهم للطاعة لروما، فاتبعوا عادات وطقوس اللاتين، وهكذا كان بطركهم حاضراً في المجمع الكنسي الذي انعقد في اللاتيران (١٢١٦م) وسط احتفال مهيب أيام ولاية البابا المبجل انوسنت الثالث، وهم يستخدمون الأبجدية الكلدانية، ولغة المسلمين الشائعة.

الفصل الثامن والسبعون

وللشعب الأرمني الذي يسكن لوحده في مقاطعة (دولة) أرمينيا (الصغرى) بين المسيحيين والمسلمين، تميز واختلاف عن جميع أمم المسيحيين، لامتلاكه لطقوس غريبة ولعادات شاذة خاصة به، ولالأرمن المتقدمي الذكر رئيس خاص بهم يدعونه الجاثليق، وهم جميعاً من الأدنى الى أكثرهم علواً بينهم يطيعونه مع أقصى درجات التشريف، وييجلونوه وكأنه بابا آخر، وبينهم وبين الاغريق نزاعات لا يمكن فضها، وخلافات لا يمكن تسويتها، وتكره كل فئة وتمقت ممارسات وطقوس الطائفة الأخرى، ولهم لغتهم الخاصة، مع أبجدية، ويقرأون الكتابات المقدسة بلغة عامية، وبهذا بات من الممكن فهم كهنتهم ورجال الاكليروس منهم في كنائسهم من قبل العامة، وذلك حسبما تحدثناه عن الحالة مع

الاغريق، وهم لا يحتفلون بعيد ميلاد الرب وفقاً للجسد، بل يصومون في يوم ميلاد الرب، وعندما ينتهي الصيام يحتفلون بعيد ميلاد الرب (٦- كانون ثاني) مع عيد القديس يوحنا المعمدان ويعلنون أنه في ذلك اليوم الذي يقيمون فيه العيد هو يوم ميلاد الرب تبعاً للروح، ومع هذا لا يمكن القول بأن الرب قد تجدد روحياً أو ولد مرة ثانية، لأنه وهو الذي لم يقترب ذنباً لم يتطهر بماء التعميد» لم يفعل خطية ولا وجد في فمه مكر» (بطرس: ١/ ٢/ ٢٢). وهم يقومون بالصيام قبل قيامة الرب، ويراعونه بشكل صارم حتى أنهم لا يمتنعون عن اللحم والجبن، والبيض، والحليب فقط، بل إنهم لا يأكلون السمك، ويستخدمون الزيت، ولا يشربون الخمر: ومع هذا إنه لمن الصعب تسميته صوماً، لأنهم يأكلون الفواكه والخضار بقدر ما يرغبون في اليوم، ولكي يختلفوا عن الطائفتين المنافستين: الاغريق (الارثوذكس) والسريان، يتولون أكل اللحوم في بعض أيام السبت، وهم لا يمزجون الماء بالخمر في يوم القربان المقدس لدم المسيح، وهم يظهرون بهذا الطقس الهرطقي وقد اقترفوا إثماً عظيماً، لأن ربنا يسوع عندما وضع العشاء على المائدة مزج الخمر ليس وفقاً لعادات جميع الشرقيين، الذين لا يشربون الخمر بدون مزج، وعمل قربانه من خمر ممزوجة بالماء، وفي الحقيقة مامن أحد في هذه المناطق يمكنه أن يشرب الخمر صرفة من دون ماء إلا ويقع مريضاً، وبناء عليه يقول القديس سيبريان cyprian حول مزج الماء بالخمر: «إذا لم يراع واحد من أسلافي، سواء عن طريق الجهل أو السذاجة القانون الذي علمنا إياه الرب عن طريق ممارساته وسلطته، فإن سذاجته يمكن أن تنال الغفران من الرب، أما نحن فلا يمكن أن يغفر لنا، لأننا قد حذرنا، وتلقينا التعليمات من الرب في أن نقدم كأس الرب ممزوجة بالماء، مثلما قدم الرب الشيء نفسه»، ومن الواضح أن الرب قدم في العشاء الأخير كأساً من الخمر ممزوجة بالماء، وبناء عليه فإن الأرمن المتقدمي الذكر لا يقلدون الرب في عيد القربان المقدس في المذبح، ولم يدركوا أسرار

الطقس، لأن الماء الذي هو شيء لا يعرف الثبات، بل دوما ينساب، هو يرمز الى الشعب الفاني، الذي لا يعرف الثبات، ولهذا يمزج الماء بالخمرة ليبين أن الناس اتحدوا بالمسيح، مثل الانضمام الى دم مخلصنا، لأنه إذا ما قدم أحدهم الخمر صرفاً، كأنه بدأ بدم المسيح بدوننا، وإذا ما قدم الماء لوحده سيكون ذلك الناس لوحدهم من دون المسيح، ولن يحمل معنى المزج المتقدم الذكر، ذلك أن القربان ينبغي أن يكون علامة على شيء مقدس، ولا يجوز — بناء عليه — أن يكون الرب المقدم لامن الماء لوحده ولا من الخمرة لوحدها، لأننا نقرأ أنه في آلامه صدر عنه من جانبه كلاهما معا.

ومهما يكن من أمر لقد وعد الأرمن الآن بإطاعة البابا والكنيسة المقدسة في روما، وذلك عندما تلقى ملكهم (ليون الكبير ١١٨٥—١٢١٩) بلاده من الامبراطور هنري، امبراطور، الامبراطورية الرومانية المقدسة، وجرى تنويجه (في طرسوس سنة ١١٩٨) من قبل رئيس أساقفة مينز mainz، ومع ذلك لم يغيروا عاداتهم القديمة الراسخة.

الفصل التاسع والسبعون

ويوجد في الشرق أيضاً شعب مسيحي آخر، مولع رجاله بالحرب كثيراً، وهم شجعان في القتال، ذلك أنهم أقوىاء في الجسد، وأشداء في أعداد مقاتليهم التي لا تحصى، وهم مرعبون يخافهم المسلمون كثيراً، وغالباً ما أحدثوا بغاراتهم أضراراً عظيمة لحقوها بالفرس، وبالميديين، وبالأشوريين، الذين سكنوا على حدودهم، ذلك أنهم مطوقون تماماً من قبل الأمم الكافرة، ويعرف هؤلاء القوم باسم الجورجيين (الكرج) لأنهم يجلسون بشكل خاص ويعبدون القديس جورج، الذي هو شفيعهم وحامل رايتهم في قتالهم مع الكفار، ويمجدونه

فوق جميع القديسين الآخرين، ويقرأون الكتابات المقدسة بالآغريقية، ويقدمون القرابين وفق الطريقة الآغريقية، ويخلق رجال الاكليروس لديهم رؤوسهم بشكل مستدير، أما السواد الأعظم منهم فبشكل مربع، وكلما جاءوا للحج الى ضريح الرب، يسيرون في المدينة المقدسة بأعلام مرفوعة دون أن يدفعوا الجزية لأي انسان، لأن المسلمين لا يتجرأون أبداً على التحرش بهم، خشية أنهم عندما يعودون الى بلادهم يقومون بالانتقام لأنفسهم من مسلمين آخرين من جيرانهم، وتشبه نساؤهم النبيلات الأمازونيات ويحملن السلاح في القتال مثل الفرسان، وكان الجورجيون ساخطون جداً وهددوا المعظم عيسى، أمير دمشق، لأنه استأنف تدمير أسوار القدس ضد رغبتهم، وكان هذا عندما كان اللاتين يحاصرون دمياط، وهم يطلقون شعورهم وشعور لحامهم حتى تصل إلى طول ذراع تقريباً، ويرتدون قبعات على رؤوسهم.

الفصل الثمانون

يدعى المسيحيون الذي يسكنون في أفريقيا واسبانيا بين مسلمي العرب باسم المستعربين، وهم يستخدمون الأبجدية اللاتينية، ويقرأون الكتابات المقدسة باللغة اللاتينية، وهم مثل اللاتين الآخرين يطيعون بتواضع وعن إيمان الكنيسة الرومانية المقدسة، دون الانحراف في أي سبيل والابتعاد عن تعاليمها الدينية أو الطقوسية المتعلقة بالقربان المقدس، وهم يحتفلون بالقربان المقدس بخبز فطير، مثلما يفعل بقية اللاتين، ويقسم بعضهم — على كل حال — قداس القربان إلى سبعة أجزاء، وبعضهم إلى ثمانية، في حين تقسم الكنيسة الرومانية مع رعاياها الآخرين القربان المقدس إلى ثلاثة أجزاء فقط، وبما أن هذا التقسيم لاعلاقة له بجوهر القداس فإنه لا يغيره أو يعيق فضيلته.

الفصل الحادي والثمانون

ويوجد في الشرق شعوب أخرى تعيسة، يبغضهم الرب، وهم أخساء يستحقون الازدراء، ويدعى بعض هؤلاء باسم «الايسينيين*»، وهم انحدروا من أصل يهودي، ويرى بعضهم أن الحياة بعد الموت مسألة إيمانية، ويثقون أنهم سيحرزون الشيء نفسه مرة أخرى، وهم لايتزوجون خشية من فجور النساء، الذين يرون أنهم لم يكن قط مخلصات لرجل واحد، ويتزوج بعضهم الآخر، لكن لا يتحدثون مع زوجاتهم عندما يكن حوامل، ليظهروا أنهم اتصلوا بهن فقط من أجل الحصول على الذرية، وليس من أجل المتعة، ويقولون لا تتلقي الأرواح بعد الموت لاعتقوبة ولا تمجيد، لكن وهم يسعون ضد هذه الطوائف، يبدد هؤلاء القوم المفتنون جهودهم.

ومن هؤلاء الايسينيين طائفة الحشيشة المتقدمة الذكر، وقد قيل بأنها الطائفة الرئيسة بينهم، وهم يحتفظون بجزء من الأبجدية اليهودية، ويستخدمون مزيجاً من الحروف العبرية والكلدانية.

وآخرون هم الصدوقيين، الذين لا يؤمنون ببعث الموتى، وهم قد تلقوا أسفار موسى، لكنهم لم يفهموها، وقد وبخهم الرب في الانجيل قائلاً: «تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الرب» (متى: ٢٢/٢٩)، وبعدما اقتبس سلطانه من أسفار موسى بقوله: «أنا رب إبراهيم، ورب اسحق،

* — الايسينيون: طائفة يهودية نشطت بشكل رئيسي في دير قمران على البحر الميت، وقد زالت هذه الطائفة مع سنة ٧٣م، وتعرف العلماء مجدداً عليها من خلال المخطوطات التي كشفت حديثاً في خرائب وكهوف دير قمران، ومزج المؤلف المعلومات وأخطأ كثيراً، ويرجح أنه أراد طائفة الحشيشية الاسماعيلية، وهو لم يفقه عقائد الاسماعيلية، واختلط عليه الأمر، وهذه لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة.

« ورب يعقوب »، أفحّمهم وأنهى كلامه على هذه الصورة بقوله: « هو ليس رب الأموات، بل رب الأحياء » وآخرون هم السامرة الذين يعتمدون الأبجدية العبرية مثل اليهود، وقد تقبلوا أسفار موسى الخمسة فقط (البنطوخ)، ولم يعترفوا بالأنبياء الآخرين أصحاب الأسفار اليهودية المقدسة الأخرى، وعندما اقتاد شلما نصر ملك آشور سبي الأسباط العشرة من بني اسرائيل ونفاهم، بعث بالسامرة المتقدم ذكرهم إلى بلاد السامرة لكي يقوموا بفلاحة الأرض في مكان اليهود، وعندما تلقى السامرة كلمة الرب بوساطة تبشير الرسل، استمر بعضهم بالتمسك بأخطائهم القديمة، ولهذا لعنهم الرب وعاقبهم بالرحم العقيم وبالصدور الجافة، ولعن كذلك تماماً هذه الأرض الشريرة والفسادة، وقضى عليها بالنار الأبدية مع الجفاف والقحط، ولهذا قيل لا يوجد منهم أكثر من ثلاثمائة انسان حي يمكن العثور عليهم في جميع أنحاء العالم، وتقبل آخرون منهم أسفار موسى والأنبياء وجميع العهد القديم، لكن فقط بمعناه الحرفي، وهؤلاء هم الذين قال القديس بولص ضدهم: « لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي » (كورنثي: ٢/٣/٦)، ويقول الرب في الانجيل: « الروح هو الذي يحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً » (يوحنا: ٦/٦٣)، ولهذا من الواضح أن الكتاب المقدس ليس له فائدة عند اليهود، لابل إنه يؤذيهم كما قال النبي داود: « لتصر مائدتهم قدامهم فخاً وللاّمنين شركاً. لتظلم عيونهم عن البصر وقلقل متونهم دوماً. صب عليهم سخطك وليدركهم حمو غضبك. لتصر دارهم خراباً وفي خيامهم لا يكن ساكن » (المزامير: ٦٩/٢٢ - ٢٥)، وتعني هنا كلمة « مائدة » الكتابات المقدسة، هذا وما زال الجزء الأكبر منهم يسكن منعزلاً في ذلك الجزء من الشرق، حيث يحكى أن الاسكندر ملك مقدونيا قد حجزهم دون جبال قزوين، ومن هناك سوف يجلبون في أيام المسيح الدجال، ويقادون عائدين إلى الأرض المقدسة، وبين جبال قزوين تلك وبحر (قزوين) حبس هذا الاسكندر نفسه قوم يأجوج ومأجوج الذين

لا يمكن تعدادهم لأنهم مثل رمال البحر، لأنه كره عاداتهم البغيضة
بأكملهم لحوماً بشرية ولحوماً نيئة لحيوانات نجسة.

وفئة أخرى من اليهود، الذين كان آباؤهم قد صرخوا: «دمه علينا
وعلى بنينا» (متى: ٢٧/٢٥) قد تشتتوا في جميع أنحاء العالم، وإلى حيثما
هبت الرياح من السماء، «تراهم في كل مكان عبيداً، ودافعين للجزية»،
تحولت قواهم إلى رماد حسب كلمات النبي إشعيا، لأنهم أصبحوا في
الحقيقة ضعفاء غير محبين للقتال مثل النساء، ولقد قيل بأنهم يحضون
وتتدفق منهم الدماء كل شهر، ولقد ضربهم الرب في الأعضاء الخلفية،
وجعلهم في عار دائم، فمنذ أن قتلوا أخاهم هابيل جعلوا هائمين
ومشردين على وجه الأرض مثل قابيل الملعون، الذي له رأس مرتعش،
أي قلب خائف، يمضون أيامهم ولياليهم في رعب، ويعيشون في ظل
الشعور بالخوف من الموت، ويكرههم المسلمون الذين يعيشون فيما بينهم
ويحتقرونهم أكثر من المسيحيين، ولما كان الجشع المقيت للأمرء
المسيحيين جعلهم يتساهلون معهم في سبيل الربح الدنيوي، وسمحوا
لهم بالاحتفاظ برجال مسيحيين سجناء لديهم، وجعل المسيحيين يعانون
من السلب من قبلهم بوساطة الربا الذي يمارسونه والذي لا يطاق، أما
بين المسلمين فيعملون بأيديهم بالحرف الأسوأ والأشد قساوة، وهكذا هم
أقنان وعبيد للمسلمين ويعانون ليعيشوا معهم في أدنى مرتبة من الحياة،
ومع هذا لا يتعرضون للقتل على أيدي المسلمين مثلما يتعرضون على
أيدي المسيحيين، لأن الرب يبقئهم للوقت المناسب مثلما يبقي جزع
شجرة من الغابة لكي يحرق في الشتاء، ومثل كرم خبيث حتى النهاية،
أي نهاية الدنيا، عندما يتم انقاذ بقايا إسرائيل، لكنه تحول الآن إلى
المرارة، وهو يعطي فقط عنباً وحشياً، وهو ربما سيعطي ثماراً ثمينة وعنباً
حقيقياً، وهكذا قال النبي داود حولهم: «الرب سوف يريني رغبتني في
أعدائي. لا تقتلهم لئلا ينسى شعبي، تيههم وشردهم». الخ (المزامير:

٥٩/١٠ - ١١) لأنهم يذكروننا بموت المسيح، ولقد تلقينا شهادتهم من الكتابات المقدسة حول الأشياء التي صنعها الرب من أجلنا، حسبما يقول دانيال: «يُقطع المسيح، وليس له، وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس» (دانيال: ٢٦/٩)، ويقول داود: « بنو الغرباء يبلون ويزحفون من حصونهم» (المزامير: ٤٥/١٨)، هذا ولا يوجد أي نبي لم يقدم لنا شهادة ضدهم، وقلب هذا الشعب أعمى إلى حد أنه يلتبس طريقه ويسلب وسط النهار، وكأنه في الظلام، ذلك أن آذانهم صماء، وعيونهم مغلقة، وكذلك لا يفهم هذا الشعب الأحمق والمعاند، ولا يعرف المدى المرعب الذي أغضب فيه الرب ضده بموت المسيح، لابل إنه قد أغضب الرب حتى قبل موت المسيح، بطرق مختلفة، منها عبادة الأصنام، واقتراف لمنكرات أخرى، ولهذا ألقى بهم الرب في أيدي أعدائهم، ليخدموهم أحياناً لمدة عشر سنوات، وأحياناً لمدة عشرين، وأحياناً أخرى لمدة أربعين، وذلك حسبما نجد في سفر القضاة، فقد مكثوا في إحدى المرات في السبي في بابل لمدة سبعين سنة، وأطلق الرب بعد ذلك سراحهم، لكنهم بعد ما قتلوا الرب يسوع، لم نعد نسمع أنهم عبدوا الأصنام، لكنهم وقعوا في السبي لمدة تزيد على ألف سنة، ولم ينالوا بعد عفو الرب ومغفرته. ولكن كما صلى المسيح للرب قائلاً: « أما أنت فارحمي وأقمني فأجازيهم» (المزامير: ١٠/٤١)، وهكذا نال صلاته من الرب الأب، ومثل هذا كان قد تنبأ لهم قبل وقت طويل، قائلاً باسم الرب شخصياً: «الانتقام لي وأنا أجازي» (التثنية: ٣٢/٣٥)، وقال ثانية: «فيصيبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تقتربون الشر أمام الرب حتى تثيروا غيظة بما تجنيه أيديكم» (التثنية: ٢٩/٣١).

وتحدث النبي دانيال عن هذا السبي الأخير بهذه الكلمات: «وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس، وانتهاءه بطوفان، وفي نهاية الحرب خراب قضي به. ولسوف يوقف الذبيحة والتقدمة. وفي الهيكل سيكون

هناك رجاسة الخراب، وسيستمر هذا الخراب حتى الاكتمال والنهاية»
(دانيال: ٢٧/٩).

الفصل الثاني والثمانون

ومنذ بداية استرداد الأرض المقدسة وانقاذها، بات مؤكداً بشكل صحيح من قبل الذين عرفوا أوضاعها بشكل دقيق، وعرفوا تبدلات تقدمها وسعدها، ونظروا بعناية نحو ازدهارها وانتكاساتها، أنه ما من جنس من البشر، وما من وباء كان له قوة الأذى عليها أكثر من رجالها: المجرمين والأتمين، والأشرار، وغير التقاة، والمدنسين، واللصوص، والسارقين، وقتلة النفس، وقتلة الأباء، وحاشي اليمين، والزناة، والخونة، والقراصنة — أي لصوص البحر — والداعرين، والسكيزين، والمغنين، ولاعبي النرد، والمهرجين، والممثلين، والرهبان المرتدين، والراهبات اللائي مثل المومسات العموميات، والنساء اللائي تخلين عن أزواجهن ليعشن في بيوت الدعارة، أو الرجال الذين هربوا من زوجاتهم الصحيحات واتخذوا أخريات بديلاً عنهن، ولقد عبر مثل هؤلاء الناس الأشرار الذين كانوا في الغرب، البحر المتوسط، واتخذوا ملاذاً لهم في الأرض المقدسة، حيث غيروا المناخ فقط، لكنهم لم يغيروا أخلاقهم، ولقد دنسوها بأعداد لا تحصى من الجرائم، والأفاعيل المخزية، لأنهم لم يخافوا لا الرب، ولم يقيموا أدنى اعتبار للناس، بل أذنبوا دونها خجل، واقترفوا ما اعتادوا عليه من آثام، وكلما ازدادوا وقاحة كلما ابتعدوا عن معارفهم وأقربائهم، كما أن السهولة التي جعلتهم ينجون من العقاب زادت وقاحتهم على اقتراف الإثم، وأطلقوا العنان لفسوقهم، ذلك أنهم بعد اقترافهم لشور عظيمة يقومون إما بنكران المسيح، والالتحاق بالجيران من المسلمين، أو يعتلون ظهر غليون أو سفينة، ويحملون أنفسهم إلى جزر البحر، أو يتخذون ملاذاً في واحد من بيوت الكهنة النظاميين، ومثل هؤلاء الرجال

الهاربين من العدالة تجدهم في كل مكان على طرقاتهم، حيث أن الامتياز المخرب يحمي فاعلي الشر، وهكذا يهربون من تسديد المقتضى عليهم، وينجح بعض الرجال الدمويين وأطفال الموت بعد القبض عليهم في بلادهم وهم متلبسون بجرائمهم، وبعد ما يحكم عليهم بفقدان عضو من الأعضاء أو الشنق، هؤلاء ينجحون عن طريق الوساطة أو الرشوة، حسبما جرت العادة في الحصول على حكم بالنفي المؤبد إلى الأرض المقدسة دونما أمل بالعودة. وصار هؤلاء الناس متجنسين في الأرض المقدسة، ليس عن طريق التوبة بل بالقوة، ولقد اعتادوا على تأجير مساكن الحجاج بأسعار معتدلة، والقيام بخديعة الغرباء الأبرياء بكل طريقة يمكنهم فعلها، ينتزعون المال منهم بالحيلة لأجل الديون التي لا يمكنهم الوفاء بها، وهكذا نجدهم يعيشون حياة بائسة بنهب ضيوفهم وسلبهم، ولقد اعتادوا على إيواء القتلة واللصوص، ولاعبي الميسر، والعاشرات العموميات، على أمل الحصول على مرباح أعظم، وهم يدفعون جزية سنوية للرجال الأغنياء والأقوياء حتى يتمكنوا من الحصول على حمايتهم، ودعمهم في آثامهم المتقدمة الذكر، وكل هذا في سبيل الشرور الأعظم واللعنة والحزى لكلا الفئتين: لأن الذين حصلوا مقابل دفع مبلغ كبير من المال على امتياز الحفاظ على المومسات ولاعبي الميسر، يستخرجون المزيد من الأموال من هؤلاء المومسات والمقامرين، هذا وإن الذين يتسلمون إيجار المومسات، معاندة منهم لأوامر الرب، يتولون بأنفسهم مشاركتهم في جميع ذنوبهم وآثامهم، ذلك أن الشريك في الجريمة يتلقى العقوبة نفسها التي يتلقاها المجرمين، وذهب بعض الناس من ذوي العقول الخفيفة، للقيام بالحج إلى الأماكن المقدسة، ليس بدافع التقوى، بل بدافع الفضول ومحبة الأشياء الجديدة، أي أن يرتحلوا إلى بلاد غير معروفة، ويمكنهم مع جهد كبير أن يبرهنوا على صحة الحكايات الغريبة الاعجازية التي سمعوها عن الشرق، للناس الجاهلين، وفي الحقيقة صنع الرب الكثير من الأعمال الاعجازية المدهشة في هذه

المناطق، التي تجعل العقلاء وذوي التفكير السليم من الناس ينبرون نحو حمد الرب وتمجيده، حتى أن القديس براندان (Brandan) (٤٨٤) — (٥٧٦م) أبحر حول البحار لمدة طويلة (سبع سنوات) حتى يرى عجائب الرب في الأعماق، غير أن ذوي العقول الخفيفة، والرجال ذوي الفضول حولوا إلى حماقات هذه الأشياء التي تفضل الرب وتنازل بالبرهنة بها على قوته ولإظهار حمده وشكرانه، ورأينا أنه من المناسب إضافة قليل من هذه الأشياء إلى الكتاب الحالي، لعل ذلك يكون نافعا إلى القراء النبهاء والمتيقظين.

الفصل الثالث والثمانون

غالباً ما تحدث زلازل خطيرة ومربعة، ليس فقط في مملكة القدس بل أيضاً في البلدان من حولها، خاصة على شواطئ البحار، وذلك بسبب عنف الرياح، التي تتشكل من هياج الأمواج وقوة اندفاعها في الأماكن الكائنة تحت الأرض وفي الكهوف في الأرض، وبما أن الهواء المضغوط والمندفع لا يجد فتحات متيسرة يقوم بهز الأرض بضربات قوية ومقلقلة، وإذا لم تستطع الأرض مقاومة هذا الضغط، تنفجر منفوحة، ويكون هناك خليجاً عظيماً، ولهذا يتم أحياناً ابتلاع بعض المدن ونزولها إلى الهاوية، وعندما لا تنفجر الأرض، تهتز بمثل هذه الضربات العنيفة الناجمة عن الرياح، مما يجعل مدناً تنهار فجأة هي وأسوارها وأبراجها والأبنية الأخرى فيها، وتفاجيء الناس، وتأخذهم على حين غرة، فتغمرهم وتقهرهم، وبناء عليه فإن الناس العقلاء في هذه المناطق، الذين لا يعرفون الساعة التي ستهب فيها العاصفة سالفة الذكر عليهم، يترقبون ذلك بكل يقظة، ولا يهملون إعداد أنفسهم للموت، غير مفترضين القدرة على العيش في وضع لا يتجرأون فيه على الموت، وكان بمثل هذا النوع من الدمار الشامل قد دمرت مدينة صور، بعدما

أصبحت في أيدي اللاتين، فلقد دمرت كلها تقريباً مع جميع سكانها. وفي الوقت الذي يحدث فيه البرق والرعد في الغرب أثناء الصيف، يحدثان في الأرض المقدسة أثناء الشتاء، لأن الأمطار لا تهطل في الصيف فيها، أو نادراً ما يحدث ذلك، لكن غالباً ما تتساقط الأمطار لمدة ثلاثة أيام أو أربعة معاً، وينتج عن هذه الأمطار فيضانات مياه عظيمة، مثل طوفان آخر يغرق الأرض كلها ويوحلها، ونادراً ما تتساقط الثلوج في الأرض المقدسة، باستثناء على قمم الجبال العالية، كما في لبنان، وفي خلال الصيف كله، لاسيما في أوقات الحر الشديد أيام الشعرى dog-days، وفي شهر آب، يجلب الثلج البارد الى القدس، ويحمل إليها خلال رحلة يومين من لبنان، وعندما يمزج هذا الثلج مع الخمرة يجعلها باردة مثل الثلج، ويحفظ هذا الثلج بتغطيته بالقش، حتى لا يذوب بحرارة الشمس أو بدفع الهواء.

الفصل الرابع والثمانون

وجدت الينابيع التي تتدفق بماء عذب في كل من البحر والبر، وواحد من هذه الينابيع في السامرة (نابلس)، قيل بأن مياهه تتبدل الى أربعة ألوان مختلفة في السنة، وهذه الألوان هي: الأخضر، ولون الدم، ولون الصدا أو لون الوحل، واللون النقي تماماً، وهكذا توفر تغييراً مذهشاً ومبهجاً للعيون أن تراه، ولا يرسل نبع سلوان مياهه العذبة كل يوم من القعر دونما انقطاع، بل يرسلها على دفعات، لمدة ثلاثة أيام أو أربعة في الأسبوع، وهناك في قرب جبل لبنان، بين بلدي عرقة ورفنية (بارين، أو بعرين) نهر سريع الجريان وكثير المياه يدعونه نهر السبت كال sabbatical (أي نهر السبعة أوفوار الدير) لأنه لا يعطي أية ماء خلال ستة أيام من الأسبوع، وتتدفق المياه منه فجأة في اليوم السابع وتجري في مجراه الجاف، ويصنعون في منطقة صور وعكا الزجاج النقي جداً، ببراعة حرفية، ويتم

التصنيع من رمال البحر، أي أن تقول من رمل البحر وحصائمه.

xx

xx

xx

الفصل الثاني والتسعون

وهكذا سلم الرب شعبه تماماً للسيف ، وكان حانقاً جداً على ورثته ،
وهكذا صار أعداؤنا بشكل تام هم الرأس ونحن الذنب ، وهكذا أخذوا
منا بالقوة ليس فقط أرض الميعاد ، بل جل المناطق ، والمدن ، والقلاع من
تخوم مصر حتى الجزيرة ، وتركوا لنا من مدن شاطئ البحر مدينتين فقط
هما : صور وطرابلس ، وذلك بالإضافة الى انطاكية ، وعدد قليل من الأماكن
الحصينة ، مثل قلعة تعرف باسم قورس ، قرب أنطاكية وحصن (الأكراد)
والمربق ، والحصن الأبيض (برج صافيتا) وعرة ، وبرج طرطوس ، وقلعة
نفين (رأس شكا) في منطقة طرابلس وسقطت جميع المدن والأماكن
الحصينة في الداخل في أيديهم الأثمة ، وكانت البداية التعيسة
بالنسبة لهذه الكارثة ، والمحنة المريعة ، والبلوى ، مع كونية الرها :
لأنه بعد وفاة جوسلين الشجاع والحكيم ، الذي كان كونت الرها ،
قام ابنه جوسلين الثاني الذي انحرف عن طريق والده في المكانة
والشرف وأسلم نفسه الى الفسوق المشين ، وأهمل الدفاع عن مدينة
الرها ، ففقدوها لصالح زنكي صاحب الموصل ، التي هي عاصمة
ومطرائية اقليم آشور ، فقد قام زنكي بحصار المدينة ، وشق
طريقه بالقوة الى داخلها من خلال الأسوار واستولى عليها ، وبعد
هذا أنزل انتقام السماء حكمه على جوسلين المتقدم الذكر ، وقد
أخذ أسيراً من قبل المسلمين ، ومات بشكل تعيس ، حيث جاع
حتى الموت في السجن في حلب ، وبناء عليه قامت زوجته بالتنازل
عما بقي لها من مناطق لصالح امبراطور القسطنطينية ، مقابل دخل
سنوي وأرسل الامبراطور حشداً جباراً من الاغريق ، ووعد أنه
سوف يدافع عن البلاد ضد المسلمين وفرح نور الدين بن زنكي

المتقدم الذكر ، لدى تراجع اللاتين ، مع أنهم كانوا قلة ، واكثرث قليلاً بحشد الاغريق غير المولع بالحرب ، والذي كان يعرف أنه كان ضعيفاً وجباناً ، وبناء عليه أدخل المنطقة كلها تحت سلطانه ، وقتل بعضاً من رجال جيش الاغريق الغرير وأسر البقية ، وقام نور الدين هذا نفسه أيضاً بحصار قلعة اسمها حارم ، كان تعود بملكيتها الى اماره انطاكية ، وتبعد مسافة عشرة أميال عن مدينة انطاكية ، وقتل في تلك الآونة ريموند أمير انطاكية في معركة ، وكان ابنه بوهموند وخليفته في حكم الإمارة أسيراً في أيدي المسلمين ، وبسهولة اقتحم نور الدين القلعة ، وقد واجه القليل من المقاومة ، ومثل هذا انتزع من ايدينا بالقوة مدينة بانياس وأضافها الى ممتلكاته ، لأن عموري ملك القدس كان آنذاك بعيداً متغيباً في مصر ، ومنذ ذلك الحين بدأت قوانا تنهار ، ومع هذا دافع شعبنا عما بقي لنا من أرض ، ما دامت مملكتي مصر ودمشق باقيتان في أيدي حكام مختلفين ومتنازعين ، لكن عندما - بسبب آثامنا - قامت المملكتان المتقدمتا الذكر بمضاعفة قواهما عن طريق الاتحاد تحت قيادة سيد واحد ، بدأت مملكة القدس التي قامت فيما بينهما تعيش في فوضى واضطراب عظيم ، وجعل شيركوه - وكان واحداً من القادة لدى نور الدين - من نفسه بالقوة سيداً لمملكة مصر ، وتركها عند موته الى ابن أخيه صلاح الدين وكان صلاح الدين هذا حكيماً في تصرفاته ، وبارعاً في السلاح والحرب بعيد النظر ، وحازماً في عمله ، وكان كريماً جداً ، وبسوط اليدين ، ليس فقط لشعبه ، بل أيضاً لبعض من شعبنا ، الذي جذبهم الى جانبه بالهدايا والوعود ، ويعلم العالم كله كم من الأذى ألحقه بنا ، مثل سوط عذاب الرب ، وقد دمر الصليبيين ومزقهم إرباً إرباً ، لأنه بعدما قام هذا المتقدم الذكر بقتل (اقرأ : بعزل) مولاه خليفة مصر بشكل خياني (كذا) ، استولى على مملكة دمشق ، وانتزعها من مولاه الطفل الذي

كان يعيش في حلب ، وهو ابن نور الدين الذي كان الآن متوفى ، ذلك أنه كسب الى جانبه أعيان المملكة إما بوساطة الهدايا ، أو أرعبوا بوساطة العنف ، حتى يوافقوا على خيائته ، وقد مضى في سبيله للاستيلاء على بعض المدن الغنية العائدة للمولى المتقدم الذكر ، مع أنه كان شخصياً وأبوه من قبله عبيداً له، ومن هذه المدن : حماه، ومنبج، ومدينة حمص، التي تعرف بشكل عام باسم كاميلا، وقيسارية الكبرى، وكان بعد وفاة نور الدين قد وقع الابن المتقدم الذكر صاحب حلب ، تحت سيطرة عمه، صاحب الموصل، بموجب حق الوراثة، وقد انتزع صلاح الدين من صاحب الموصل المتقدم الذكر بالقوة ليس فقط حلب، بل منطقة الرها أيضاً، والبلاد جميعها حتى الفرات ، وكذلك مدن الجزيرة الجلييلة مثل الرها، وجعبر، وجميع البلاد تقريباً ، وشكل قيامه ونجاحه رعباً بالنسبة لشعبنا وخطراً واكتئاباً ، خاصة وأن المسلمين كانوا في البداية — عندما قدم اللاتين الى البلاد أولاً— غير بارعين في الحرب ، وكانوا يذهبون نحو القتال وكأنهم غير مسلحين ، لا يحملون شيئاً سوى القسي والنشاب، ومن خلال الممارسات المستمرة ، والمواجهات المتوالية مع شعبنا في أرض المعركة، تعلموا النظام العسكري، وقلدوا اللاتين في استخدام الدروع والخوذ، والرماح والسيوف والترسة، ولزيادة مصائبنا وتوحيجها آلت مملكة القدس ووقعت في يدي واحد لم يكن من ذرية الذين تولوا تحرير أرض الميعاد، ولهذا كانت هناك صراعات كبيرة وانشقاقات بين بارونات المملكة .

الفصل الثالث والتسعون

وكان أول اللاتين الذين تولوا الحكم في مملكة القدس هو غودفري، المحبوب من السماء، الذي حقق الرب من خلاله وصنع

واحدة ، وقد ألحق الهزيمة أثناء القتال بالقائد الأعلى لدى سلطان مصر، مع عدد لا يحصى من الكفار، وبعدما غادرت روحه الجسد، خلفه أخوه بلدوين كونت الرها، في حكم المملكة، فكان الملك الأول للقدس، لأن أخاه رفض ارتداء التاج الملكي في البقعة التي ارتدى فيها معلمه تاجاً من شوك، وتمكن بلدوين هذا مع مائتين وستين فارساً وتسعمائة من الرجال، من إلحاق الهزيمة بالقائد الأعلى لدى خليفة مصر، الذي قاد أحد عشر ألفاً من الخيالة وثلاثين ألفاً من الرجال ضده، وقتل بلدوين القائد الأعلى نفسه مع خمسة آلاف من قومه، بينما أخذ بعضاً من البقية أسرى، وتمكن بعضهم من انقاذ أنفسهم عن طريق الفرار، وتمكن في معركة أخرى مع قوة صغيرة جداً من هزيمة حشد كبير من الناس من عسقلان ومن مصر، واستطاع في المعركة الثالثة ومعه خمسمائة فارس وألفين من الرجال، أن يهزم عشرين ألفاً من المصريين، وقد قتل أربعة آلاف منهم، كان بينهم صاحب عسقلان، وأرغم البقية على الفرار . ولقد حكم لمدة ثمانية عشر عاماً ثم مات. وكان خليفته، والملك اللاتيني الثاني للقدس، بلدوين بورغ، وكان من أقربائه، وهو الذي التحم في السنة الثانية من حكمه بمعركة ضد (ايل) غازي أحد امراء الأتراك الأشداء جداً، وكان بلدوين وقتها على رأس سبعمائة فارس.

وهزم غازي هذا في القتال، وكان يقود حشداً لا يحصى من الأتراك، وقد قُتل أربعة آلاف من قومه، ووقع بالأسر عدد كبير، وهو نفسه نجا بكل صعوبة مع البقية، وهزم في المعركة الثانية ، وهو على رأس ألف ومائة فارس وألفين من الرجال، ملك دمشق، الذي قيل كان معه خمسة عشر ألفاً من الفرسان، الذي قتل منهم ألفين، وأسر عدداً كبيراً، وجرح عدداً كبيراً جداً، وهرب البقية مع قائدهم، وسقط من جانبنا أربعة وعشرون. وفي المعركة الثالثة هزم هذا الملك العسقلانيين مع المصريين

الذين جاءوا لمساعدتهم، وقد سحق في المعركة الرابعة طغتكين، ملك دمشق، وقتل ألفين من الأعداء، وخسر فقط أربعة وعشرين فارساً وثمانين من الجنود الرجالة . ولقد حكم لمدة ثلاثة عشر عاماً، ثم مات.

وكان خليفته على العرش فولك، كونت أنجو، ولا مانس وتور، وهو الذي زوجه الملك المتقدم الذكر ابنته الكبرى ميليساندا، وقد خاض معركة قاتل فيها قرب أنطاكية ضد حشد لا يحصى تعداده من الترك، الذين تقاطروا من منطقة الخليج العربي، ونال نصراً مدوياً، حيث قتل ثلاثة آلاف منهم، وأخذوا عدداً كبيراً من الأسرى وأرغم البقية على الفرار، وقد حكم لمدة أحد عشر عاماً، لكن عندما كان يصطاد أرنباً برياً قرب عكا، تقنطر فرسه معه، وهلك بشكل مفاجئ ومحزن ومأساوي، وقد خلف من بعده ولدين: كان الأكبر بينهما بلدوين الذي خلفه على العرش، ثم عموري، ونال بلدوين هذا في السنة الثالثة من حكمه وهو على رأس جيشه كله، نصراً على عدد من نبلاء القادة الأتراك، في هذا الجانب من أريحا، وقتل خمسة آلاف منهم، وجعل البقية يفرون وهم مجلدين بالعار، وفي السنة الخامسة عشرة من حكمه قاتل هذا الملك نور الدين، أمير دمشق، وبقي سيداً للمعركة، في حين هرب نور الدين مع بعض قواته، بينما تعرض البقية للقتل، وقد حكم لمدة أربعة وعشرين عاماً، ومات بدون أولاد، وقد خلفه أخوه عموري، وحارب عموري في السنة الأولى من حكمه ضرغام، أمير الجيوش المصرية، في أرض مصر، ونال النصر بشكل عجائبي، بعدما قتل من الأعداء أعداداً كبيرة، وقاتل في السنة الثانية في قفار مصر، وهو على رأس ثلاثمائة وسبعين فارساً، ضد شيركوه، الذي كان القائد الرئيسي لدى سلطان دمشق، وكان في جيش شيركوه هذا اثني عشر ألفاً من الأتراك، وأحد عشر ألفاً من العرب، ولقد غادروا، عندما قتل مائة من رجالنا، ولقد قيل بأن ألفاً من الأعداد قد هلكوا، ولقد حكم لمدة

اثنى عشر عاماً، وعندما مات خلفه ابنه بلدوين على العرش، ولقد قدرت عليه السوء الإصابة بمرض الجذام، ومع هذا كان ملكاً قديراً، وفي السنة الثالثة من حكمه، التقى بصلاح الدين قرب عسقلان، وكان معه ثلاثمائة وخمسة وسبعين فارساً، بينما كان مع صلاح الدين ستة وعشرين ألف فارس، وقد ألحق الهزيمة به، وهرب صلاح الدين مع بعض رجاله، أما البقية فقد قتلوا أو وقعوا بالأسر، وفقط أربعة أو خمسة من رجالنا — كما قيل — قتلوا. وتواجه مع صلاح الدين في معركة أخرى قرب طبرية، وقد هزمه، وكان معه سبعمائة فارس، في حين قيل كان مع صلاح الدين عشرين ألف فارس، وقتل بلدوين ألفاً من الأعداء، ومات من جانبنا عدد ضئيل فقط، ولم يكن بإمكان هذا الملك الزواج بسبب مرضه، وقام بتزويج أخته: سيبلا وكانت الكبرى، وايزابيلا، وكانت الصغرى، من اثنين من النبلاء: وأعطي سيبلا الى وليم صاحب السيف الطويل، مركيز مونتفرات، وايزابيلا الى همفري صاحب تيرون (تبين)، وعندما توفي وليم المتقدم الذكر، خلف طفلاً صغيراً اسمه بلدوين، وقد زوج الملك أخته المتقدمة الذكر من شاب من بواتو اسمه غي لوزغنان، وبسبب إزدياد مرضه وإثقاله له، سلم ادارة المملكة كلها اليه، لكن بعد أمد أغضب غي الملك، وهكذا فقد الاشراف على المملكة، ثم دعا الملك الى الاجتماع أعيان المملكة، وجعل ابن اخته بلدوين يرسم ملكاً، وعهد ببلدوين وبالاشراف على المملكة والدفاع عنها الى كونت طرابلس، وبعد مدة وجيزة غادر الملك بلدوين المجذوم هذه الحياة، وكان الملك بلدوين الصغير قد مات أيضاً واعتلى غي العرش، من خلال مساعي زوجته سيبلا، وبموجب حقها بالوراثة، وذلك دون أخذ موافقة كونت طرابلس، الذي كان الوصي على المملكة كلها، وبناء عليه كان الكونت ساخطاً جداً، لا سيما وأنه كان يحدث نفسه بالوصول الى العرش، ولهذا عقد هدنة مع صلاح الدين، دون موافقة الملك، الذي بات عدوه اللدود، ولكي يزيد من

قوته في المملكة، حتى يتمكن من مقاومة الملك، ومن أجل امتلاك الوسائل لإثارة النزاع، تزوج من الوارثة لطبرية وجميع الجليل، ومن هنا برز خطر عظيم وخلاف مدمر في المملكة، حيث وقف بعضهم الى جانب الكونت، وبعضهم الآخر الى جانب الملك.

الفصل الرابع والتسعون

كان صلاح الدين رجلاً عاقلاً، عارفاً بتجارب الحرب وقد أدرك من خلال الخبرة أن المملكة المنقسمة على نفسها لا يمكنها الصمود، وأن بإمكان الخلاف أن يدخل بسهولة من خلال ثغرة عظيمة، واستغل بشكل خاص الفرصة، بسبب أن (أرناط) صاحب الكرك قد خرق الهدنة التي عقدها شعبنا مع المسلمين، واستولى على الكثير من الأسلاب، وقد حشد حشداً عظيماً من المحاربين من جميع البلدان الواقعة تحت حكمه، واستدعى كل من الفرسان والرجالة من مصر، ومن العربية، ومن دمشق، ومن حلب، ومن الجزيرة، للقتال ضدنا، وبعث أمامه عشرة آلاف من نخبة فرسانه، الذين عبروا خلال أراضي بلاد طبرية والناصرة حتى حدود عكا، وذلك أنهم أرادوا - حسب عادتهم - إثارة معركة مع شعبنا بغاية استدراجه وجعله يلاحقهم باندفاع وبدون نظام، ومن ثم الاطاحة برجالنا أو أخذهم أسرى، ولم تنطل خديعة المسلمين هذه علينا، وأخفقوا في تحقيقها، لكن اندفع نحوهم المقدم الأعلى لفرسان الداوية ومعه أكثر من سبعمائة فارس، وذلك مع المقدم الأعلى لفرسان الاستبارية، الذي كان عائداً مع عشرة من الفرسان من قلعة كوكب الهوا، وقد كانوا قد فصلوا بوساطتهم عنهم قرب قلعة كفرنا (روبرقي)، ومع أنه كان برفقتهم مائة وعشرين فارساً فقط وقفوا في وجه عشرة آلاف من المسلمين، فإنهم قاوموا برجولة، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، لكنهم أنفسهم إما قتلوا أو أخذوا أسرى، ونجا المقدم

الأعلى للداوية مع عدد قليل من الأتباع، وقد قتل المقدم الأعلى للاستتارية، وهكذا نال العدو في اليوم الأول من أيار نصراً دموياً على شعبنا، وقام المسلمون، الذين تشجعوا بهذا، فحشدوا جميع قواهم، وقاموا في حزيران التالي بحصار أقصى مدينة في مملكتنا باتجاه دمشق، وأعنى بهذا مدينة طبرية، لأن كونت طرابلس، التي عادت المدينة بملكيتها إليه، قد انسحب من التعامل مع المسلمين عندما خرقت الهدنة، لأنه قد قيل له بأنه كان حليفاً للمسلمين، وأنه جلب شروراً كثيرة ضد الملك وضد المملكة، وبناء عليه تولى تحصين المدينة المتقدمة الذكر ضد المسلمين، وترك زوجته فيها مع حامية من الجند. وقام الآن اللورد غي، ملك القدس، وريموند كونت طرابلس مع جميع نبلاء المملكة وكل الفرسان والرجالة الذين كان بإمكانهم حشدهم، قاموا في ساعة نحس، وقد حرّموا من مساعدة السماء، وتوجهوا نحو قتال صلاح الدين وقومه، ونصبوا خيمهم قرب نبع الصفورية، ووثقوا بأعدادهم الكبيرة واعتمدوا عليها أكثر من اعتمادهم على المعونة السماوية، لأنه منذ دخول شعبنا الأول إلى الأرض المقدسة لم يكونوا قط قادرين على حشد مثلما حشدوه الآن من جنود للقتال في معركة واحدة، وقد قيل كان معهم اثني عشر مائة من الفرسان الدارعين وحوالي العشرين ألفاً من الرجالة المسلحين بالسيوف والقسي، والقسي العقارة، فهؤلاء جميعاً شاركوا في هذه الحملة التعيسة، وفي اليوم التالي عندما كان جيشنا يزحف باتجاه المدينة المحاصرة، هاجمه حشد من فرسان جيش صلاح الدين الخفاف بشكل شرس جداً من على اليمين ومن على اليسار، وضاعفوا الجراحات التي أصيب بها كل من الخيول والفرسان حتى أرغموا الجيش على العسكرة ونصب خيامه في بقعة جافة ليس فيها ماء، وراقب صلاح الدين بحكمة هذا كله، وواجه جيشنا في اليوم التالي قبل أن يستطيع الوصول إلى الماء، وكانت المواجهة في حطين، على مقربة من ترعان، وانقض بقواته المعبأة بصفوف وفق النظام العسكري، على

عساكرنا، الذين كاد الفرسان فيهم والخيول يهلكون عطشاً، وكان اليوم آنذاك حاراً جداً، لأن المعركة كانت في شهر تموز في اليوم الرابع منه، وهو يوم عيد انتقال القديس مارتن، وذلك في عام ألف ومائة وثمانية وسبعين لتجسيد الرب، ولذنبهم الكثيرة ألقى الرب الشعب المسيحي في أيدي المسلمين، لأن شعبنا فرّ لدى تلقيه الصدمة، وكان أفرادهم كلهم من الكبير الى الصغير إما أن قتلوا أو وقعوا أسرى، وجللهم الرب بالعار، مع الرعب والجبن، وبات الآن دور كل واحد من الأعداء ليقوم بمطاردة مائة من رجالنا، وقد رمى بعضهم بأسلحتهم، وألقوا بأيديهم واستسلموا عن طوعية الى أيدي المسلمين، وبعد مقتله كبيرة اقتيد غي دي لوزغان مع المقدم الأعلى للدواوية وأعداد أخرى كبيرة من ذوي المراتب العليا، اقتيدوا أسرى، وكانوا قد فروا بشكل جبان من أمام مطاردتهم، ولهم أن يعرفوا بعلامة مؤكدة، وبرهان واضح، أن الرب كان غاضباً عظيم الغضب منهم، وأن ستر وقايته الريانية قد سحب عنهم، ولقد واجهوا حظاً عاثراً في ذلك اليوم الأسود بفقدانهم خشبة صليب انقاذنا، الذي كانوا قد حملوه معهم الى المعركة، وارتأى صلاح الدين أن يقوم بتدمير كلي لرهبتي الداوية والاسبتارية في الشرق، لذلك أصدر الأوامر بقطع رأس كل واحد منهم يقع في أيدي رجاله.

الفصل الخامس والتسعون

بعد مضي وقت طويل على هذه الكارثة، بذل عدد كبير من المسيحيين جهودهم للنجاة، وغدا الذين بقوا في المدن وفي الأماكن الحصينة جناء مثل النساء وانقبضت قلوبهم، ولهذا لم يتجرأ العديد منهم على انتظار الهجوم من قبل أعداد قليلة من المسلمين، وهكذا، إثر الانتصار المتقدم الذكر، وصل صلاح الدين الى أمام عكا، فاستسلموا إليه على شرط الإبقاء على حياتهم، وزحف من هناك الى بيروت، واستسلمت

تلك المدينة اليه بدون أدنى مقاومة من قبل سكانها القانطين رعباً، وكذلك حصل على جليل بدون صعوبة، ولم تتجرأ مدينة من المدن القائمة على الساحل من عكا الى عسقلان على مقاومته، هذا وقام شعب قيسارية الذين اعتقدوا أن مدينتهم لاتزام بإيقاف تقدمه لبعض الوقت، وأجابوا أنهم لن يستسلموا حتى يعلموا هل شعب القدس سيقى صامداً أم سيستسلم، وعندما نصب خيامه أمام القدس، تخلوا عن المدينة إليه على شرط أن يخرجوا منها أحراراً، وأن يحملوا من مقتنياتهم ما يمكنهم حمله، وأن تجري مرافقتهم الى أرض يأمنون فيها، وهكذا نجوا من أيدي الأعداء، لكنهم عندما وصلوا الى طرابلس وقعوا في أيدي أعظم سوءاً، وهي أيدي آئمة مدنسة، فكل ما جلبوه معهم أخذه بأكمله وانتزعه منهم بوهيموند كونت طرابلس، مع أبناء الشيطان من أتباعه، الذين كان من المتوجب عليهم اظهار الرحمة نحو اخوانهم المنفيين، غير أنهم برهنوا أنهم أكثر وحشية تجاه المسيحيين من المسلمين، ولقد قيل فعلت هناك أفاعيل خسيصة لم يسمع بمثلها في القرون الخالية، فقد كانت هناك أم تحمل على كتفها طفل صغير لها، فسلبت من قبل هؤلاء الأعداء الأشرار، ذلك أنهم لم يوفروا أحداً لالمنصبه ولا لجنسه (رجلاً كان أم امرأة)، ولم يتحلوا لبالحياء ولا بالخجل اثنار سلبهم، وعندما رأت هذه المرأة أن مقنياتا التي تركها لها المسلمون، للحفاظ على نفسها وعلى طفلها، قد أخذت منها وانتزعها الذين فرت إليهم لاللتجاء، تحولت الى حالة من اليأس والألم والهياج والقنوط، الى حد أنها قذفت بولدها الى البحر.

وعاد صلاح الدين الى عسقلان، واستسلمت المدينة اليه على شرط أن يطلق سراح الملك والمقدم الأعلى للدواية، اللذان كانا مسجونين لديه، ثم تابع زحفه كعسكري نشيط وفعال الى طرابلس حيث وجد سكان المدينة مع اللاجئين جاهزين لمقاومته، ولاعتقاده أن هذه المدينة لن تنجو منه

إذا ما عاد إليها في وقت آخر مناسب، بعد احتلاله لبقية الأماكن الحصينة، زحف نحو أنطاكية، لأنه في ذلك الوقت لم يكن مهتماً بشغل وقته كثيراً مع القلاع القائمة على شاطئ البحر، ذلك أن زعيم القراصنة واسمه «مرجريت» وكان رجلاً واسع النفوذ في البحر، قدم من مملكة صقلية مع ثمانين من الغلايين لمساعدة شعبنا، حيث أنه أرسل من قبل الملك الشجاع والشهير وليم صاحب صقلية، فعندما سمع هذا الملك بالسقوط المحزن لمملكة القدس، من الذين هربوا بوساطة البحر والتجأوا إلى بلاده، بادر على الفور في ذلك الصيف، ولم يكتف بإرسال الغلايين المتقدمة الذكر، بل بعث بخمسمائة من الجنود، وثلاثمائة من التوركيلي، وكميات هائلة من المؤن لمساعدة المتبقي من البلاد، وللاُناس الطيبين والذين يخشون الرب.

ودفعت روح صلاح الدين اللجوجة به للقيام بمتابعة نجاحاته بكل نشاط، فاستطاع خلال ثلاثة أشهر أن ينال إمارة أنطاكية كلها باستثناء قلعة بطيريك أنطاكية التي كانت لاترام واسمها قورس Cursatus ، ومدينة أنطاكية نفسها، التي رفع الحصار عنها لدى تسلمه مبلغاً كبيراً من المال من البطريرك، مع القناعة والتأكد أنه بعد الاستيلاء على الأماكن الحصينة المنتشرة هناك، فإن مدينة واحدة لن يكون بإمكانها مقاومتها، لأنه جعل نفسه سيداً لأكثر من خمس وعشرين مدينة وبلدة في تلك الإمارة، ولهذا عاد إلى مملكة القدس، وقام مستخدماً جيشه بأكمله، فحاصر مدينة صور براً وبحراً، وهي المدينة الوحيدة التي تركت بين مدن الأرض المقدسة، وكان في صور آنذاك نبلاً شجاعاً هو كونراد مركز مونفترات، الذي أبحر إلى هناك على ظهر سفينة من القسطنطينية، وكان ذلك في اليوم نفسه الذي أطيح به بشعبنا في المعركة المتقدمة الذكر، ووعده هذا الرجل سكان المدينة أنه سيتولى الدفاع عن المدينة إذا وعدوا بتسليمه إياها إذا تولى حفظها من العدو، ووافق سكان المدينة

متطوعين وشاكرين على فعل ذلك، لأنهم كانوا قانطين، ولم يعتقدوا أنه كان من الممكن لهم الصمود في وجه جبروت صلاح الدين، الذي جعل الآن من نفسه سيداً لجميع البلاد، وقاوم كونراد صلاح الدين برجولة من جانب البر، وألقى النار في غلايينه في البحر، ولهذا قام وهو غاضب ومضطرب برفع الحصار والمغادرة على الفور، وكان قد فكر بتضييق الحصار على سكان صور، وارغامهم على الاستسلام دونما تكاليف كبيرة وخسائر، وبدون سفك لأي من الدماء، وكان من الممكن له أن يحقق هذا بسهولة لولا أن الرب أمدّ بالعكس، لأن صلاح الدين كان قد أرغم قلاعاً قوية مثل: صفد، وكوكب الهواء، وتبنين، والشقيف في الجبال، على الاستسلام، وعلى كل حال كان بإمكان هذه القلاع المقاومة طيلة الوقت الذي توفر فيها المؤن، وكيف كان بالحقيقة لعدد قليل من الرجال المرعوبين والذين بلا عون الصمود من دون هذا الأمير الشجاع، في وجه الذي جعل من نفسه سيداً، ليس فقط لأرض مصر بل لكل سورية تقريباً، أي من نهر الدجلة حتى مصر، ومن قليقيا حتى البحر الأحمر.

الفصل السادس والتسعون

يدعى القسم الأول من سورية، القائم بين نهري الفرات والدجلة باسم الجزيرة السورية، ويدعى القسم الآخر باسم سورية المجوفة، ويقوم في هذا الجزء مدينة أنطاكية، مع المدن الخاضعة لها، وهي تصل حتى نهر بانياس تحت قلعة المرقب، ويدعى القسم الثالث من سورية باسم سورية الساحلية أو سورية الفينيقية، وفيه يقع مدن: طرابلس، وصور، وعكا، وهو يبدأ عند النهر المتقدم الذكر، وينتهي عند lapis In-cir التي تعرف باسم عثليت Districtum ، واسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج، ويدعى القسم الرابع باسم سورية اللبنانية، حيث يقوم جبل لبنان، وكذلك يعرف باسم سورية دمشق، لأن دمشق هي

العاصمة، ويعرف أحيانا بكل بساطة باسم سورية، ذلك أن الجزء قد يأخذ اسم الكل، حسبها في جاء القول: «رأس آرام — سورية — دمشق» (اشعيا: ٨/٧)، وهناك ثلاث فلسطينيات، التي هي جزء من سورية الكبرى وعاصمة الجزء الأول القدس، ويدعى هذا الجزء بشكل خاص باسم «اليهودية»، والجزء الثاني هو الذي عاصمته قيسارية فيليب (اقرا: فلسطين)، والقسم الثالث هو الذي عاصمته سكيثوبولس، التي تعرف في هذه الأيام باسم بيسان، زد على هذا إن كل من العربيتين جزء من سورية: والجزء الأول هو الذي عاصمته بصرى، والجزء الثاني هو الذي عاصمته البتراء في القفار، هذا وإن سورية سوبال Sobal ، (النقب) التي عاصمتها سوبال هي جزء من سورية الكبرى، والجزء الأخير من سورية هو أدوم، المتجهة نحو مصر، وهكذا فالعدو بهذه العظمة والقوة، ذلك أنه يسيطر على مثل هذا العدد من الممالك؛ وعدد كبير من الرؤوس الهمجية، أقامها الرب ضدنا، كما هو الحال الآن، لتكون سوط انتقام الرب بسبب آثامنا.

الفصل السابع والتسعون

وهكذا هزت مصائبنا المؤسفة، والأخبار المحزنة لما حل بنا، جميع بلدان الغرب، ولقد ارتاع كل من سمع بما حدث، وأصيب الناس بجراح محزنة، وتقدم هؤلاء وتصدرهم أوربان الأب المبجل، الذي كان آنذاك بابا الكنيسة الرومانية المقدسة، فعندما سمع بالأخبار استولى عليه حزن لاعزاء له، لأن الكنيسة الشرقية قد تعرضت للدمار بشكل مؤسف، وباتت مشعثة بشكل لايمكن ترميمها فيه، وعندما علم بأن الأماكن المقدسة قد تدنست، وديست من قبل كلاب غير نظيفة، وأن خشبة الصليب الثمينة، صليب خلاصنا قد استولى عليها وتداولها أناس غير أتقياء وغير جديرين بالاحترام، وأن الأرض المقدسة — التي سلف

وحررت لقاء سفك الكثير من الدماء المسيحية — قد احتلت ثانية من قبل القوم الكفار والمدنسين، أثر به الحزن وأزعجه كثيراً إلى درجة أنه وقع مريضاً مصاباً بالحمى، ولم يمض وقت طويل حتى مات، بسبب الحمى، وبسبب الحزن، وبسبب الضعف، وكان خليفته على العرش البابوي غريغوري (الثامن ٢٩ت ١ — ١٧ك ١١٨٧)، وكان رجلاً جيداً، وجديراً بالقبول التام، لكن لذنوبنا توفي بعد سبعة أشهر، وجاء بعده كليمنت الثالث (١٩ك ١١٨٧ — ٢٧آذار ١١٩١)، الذي رفع إلى أعلى مقام لاهوتي، وقد عمل مع أخوانه الكرادلة في جميع السبل الممكنة للحفاظ على المسيحيين الذين تركوا في أعداد قليلة، بمثابة شياء وسط ذئاب، ولقد دعا أمراء الغرب وهددهم وناشدهم، وكذلك جميع الشعب المسيحي المؤمن، للقيام بتحرير الأرض المقدسة، ومنحهم غفراناً تاماً من جميع ذنوبهم، وذلك بالإضافة إلى أنهم سينالون التأييد من السماء، وحثهم على عدم التأخر في القدوم لإنقاذ كنيسة المسيح ومدينة خلاصنا، وبناء عليه حدث أن قام: فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية، وفيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا، مع جميع الأمراء تقريباً والدوقات، والإيرلات، والنبلاء في ممالكهم، وبرفقة رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، وبقية الشخصيات اللاهوتية، والناس من الأنواع المنحطة، وكانوا أكثر من أن يستطيع انسان تعدادهم، هؤلاء جميعاً قاموا فوضعوا على أكتافهم رباط الصليب المانح للحياة، وأعطوا عهداً مقدساً أكيداً بالحفاظ على الأرض المقدسة، وشجع أحدهم الآخر بالكلام وبالفعل بضرب المثل بنفسه وبإلهاب الحماس لدى الآخرين، حتى بدا من العار ومن المهانة بالنسبة لهم البقاء في الوطن مثل الكسالى والجنباء في حين كان الآخرون ذاهبون لأداء صليبتهم.

الفصل الثامن والتسعون

وكان الملك غي في الصيف الذي أعقب فقدان الأرض المقدسة غير قادر على استرداد صور، لان المركز المتقدم الذكر قد تولى الحفاظ عليها، وادعى ملكيتها بموجب الاتفاق الذي عقده (مع أهلها)، ومن جميع المملكة التي كانت بحوزته لم يبق لغي ولا حتى مقدار قرية واحدة يتخذها مقراً له، وكان ممتلئاً بالشعور بالعار وبالفوضى، لاسيما وأن الأرض المقدسة قد ضاعت أثناء حكمه، وبما أنه لم يعرف الاستقرار في حياته، قام مع عدد صغير جداً من الأتباع تولى حشدتهم، بإلقاء الحصار على عكا، ونصب خيمته على هضبة مرتفعة قرب المدينة، وكان معه أخوه غيوفري دي لوزغنان، وكان رجلاً شجاعاً ومقداماً، وقد استطاع بفضل أخيه أن يصبح المقدم على جميع الحجاج الآخرين، ويحكى أنه عندما سمع صلاح الدين بهذا حمد الله لإيقاعه بقية الصليبيين مع ملكهم بين يديه، وفي الحقيقة لم يكن بإمكان مثل هذا العدد الضئيل من الرجال أن يصمد في وجه سكان عكا، فكيف أمام صلاح الدين وحشوده التي لاتعد ولا تحصى، وعندما طلب منه أمراؤه الاسراع بأخذ الجائزة التي وضعها الله على طريقه، يحكى أنه أجابهم، بأنهم لن يفلتوا منه، وأنه يرغب في انتظار وصول أخيه — الذي كان متوقفاً وصوله قريباً — ليشارك في متعة النصر، لكنه علم من «نحلال التجربة بعد مضي عدة أيام أن التأخير والتقاعد عن العمل سوف يسبب الضرر، ذلك أن أحد النبلاء، وكان من عبيد الرب المجريين جداً اسمه جيمس أوفرين Au-vergne، جاء وقت الحاجة، وعسكر أمام عكا ومعه قوة من الفلمنكيين، والبرابانتين والفريزيين، فضلاً عن هذا لم يمض طويل وقت حتى وصل حشد من النبلاء مع آخرين من شامبين وبيروغندي وبعض الناس من إيطاليا، وعسكروا أمام المدينة السالفة الذكر، ولكي

يتجنبوا هجمات غير متوقعة ومفاجئة من قبل المسلمين حصنوا معسكرهم بخندق امتد على جميع الجوانب، وتحتاج المسألة إلى وقت طويل للحديث عن المآسي والمصاعب والمخاطر والخسائر التي عانوا منها قبل قدوم ملكي فرنسا وانكلترا، لأن المسلمين غالباً ما أحرقوا أدوات حصارهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأصابوا الكثيرين منهم بجراحات مميتة بوساطة النشاب والحراب، في حين مات كثير منهم على الرمل أمام المدينة من الجوع، ومن الإعياء، وبالبوء، والآن وقد رأى رجال شعبنا أنه ليس من السهل عليهم الاستيلاء على المدينة، وأن صلاح الدين مع جيشه يناوشهم دوماً حول خندق معسكرهم، قرروا في أحد الأيام الزحف والخروج من معسكرهم لقتال العدو، ومع أن المسلمين كانوا كثرة متفوقة بالعدد على شعبنا، لم يتجرأوا على انتظار هجوم رجالنا، وهربوا تاركين معسكرهم خلفهم، وعندما وصل شعبنا إلى معسكر المسلمين بدون مقاومة، خافوا واستبد بهم الرعب، وكأنما كان ذلك صادر عن حكم سري من الرب، فهربوا، مع أن ما من انسان طاردهم.

وعندما رأى المسلمون هذا استردوا ثقتهم بأنفسهم وجرأتهم، وعادوا يطاردون شعبنا، وبدأوا في عقر الخيول وجراحة الفرسان بوساطة موجات متواصلة من السهام المتطايرة، وتمكن المسلمون من تطويقنا بفضل عددهم، وقتلوا عدداً لا بأس به من نبلائنا الكبار، الذين ثبتوا في مواقعهم، ورأوا من العيب والعار إدارة ظهورهم، وكان بين هؤلاء المقدم الأعلى للدواية، وأنדרو دي بريين، اللذان قتلا في هذا اليوم مع آخرين كثر، وكان الخوف الذي استبد بشعبنا هائلاً، وكذلك الفوضى، وكان الذي أصاب رجالنا أثناء فرارهم من رعب كبير جداً، ووصل الأمر إلى حد أنه ما كان بإمكان واحد من الذين زحفوا النجاة، لولا قيام غيوفري دي لوزغنان، الرجل الشجاع، والجندي المجرب، السالف الذكر— الذي

بقي في المعسكر لحراسته — بالمبادرة لتقديم العون إلى شعبنا مع ما قدر على جمعه من الرجال.

ويحكى أن شعبنا دبت بين صفوفه الفوضى في ذلك اليوم بسبب حادث غريب، فقد شرد فرس من صاحبه وهرب، وعندما ركض عدد كبير خلفه وهم يصرخون، اعتقد الآخرون أن رجال شعبنا كانوا يفرون من أمام العدو، وهكذا فر الجميع واتخذوا طريقهم نحو المعسكر إلى خيمهم، أو لنقل إلى عارهم العظيم وإلى إلحاقهم الأذى العظيم بقضية المسيحيين.

وبعدما انتظر شعبنا في أرض المعركة لمدة سنة ونصف السنة وصول الامبراطور والأمراء الآخرين الذين كانوا سيتبعونهم، عانى أفرادهم من مجاعة شديدة ونذرة في الأطعمة داخل المعسكر وصلت إلى حد إرغامهم على أكل لحوم الخيول وأجساد الحيوانات الميتة، لأن مكيال (بوشل) الدقيق الواحد الذي كان يباع في الأوقات العادية بنصف قطعة نقدية (بيزنت) بيع وقتذاك بستين قطعة، وبناء عليه أعلن الجنود الرجالة في الجيش أنهم لا يمكنهم الاستمرار بتحمل مثل هذا العوز، فانطلق منهم ثلاثون ألفاً في عددهم ضد أوامر قادتهم، بغية مهاجمة المسلمين، ونهب الأطعمة من معسكرهم، وتظاهر العدو الماكر بالفرار، وجعل هؤلاء الناس الطائشين يثقلون أنفسهم ليس فقط بالأطعمة، بل أيضاً بالذهب وبالفضة وبالأثاث من مختلف الأنواع، وعندما كانوا في طريق عودتهم مثقلين هكذا، ومعاقين بالأوزان الثقيلة تحولت قيثارهم إلى النحيب والمناحة (يعقوب: ٣٠/٣١ — الأمثال: ١٤/١٣)، وكانت نهاية هذا المرح التعاسة: لأن المسلمين حملوا عليهم بأصوات عالية، ولم يوجد بينهم واحد كان قادراً على مقاومة الأعداء، فلقد ألقوا بأثقالهم وتخلوا ليس فقط عن الذهب والفضة، بل حتى عن سلاحهم، وسقط تقريباً كلهم على الطريق أو سيقوا إلى داخل البحر وغرقوا، وأصيب بعض

الذين نجوا منهم لرعبهم بالجنون، وهكذا جعل الرب تدمرهم وعدم طاعتهم سبباً لعقابهم، وفي تلك الأثناء توفيت سيبلا زوجة الملك السالف الذكر، في داخل المعسكر، وهكذا آل التاج بموجب حق الوراثة إلى أختها ايزابيلا، زوجة همفري أوف تيرون (تبين)، ويحكى أنه عندما سمع بهذا مركز مونتفرات، الذي كان قد جعل من نفسه سيداً لصور، استبدت به مطامحه السلطوية والرغبة في العرش، فانتزع ايزابيلا المتقدمة الذكر من زوجها، وتزوجها على الفور، ومهما يكن الحال، كان الحجاج غير راضين ومزعوجين كثيراً تجاه مثل هذه الجريمة العظيمة، ومع هذا، لقد رفضوا طلب الكونت المتقدم الذكر، وصرفوه بأعذار، عندما سأهم الإنصاف ورفع الغبن عنه، لأنه لم يكن بإمكانهم الحصول على الطعام من أي مكان غير صور، وذلك عبر يدي المركز السالف الذكر، فضلاً عن هذا لقد رشا بعضاً من مقدمي الجيش لدعم قضيته.

الفصل التاسع والتسعون

بينما كانت هذه الأقدار المتغيرة هي حال الذين كانوا على أرض المعركة، انطلق فردريك، امبراطور الرومان، وشرع برحلته عبر البر ومعه قدرات عظيمة، وحشد من المقاتلين لا يحصى تعدادهم، وبعد ما عبر حدود ألمانيا، اجتاز هنغاريا، ومكدونيا، وبلاد الاغريق، وزحف خلال بلاد المسلمين بقوة وجبروت وسيطرة، واستولى على قونية ثم فيلومينا، (إلغين) ومدناً أخرى كثيرة، ووصل إلى أرمينية (كليكية)، ونزل وسط حر عظيم إلى نهر يدعوه السكان المحليون باسم (نهر الحديد) «النهر الأزرق»، وكان يريد الاستحمام، لكنه غرق بشكل مأساوي، بسبب ذنوبنا، ومات مما شكل خسارة عظيمة لجميع المسيحيين، وخشي صلاح الدين كثيراً من وصوله لهذا أمر بهدم أسوار اللاذقية، وجبله، وطرطوس، وجبيل، وبيروت، وأبقى الحصون فقط أي القلاع والأبراج.

والآن بعد ما أمضى كل من فيليب، ملك فرنسا، ورتشارد، ملك انكلترا الشتاء في برنديزي، بانتظار إلحاق ساقه جيشهما بهما، بعد هذا أبحرا إلى ميناء عكا، وكان ذلك في الربيع الذي جاء إثر ذلك الشتاء، وكان معها سفن وغلايين، وخيول كثيرة، وآلات حرب، ومخزونات من المؤن، وقد جعلوا جيش شعبنا يمتلىء بسرور هائل. وكان أولهما بالقدوم ملك فرنسا، لأن رتشارد، ملك انكلترا، قام قبيل وصوله، بالاستيلاء على جزيرة قبرص، وأطاح بالاغريق الذين كانوا هناك.

وقاموا الآن بإلقاء الحصار على عكا، وطوقوها من جميع الجهات، وهاجموها بشكل متواصل خلال الصيف كله، في حين قاوم الذين كانوا بداخلها برجولة، وكانت آلاتهم مكافئة لآلاتنا، وأحرقوا بالنار الاغريقية القلاع الخشبية التي بناها شعبنا مقابل نفقات عالية، وألحقوا بشعبنا الكثير من الأضرار، لكن حدث في أحد الأيام، أن صلاح الدين كان مرسلًا بنجدة من الرجال الجدد المسلحين إلى المدينة، ومعهم عتاد وسلاح ومؤن، على ظهر سفينة كبيرة جداً تدعى «درمون» فالتقى ملك انكلترا بهذه السفينة عند مدخل ميناء عكا، وكان معه غلايينه، ولقد أغرقها وأنزلها إلى قاع البحر مع جميع الجنود الذين كانوا فيها، مما بعث السرور العظيم وسط المسيحيين، وسبب اضطراباً بين المسلمين، وقد قيل إنها حملت بالإضافة إلى بقية حولتها بعض الثعابين، كانوا عازمين على إرسالها ونشرها في جيشنا، وأعتقدوا أنهم بذلك سيلحقون بنا أذى عظيماً، وقصف فيليب ملك فرنسا أسوار المدينة، وأبراجها، ودفاعاتها بشكل متواصل في كل من الليل والنهار، بوساطة حجارة ضخمة، وبذلك دمر آلات العدو، مع أبنية في داخل المدينة، ولم يعط المحاصرين راحة، ومن جانب آخر قام ملك انكلترا بحملات متوالية مرعبة على المحاصرين، ونتيجة لهذا، أخذ السور يضعف ويترنح نتيجة القصف بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة

بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة المقاومة لمدة طويلة، لهذا قاموا بتسليم المدينة على شرط أن يتمكنوا من الزحف منها بحرية وبدون إعاقة ولا أذى، وتعهدوا أنهم سوف يسلمون صليب الصليبوت ويعيدونه وهو الذي خسره الصليبيون في المعركة، لكن بما أنهم لم يتمكنوا من العثور عليه، غضب ملك انكلترا غضباً عظيماً، وأمر بجعل الأسرى الذين هم في شطره من المدينة طعمة للسيف، لكن ملك فرنسا تعامل مع المسلمين الذين كانوا في أسره بشكل أكثر لطفاً، وألقى بهم في السجن لمبادلتهم مع شعبنا، ومع هذا عمل ملك انكلترا المزيد من الأعمال لإيذاء العدو واضعافه بقتل عدة آلاف منه، الذين لو أنهم عاشوا لأمكنهم فيما بعد إلحاق الكثير من الأذى بالصليبيين، وعندما رأى صلاح الدين أن المدينة قد جرى الاستيلاء عليها، وأن قسماً كبيراً من قواته قد دمر، شعر بالإحباط إلى حد كبير، وفقد الأمل بالقدرة على الدفاع عن المدن الأخرى ضدنا، ولهذا أمر بتدمير أسوار المدن القائمة على شاطئ البحر، وهي مدن: بروفيريا (قرب حيفا)، وقيسارية، ويافا، وعسقلان، وغزة، والدارون (دير البلح)، وأعاد الملك رتشارد بناء يافا وحصنها، وألقى بعد هذا صلاح الدين الحصار عليها، لكن الملك بادر إلى هناك على متن غلايين بوساطة البحر، وتبعه جيشه بصعوبة كبيرة على الطرق البرية، وتمكن من انقاذ المحاصرين، وطرد حشد المسلمين، وارتعب المسلمون الآن كثيراً، وحلت بين صفوفهم الفوضى، وانهمزموا مع أميرهم من أمام وجه شعبنا، وبات الآن بإمكان شعبنا بسهولة ليس فقط نيل مملكة القدس، بل الأجزاء الكبرى من بلادهم، لولا أن عدو الجنس البشري، وأعني به الغيرة، حقق نجاحات كبيرة بين المسيحيين، وبذر الزوان بين الملكين، وكان هناك توتر شديد بين الأمراء، وسبب هذا تيههم في القفار حيث لم تكن هناك طرق، وحاولت كل مجموعة أن تنال مجداً لنفسها، وسعت وراء مصالحها، وليس وراء الأشياء العائدة ليسوع المسيح، وأدخلت إهاناتهم لبعضهم

بعضاً، وغيره أحدهم من الأخر السرور إلى قلوب أعدائهم، وأنزلت بين صفوف المسيحيين والمسيحية اضطراباً عظيماً، وكان الخلاف والحسد، والتباغض، وانعدام الوفاق بين الملكين قد وصل إلى حد، أنه عندما كان ملك فرنسا يقوم بالهجوم على واحد من جوانب المدينة، كان ملك انكلترا يرجع شعبه ويمنعه من الحملة، ويحول بينهم وبين معاناة الهجوم والقيام به على جانب آخر، فضلاً عن هذا ربح إلى جانبه أكبر عدد ممكن من الأمراء والبارونات بالهدايا وبالوعود، وجعلهم يقفون إلى جانبه، وانزعج ملك فرنسا كثيراً وتوجس شراً من كل هذا، ولأنه كان مريضاً، ذهب عائداً إلى بلاده مباشرة بعد الاستيلاء على عكا، وخلف من ورائه دوق بيرغندي مع جزء كبير من جيشه، لكنه لم يكن حكيماً في نشره أخبار عودته المبكرة إلى وطنه، فقد قيل: كان صلاح على استعداد للتخلي عن البلاد كلها لنا، لو أن الملكين تظاهرا بأنهما كانا على وئام بالنسبة لغزوها، وكانا متسالمين وعلى وفاق بين بعضهما بعضاً. وانطلق الآن ملك انكلترا مع جيشه، وبرفقه دوق بيرغندي، من عكا نحو يافا، وذلك بنية إلقاء الحصار على القدس، وواجهها وهما على الطريق عدداً كبيراً من المشاكل، لأن صلاح الدين لاحق القوات الزاحفة بعدد لا يحصى من الجنود والتوركبالية مع مسلمين كانوا يطلقون النشاب عليها من الجانبين مثل السحب، ولهذا تمكن شعبنا بصعوبة بالغة جداً من الوصول إلى مدينة أرسوف، بين قيسارية ويافا، وذلك بعد عقر عدد كبير من الخيول، وإصابة فرسانها بجراحات خطيرة، وقد جرح الملك نفسه بنشابة أثناء ذلك الزحف، وقام عندما كان قرب القلعة المتقدمة الذكر بحملة عنيفة جداً على المسلمين، وأراد من ذلك دفعهم إلى الخلف، وتولى الضغط عليهم أثناء التراجع فقتل عدداً كبيراً منهم، لكن ذلك لم يكن بدون خسائر فادحة عانى منها الجيش المسيحي، لأنه في ذلك اليوم سقط الفارس النبيل، والمقاتل الشجاع جيمس أوف أو فرين مع عدد كبير من الآخرين الذين نالوا تاج الشهادة، وذلك أثناء قتالهم المسلمين

في مكان منعرل، لم يكن معروفاً من قبل شعبنا، وحمل صلاح الدين نفسه مع الفارين الى القدس وفي الوقت نفسه أقام شعبنا معسكره في مكان يدعى بيت نوبة بين يافا والقدس، على نية الزحف من هناك الى القدس لإلقاء الحصار عليها ، وفي هذا المكان وصلت أخبار الى الملك رتشارد تحدثت عن قافلة عظيمة قادمة الى جيش صلاح الدين من مصر، مع أعداد لا تحصى من البغال، والخيول، والجمال، محملة بالأطعمة والبضائع الأخرى، وشرع على الفور مبادراً لاعتراض سبيلها، وزحف خلال الليل، وعاد الى جيشه وقد جلب معه الكثير من الأسلاب، غير أنه كان قد ترك جيشه في حالة رعب عظيم، لأنه أخذ الجزء الأعظم من أتباعه معه، وخلف وراءه عدداً ضئيلاً مقارنة بقوات صلاح الدين، وبعد هذا عقد شعبنا مجلساً حريباً، قرروا فيه عدم القاء الحصار على القدس في الشتاء، ذلك أنهم رأوا أنهم لا يمتلكون بين القدس وعكا موقعاً حصيناً باستثناء يافا، وأنه لا يمكنهم جلب المؤن لإطعام الجيش من دون خطر عظيم واضح، ولهذا تخلوا عن مغامرتهم مع أن ذلك كان وسط بكاء الكثيرين، والحزن المرير للجزء الأعظم من الجيش، وفي الحقيقة قال كثير من الناس، وأناس عرفوا بشكل دقيق أوضاع المسلمين أن صلاح الدين لم يكن متوقعاً قدوم جيشنا، وأنه ما كان بإمكانه إيجاد أي إنسان يفكر بأخذ موقف الدفاع في القدس، أو يتجرأ على البقاء فيها وتحمل الحصار هناك: ذلك أن المسلمين كانوا مرعوبين تجاه حادثة رجال جماعة عكا، الذين لم يستطع صلاح الدين تقديم العون لهم، ولهذا عانوا إما من جعلهم طعمة للسيف، أو من القائهم في السجن، مع أنه كان بإمكانه شراء حريتهم. وذهب ملك انكلترا الآن مع جيشه الى عسقلان، ولم يتوقف عن ترميم أسوارها، وذلك خلال الشتاء كله، مقابل جهد كبير ونفقات عالية، فضلاً عن هذا قام بإعادة بناء بلدة الدارون الصغيرة، وبتحصينها، ورمم غزة ومنحها الى الداوية، الذين كانت ملكيتها عائدة اليهم من قبل ولقد منحهم إياها للاحتفاظ بها،

وحدث خلاف بين دوق بيرغندي والفرنسيون الذين بقيوا معه من جهة وبين الانكليز من جهة أخرى، لذلك تركوهم وذهبوا الى صور، وأمضوا الشتاء هناك مع المركيز، وعندما اجتمع الجيشان في الربيع التالي في بيت نوبة للقيام بحصار القدس، تبدل الملك رتشارد وتغير الى انسان آخر، فقد قال إنه يتوجب عليه بكل الوسائل العودة الى بلاده ثانية، مدعياً أن أخاه جون يطمح بالمملكة ويتطلع للاستيلاء عليها، وقد جعل من نفسه سيداً لجزء من بلاده، وكان من جانب آخر محقاً في ريبته في ملك فرنسا، الذي افترق عنه وهو غاضب، ولقد كان يخشى أن يقوم الملك فيليب في أثناء غيابه بغزو دوقية نورماندي بالقوة، ولدى سماع المسلمين بهذه الأخبار امتلأوا بالسرور، وتشجعوا وكأنهم استفاقوا من سبات عميق، بينما اضطربت أحوال عناصر شعبنا وحزنوا وفقدوا كل أمل في استرداد المدينة المقدسة، ولقد بكوا وانتحبوا بسبب أن خاتمة تضحياتهم قد بترت، ورأوا أن جهودهم قد بدأت لكن لم تنته، وأنها وصلت الى لا شيء، ولو أن ملك انكلترا، قام قبيل مغادرته بإخفاء نيته لبعض الوقت، لربما كان من الممكن لنا الحصول على شروط أفضل وسلام مشرف مع المسلمين، لكنه وهو الرجل العنيد، كان على الرغم من تسببه بحدوث ضرر عظيم للمسيحية كلها، متشوقاً ومتعجلاً للمغادرة، ولهذا وافق على الشروط التي عرضها عليه صلاح الدين للهدنة مهما كان نوعها، ولم يثر أي اعتراض، كما لم يسبب أية مصاعب، وهكذا قضت الشروط بارغام شعبنا على تخريب عسقلان، والدارون وغزة، وقد تركوا لنا أمر الاحتفاظ ببيافا، وبقية الساحل حتى عكا، وهذا أظهر المسلمون بشكل مؤكد أنه عندما تكون أماكننا الحصينة قد دُمرت، لن نستطيع بعد ذلك الدفاع عن المنطقة السهلية، وحمايتها ضدهم، ولا سيما أيضاً بعد ذهاب جيشنا وعودته الى الوطن، وكان بالوقت نفسه مركيز مونتفرات قد قتل من قبل مسلمين كانوا تعمداً وعملاً لوقت طويل في خدمته في بيته، كما أن هنري كونت شامبين كان قد تزوج من

ايزابيلا، أرملة كونراد، وذلك بناء على اقتراح ملك انكلترا، وقد بقي في الأرض المقدسة، وعندما كان ملك انكلترا في طريقه عائداً الى وطنه اعتقل وبات سجيناً في ألمانيا، وقد احتفظ به الامبراطور حتى دفع فدية مقدارها مبلغ كبير من المال، وهكذا تمكن بعد صعوبة من الوصول الى انكلترا.

ومع أن الكونت هنري قد تزوج من الملكة وبات سيّداً لكل من عكا وصور، رفض أن يتوج ملكاً، لأنه كان مثل البقية متشوقاً للعودة الى الوطن، ثم إنه بعدما أقام في الأرض لعدة سنوات، وعمل جميع الاستعدادات للعودة الى الوطن، سقط من إحدى نوافذ بيته فوق حجارة الخندق العائد لمدينة عكا، فاندقت رقبتة ومات، وقام الآن عموري ملك قبرص، الذي هو أخ لغي لوزغان - وكان الآن متوفى - بالزواج من الملكة ايزابيلا، وهكذا تولى حكم وحكومة الأرض المقدسة خليفة للكونت السالف الذكر.

وكان المسلمون بعد مغادرة ملك انكلترا وبقيّة الحجاج، قادرون على الفور على اظهار مدى الرعب الذي أحاط بحال القلة المتبقية من المسيحيين مع بقاياهم في الأرض المقدسة وإيضاحه، لولا أن صلاح الدين قد مات، وبناء عليه انبعث الخلاف والتمزق فيما بينهم، الأمر الذي قاد الى خصام وحرب أهلية، مما كان له عظيم الفائدة بالنسبة للمسيحيين، وانتزع أخو صلاح الدين من أبناء أخيه جميع ممالكهم باستثناء مملكة حلب فقط، وأثار بعمله هذا جميع المسلمين ضده، ولم يستطع شعبنا القيام بأي عمل ضده، كما أنه لم يتجرأ على محاولة ذلك: ولقد اعتقدوا أنه من الخير لهم العيش والحفاظ على امتلاكهم لأراضيهم الى جانب المسلمين في جميع الأحوال، مع أنهم تلقوا اهانات كثيرة من قبلهم، وكان بعض رجال المسلمين قد أبدوا استعدادهم لتسليمنا مدينة جبيل وحصنها مقابل رشوات تلقوها، وذلك بدون إعلام

السلطان، التي هي ملك له بحق الوراثة، وحدث مثل هذا مع مدينة بيروت وقلعتها، حيث تخلت عنها حاميتها المسلمة، فأعيدت الى المسيحية.

وأرسل الامبراطور الروماني هنري (السادس: ١١٩٠ - ١١٩٧) حشداً من الألمان الى الأرض المقدسة، وأمر رجاله بخرق الهدنة، وبناء عليه ألقوا الحصار على حصن يدعى تبين قرب صور، وكانت حامية القلعة على استعداد للاستسلام شرط الإبقاء على حياة أفرادها، لكن الألمان أجّلوا استسلام المكان لليلة واحدة، معتقدين أنه لا القلعة ولا حاميتها يمكن لهم النجاة من بين أيديهم، لكن حدث في اليوم التالي أن تجمع حشد لا يحصى من المسلمين للقيام بالتفريغ عن القلعة، وهكذا تراجع الألمان في فوضى، وعندما اقتربوا من بيروت فر المسلمون الذين كانوا باقين فيها، برعب، وتركوا المدينة والقلعة لهم، لكن عندما سمعوا أن سيدهم وامبراطورهم هنري قد مات (في صقلية، وخلفه فردريك الثاني) لم يقوموا بأية أعمال أخرى وعادوا مسرعين الى وطنهم.

وفي ظل هذه الأوضاع تشجع بعض قومنا بحضورهم، فتولوا تحصين يافا ضد المسلمين، لكن تمكن المسلمون بعد ذلك في وقت قصير، وبدون الكثير من المتاعب من الاستيلاء على القلعة التي بنوها، وسوها بالأرض، وأسرو جميع الذين وجدوهم فيها، وبناء عليه أعيد تجديد الهدنة، الأمر الذي وافق عليه المسلمون برغبة، لأن جميع مملكة القدس تقريباً كانت في أيديهم، وكانوا ممزقين، ومتخاصمين بشكل حاد فيما بينهم، ولم يعد قومنا تواقين أبداً لخرق الهدنة في أية مناسبة مهما كان نوعها، لإنجاز حصار أي موقع حصين، أو لإعادة بناء أية قلعة مهدامة، وهكذا عندما جاء بعد وقت قصير بعض النبلاء من شاميين ومقاطعات فرنسا الأخرى، ووصلوا بحراً، رفض قومنا خرق الهدنة، وذهبوا إلى انطاكية لخدمة أميرها، الذي كان آنذاك في حالة حرب،

لكنهم وقعوا فيما بين طرابلس وأنطاكية في أسر المسلمين، الذين حملوهم الى حلب، ولقد قام قومنا بخرق الهدنة مرتين بعد مغادرة الألمان السالفي الذكر: مرة عندما جاء بعض النبلاء من فرنسا، وأعني بذلك سيمون دي مونتفورت— وهو من أصل نبيل، وكان رجلاً تقياً، وجندياً جيداً مع أخيه غي، وبعض الآخرين الذين كان منهم كونتسه فلاندرز، التي تبعت زوجها (بلدوين) الذي تم (سنة ١٢٠٤) تتويجه امبراطوراً على القسطنطينية، والمرة الثانية، إثر وفاة الملك عموري وزوجته، حيث جرى استدعاء جون، كونت بريين Brienne لتسلم عرش القدس، فعبّر البحر، وتزوج من وارثة المملكة، ابنة المركز كونراد والمملكة ايزابيلا، لكنهما أنجزا القليل، أو بالحري لم يفعلوا شيئاً مفيداً، لأنهما لم يلقيا الحصار على أي مكان حصين، ولم يرموا أية قلعة مهدمة، وكل ما فعلاه اقتصر على الدخول الى الأراضي الاسلامية وإحراق عدد قليل من القرى والاستيلاء على بعض الأسلاب.

وإثر تتويج جون المتقدم الذكر، وتعميده ملكاً قام المسلمون بتحسين جبل الطور ضدنا، وذلك من أجل إهانة المسيحية وإلحاق الضرر بها، وأكثر من هذا بغية تضيق الخناق على مدينة عكا، وجدد رجال شعبنا هدنتهم مع المسلمين، وعاشوا في ظل الحزن والنحيب، مع كثير من المآسي والمظالم، وطلبوا العون من عليين يوماً إثر يوم، وانتظروا الغفران والمدد من الرب، ومن الكنيسة الرومانية المقدسة.

هنا انتهى تاريخ القدس

رهبان تحت السلاح

(ملاحق كتاب الاسبتارية في الأرض المقدسة . تأليف إ . ج . كنغ)

الملحق أ

التنظيمات العسكرية الدينية

لما كانت التنظيمات العسكرية الدينية للعصور الوسطى قد ولدت من خلال الحروب التي لم تتوقف بين المسيحية والاسلام، كان من الطبيعي أن تنقسم الى مجموعتين متميزتين، وقد قامت أشكال تنظيمها جميعاً في جميع الأحوال على التنظيمات التي أرساها كل من الاستتارية والداوية، وهؤلاء هم :

١ — الذين تأسسوا في سورية وهم : الاستتارية ، والداوية ، وفرسان القديس لازاروس (لعازر)، وفرسان التوتون، وفرسان القديس توما س لعكا، هذا ولا ينبغي أن يخلط بهم تنظيم فرسان الضريح المقدس، الذي أخذ اللون العسكري في القرن الخامس عشر فقط

٢ — الذين تأسسوا في شبه الجزيرة الاسبانية ، وهم : فرسان قلعة رباح (كالاترافا Calatvava) وفرسان القديس جيمس أوف كومبو ستيللا compostella ، وفرسان القنطرة، وتنظيمات فرسان المسيح، وفرسان سيدتنا أوف مونتيزا Monteza، والمجموعتان الأخيرتان قد نبعتا عن فرسان الداوية.

وهناك تنظيمان اسبانيان كانا أدنى أهمية ، وقد ذابا فيما بعد في التنظيمات الأكبر، وهما : فرسان القديسة مريم لجبل البهجة، وقد تأسس سنة ١١٨٠ ، وصار تنظيمهم يعرف بعد ١١٩٨ باسم فرسان مونتفراك Montfrac، وقد اندمج في سنة ١٢٢١ في تنظيمهم فرسان قلعة رباح، والثاني هو تنظيم فرسان أرغون للقديس جورج أوف ألفاما

ALFAMA، وقد تأسس في سنة ١٢٠١، ثم اندمج في تنظيم فرسان
مونثيزا في سنة ١٣٩٩ .

والى جانب هاتين المجموعتين الكبيرتين ، كان هناك تنظيمان تأسسا
على شواطئ البلطيق بقصد شن الحرب ضد الوثنيين الصقالية
(السلاف) لشمالى شرقي أوروبا ، وأولها فرسان السياف في ليفونيا -Li-
vonia وقد تأسس تنظيمهم سنة ١٢٠١ من قبل البرت أسقف ريغا
Riga، وقد اندجوا في فرسان التوتون في سنة ١٢٣٧ ، وقد ارتدوا رداءً
أبيض عليه سيف أحمر ونجمة، والتنظيم الثاني هو تنظيم دوبرزين
Dobrzin في فيستولا vistula، وقد أسسه كرستيان أسقف بروسيا،
وذلك بعد وقت قصير من التنظيم الأول، وقد اندمج فرسانه في سنة
١٢٣٥ في فرسان التوتون.

١ — المجموعة السورية

١ — الاستارية :

٢ — الداوية :

ان تاريخ هذين التنظيمين متساوق ومتقارب كثيراً منذ تأسيس
الداوية في ١١١٨ حتى سنة ١٣١٢، وهي سنة سحقهما، ولذلك لا
يمكن فصلهما عن بعضهما بعضاً، ولا يمكن كتابة تاريخ للاستارية
دون تضمينه خلاصة كافية وافية عن تاريخ رفاقهم وأندادهم ، أي
الداوية ، ولهذا لا توجد حاجة للحديث أكثر عنهما في هذا الملحق،
(فلقد تقدم الكثير من أخبارهما في الأجزاء المتقدمة من موسوعتنا).

٣- تنظيم القديس لازاروس (لغازر)

توجد أصول تنظيم القديس لازاروس لدى الاسبتارية في القدس من أجل المجذوميين، وهو تنظيم قديم جداً، وصار بعد استيلاء اللاتين على المدينة مثله مثل تنظيم مشفى القديس يوحنا رهبنة دينية نظامية، وكان هدف هذا التنظيم العناية بالمجذومين ، وقد أضاف أصحابه الى مؤسستهم فرعاً يضم أخوانية دينية، وأدخل لويس السابع هذا التنظيم الى فرنسا في سنة ١١٥٤، ومنحه قلعة بوييني Boginy قرب أورلين Orleans، وفي سنة ١٢٥٣ نقل مقدم التنظيم مركز قيادة رهبانيته من عكا الى فرنسا، وكان ذلك بموافقة القديس لويس التاسع، الذي عهد بحماية ميناء ايوس - مورت - Aigues mortes إليه، ومنحه بيتاً في باريس، غير أنه تبنى الآن أحكام وقوانين القديس أوغسطين، ومع انتقاله الى فرنسا، انتشر سريعاً في جميع أنحاء أوروبا، حتى بات يمتلك مع منتصف القرن الرابع عشر ما يزيد على ثلاثمائة مؤسسة، وقمع البابا انوسنت الثامن في سنة ١٤٩٠، التنظيم وألغاه وحول ممتلكاته الى تنظيم القديس يوحنا، لكن مرسومه لم يتم تسلمه في فرنسا، ولم يكن له تأثير في تلك البلاد، وأعاد في سنة ١٥٦٥ - البابا بيوس الرابع تأسيس التنظيم، وأكد امتيازاته القديمة، ودمجه في سنة ١٦٠٨ هنري الرابع ملك فرنسا، في تلك البلاد مع تنظيمه الجديد الذي اسمه فرسان سيدتنا سيدة جبل الكرمل، وقضي في فرنسا على التنظيم المدموج في أيام الثورة، وكان يمتلك في ذلك الوقت خمسة قادة عظام ومائة وأربعين قيادة أدنى ، وكان شعار فرسان القديس لازاروس عبارة عن صليب له ثمانى نقاط (رؤوس) ملونة بالأخضر وقد رسم عليه قيامه لازاروس، وكان يتدلى بوساطة شريط أخضر، أما شعار فرسان سيدتنا سيدة جبل الكرمل فكان أرجوانياً مزيناً بتمثال سيدتنا، ويتدلى أيضاً من شريط أرجواني ، ودمج التنظيمان

المندمجان الشعارين واللونين.

وفي إيطاليا ، تميز تاريخ فرسان القديس لازاروس تماماً عن تاريخ هذا التنظيم في فرنسا، وكانت بقايا التنظيم التي تركت في الأرض المقدسة قد استقرت أخيراً في نابل في سنة ١٣١١، وعدّ هذا الفرع وحده فيما بعد على أنه المنحدر الشرعي الوحيد للتنظيم الأصيل، وأضعفته تمزقاته الداخلية ومشاكله خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مع قمعه ثم إعادة تأسيسه، فتحول الى وضع هامشي، وفي سنة ١٥٧٣، اندمج هذا التنظيم في تنظيم سافوا لفرسان القديس موريس، الذي كان قد تأسس قبل سنوات من أجل الحماية ضد الكلفينيين Calvinists من جنيف، وكان دوق سافوا هو المقدم الأعلى لهذا التنظيم، فأما دوس Amadeus الثامن، دوق سافوا هو الذي أسس هذا التنظيم في سنة ١٤٣٤ ، وقد تولى خلفاؤه من بعده مقدمة هذا التنظيم ، مع أن بعضهم وصفه باللاعسكري، وأنه توقف فعلياً عندما اختير دوق سافوا ليكون بابا باسم فيلكس الخامس في سنة ١٤٣٩، وكان هدف التنظيم المندمج العناية بالمجدومين، كما كان الحال من قبل، والمشاركة في الأعمال الحربية ضد غير المسيحيين، وقد شاركت غلايينه في عدة حملات ضد الأتراك والأنواع الأخرى من القرصان، ومع نهاية القرن الثامن عشر فقد التنظيم سماته العسكرية ، وكان قبل زوال الملكية من إيطاليا موجهاً من قبل ملك إيطاليا للقيام بخدمات متميزة ، لا سيما الخدمات ذات الطبيعة الخيرية، وكرس دخل التنظيم كلياً لأعمال الاحسان، وكان شعاره صليب القديس موريس الأبيض وهو متوضع فوق الصليب الأخضر للقديس لازاروس متديلاً من شريط أخضر قائم.

٤- فرسان التوتون

يمكن العثور على أصل فرسان التوتون في مشفى القديسة مريم

للألمان، الذي تأسس في القدس من قبل واحد من حجاج الألمان في سنة ١١٢٧، لصالح أبناء بلاده، وفي أثناء حصار عكا في سنة ١١٩٠، أسس بعض التجار من بريمن Bremen، ولوبك Lubeek، مشفى ميدانيا من أجل استخدامات الصليبيين الألمان، وقام الآن الرهبان الألمان الذين طردوا من القدس بربط أنفسهم بهذا المشفى، وتحول هؤلاء الاستبارية الألمان في آذار ١١٩٨، إلى تنظيم عسكري، قصد منه أن يكون مكافئاً ألمانيا لكل من الاستبارية والداوية، اللذان كانا لاتينين بالدرجة الأولى، وقد ارتدى هؤلاء أردية بيضاء عليها صلبان سوداء، واتبعوا أحكام القديس أوغسطين، وكان الاسم الكامل والعنوان لهذا التنظيم الجديد هو «فرسان التيوتون لمشفى القديسة مريم المقدسة»، وكان مسموحاً بنيل العضوية فيه للألمان فقط، ووطدوا أوضاعهم في عكا، وفي سنة ١٢٢٧، بنوا قلعتهم الكبرى ستاركن بيرغ Starkenburg أو مونتفورت Montfort (القرين) على الجانب الغربي من تخوم الجليل، وهي قلعة استولى عليها السلطان بيبرس في سنة ١٢٧١، وكان الامبراطور فردريك الثاني قد جعل في سنة ١٢٢٦ من مقدم التيوتون أميراً في امبراطوريته، ومنح التنظيم امتياز وضع النسر الامبراطوري على أسلحته، وكذلك أهدى المقدم خاتماً ثميناً جداً، جرت العادة بعرضه يوم تنصيب كل مقدم أعلى جديد.

وفي سنة ١٢١١، دعا الملك أندرو الثاني ملك هنغاريا فرسان التيوتون لمساعدته ضد جيرانه الوثنيين من الكومان، ثم طلب في سنة ١٢٢٨ أسقف بروسيا مساعدتهم في حروبه ضد الوثنية، الأمر الذي نتج عنه دمجهم فيهم لتنظيم دوبرزين dobrzin الذي كان قائماً آنذاك، وازدادت قوة هؤلاء الفرسان بسرعة كبيرة على البلطيق حتى أنهم في سنة ١٢٦٠، كانوا يحكمون كل ما بات يعرف فيما بعد باسم مقاطعتي شرقي بروسيا وغربها، وحصلوا أيضاً في سنة ١٢٣٧ على ليفونيا Livonia،

باتحادهم مع فرسان السيف، وقبل سنوات طويلة من فقدان الأرض المقدسة، أخذت اهتمامات فرسان التيوتون في مناطق البلطيق تحتل المقام الأول وتفضل على عملهم الأساسي في سورية، وعندما سقطت عكا جرى نقل ديرهم الى البندقية، وذلك لبضع سنوات فقط، ثم أسس هذا الدير نفسه في سنة ١٣٠٩ في مارينبيرغ Mrienburg على الفستولا، وهناك حكم المقدم الأعلى بمثابة حاكم اقليمي قوي، وكان تحت سلطانه مقدمين أدنى مرتبة في ليفونيا وألمانيا، وكان مقر الأخير في ميرنثيم mergentheim في سوابيا

وأوقف تحول ليتوانيا الى المسيحية في القرن الرابع عشر الحروب الدينية ضد الوثنيين، وأنهى بذلك الهدف الحقيقي لفرسان التيوتون، وتلا ذلك نهضة سلافية كبيرة، ودمرت معركة تاننبرغ Tannenberg المأساوية في سنة ١٤١٠ سمعة الفرسان، وجرى الاستيلاء على غربي بروسيا سنة ١٤٦٦ من قبل البولنديين، وتم فقدان مارينبيرغ، ومع ذلك استمر المقدم الأعلى يحكم شرقي بروسيا بمثابة تابع لملك بولاندا، وكانت عاصمته في كونسبيرغ konigsberg وفي سنة ١٥٢٦ تحول ألبرت أوف براند نبيرغ Brandenburg الى البروستنتانية، وكان هو المقدم الحاكم، كما كان من اسرة هوهنزولرن Hohenzollern، وجعل مقاطعاته علمانية، كما حولها الى دوقية وراثية، وبذلك توقف تنظيم فرسان التيوتون عن الوجود في شرقي بروسيا، وفي سنة ١٥٦١ حذا غوتهارد كتلر Ketteller Gottthard الذي كان مقدم ليفونيا، حذو ألبرت أوف براندينبيرغ، وأصبح بروستنتياً، وصار دوقاً وراثياً لـ «كورلاند Gurland» .

وانفصل في الوقت نفسه المقدم في ألمانيا عن المقدم الأعظم، عندما صار تابعاً بولندياً، وأخذ مكانه بمثابة أمير تابع للامبراطورية، وعندما صار ألبرت أوف براندينبيرغ بروستنتياً، جرى انتخاب وولتر فون كرونبرغ Kronberg مقدم ألمانيا مقدماً أعظم للتنظيم، وصارت ميرنثيم

المقر، ووجهت الثورة الفرنسية الى فرسان التيوتون ضربة مميتة، حيث انتزعت منهم ممتلكاتهم على الراين ، وفي سنة ١٨٠٩، قمع التنظيم وألغي، ثم أعيد من قبل امبراطور النمسا في سنة ١٨٤٠، واستمر هذا التنظيم موجوداً حتى تفجر الحرب العالمية الأولى، بمشابة تنظيم فرساني نصف ديني، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً مع أسرة هابسبورغ، وكان الدوق الأعظم وليم هو المقدم الأعظم حتى سنة ١٨٩٤، عندما خلفه الدوق الأعظم يوجين، الذي كان معاونه، وجرى في ٤- كانون الثاني ١٩٢٦ انتخاب الموسنيور نوربيرت كلين مقدماً أعظم في مكان الدوق الأعظم يوجين الذي أقيل، وكان كلين أسقفاً معلماً للسليين، ومن قبل أسقفاً لبرن، والآن وقد تذكر فرسان التيوتون هدفهم الأساسي، كرسوا أنفسهم تماماً لأعمال الإحسان المرتبطة بالمشافي، وخاصة بأعمال الاسعاف في أوقات الحرب،

٥- تنظيم القديس توماس في عكا:

تأسس تنظيم القديس توماس أكون- حسبما يعرف بالعادة- في عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، وكان تنظيمًا انكليزياً محضاً، مثلما كان تنظيم فرسان التيوتون تنظيمًا ألمانيا، فقد قام واحد من الكهنة الانكليز واسمه وليم، وكان شماساً لدى رالف ديسيتو، الذي كان عميد كاتدرائية القديس بولص، تنفيذا لعهد قطعه على نفسه ببناء بيعة ومقبرة في عكا من أجل الصليبيين الانكليز الذين قتلوا أثناء حصار عكا، وكرسها على اسم القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري، وتعاونت معه مجموعة صغيرة من الرجال الانكليز، وشكلوا من أنفسهم تنظيمًا دينياً، صار وليم مقدمه، وكانت أهدافهم تأمين طقوس دفن مسيحيه للموتى من الصليبيين، والدفاع عن العقيدة المسيحية ، ولقى تأسيس التنظيم الجديد ترحيباً حاراً من قبل أسرة القديس توماس بكت ، وباتت أخته وختنه المؤسسين والممولين ، وصار مشفى القديس توماس أكون، المشفى الرئيس للتنظيم في انكلترا، وقد بني في لندن في موقع البيت التي كان

في آيونمنرلين luonmonger حيث كان رئيس الأساقفة الشهيد قد ولد، وكان هذا التنظيم دوماً صغيراً جداً، ولم يكن عدد الفرسان فيه كبيراً، ومن المؤكد أنه كان دوماً فقيراً، وقد امتلك هؤلاء الفرسان بعض الممتلكات في يوركشير، ومدلسكس، وسري، وايرلندا، وفي بعض البلدان الأجنبية، ونعلم هذا من أوصاف مقدمهم، الذي وصف على أنه «مقدم جميع فرسان القديس توماس الشهيد، في مملكة قبرص، وأبوليا، وصقلية، وكالبرا، وبروندوسيوم Brundusium، وانكلترا، وفلاندرز، وبرابانت، وسكوتلندا، وويلز، وايرلندا، وكورنول»، وقام في سنة ١٢٣١ بطرس دي روشي Roches، أسقف ونشستر، وكان وقتذاك في فلسطين، ببناء كنيسة جديدة للتنظيم، ووضعها تحت اشراف الداوية، وترك لها هبة قدرها خمسمائة مارك، أودعها في وصيته، وأسهم فرسان القديس توماس بدور فعال في الدفاع عن عكا، وإثرفقدان الأرض المقدسة، تمركزوا في نيقوسيا في قبرص، حيث عرفت كنيستهم باسم كنيسة «نيقولا الانكليزي»، وهي ما تزال قائمة، وتستخدم بمثابة مخزن للحبوب، ولا بد أن قمع الداوية والغاء تنظيمهم قد وجه ضربة قاصمة لتنظيم القديس توماس، وذلك للعلاقة الوثيقة لفرسان القديس توماس مع الداوية، ومنذ ذلك الحين صار بيتهم في لندن، أي مشفى القديس توماس أكون مشفى عادياً حسب أحكام القديس أوغسطين، وانتقل اثناء حقبة المواصلات الدينية الى أيدي شركة ميرسيرز Mercers وسمعنا أنه في سنة ١٣٥٧ أن رجلاً اسمه رتشارد أوف تكهل Tickhill قد قبل في تنظيم كنيسة القديس نيقولا الانكليزي، لكن لا بد أن التنظيم كان قد اختفى من الوجود قبل سنوات طوال، ولقد اتبع فرسان القديس توماس أحكام القديس أوغسطين، وارتدى أحدهم عباءة بيضاء عليها صلبان حمراء مزينة بما يشبه الصدف من الفضة، لتمييزها عن عباءة الداوية .

٦ - تنظيم الضريح المقدس:

لم يصبح هذا التنظيم تنظيمًا عسكرياً إلا بعد مدة طويلة من فقدان الأرض المقدسة، ثم إنه لم يحتفظ على رهبان عسكريين مثل الاستبارية والداوية، وكانت قوانين تنظيم الضريح المقدس قوانين أخوية تسير وفق أحكام القديس أوغسطين، وقد تأسس من قبل غودفري دي بوليون، وكان رئيس رهبان هذا التنظيم هو بطريرك القدس، الذي شاركوا معه وتقاسموا ممتلكات الضريح المقدس، وبسرعة أصبحوا واسععي الشعبية، فتلقوا هبات هامة من الأراضي والبيوت في كل بلد من بلدان أوروبا، لابل حتى أنهم حاصصوا الاستبارية والداوية في الأعطية الشهيرة لألفونسو صاحب أراغون، ودمج في سنة ١٤٥٩ البابا بيوس الثاني هذه الرهبانية مع رهبانية عسكرية جديدة حملت اسم «تنظيم سيدتنا لبيت لحم»، ودمجها في سنة ١٤٨٩ البابا انوسنت الثامن مع تنظيم القديس يوحنا، الذي ما يزال مقدموه يحملون حتى اليوم الحالي اللقب الإضافي التالي: «مقدم التنظيم العسكري لضريح ربنا المقدس»، لكن مع هذا قام البابا الاسكندر السادس، دونما نقض لأعمال الدمج المتقدمة، وبغية تشجيع الحجاج الى الأرض المقدسة، فنظم قوانين رهبانية الضريح المقدس، بحيث غدت رهبانية عسكرية، واحتفظ لنفسه ولخلفائه بمنصب المقدم الأعظم، وأوكل البابوات دوماً حق منح التنظيم الى «منظمة الفرنسييسكان لحماية الأرض المقدسة»، وهو حق جرى تحويله الى البطريرك اللاتيني، عندما قام البابا بيوس التاسع في سنة ١٨٤٧، بإعادة تأسيس بطركية القدس، وجرى الاعتراف رسمياً برهبانية تنظيم فرسان الضريح المقدس من قبل البابا بيوس التاسع في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٦٨، ومن قبل البابا بيوس العاشر في ٣ - أيار ١٩٠٧، على أساس أن البابا هو المقدم الأعلى، والبطريرك اللاتيني هو المقدم المساعد للمقدم الأعلى للأرض المقدسة، وكان الشعار هو صليب القدس الأحمر، مع

صلبان لاتينية متوضعة في الزوايا، وهو معلق بوساطة شريط أسود.

وينبغي عدم مزج هذا التنظيم مع التنظيم الفرنسي لإعمار الضريح المقدس، الذي تأسس من قبل لويس السابع في سنة ١١٤٩، وكان يحتوي على عشرين راهباً، وقد عهد إليهم القديس لويس التاسع في سنة ١٢٥٤ بأمور بيعة القديسين مع آثارها المقدسة، وقد أزيلوا من الوجود بوساطة الثورة الفرنسية، وأعاد لويس الثامن عشر تنظيم الضريح المقدس في فرنسا مع تنظيم الإعمار، ودمج التنظيمان فيما بات فعلياً تنظيمًا جديداً، لكنها قمعا معا وأزيلا في سنة ١٨٢٣ بفضل نشاط وفعالية تنظيم الفرنسيين.

٢- المجموعة الإيبيرية

١- فرسان أفيز Aviz

هو التنظيم البرتغالي للقديس بندكت أوف أفيز، تأسس بالأصل من قبل عصابة من المحاربين، الذين كرسوا أنفسهم في سنة ١١٤٧ لاتباع الملك ألفونسو الأول في حروبه ضد المسلمين، لكن دون أخذ أية تعهدات دينية، لكنهم تحولوا في سنة ١١٦٢ الى تنظيم ديني كامل، وقد اتبعوا الأحكام السسترشيانة، وقد عرفوا أولاً باسم فرسان يابرة Evora، ثم بعد ذلك باسم فرسان أفيز، نسبة الى حصنهم الذي قام على الحدود الاسلامية، وهو الذي اتخذ مقراً للتنظيم، ونقل فرسان قلعة رباح (كالاترافا Calatrava) في سنة ١٢١٢ ممتلكاتهم في البرتغال الى فرسان أفيز، على شرط أن يكون مقدمهم الزائر لدى التنظيم الأخير، لكن فرسان أفيز مالوا نحو عدم مراعاة هذا الشرط، مما نجم عنه خلاف حاد وطويل بين التنظيمين، وفقط وجد حلاً في القرن الخامس عشر، عندما قرر مجمع بازل Basle وجوب التزام فرسان أفيز باتفاقيتهما، وفي النهاية تولى البابوات حق تسمية المقدم الأعظم للتنظيم حتى سنة

١٥٤٠، عندما دمج البابا بولص الثالث المقدمة بالتاج البرتغالي، وفي سنة ١٧٨٩ صار التنظيم علمانياً، له سمة عسكرية فقط، ونظم في أربع طبقات، وشعار هذا التنظيم صليب أخضر ليلكي، معلق بوساطة شريط أخضر.

٢- فرسان (كالاترافا) قلعة رباح

قام الملك شانجة الثالث ملك كاستيلا في سنة ١١٥٨، بإهداء قلعة رباح وهي مدينة حدودية تقع الى الجنوب من طليطلة الى دير الرهبان السسترشيان في فيترو Fitero في نافار، وذلك بناء على اقتراح واحد من رهبانها، واسمه ديغو فيلازقويز Diego vela's guez على شرط أن يتولوا حمايتها، وجند راعي الدير ريموند عصابة من الفرسان لتتولى الدفاع عنها، وإثر موته التمسوا من البابا أن يعترف بهم بمثابة تنظيم ديني عسكري، وتمت الاستجابة لهذا الالتماس من قبل البابا الاسكندر الثالث في سنة ١١٦٤، واتبع فرسان قلعة رباح الأحكام السسترشيانة، وقد ارتدوا أردية بيضاء عليها صلبان حمراء، وبفضل أصلهم، كانوا عندما يزورون سيتيو Citeaux، لم يكونوا يعاملون مثل الغرباء الآخرين، بل كانوا يقبلون داخل الدير بمثابة أخوة من الرهبان السسترشيان، وعانى فرسان قلعة رباح من خسائر فادحة أثناء معركة الأرك في سنة ١١٩٥، التي حقق فيها الموحدون نصراً عظيماً، وبعد عامين، استولى الموحدون على قلعة رباح، حيث قاموا بقتل جميع أعضاء التنظيم الذين وجدوهم، وصارت قلعة شلبطرة (سالفاتيرا Salvatierra) مقراً للتنظيم، حتى أعيد الاستيلاء على قلعة رباح واستردت من الموحدين في ١٢١٢.

اندمج في سنة ١٢٢١، تنظيم مونتفراك Montfrac الصغير - وهو ماكان قد تبقى من التنظيم الديني العسكري للقديسة مريم لجبل البهجة - مع تنظيم قلعة رباح، وتولى عملية الدمج القديس فردناند

ملك كاستيلا، وكان التنظيم الأصيل قد تأسس بموجب مرسوم صدر عن البابا الاسكندر الثالث في ١٥ - أيار سنة ١١٨٠، وكان شعاره صليباً مؤلفاً من اللونين الأحمر والأبيض، وكان أول مقدم له كونت اسمه رودريو Rodriguez، وكان من قبل فارساً من فرسان سانتياغو Santiago، وقد اتبع الأحكام السسترشيانية، وامتلك التنظيم بيتاً مع كنيسة في القدس، وكان معهوداً إليه بالدفاع عن برج الفتيات مع ثلاثة أبراج أخرى في عسقلان، وكان قد وهب ممتلكات قيمة في اسبانيا، وذلك مع مركزه في الفمبرا Alfambra، وفي سنة ١١٩٨ سلمت الأراضي العائدة للتنظيم في أراغون الى الداوية، وجرى تأكيد هذا التسليم في مرسوم صدر عن البابا انوسنت الثالث في ٢٤ - تشرين أول ١١٩٨، وأصبح بعد هذا التاريخ فرسان هذا التنظيم في كاستيلا يعرفون باسم فرسان رهبانية مونتفراك.

وفي القرن الرابع عشر أصبح فرسان قلعة رباح متورطين في الحروب الأهلية لبلادهم، وكانت هناك خلافات حول انتخاب المقدمين، الذي كان له أثره الحاسم على سمعة تنظيمهم، ونالوا أثناء الحروب ضد المسلمين وكسبوا شهرة واسعة لأنفسهم، ومن أجل تجنب المؤامرات والخلافات أثناء انتخاب المقدمين أعطى البابا نفسه الحق في تسمية المقدمين الكبار، وفي سنة ١٤٨٩، استحوذ الملك فردناند الكاثوليكي على المقدمة لنفسه، التي منحت أخيراً للتاج الاسباني في سنة ١٥٢٣، وأعطى الفرسان حق الزواج في سنة ١٥٤٠، وصار التنظيم في سنة ١٨٠٨ تنظيمياً عسكرياً محضاً، وقد أعيد تنظيمه في سنة ١٨٧٤، وله طبقة واحدة، وشعاره صليب أخضر ليلكي، معلق بواسطة شريط أخضر.

٣- فرسان القديس جيمس أوف كومبو ستيلا Compostella

كان هذا الموقع واحداً من أهم المواقع التي قصدها الحجاج في العصور الوسطى، حيث كان مزار القديس جيمس أوف كومبو ستيلا في

غاليشيا Galicia، فهناك يفترض أن جسد الحواري القديس جيمس بن زبدي قد دفن، وكان الحج الى هذا المزار هاماً وشعبياً، وقد تفوق بأولويته على جميع المزارات الأخرى، باستثناء روما والقدس، وكان دوماً مفضلاً بشكل خاص من قبل الانكليز، وكانت الطرق في الأزمان المبكرة مليئة بقطاع الطرق، كما كانت عرضة للغارات من قبل المسلمين، ونتيجة لهذا قرر ثلاثون من الفرسان، الذين بلا شك قد تأثروا بالمثل الذي ضربه الداوية في الأرض المقدسة، أن يكرسوا أنفسهم للواجب المقدس القاضي بحماية الحجاج وهم على طريقهم الى كومبوستيلا، وشكلوا أنفسهم أخيراً في تنظيم ديني له أحكامه، وفي سنة ١١٧٥ (*)، تلقوا قانوناً وتنظيماً من البابا الاسكندر الثالث، وباتوا يعرفون باسم فرسان القديس جيمس أوف كومبوستيلا، أو فرسان السيف للقديس جيمس، لكنهم شهوروا أكثر باسمهم بالصياغة الاسبانية، وهو فرسان سانتاغيو، وحصل هذا التنظيم على احترام كبير خلال الحروب ضد المسلمين، وبات ثرياً الى ابعد الحدود، وأخذت أحكامه القديمة بالتغير لتلبية التبدلات التي تطلبتها الأيام، وتسلم الفرسان في سنة ١٣٩٦ الأذن بالزواج، وفي سنة ١٤٩٣، استحوذ الملك فردناند الكاثوليكي على المقدمة، وفي ١٥٢٢ منحت المقدمة بشكل دائم الى التاج الاسباني من قبل البابا أدريان السادس، وفي هذه الأيام يتألف التنظيم من ثلاث طبقات، وشعاره سيف له قراب ليلكي، هوسيف القديس جيمس، ويتدلى من شريط أحمر.

وتأسس فرع لهذا التنظيم في البرتغال في تاريخ مبكر، وكان الحديث يتناول بشكل عام تنظيم سيف القديس جيمس أكثر من كومبوستيلا، وجرى تحرير فرسان البرتغال من إشراف مقدم كومبوستيلا، من

*—تبعاً لإحدى الروايات أوجد الملك راميرو الثاني صاحب ليون تنظيم فرسان القديس جيمس أوف كومبوستيلا في القرن العاشر، تخليداً لذكرى انتصار له على المسلمين.

قبل البابا نيقولا الرابع، وكان ذلك في نهاية القرن الثالث عشر، وبات هؤلاء يقفون مستقلين عن سواهم، وتحول تنظيمهم الى الوضع العلماني سنة ١٧٨٩، وفي سنة ١٨٦٢ بات تنظيمهم بالعلوم، والآداب، والفنون، يتكون من خمس طبقات، وشعاره سيف له قراب ليلكي هو سيف القديس جيمس، ومزين بخيوط حمراء ومذهبة، ويتدلى من شريط أرجواني.

ويذكر أن التنظيمات البرتغالية الثلاثة: تنظيم البرج، وتنظيم سيف القديس بندكت أوف أفيز، وتنظيم سيف القديس جيمس قد منحوا شعاراً واحداً في سنة ١٧٨٩، حيث وحد فيما بين الصليبان الثلاثة المنفصلة عن بعضها في ميدالية ذهبية كبيرة، وصار الشريط أحمر وأخضر وأرجواني، ومن أجل فصل الصليبان أضيف قلب مقدس أحمر وصليب أبيض صغير.

٤ — فرسان القنطرة:

قام في سنة ١١٦٥ أخوان هما: دون سواريز Don Suarez، ودون غومس دي بارنتوس Gomez de Barrientos ببناء قلعة القديس يوليان ديل بيررو Pereyro على حدود ليون، لحماية المنطقة من غارات المسلمين، وشكلوا جماعة من الفرسان للدفاع عنها، وقد منحت هذه الجماعة نظاماً من قبل رئيس أساقفة سلامنكا Salamanca، وتأكد في سنة ١١٧٧ تشكيل الرهبانية بمرسوم صدر عن البابا الاسكندر الثالث، الذي وضعها تحت أحكام رهبانية القديس بندكت، ومنحها الإعفاء من سلطات الأساقفة وارتدى كل واحد من الفرسان رداءً أبيض مع صليب أخضر، واستولى في سنة ١٢٠٠ الملك ألفونسو التاسع، ملك ليون — المعروف بلقبه الكريه: Slobberer — على القنطرة القائمة على نهر تاجة، وانتزعها من المسلمين، ومنحها الى فرسان قلعة رباح، شريطة أن يجعلوها المركز الرئيسي لهم ولتنظيمهم في ليون، غير أن فرسان قلعة

رباح، وجدوها بعيدة جداً عن ديرهم، فتنزلوا عنها في سنة ١٢١٣ الى فرسان القديس يوليان ديل بيريرو، شريطة قيام التنظيمين بالاتحاد، ولم يكن الاتحاد بالفعل مؤثراً، وكل ما في الأمر أنه منذ هذا التاريخ بات فرسان القديس يوليان ديل بيريرو يعرفون باسم فرسان القنطرة ولقد بقيوا لبعض الوقت، والى حد ما خاضعين لفرسان قلعة رباح، لكنهم أكدوا في النهاية استقلالهم، وانتخبوا مقدماً خاصاً بهم، وأدى فرسان القنطرة واجبهم كاملاً في الحروب ضد المسلمين، وازدادت ثروتهم وتعاضم نفوذهم الى حد باتوا فيه ليسوا أقل قوة من الملك نفسه، غير أن تنظيمهم دخل في خلال القرن الرابع عشر حقبة من الانحدار، وشارك الفرسان في الحروب الأهلية لتلك الأيام، وكانت هناك خلافات مستمرة حول المقدمة، التي غالباً ما نجم عنها مؤامرات من قبل المقدمين المعارضين، ولا تتحدث أخبار التنظيم إلا عن النزاعات وسفك الدماء، وفي سنة ١٤٩٥ أضفي منصب المقدم الأعظم على التاج، من قبل الملك فردناند الكاثوليكي، وأكد هذه الترتيبات البابا الاسكندر السادس، وبات الاضفاء دائماً في سنة ١٥٢٣ بأمر من البابا أدريان السادس، وفي سنة ١٥٤٠ منح البابا بولص الثالث الفرسان أذناً بالزواج، مع أنه حرم الزواج الثاني، وتغيرت التعهدات الثلاثة: بالاحسان، والطاعة، والفقر الى :

Obedientia, Castitas con jugalis and conversio
morum

وعندما في سنة ١٨٠٨ صار جوزف بوناپرت ملكاً على اسبانيا، حرم التنظيم من موارده، وجزء فقط من الفرسان كانوا قادرين على التعافي عندما أعيد فردناند السابع الى عرشه في سنة ١٨١٤، وتوقف التنظيم عن كونه تنظيماً روحياً في سنة ١٨٣٥، والتنظيم الآن هو تنظيم عسكري مؤلف من طبقة واحدة، شعاره هو صليب أحمر ليلكي، يتدل من شريط

٥ - تنظيم المسيح:

انحدر تنظيم المسيح مباشرة من الداوية، ومن الممكن القول إنه تنظيم الداوية تحت اسم آخر، وعندما جرى قمع الداوية في سنة ١٣١٢، رفض الملك دنس ملك البرتغال بشكل صريح تصديق تهمة الارتداد التي اتهموا بها، كما رفض الانضمام الى أعمال تعذيبهم، ووضعهم تحت حمايته الملكية، لكن كان من غير الممكن بالنسبة للبابوية السماح بتحدي سلطاتها هكذا بشكل علني مكشوف، ولكي يواجه دنس هذه المشكلة توصل في سنة ١٣١٨ الى تسوية، بتأسيس تنظيم عسكري ديني جديد، أطلق عليه اسم تنظيم المسيح، والى هذا التنظيم نقل الداوية ومعهم ممتلكاتهم، وأكد البابا يوحنا الثاني والعشرين عملية التأسيس هذه للتنظيم الجديد، واحتفظ لنفسه بحق الانتساب إليه، وحول إليه الفرسان الداوية الذين وجدوا ضمن ممتلكاته والذين كانوا ذوي أخلاق حميدة وسمعة جيدة، وتآلف هذا التنظيم من طبقة واحدة، وكان شعاره صليب أحمر طويل مع نهايات مسطحة طويلة تحمل صليباً صغيراً لونه أبيض، وهو معلق بوساطة شريط أحمر.

وأصبح تنظيم المسيح في البرتغال تنظيماً وطنياً مستقلاً، وكان ذلك سنة ١٥٢٢، وتميز تماماً عن التنظيم البابوي، وأضيف في سنة ١٥٤٠ منصب المقدم الأعلى على التاج البرتغالي، وتوقف في سنة ١٧٨٩ عن كونه تنظيماً روحياً، وبات علمانياً تماماً، مع استثناء واحد، هو وجوب انتماء أعضائه الى عقيدة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وقد جرى تنظيمه في طبقات ثلاث، ويمتلك الآن شعاراً يختلف عن شعار التنظيم البابوي، وهذا الشعار هو صليب أزرق مطرز فوق إكليل من الغار الأخضر، وتحتوي الميدالية البيضاء القائمة في الوسط على الصليب الأبيض والأحمر القديم، لكن الشكل البابوي القديم يرتدى مع ياقة من قبل الصلبان الأعظم للتنظيم.

٦ - تنظيم سيدتنا أوف مونتيزا : Monteza :

انحدر تنظيم مونتيزا مباشرة من الداوية، حسب الطريقة نفسها التي انحدر فيها تنظيم المسيح، فقد حذا الملك جيمس الثاني، ملك أراغون، حذو الملك دنس، ملك البرتغال، فأوجد في ٢٢ - تموز ١٣١٩ تنظيمًا دينيًا عسكريًا جديدًا، دعاه باسم تنظيم سيدتنا أوف مونتيزا، وإلى هذا التنظيم حول الداوية مع ممتلكاتهم في بلنسية، وكان مقر التنظيم الجديد في مونتيزا، ومثله مثل الداوية تبع أحكام رهبانية القديس بندكت، وتبنى ارتداء العباءة البيضاء والصليب الأحمر الساذج، العائد لأسلافه واستوعب في داخله في سنة ١٣٩٩ التنظيم الديني العسكري الأقدم منه، المعروف باسم تنظيم القديس جورج أوف ألفاما Alfama، الذي كان قد تأسس سنة ١٢٠١ من قبل الملك بطرس الثاني، ملك أراغون، وكان فرسان مونتيزا آخر فرسان التنظيمات العسكرية الإسبانية الذين فقدوا استقلالهم، وقد منح هؤلاء الفرسان الأذن بالزواج في سنة ١٥٧٢، وفي سنة ١٥٨٧ أضيفت المقدمة على التاج الإسباني، وكان شريط التنظيم أحمر قانيء.

الملحق ب تاريخ وفيات المقدمين

(ملاحظة — إن هذا التاريخ هو إطرء رسمي لمقدمي الاستبارية، وهو موجود على رأس معظم المخطوطات القديمة حول أنظمة وأحكام الاستبارية، ولعله صنف فيما بين ١٣٥٣ و ١٣٥٥، وذلك لأنه اختتم بهذه الكلمات: «بعد مقدمة بطرس كورنيلين Cornelian» وهو لم يعط تفاصيل حوله، وتم التقليل أحياناً من قيمة هذا السجل الذي هو الرواية المدونة الأقدم حول الاستبارية، بسبب أخطاء النسخ، الذي شوش تسلسل الأسماء، وعزا إلى بعض المقدمين أوصافاً، من الواضح أنها عائدة إلى آخرين، غير أن الأخطاء بشكل عام هي بديهية، ومن السهل تقويمها بدون جهد كبير؛ وقد نشر هذا التاريخ باللاتينية في:

Dygdale's Monasticon, Vol VI, part 2 pp 796 —
797

— كان المقدم الأول هو جيرارد، الذي كان رئيس مشفى الفقراء في القدس، وقد كان موجوداً هناك عندما استولى غودفري دي بوليون مع الحجاج المسيحيين الآخرين على المدينة.

٢ — وكان بعده ريموند دوبوي، الذي كان الراهب الأول في المشفى، وهو الذي نظم الأحكام وأسسها وذلك مع الأنظمة، وجعلهم يتأكدون بوساطة البابايوجين (الثالث، ١١٤٥ — ١١٥٣)، وقد فقدوا في القدس.

٣ — وكان المقدم من بعده يوغردي بالن Auger de Ballen، وكان رجلاً يفيض بالتقوى، وعظيم الاستقامة.

٤- وكان المقدم من بعده أرنولد دي كومب Arnold de Comps، وكان رجلاً عالي المقاصد، وفي ظله إزادات الرهبانية في كل من عدد الرهبان وفي حجم الممتلكات، وقد صنع تنظيمات جيدة، الخ..

٥- وكان من بعده غلبرت أسيلي Gilbert Assilli هو المقدم، وكان رجلاً متقدماً جداً بالسن، وحصل خلال الوقت القصير الذي عاشه على كثير من المنافع للرهبانية، وخدم ساداتنا المرضى بلطف عظيم (١).

٦- وكان المقدم من بعده هو كاست Caste، وكان رجلاً مليئاً بالفضائل ذات العمق الانساني، ونافعاً جداً، ولطيفاً في قلبه، وبفضل معاملاته المستقيمة، وسمعته الطيبة، جلب منافع عظيمة لرهبانيتنا في جميع أنحاء العالم.

٧- وكان جوبيرت Jobert، هو المقدم من بعده، وقد وضع أحكاماً جيدة من أجل خدمة (الرب والكنيسة، ومن أجل خدمة مرضى بلادنا).

٨- وكان من بعده غيوفري دي دنسون (٢) Dinson، هو المقدم وهو الذي استولى على الحصن (حصن الأكراد) والمرقب، وكان رجلاً جيداً، وتقياً، وصاحب تفكير رفيع، وقد أحب أخوانه كثيراً، وكذلك ساداتنا المرضى.

١- من الواضح أن الوصف الذي أعطي لغلبرت دي أسيلي، يعود إلى سلفه أرنولد دي كومب، بسبب الإشارة إلى سنه المتقدم، وإلى قصر مدة حكمه، وبناء عليه إن الوصف الذي أعطي لأرنولد دي كومب يعود تماماً إلى غلبرت دي أسيلي.

٢- ينبغي قراءة الاسم: روجر دي مولين، الذي تنطبق عليه الأوصاف، فهو الذي امتلك المرقب في سنة ١١٨٦، لكن ليس بالقوة، بيد أن حصن الأكراد كان متمكناً قبله بزمان طويل، ومن الواضح أن الوصف الذي سيرد في الفقرة العاشرة بعد الحديث عن آرمنغود داب هو جزء من الفقرة الثامنة، خرج من مكانه الصحيح بطريقة ما، لأن البابا لوشيوس الثالث كان في السلطة من ١١٨١ حتى ١١٨٥.

٩- وكان من بعده آرمغود داب Armengaud Daps ، هو المقدم، ولقد عذب كثيراً من قبل أعداء الإيوان (١)، وفقد المسيحيون في أيامه القدس، وقد عاش أمداً قصيراً بعد ذلك.

١٠- وكان من بعده روجر دي مولين Molins ، هو المقدم، وهو الذي حصل على تثبيت للأحكام من البابا لوشيوس، وأرسى قواعد الأنظمة الجيدة.

١١- وكان من بعده غارنيير دي نابلس Garnier de Nablus، هو المقدم، وقد أظهر شجاعة كبيرة في أعمال القتال ضد أعداء الإيوان (٢)، وحافظ بنشاط على المنح المعطاة للرهبانية، وحكم الرهبان وقادهم بإباء.

١٢- وكان من بعده ألفونسو البرتغالي هو المقدم، وفي أيامه تم ترسيخ العادات الجيدة التي كان قد وضعها المقدم روجر وتأكيدا في المرقب، وقد عمل نظماً جيدة، وحدث أنه أصدر بعض الأوامر إلى رهبانيته، ولأن الرهبانية لم تطعه، استقال من منصبه، ورمى بخاتمه، فتناول الخاتم أعيان الفرسان، وقاموا بانتخاب مقدم آخر، ثم إنه انطلق عائداً إلى البرتغال، وقد سقي السم من قبل أبناء جلدته، الخ ...

١٣- وكان من بعده غيوفري لى رات هو المقدم، وقد كان رجلاً مستقيماً جداً، وقد انزعج كثيراً بسبب استقالة المقدم ألفونسو، لأنه كان

١- يفترض أن هذا يعني أنه كان في وقت من الأوقات أسير حرب لدى المسلمين، ما لم تكن الإشارة هنا إلى أنه أرغم على الاستقالة من منصبه كمقدم.

٢- لعله ينبغي علينا أن نقحم الكلمات التالية من الفقرة الثامنة: «وكان من بعده غيوفري دي دنسون، هو المقدم»، ومن ثم فإن الجملة التالية تكون مرتبطة به، وذلك أنه من الصعب ربطها بغارنيير دي نابلس، الذي انحصرت مقدميته بالأعمال العسكرية فقط، وهي الأعمال المتعلقة بالحملة الصليبية الثالثة.

يقدره كثيراً بسبب أخلاقه الحميدة، وفي هذه الآونة قدمت أعطيات كثيرة لرهبانيتنا في مملكة فرنسا.

١٤ — وكان من بعده غارن دي مونتاغيو Garinde Montagu ، هو المقدم، وكان في شخصه قوياً ونشطاً وحامياً متيقظاً لممتلكات الرهبنة، وقد عاش لمدة قصيرة فقط (١).

١٥ — وكان من بعده برتراند دي جكسي Gexi ، (اقرأ تكسي) هو المقدم، وكان صاحب سمعة مستقيمة جداً، وتقياً، وخلوقاً، ولقد زاد ذلك كثيراً، وقدم للرهبانية في سورية كثيراً من الممتلكات، وكان غيوراً جداً في تأدية واجباته نحو ساداتنا المرضى.

١٦ — وكان من بعده غورين Guerin ، هو المقدم، وقد كان اقتصادياً مدبراً إلى أبعد الحدود، ومتواضعاً لايحج الأبهة والتفاخر، وجمع أموالاً كثيرة، لأنه حافظ على السلم مع أعدائه.

١٧ — وكان من بعده بيرتراند دي كون cons ، هو المقدم، وقد تمكن باستقامته وتصريفه الأمور بحكمة من إعادة اخضاع كثير من المناطق الاسلامية ووضعها تحت سيطرة الرهبانية، واستطاع بفضل ثروته العظيمة إعادة كثيرة من الامتيازات لصالح الرهبنة وزيادتها، وقام بكثير من التنازلات لصالح أخوانه الرهبان الفرسان، وأعلى شأنهم داخل الرهبنة، وزاد من مكانتهم، وجعلهم أعلى من بقية أنواع الفرسان، وذلك أكثر مما فعله أي مقدم آخر.

١٨ — وكان من بعده بطرس دي فيلا بريدا Villa Brida هو المقدم، وقد مارس نفوذاً عظيماً باستقامته، وبأخلاقه الحميدة، وحافظ على

١ — الوصف الذي أعطي هنا إلى غارن دي مونتاغيو، واضح تمام الوضوح أنه يعود إلى سلفه غيوفري لى رات، بسبب الحديث عن أن حكمه كان قصيراً، وعلى هذا إن الوصف الذي أعطي إلى غيوفري لى رات، أحق أن يعطى إلى غارن دي مونتاغيو.

النظام بكل دقة، وجرى نتيجة لجهوده تأسيس ثلاثة فروع للرهبنة والحصول على كثير من الممتلكات.

١٩ — وكان من بعده وليم دي كاستلو نوفو *Castello Novo* ، هو المقدم، وكان نموذجاً بالاستقامة الخلقية، وقام بأعمال شجاعة كثيرة، وفي أيامه استأنف الاستبارية التوازن بالحقوق مع الداوية، الأمر الذي اشتراه فيما بعد من مقدم الداوية، الذي كان أخاه، مقابل ثمن حصان، الخ.. (١)

٢٠ — وكان من بعده هيوغ دي رايفل *Ryvell* ، هو المقدم، وكان رجلاً مدهشاً بالنسبة لصحة أحكامه ولطاقاته، وقد أرسى شؤون الرهبنة على قواعد صحيحة، لأن المقدمين الآخرين أسلافه لم يقوموا بالاصلاحات، بل حافظوا على العادات الجيدة للرهبنة، غير أنه رسخ كل شيء من جديد، ليس فقط بتنسيق أحكام الآخرين، بل بوضع أحكام جديدة ومفيدة هو أبدعها.

٢١ — وكان من بعده نيقولا دي لورن *Lorn* هو المقدم، وفي أيامه جرى استخدام الترسه الحمراء مع صليب أبيض، وتقرر أن يرتدي الرهبان أردية سوداء، كما جرى اعتماد خاتم الرهبنة، وذلك بالإضافة إلى كثير من الأحكام الجيدة التي عادت بالنفع على الرهبنة. (٢)

٢٢ — وكان من بعده أودو *Odo* ، هو المقدم و و

١ — من الواضح أن الحادث الأخير يعود إلى ولاية غارين دي مونتاغيو، الذي كان أخوه الأصغر بطرس دي مونتاغيو هو مقدم الداوية، وذلك من سنة ١٢١٨ حتى سنة ١٢٣٣.

٢ — كان ينبغي أن يتبع هذا ذكر اسم جون دي فيلير *Villirs*، وهو الذي في أيامه فقدت عكا، لكنه حذف.

الملحق ج

أختام المقدمين وأعيان الرهينة

جرى خلال القرنين اللذين أقام فيهما الاستبارية في الأرض المقدسة استخدام ثلاثة أختام من قبل مقدمي الاستبارية:

١- الختم الكبير للمقدم، أو Leaden bulla (ختم الرصاص)

٢- الختم الخاص بالمقدم، أو Seal in wax (ختم الشمع)

٣- الختم الكبير للرهينة، أو Leaden bulla (ختم الرصاص)

وفي استخدام مقدم الاستبارية للختم المعدني، كان يقلد البابوات ويجذو حذوهم، وأيضاً أباطرة الشرق، وبعض البطارقة الشرقيين، ولا يشمل اصطلاح ختم الطبعة فقط بل الوثيقة التي أثبت عليها.

١- الختم الكبير للمقدم

صنع هذا الختم من الرصاص، ومساحته أنش ونصف الأنش، وله وجهين، ويربط بالوثائق بشريط أو بخيط يمر خلالها، ولا بد أنه كان بالاستخدام منذ أول تأسيس الرهينة، وأقدم ختم معروف بالوجود هو ختم المقدم كاست مورول Caste de murols (١١٧٠-١١٧٢) وهو على الشكل التالي:

الوجه: مقدم الاستبارية متوجه نحو اليمين، ويداه متشابكتان وهو يصلي، حيث جثا على ركبتيه أمام صليب بطريركي، على كل طرف من طرفيه الحرفين: AW، والجميع محاط بدائرتين خطاهما عبارة عن حبيبات، وقد نقش بينهما: (كاست) CASTVS : CVSTOS +

الظهر: هناك أمام خيمة للعهد جسد ممدد على محفة، والرأس متجه الى

اليمين، ويوجد صليب عند رأسه وعند قدميه، وفوقه قبة تغطيه مع ثلاث قباب صغيرة، ويتدلى من القبة مصباح، والجميع محاط بدائرتين خطاهما عبارة من حبيبات، وقد نقش بينهما:

+ استبارية • القدس

ولقد بقي هذا التصميم للختم بدون تغيير تقريباً حتى ما بعد وفاة المقدم غارين دي مونتاغيو (١٢٠٧-١٢٢٨)، لكن واحداً من خلفائه عدل تصميم الوجه بجعل مقدم الاستبارية يتجه نحو اليسار بدلاً من اليمين، مضيفاً إلى ما نقش كلمة «أخ» وواضحاً تحت الصليب البطريركي جهمجة آدم، فهكذا وصلنا تصميم ختم المقدم نيقولا دي لورن (١٢٧٧ - ١٢٨٥)، لكن من غير المؤكد أهو الذي غير التصميم أو مقدم آخر تقدم عليه، وذلك بسبب فقدان كثير من الأختام.

وبالنسبة للتعديلات التالية في تصاميم هذه الأختام فإنها تعود إلى حقبة متأخرة، عندما صار فرسان الاستبارية فرسان رودس.

٢ - الختم الخاص بالمقدم

دعي هذا الختم بالعادة باسم الختم بوساطة الشمع، ولقد ورد ذكره للمرة الأولى في أحكام المقدم ألفونسو البرتغالي (١٢٠٣ - ١٢٠٦)، ووصلتنا نماذج فريدة منه تعود إلى المقدمين غارين دي مونتاغيو، وهيوج رايفل (١٢٥٨ - ١٢٧٧)، والختم على شمع أسود، ومساحته إنش وربع الإنش، وبما أنه مثبت على وثائق بطريقة عادية، فله وجه واحد، وقد تطور في النهاية وفي تاريخ متأخر إلى ختم على الورق، وجاء تصميم أقدم الأختام التي وصلتنا، وهو العائد إلى غارين دي مونتاغيو كما يلي:

الوسط الأعلى لمقدم الاستبارية مع الوجه الكامل، وهناك صليب على الجانب اليساري من ثوبه، والجميع محاط بخطين دائريين من

الحبيبات ، نقش بينهما:

Gvarinvs (غارين) Cvstos

ونقش على الختم المشابه له والعائد الى هيوج رايفل ما يلي :

Gvarinvs (الأخ هيوج) Hvgo : Frater+

وهناك تنوع في عرض المقدم.

وتبعاً لأحكام ألفونسو البرتغالي ، كان بإمكان القائد الأعلى استخدام ختم المقدم على الشمع في أي مكان ، حيث يحدث أن يكون المقدم غير موجود فيه، أي أن تقول أنه كان يقوم مقام المقدم، هذا وكان بإمكان المتسلم للخزينة أن يقوم بختم الوثائق باسم المقدم، وذلك بختمه على الشمع.

ولا شك أنه جرى بعد هذا تبني ختم أقل أهمية ، وحصر استخدام «الختم الكبير للمقدم» في عمليات نقل الملكيات ، والتعليمات القانونية، ووثائق الدولة الهامة، في حين جرى استخدام الختم الصغير في المراسلات ، والمسائل العادية لأعمال الادارة اليومية،

٣- الختم الكبير للرهبنة

ان الحديث بشكل عام عن « الختم الكبير للرهبنة» هو حديث عن ختم مقدم الرهبنة ، الذي يعني المقدم في الاجتماع والتداول، وقد أوجد هذا الختم المقدم نيقولا دي لورين في سنة ١٢٧٨، وكان مصنوعاً من الرصاص مثل الختم الكبير للمقدم ، وبالحجم نفسه، وكان له أيضاً وجهين، ويثبت على الوثائق بالطريقة نفسها ، وبما أن هذا الختم لا يذكر اسم المقدم ، لم يكن من الضروري تبديله لدى موته، وأقدم تصاميحه هي كما يلي:

الوجه: المقدم وستة من أعيان الرهينة متوجهين نحو اليسار ، وأيديهم متشابكة في الصلاة، وهم جاثين أمام صليب بطريركي، على كل طرف من طرفيه الحرفين A W ، وتحتة جمجمة آدم ، والجميع محاط بدائرتين من الحبيبات، نقش بينهما العبارة التالية:

+ ختم المقدم والرهينة

الظهر : التصميم والكتابة هما متطابقان مع ما جاء على ظهر الختم الكبير للمقدم. وأعيان الرهينة الستة الممثلين على هذا الختم هم : راعي الدير، والقائد الأعلى، والمارشال ، واستتاري ، ومسؤول عن الأكسية، ومسؤول عن الخزينة، وذكر ديلا فيل لى رول

Dela Vill leRoulx أن عدد الأشخاص الممثلين على الوجه قد ازداد في أوقات متأخرة مع ازدياد عدد أعيان الرهينة، ولحق تصميم الختم القليل من التغيير وهو ما زال قيد الاستعمال حتى هذا اليوم.

وذكرت أحكام نيقولا دي لورن أن الختم الكبير للرهينة كان لا يستخدم إلا على الوثائق المتعلقة بالمنح، والبيع، ونقل عمليات الممتلكات، التي تكون لها فعالية مع موافقة المقدم والرهينة ، وعلى وثائق الإرغام والمصادرة ، والشراء، التي تتطلب السلطات نفسها، لكن بالنسبة للقضايا الأخرى فإن ختمي المقدم يكونا كافيين ، سواء الختم المصنوع من الرصاص أو المختوم على الشمع.

وفيما يتعلق بأختام أعيان الاستتارية فقد أعطيت في الوثيقة التالية ، التي ربما أعدت في منتصف القرن الثالث عشر، بحكم أنها تتضمن ذكر قسطلان (شحنة) المرقب وقسطلان حصن الأكراد ، ولم تأت على ذكر ختم الرهينة ، وتضمنها لذكر رعاة ديرة كاتا لونيا، الذين أقيموا وأعترف بهم في حوالي ١٣١٩، لابد أنه جاء بمثابة إضافة متأخرة.

ما يتعلق بالأختام التي استخدمت من قبل مقدم الاستبارة والآعيان الآخرين

١- في المقام الأول أختام المقدم مع ختمين أولهما من الرصاص، والآخر على الشمع، وعلى الذي هو من الرصاص: من الجانب الأول المقدم وهو جاث أمام الصليب ، وعلى الجانب الآخر جسد انسان ميت أمام خيمة للعهد، وعلى الختم الآخر طبع على شمع أسود نصف انسان.

٢- ثم أختام القائد الأعلى، أي أختام قائد ما وراء البحار مع ختم ، مثل ختم المقدم على الشمع.

٣- القائد الأعلى على الجانب من هذا البحر مع ختم على شمع أخضر مع طائر الغريفن .

٤- ختم المارشال على شمع أخضر مع فارس شاكي السلاح ومعه علم بيده.

٥- الاستبارة مع ختم على شمع أسود مع فراش عليه رجل مريض ، ومع راهب يقدم له الطعام.

٦- أختام قائد قبرص، مع ختم عليه قارب بدون سارية وبدون أشعة.

٧- أختام قائد أرمينية، مع نصف أسد.

٨- أختام قسطلان (شحنة) المرقب، مع علم ملكي .

٩- قسطلان الحصن مع قلعة.

١٠- ختم كل من صاحب الكسوة والخازن، مع أختامهما.

- ١١- راعي دير القديس جايل (صنجيل) مع واحد على الشمع الأسود مع حمل الرب.
- ١٢- الراهب الأول لفرنسا مع ختم على الشمع الأخضر مع نسر بين زهرتي زنبق .
- ١٣- أختام القائد الأعلى لألمانيا مع ختم على شمع أخضر عليه القديس يوحنا المعمدان .
- ١٤- أختام قائد اسبانيا مع ختم عليه نسر ليختم على شمع أخضر.
- ١٥- قسطلان أمبوستا Amposta، مع ختم يُختم على شمع أخضر عليه قلعة .
- ١٦- أختام الراهب الأول لنافار مع ختمه.
- ١٧- الراهب الأول لكاستيل مع قلعة على شمع أسود
- ١٨- الراهب الأول لكاتوليا (أي كاتالونيا) (١) مع ختم يُختم على شمع أخضر، ونصف ختم ملك أراغون، والنصف الآخر هو صليب.

(١) تبعاً لديلافيل لي رول ، لم يكن مقام الراهب الأول لكاتالونيا قد أوجد حتى سنة ١٣١٩ انظر «الاستراتيجية في الأرض المقدسة ص : ٣٧٩ ، ٣٨١» .

الملحق د

حول رنوك المقدمين

بدأ اتخاذ الرنوك واستخدام بشكل عام في أوروبا الغربية خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وبينما كان اعتماد هذه العادة متأرجحاً، سبب تجمع الفرسان من كل أمة تحت رايات الحملة الصليبية الثالثة، تبلوراً مفاجئاً، وصار الأمر رائجاً بين جميع الارستقراطية العسكرية لأوروبا، ومع سنة ١٢٠٠ بدأ علم الرنوك تترسخ قواعده في كل مكان، وبعد مضي قرن قادت أحكامه المعقدة وأشكاله المتباينة نحو الاستخدام العام، وبدأت عادات الأحجام والأماكن والاستخدامات ونماذج التباين والترتب بالظهور، وظلت أحكام ونظم الرنوك منذ ذلك الوقت حتى اليوم الحالي بدون تغيير فعلي.

وأول اشارة محددة تتعلق بوضع الرنوك على أسلحة فرسان الاستتارية، قد وردت في مرسوم صدر عن البابا الاسكندر الرابع في عام ١٢٥٩، حيث ورد فيه أن راية الرهينة كانت في ذلك الوقت كما هي اليوم الحالي « صليب أبيض - فضي مصبوغ بالأحمر » وليس لدينا من دليل يظهر لنا التاريخ الذي تم فيه تبني هذه الراية، ولا بد بشكل مؤكد أنها استخدمت من قبل الاستتارية أثناء الحملة الصليبية الثالثة، لابل في وقت أبكر، وفي ظل مرسوم ١٢٥٩ جرى تحويل الفرسان بارتداء هذه الشعارات، وفي أيام ولاية المقدم نيقولا لورن (١٢٧٧ - ١٢٨٥) جرى تبني طلاء الشعارات على الترس.

وفي حوالي الوقت، الذي صدر فيه مرسوم البابا الاسكندر الرابع، جرى تنفيذ نظام المقدم هيوج رايفل، وهو الذي أوجب على فرسان الاستتارية تقديم بينه أصيلة على حقهم في حمل الشعارات، ولا بد أنه

توفر لدى الرهينة في مقرها سجل بشعارات الأسلحة التي حملها الفرسان، ونمتلك في هذه الأيام قائمة بالشعارات التي حملها جميع مقدمي الاسبتارية منذ وقت التأسيس من قبل جيرارد المبارك ، ومن المحتمل أن هذه القائمة قد صنفت عندما كان دير الرهينة ما يزال في عكا ، ومن المنطقي الافتراض أنه عندما بدأت الرهينة بالاهتمام بمسألة الشعارات لدى رهبانها العسكريين، أن تجري محاولة بشكل طبيعي لتدوين سجل بأسماء مقدمي الرهينة ، وبما أنه لم يكن قد مضى على الاستخدام العام للشعارات إلا حوالي نصف قرن ، لم تكن هناك صعوبة حقيقية في تصنيف قائمة أصيلة يمكن الاعتماد عليها ، وأن تشكل هذه القائمة قاعدة للقوائم التالية، وبناء عليه نمتلك التسويغ في افتراض أن شعارات المقدمين منذ أيام غارن دي مونتاغيو ، لا بل ربما أقدم من ذلك ، أي من أيام غارنيير دي نابلس كانت هي كما رسمت لنا ووصفت ، لكن بالنسبة لشعارات المقدمين الأقدمين لم تكن موجودة أبداً ، لسبب بسيط هو أن حمل الرنوك لم يكن موجوداً في ذلك التاريخ المبكر، وبناء عليه إن هذه الشعارات مفيدة فقط، على أنها شعارات الأسر ، التي اعتقد المصنف أن المقدمين أصحاب الشأن قد انضموا إليها ، وإلى هذا الحد هي بلا شك لها بعض القيمة، التي لا يجوز تجاهلها ، ومع هذا ان بعضها افتراضي تماماً ، اخترعت فيما بعد بقصد ملي الفراغات في القائمة، أو لربما بقصد تمجيد بعض الأسر بشكل محدد، ومثال على هذا عندما عزي شعار القديس ديدير Didier إلى جيرارد الملك ، أو شعارات دي سلي De sulle عندما عزيت إلى غلبرت دي اسيلي .

وبعد فقدان الأرض المقدسة بوقت طويل نمت بعض العادات التي كانت تتعلق بالرنوك بين فرسان الاسبتارية، وهي معروفة بالنسبة للذين لديهم معرفة بالرنوك والشعارات ، لأنها ما زالت مستخدمة حتى هذا

اليوم ، كما بات من المعتاد عليه بالنسبة لمقدمي الاسبتارية أن يضعوا شعاراتهم الشخصية الى جانب شعارات الرهبنة وكذلك الرنوك أو الصלבان الكبيرة، حتى يُحمل فوق شعاراتهم الشخصية الشعارات الرئيسية للرهبنة، ولعل العادة الأولى درجت وجرى استخدامها خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر، أما العادة الأخيرة فقد استخدمت في أوائل القرن الخامس عشر، ثم تطور الأمر، فبعد فقدان رودس صار من المعتاد بالنسبة للفرسان عرض شعاراتهم بوضعها فوق الصليب ذي النقاط الثمانية العائد لرهبتهم .

وكانت رنوك مقدمي الاسبتارية في الأرض المقدسة كما يلي :

١ — جيرارد المبارك — «لازاورد، وأسد واقف ، وأبيض — فضي»، هذه هي الشعارات العائدة الى اسرة القديس ديدير أوف لاندوك Lan-guedoc ، وهي الأسرة التي ادعي بأن جيرارد كان مرتبطاً بها ، وقد حملت الأسرة فيما بعد هذه الشعارات في :

bordure gules besantee

٢ — ريموند دي بوي المبارك — « ذهب وأسد أحمر واقف ، ولازاورد فرنسي وسلاح» وكانت هذه شعارات أسرة ريموند دو بوي — مونتبرون Montbrun أوف دوفين Dauphine ، التي من المفترض أن أسرة ريموند دو بوي قد انتمت إليها بالعادة.

٣ — يوغر دي بالن — «أرضية سواداء، بين خطين متماوجين لونها أحمر، وثلاثة حمامات فضية»، وعادت هذه الشعارات إلى أسرة بالين أوف دوفين.

٤ — آرنولد دي كومب — «فضي، ونسر فارد جناحيه، وواقف وأحمر وأسود» لقد كانت هذه بلاشك شعارات أسرة دي كومب أوف دوفين وبروفانس، وانظر برتراند دي كومب.

٥ — غلبرت دي أسيلي — «لازورد، ونجوم صغيرة، وأبيض — فضي، وفوق ذلك كله أسد واقف، وذهب»، وهذه الشعارات متطابقة إلى أبعد الحدود مع شعارات أسرة دي سيلي Sully، باستثناء أن النجوم هي خماسية.

٦ — كاست دي مورل — «أحمر، وصليب مدبب، وفراء»، ويستنتج من اسم الأسرة أنها جاءت من أوفرين.

٧ — جوبرت — «ذهب على صليب فرائي، وخمس صدقات، وأبيض — فضي» وهذه كانت شعارات أمراء دي بارولت Barrault، وهم فرع من أسرة دي جوبرت.

٨ — روجر دي مولين — «أبيض — فضي على صليب فرائي معكوف الأطراف، وصدفة ذهبية»، وباستثناء الصدفة، هذه هي شعارات أسرة دي مولين في نورماندي المنخفضة التي زالت مع نهاية القرن الثالث عشر.

٩ — آرمغود داب — «أبيض فضي، وبرج لازوردي، وحجارة فرائية»، وتعود هذه الشعارات إلى أسرة داب أوف بيرن Bearn.

١٠ — غارنيير دي نابلس — «فراء، وصليب هائل، وفضي — أبيض»، وكان الفرع السوري من أسرة دي ميللي Milly الفلمنكية، قد اتخذ اسم دي نابلس، ومن المفيد أن نلاحظ أن شعارات دي ميللي حوت المكونات نفسها لشعارات دي نابلس، أي «فراء، وبشكل رئيسي فضي — أبيض».

١١ — غيوفري دي دنجون — «أحمر، وسهم فضي — أبيض» ويقول بعضهم «لازورد وسهم داكن»، ويبدو أنه فعليا حمل هذه الشعارات، وإلا عندما جرت محاولة لتمجيد أسرة دي دوسون Duisson ورفع شأنها، باعطائه ذلك الاسم، فإن شعاراتها التي تختلف تمام الاختلاف

كانت بلاشك ستنسب إليه.

٢- ألفونسو البرتغالي - «أبيض - فضي، وخمسة ترسة تعطي شكل صليب، ولازورد، في كل واحد من الترسه خمس قطع نقدية (بيزنت) موزعة ولها في وسطها فراء، والجميع داخل ترس أحمر، تحيط به سبع قلاع، وذهب»، ولاشك أن هذه الشعارات لم تحمل من قبله، لأنها شعارات البرتغال التي تعود إلى تاريخ متأخر، ولعله حملهم من دون إطار القلاع.

١٣- غيوفري لى رات - «لازورد، وحصان مجنح واقف، وأبيض - فضي»، ومن المفترض أن هذه شعارات أسرة لى رات أوف تورين.

١٤- غارن دي مونتاغيو - «أحمر، وبرج مؤلف من ثلاث طبقات، وأبيض - فضي، وحجارة فرائية»، وكانت هذه شعارات أسرة دي مونتاغيو - شامبي Champeix، وهي تتباين بشكل واضح بالنسبة لمختلف فروع تلك الأسرة.

١٥- برتراندي ثيسي - «ذهب ومستطيل معدني في الوسط، وأحمر»، فهذه الشعارات تعطي ببساطتها المتناهية الانطباع بأنها كانت أصيلة.

١٦- غورين - «فضي - أبيض ونسر برأسين باسط جناحيه، وفراء»، ونحن لانعرف شيئاً عن أسرته، لابل أكثر من هذا، لانعرف حتى لقبه.

١٧- برتراند دي كوم - «أحمر، ونسر باسط جناحيه، وشطرنجي، وفضي - أبيض، وفراء»، لاشك أن هذه شعارات قديمة لأسرة دي كوم أوف دوفين وبروفانس، مع أن لى شيني - دسبويس Lachenaye- Desbois قال بأن النسر: «شطرنجي أو وفراء»، وعرض كتاب آخرون شعارات مختلفة.

١٨- بطرس دي فيلا بريد- «شطرنجي وفضي- أبيض، وأحمر، وفراء أبيض رئيسي»، وليس هناك من سبب للافترض أن هذه الشعارات ليست أصيلة تماما، وتأصلت الأسرة في أوفرين.

١٩- وليم دي كاستلونوفو- «أحمر، ثلاثة أبراج ذوات ثلاثة طوابق، أو حجارة فرائية». ولا يوجد سبب للشك في هذه الشعارات، ولعله انتمى إلى أسرة ما من أسر شمالي فرنسا التي حملت اسم «كاستلونوفر- القلعة الجديدة» الذي كان دارجاً.

٢٠- هيوغ رايفل- «ذهب، ونصف طائر، ولازورد»، فهذه كانت شعارات أسرة رايفل أوف دوفين، التي بلا شك قد انتمى إليها.

٢١- نيقولا دي لورن- «فضي- أبيض ومستطيل معدني أحمر». لعله انتمى إلى الأسرة البروفنسالية التي حملت الاسم نفسه.

٢٢- جون دي فيلير- «ذهب، ثلاث شارات يشبه كل منها رقم ثمانية، ولازورد». ولقد انتمى إلى أسرة دي فيلير في ال- «بو فايسيس» Beauvaisis.



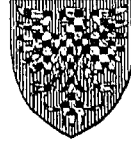
جيرارد المبارک



ريمونددي بوي



يوغرددي بالڻ



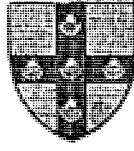
آرنولد دي كومب



غلهرت دي اسيلي



کاست دي مورل



جويرت



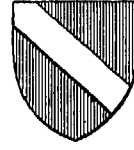
روجردي مولين



غانيردي نابلس



آرمنغود داب



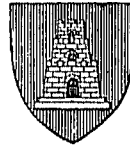
غيوفرددي دنجون



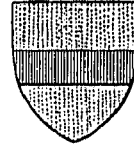
الفونسو البرتغالي



غيوفري لي رات



غارڻ دي مونتافيو



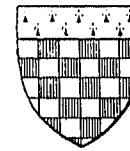
برترانددي ثيسي



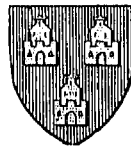
غورين



برترانددي كوم



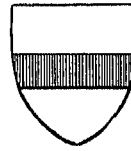
بطرس دي فيلابريدا



وليم دي كاستلو نوفو



هيوچ رايفل



نيقولادي لورڻ



جون دي فيليز

الشعارات والرنوك المحموله لمقدمي الاستنارية

الملحق هـ

قانون ريموند دوبيري

هذا هو النظام، أنا ريموند الخادم لفقر المسيح، ومدير مشفى القدس، قررت هذه الأحكام والأنظمة في دار استتارية القدس، وذلك بمساعدة ومشورة جميع أفراد الرهبة من كل من رجال الدين والرهبان العلمانيين:

١- كيف ينبغي أن يمارس الرهبان وظيفتهم—أولاً: إنني أقضي أن على جميع الرهبان العاملين في خدمة الفقراء وجوب الحفاظ—بعون الرب—على الوعود الثلاثة التي قطعوها للرب، وهي: الاحسان، وإطاعة كل شيء يصدر به الأمر من مقدميهم، وأن يعيشوا بلا ممتلكات شخصية، لأن الرب سوف يطالبهم يوم الحساب الأخير بالوفاء بهذه الوعود الثلاثة.

٢- ما الذي ينبغي على الرهبان الادعاء أنه حقهم—وعليهم عدم الادعاء بأي شيء أنه حق لهم يتجاوز: الخبز، والماء، وارتداء الملابس التي وعدوا بها، ولتكن ملابسهم متواضعة، لأن مولانا الفقير، الذي نحن أنفسنا نؤمن أننا خدمه، يسير عرياناً أو مرتدياً بشكل مزري، وخطأ أن يكون الخادم متفاخراً ومولاه متواضعاً.

٣- ما يتعلق بسلوك الرهبان، وخدمة الكنائس واستقبال المرضى—زيادة على هذا، لقد تقرر أن يكون سلوكهم في الكنيسة لطيفاً، وحديثهم لائقاً، أي أن يقوم رجال الدين بخدمة الكاهن عند المذبح وهم في لباس أبيض، وذلك إذا كان الكاهن شماساً أو مساعد شماس، لكن إذا اقتضت الحاجة، يمكن لرجل آخر أن يشغل هذا المنصب، ويتوجب وجود ضوء يحترق دوماً في الكنيسة خلال النهار وأثناء

الليل، وعلى الكاهن المضي لزيارة المريض وهو بلباس أبيض، ويحمل باحترام جسد ربنا، وينبغي أن يسير أمامه الشماس أو مساعد الشماس، أو على الأقل قسيس، وهو يحمل بيده مصباح عليه شمعة تحترق، واسفنجة مع الماء المقدس.

٤- كيف ينبغي أن يذهب الرهبان الى الخارج، وكيف يوجهون أنفسهم—زد على ماتقدم، عندما يتوجب على الرهبان الدخول الى المدن أو القلاع، ينبغي ألا يذهب واحد لوحده بل كل اثنين وثلاثة، لكن ليس مع الذين يريدونهم، بل مع الذين يأمرهم المقدم بمصاحبتهم، وعندما يأتون الى المكان المقصود، عليهم البقاء معاً، وعليهم بالنسبة لثيابهم وحركاتهم عدم القيام بأي شيء قد يؤدي رؤيته أي إنسان، بل عليهم الالتزام بواجبهم المقدس، وزيادة على هذا، عندما يكونون في بيت أو في كنيسة أو أي مكان فيه نساء حضور، عليهم الحفاظ على لطفهم وعدم السماح لأي امرأة بغسل رؤوسهم أو أقدامهم، أو ترتيب فرشهم، وليحفظهم الرب الذي يقيم في عليين ويبقى حارساً عليهم. آمين.

٥- من الذي يطلب المساعدات وكيف ينبغي أن يفعل ذلك— أيضاً يتوجب على الأشخاص الدينيين من كل من الكهنة والرهبان العاديين الخروج لالتماس المساعدات للفقير المقدس، وعندما يجدون أنفسهم أنهم بحاجة إلى الضيافة، عليهم الذهاب إلى الكنيسة، أو إلى إنسان لائق، وهنا عليهم طلب الطعام لأنفسهم من باب الاحسان، ولا ينبغي لهم شراء أي شيء آخر، وفي الحقيقة إذا لم يجدوا من يساعدهم مطلقاً، عليهم شراء ما يساوي وجبة واحدة فقط، من أجل الحفاظ على حياتهم.

٦- ما يختص بالمساعدات المجموعة واستخداماتها في مقرات الرهبان— يتوجب عليهم أيضاً عدم الحصول على أرض أو ضمان من المساعدات المجموعة، بل عليهم تسليم هذه المساعدات إلى المقدم، مع

حساب مكتوب، وأيضاً ينبغي على المقدم إرسال المساعدات وتحويلها إلى المشفى القائم تحت إدارته، وذلك من أجل الاستخدام من قبل الفقير، وعلى المقدم تسليم ثلث الهبات من الخبز والخمرة، وجميع الأطعمة، وإذا ما بقي شيء ما وفاض، عليه إضافته إلى المعونات وإرساله إلى القدس، تحت إشرافه، كي يستخدم من قبل الفقير.

٧- من الذي عليه الذهاب إلى الخارج للتبشير وبأية طريقة—ولا يجوز لأي واحد من الرهبان، تحت طاعة من كان، المضي للتبشير أو بجمع المعونات، ماعدا فقط الذين يرسلهم الكهنة ورؤساء الكنيسة، وعلى الرهبان الذين جرى اختيارهم للذهاب من أجل جمع المعونات، الدخول في طاعة أية قيادة سيصلون إليها، ويتوجب عليهم قبول الطعام نفسه، الذي يتولى الرهبان توزيعه بين أنفسهم، وعليهم عدم إثارة أي اضطراب هناك، وعليهم حمل مصباح معهم، وعليهم إشعال المصباح أمامهم في أي بيت استضيفوا به لإضاءة الليل فيه.

٨- ما يتعلق بثياب الرهبان وبطعامهم— وزيادة على ما تقدم نحرّم على الرهبان أن يقوموا في أي وقت من الأوقات بارتداء ملابس ذات ألوان براقّة، والمخمل، وعدم ارتداء فراء الحيوانات في ظل أي ظروف، وعليهم أن لا يأكلوا أكثر من مرتين في النهار، ويتوجب عليهم عدم أكل اللحوم في اليوم الرابع من الأسبوع وفي يوم السبت، ومنذ الأحد الثالث قبل الصوم حتى يوم عيد الفصح، وذلك باستثناء غير المتوازنين والضعفاء، وينبغي عليهم عدم التمدد وهم عراة، بل أن يكونوا لابسين قمصانا من الصوف أو من الكتان أو ما يشابه ذلك من الملابس.

٩- ما يتعلق باقتراف الرهبان للزنا— وإذا حدث واقتراف واحد من الرهبان ما ينبغي عدم حدوثه، أي اقتراف الزنا بقوة إغراء الشيطان، فإذا حدث وأذنب بشكل سري، عليه أن يفرض على نفسه توبة مناسبة، وأن يتوب بشكل سري، لكن إذا ما بات هذا معروفاً تمام المعرفة وتبرهنت

صحته بدون شك، عندها يتوجب عليه، أن يقوم في البلدة التي اقترف فيها الذنب في يوم الرب بعد القداس، وبعد ما يكون الناس قد غادروا الكنيسة، بالتعري أمام الجميع، وينبغي أن يجلد من قبل رئيسه الديني، وهذا إذا ما كان هو راهباً دينياً، لكنه إذا ما كان مدنياً فهنا ينبغي جلده وضربه بشدة متناهية بوساطة أسواط أو عصي وذلك من قبل رجال الدين أو من قبل من يفوضه رجال الدين، وينبغي أن يطرد تماماً من رهبانيتنا، وعلى كل حال إذا حدث فيها بعد وهده الرب، وأراد العودة إلى بيت الفقراء، وقرر الاعتراف شخصياً بأنه كان مذنباً آثماً، ومخالفاً لشريعة الرب، ووعد بالتوبة، ينبغي تقبله، وفرض عقوبة مناسبة عليه، ويتوجب أن يعامل لمدة سنة بمثابة غريب، وعلى الرهبان مراقبته خلال هذا الوقت وتقرير هل سلوكه مرضٍ أم لا، وعليهم بعد هذا أن يفعلوا ما هو أفضل بالنسبة لهم.

١٠- ما يتعلق بالشجار بين الرهبان وضرب أحدهم للآخر - وإذا ما اختلف راهب مع راهب آخر، ولاحظ المشرف على البيت الاضطراب، ليكن مايلي: العقوبة التي يفرضها على المذنب: عليه أن يصوم لمدة سبعة أيام، وأن يكون صيامه في اليومين الرابع والسادس على الخبز والماء، وأن يأكل على الأرض من دون منضدة أو منديل، وإذا كان قد وجه ضربة عليه أن يصوم لمدة أربعين يوماً، وإذا ما تغيب عن مقرّ الرهبة، أو عن المقدم المسؤول عنه بدون ترخيص، ثم عاد بعد ذلك، يتوجب عليه تناول طعامه على الأرض لمدة أربعين يوماً، وأن يصوم في اليومين الرابع والسادس من الأسبوع على الخبز والماء، وينبغي معاملته بمثابة غريب بما يساوي المدة التي تغيبها، ما لم تكن المدة طويلة جداً، ورأى المجلس الديني للرهبنة أنه من المناسب تعديل المدة.

١١- ما يتعلق بصمت الرهبان - زيادة على ما تقدم ينبغي أثناء الجلوس إلى المائدة الالتزام بما قاله الرسول: على كل واحد أكل خبزه

بصمت (انظر رسالة بولص إلى سالونيك: ٢/٣/١٢)، وعليه بعد الفراغ عدم شرب شيء باستثناء الماء الخالص، وفي الفراش يتوجب على الرهبان الالتزام بالصمت.

١٢ — ما يتعلق بالسلوك غير المرضي للرهبان — وإذا ما كان سلوك أي واحد من الرهبان ليس مرضياً، ينبغي تقويمه وتقريعه ثلاث مرات من قبل المقدم أو من قبل الرهبان الآخرين، وإذا ما رفض تقويم سبله بناء على تحريض له من الشيطان، ينبغي إرساله إلينا ماشياً على قدميه مع تقرير مكتوب حول ما اقترفه، ومع هذا ينبغي أن يعطى القليل من الزاد يكفيه حتى يصل إلينا، ونحن سوف نتولى تقويمه، ولا يجوز ضرب الخدم المرتبطين به، بل على مقدم الرهبة والرهبان انزال العقوبة به أمام الجميع، وذلك من أجل الحفاظ على العدل والعدالة في الرهبة دوماً.

١٣ — ما يتعلق بالرهبان الذين عثر معهم على ممتلكات خاصة — وإذا ما تولى واحد من الرهبان توزيع ممتلكاته الشخصية عند موته، التي لم يفصح عنها لمقدمه أثناء حياته، ينبغي عدم قيام أية جهة دينية بأية إجراءات نحوه، بل يتوجب دفنه بمثابة رجل محروم كنسياً، وإذا ما اكتشف وهو حي أنه يمتلك ممتلكات شخصية، وأنه قد أخفاها عن مقدمه، لكنها اكتشفت فيما بعد معه، ينبغي لف المال حول رقبته، ثم يجر عارياً خلال مشفى القدس، أو خلال أحد البيوت الأخرى حيث مكان سكنه، وهنا ينبغي أيضاً أن يضرب من قبل رجل دين إذا كان هو من رجال الدين، لكنه إذا كان علمانياً فليضرب من قبل واحد آخر من الرهبان وعليه بعد هذا أن يصوم لمدة أربعين يوماً، وأن يكون صومه في اليومين الرابع والسادس على الحبز والماء.

١٤ — ما يتعلق بالقديسات التي ينبغي أن تقام للرهبان الموتى — زيادة على ما تقدم، بما أنه من الضروري بالنسبة لنا إقامة نظام لكم، إننا نرسم، ومع رسمنا نأمر أن كل من ينتقل من هذه الحياة الجسدية، تحت

إمرة من كان، ينبغي انشاد قداس لراحة روحه لمدة ثلاثين يوماً، وعلى كل واحد من الرهبان أن يقدم في القداس الأول مقدمة هي شمعة مع قطعة من المال، وينبغي إعطاء ذلك المال إلى الفقراء، مهما كان مقداره كبيراً، وللكاهن الذي أنشد القداس، إذا لم يك متتمياً إلى البيت، ويعطى أيضاً ما ينفقه على نفسه خلال تلك الأيام، وعندما يكمل القداسات على المقدم القيام بتكريمه، وينبغي إعطاء جميع ثياب الراهب المتوفى إلى الفقراء، وعلى الرهبان الذين هم كهنة، عندما يقومون بانشاد القداسات من أجل راحة الميت، أن يقدموا بعض الصلوات إلى الرب يسوع المسيح، ويتوجب أيضاً على كل واحد من رجال الدين إنشاد مزموه، وعلى كل واحد من العلمانيين أن يقوم بمائة وخمسين صلاة للرب، وفيما يتعلق بجميع الذنوب الأخرى والأعمال والشكاوى يتوجب البت فيها في المجلس الديني، ومن ثم التفوه بالحكم العادل.

١٥ — كيف يتوجب الحفاظ بدقة على الأحكام التي وضعت هنا — وبالنسبة إلى جميع هذه الأشياء التي كتبناها أعلاه، باسم الرب القدير، ومريم المباركة، ويوحنا المبارك، والفقراء، نأمر بالحفاظ عليها، بأعظم قدر من الحرص، وبكل احترام.

١٦ — كيف ينبغي استقبال ساداتنا المرضى، وكيفية خدمتهم — وفي تلك الطاعة وحيث يسمح مقدم الاستبارة، يتوجب عند استقبال رجل مريض، أن يستقبل وفق ما يلي: عليه أولاً أن يعترف بذنوبه إلى كاهن الرهبة، ثم عليه أن يشارك في قداس عام، ثم ينبغي حمله بعد هذا إلى الفراش، ويتوجب أن يتلقى هناك، — وكأنه السيد — أفضل رعاية حسنة كل يوم على نحو أحسن ما تستطيع الرهبة تقديمه، وقبل أن ينهي الرهبان صومهم، وفي كل يوم هو للرب يتوجب انشاد مقاطع من الانجيل ومن رسائل الرسل، في بيت الرهبة، وفي أثناء اجراء ذلك يتوجب رش الماء المقدس، وزيادة على ما تقدم إذا ما كان هناك واحد

من الرهبان ممن بيده عدة مسؤوليات في مختلف البلدان، وقام بإعطاء أي شخص من المدنيين مال الفقراء من أجل أن تزداد قوته ليمتلك السلطة ضد مقدمه واخوانه الرهبان هنا، ينبغي طرده من الهيئة العامة للرهبنة.

١٧- في أي طريقة يمكن للرهبان تقويم الرهبان- وإذا كان إثنان من الرهبان أو أكثر يعيشون معاً، وقام واحد منهم بسلوك مسلك فاجر، وبالحياة حياة شريرة، ينبغي على الراهب الآخر عدم التشهير به لا أمام الناس ولا أمام الراهب الأول، بل عليه تقويمه بنفسه، وإذا لم يسمح له بتقويمه عليه استدعاء اثنين أو ثلاثة آخرين لمساعدته على تقويمه، وإذا لم يقوم سبله ويصلحها، عليه استخدام التهديد ضده، لكن إذا وجده على غير استعداد لتقويم سلوكه، هنا على المقدم أن يكتب ذنوبه ويدونها، ثم يرسلها بشكل سري إلى المقدم، ومن ثم ينبغي أن يعامل وفقاً لأوامر المقدم.

١٨- كيف ينبغي لراهب اتهام راهب آخر- وينبغي أن لا يقوم أي واحد من الرهبان باتهام رجل آخر من الرهبان ما لم يكن قادراً على البرهنة على صحة التهمة، وإذا ما فعل ذلك (بدون برهان) سيكون بذلك راهباً غير صحيح، وعليه هنا أن ينال العقوبة نفسها التي كان سينالها المتهم، لو أنه كان قادراً على البرهنة على صحة تهمة.

١٩- حول وجوب حمل جميع الرهبان شارة الصليب على صدورهم- وزيادة على جميع ما سلف يتوجب على جميع الرهبان في جميع المراكز، من الذين وهبوا أنفسهم للرب وإلى مشفى القدس المقدس، أن يحملوا صليباً تشریفاً للرب وللصليب المقدس، يضعوها على صدر كل واحد منهم فوق ثيابه وفوق الرداء تكون سواء، وذلك من أجل أن يتولى الرب حمايتنا من خلال مظهر هذه الشارة، ومن خلال الايمان، والأعمال والطاعة، وأن يحميننا من قوة الشيطان في هذا العالم وفي العالم المقبل، في الروح والجسد، مع جميع المحسنين إلينا من مسيحيينا. آمين.

— ٤ —

وصف الأرض المقدسة

تأليف

جون أوف وورزبيرغ

(١١٦٠ — ١١٧٠)

استهلال

إلى

وصف جون أوف وورزبيرغ للأرض المقدسة

إنه بالنسبة للقول: من هو وورزبيرغ Wurzburg ما من شيء مؤكد معروف حوله، باستثناء ما يجربنا هو نفسه به، من أنه كان كاهناً في الكنيسة في وورزبيرغ، ولقد كتب على الصفحة الأولى من مخطوط تيغرنسي Tegernsee بخط مخالف لخط المخطوط: « يعود هذا الكتاب إلى دير القديس قورينوس Quirinus في تيغرنسي، وهو يحتوي على وصف الأرض المقدسة، وخاصة مدينة القدس، من قبل السيد جون أسقف وورزبيرغ»، وكتب على غطاء الكتاب إلى جانب ثبت محتوياته الكلمات التالية: « تأليف جون أسقف وورزبيرغ» لكن في عودة إلى سجل أساقفة وورزبيرغ كان من غير الممكن الحصول على اسم جون، هذا من جانب ومن جانب آخر نعلم أن واحداً اسمه ثيودورك كان أسقفاً لـ وورزبيرغ، وفي لائحة أسماء أساقفة الكنيسة الكاتدرائية لـ وورزبيرغ، الموجود في المكتبة الوطنية في ميونيخ، نجد أن ثيودورك قد جرى تعيينه أسقفاً في سنة ١٢٢٣، وأنه شغل منصبه لمدة سنة واحدة وشهرين وأربعة عشر يوماً، فهو قد توفي سنة ١٢٢٤ (تبعاً لبوتهاست Potthas : في شباط ١٢٢٥)، في أيام حكم فردريك الثاني، وعلى هذا يبدو من المحتمل كثيراً أن ديترخ Dietrich الذي إليه وجه صاحبنا جون خطاب إهدائه هو ثيودورك نفسه. وعلى افتراض أنه قام برحلة حجة إلى الأرض المقدسة عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، لقد كان في السادسة والسبعين من عمره عندما اختير أسقفاً، وهذا محتمل الوقوع كثيراً، وأبعد من هذا ما من شيء مؤكد معروف عن جون أوف وورزبيرغ.

وبالنسبة للتاريخ الذي تمت فيه رحلة حجة، نعلم من ج.أ. فبريكوس في كتابه «مكتبة العصور الوسطى اللاتينية: ١٧٠ / ٤» أن جون قد كتب كتابه ليس بعد مدة طويلة عن سنة ١٢٠٠، وذهب برنارد بيز Pez في كتابه «الكنوز» (٨٧ / ١) إلى أنه لابد أن جون أوف وورزبيرغ قد شرع بكتابة ما رآه في القرن الثالث عشر، لكن فحصاً دقيقاً لأوصافه لا يدع أي مكان للشك في أن زيارته للقدس قد تمت في أثناء وجود المملكة الفرنجية فيها، ويبدو من المحتمل من خلال مقارنة الكاتبين، أن جون أوف وورزبيرغ قد زار كنيسة الضريح المقدس قبل ترميمها، وأن ثيودورك فعل ذلك أثناء الترميم، حيث نقرأ في الفصل الثاني العشر من رحلتنا الحالية أن قبة بيعة الضريح المقدس كانت فضية اللون، وأنه تبعاً لهذا كتبت التريمة الجماعية «قلم المسيح» حول قبة البيعة بأحرف فضية، هذا من نحو، ونعلم من نحو آخر من خلال فوقاس (الفصل: ٢١) أن الامبراطور البيزنطي مانويل كومينوس قد غطى الضريح المقدس باللون الذهبي، ويقول ثيودورك (الفصل: ٥) بأنه قرأ التريمة وهي مكتوبة بأحرف ذهبية، ويجعلنا هذا نحاجح بأن ثيودورك لابد وقد رأى الكنيسة بعدما فعل ذلك جون، ولربما كان جون في القدس فيما بين سنة ١١٦٠ وسنة ١١٧٠، ومن المؤكد أنه كان موجوداً في يوم عيد القديس جيمس (٢٥ - تموز)، وأثناء الاحتفال بيوم القديسة أن (حنة) (الفصل: ٢٦).

وكان الحاج رساماً ألمانيا متحمساً بحرارة، وذلك حسبما يظهر من ملاحظاته في الفصل الثالث عشر، وهي الملاحظات التي أزعجت الكاتب الفرنسي فيرير Verrier، ودعا برنارد بيز دفاعه عن الصليبيين الألمان «بالصفحة النبيلة، وهي صفحة هي الأكثر تشريفاً لأمتنا، حيث قدم جون براهين كثيرة، أنه من العدل أن يعزى إلى الألمان استرداد الأرض المقدسة، وليس إلى الفرنجة وحدهم».

أما بالنسبة لمحتويات كتابه، فصحيح أن إ. روبنسون (أبحاث توراتية: ٥٣٨/٢، بوستن ١٨٥٦) قد قال: « للرحلة قيمة قليلة » لكن هذا حكم متسرع جداً، قد صدر من دون قراءة ما جاء فيها ووزنه بشكل ناضج ودقيق، ذلك أن وصفه للكنائس في القرن الثاني عشر له فائدة كبيرة، ولائحته بالنقوش المكتوبة ليست أقل قيمة، ومن الممكن تقديم وصفه لهيكل الرب وكنيسة الضريح المقدس بمثابة مثال، وذلك مع إيلاء الجغرافيا الاهتمام أيضاً، وبناء عليه نمنح كتيبه مكانة عالية.

ونعلم من استهلال المؤلف أن الوصف المقدم هنا ليس كل ما شاهده الحاج المؤلف شخصياً، لكن بعضه كان هو شاهد عيان له، وقد استعار بعضه الآخر من آخرين، ولعل ذلك كان من وصف تاريخي وجغرافي للأرض المقدسة وللمناطق المجاورة كان متوفراً آنذاك في كتاب كان رائجاً، ومنه كما يبدو استقى معظم كتاب تلك الآونة رواياتهم، ويمكننا أن نفترض أن جون نزل في عكا، ثم ركب الطريق المعتاد للحجاج، وأنه زار شخصياً الناصرة (الفصل الأول) ثم ذهب من هناك عبر جينين ونابلس إلى القدس، ويعني هذا أنه زار أيضاً بيت لحم، وعاد إلى وطنه عبر يافا، وهكذا قدم جون نفسه بمثابة شاهد عيان، وأنه تولى وصف الذي رآه بنفسه، وأكثر من ذلك أكد كلامه عما رآه بشكل دقيق، ولقد قال في رسالة التكريس في مستهل كتابه أنه كان ينوي أن يكتب حول الذي هو موجود في داخل القدس، وليس بعيداً عن أسوارها، لكن ليس حول الأماكن البعيدة، وهنا لايجوز أن نفهم العبارة بشكل حرفي، لأنه ذهب إلى القول في الفصل الأول نفسه بأنه ينوي أن يقدم وصفاً مختصراً فقط للناصرة وللمآكن القائمة بينها وبين القدس، وينبغي ألا ننسى هنا أنه على الرغم من وجود الحكومة الفرنجية، كانت مناطق كثيرة غير آمنة، وكان على الحاج أن يرضي نفسه بزيارة أماكن قليلة، وكانت هذه الأماكن بالنسبة للأتقياء هي الأكثر أهمية، ونستخلص من هذا كله أن

وصفه للكثير من الأماكن يعوزه الاشراف والجددة والحدائق التي يأتي بها شاهد العيان، لابل أكثر من هذا نجد في كثير من الأوصاف لأماكن قد زارها كاهننا وورزييرغ أنه نسخ بشكل مصطنع أوصافها عن آخرين، مثلما يفعل في أيامنا حب النسخ حيث حرك عدداً كبيراً من الأقلام للعمل، وعلى كل حال سواء أدعينا هذه أعمال نسخ، أو مشاهدات حاج، نجد أنها إذا كانت قد صنعت بلطف ومرونة وليس بشكل آلي، تمتلك العذر، لا بل تستحق التشجيع، لأن الحقائق التاريخية للعصور القديمة لا يمكن اختراعها .

ولغة المؤلف لغة لاتينية عادية للعصور الوسطى، لكنها أقل صقلاً من لغة ثيودورك، وكثير من أوصافه واضحة ومميزة، وبقدر ما يمكن أن يكتبه رجل متعلم، ومن غير الممكن اضافة الكثير من المدح على ترتيبه لمواده، لأن هذا الترتيب متداخل ومشوش جداً، وقد صنع عدة ابياءات إلى الأختام السبعة لرؤيا القديس يوحنا، وقد جرى حذف هذا كله في هذه الطبعة .

رسالة تكريس

يتمنى جون الذي هو الآن بنعمة الرب في كنيسة وورزبيرغ : الصحة، ورؤية القدس السماوية لأصدقائه المحبوبين ولتابعه ديترخ الذي نصيبه في ذلك هو نفسه .

إن معلوماتي عن أوضاعكم المعنوية، مشابهة تماماً للمعلومات عن الرجال الجيدين، وكذلك بشأن حماستكم العظيمة لخدمة الرب وإطاعته، وذلك إلى جانب الروابط المتعلقة بالشؤون المنزلية، وحثني هذا بوساطة الحب لتنفيذ رغباتكم - التي أفترض أنها دوماً من جانبكم عادلة ولطيفة - وما من رغبة من رغباتكم، تحتاج إلى جهودي لانجازها، وهي بقدر ما يمكن لطاقتي الوصول إليه، سوف لن تتحقق بشكل كامل وممرض، ولهذا السبب، إنني عندما ذهبت للحج إلى القدس من أجل حب ربنا يسوع المسيح، مع هذا إنني لم أنسكم أنتم الذين كنتم غياب، ومن خلال عواطفني نحوكم توليت وصف الأماكن المبعجلة، التي قدسها ربنا، منقذ العالم بحضوره الجسدي، مع أمه مريم الرائعة، العذراء دوماً، وعساكره المحترمين من الحواريين، وأكثر بشكل خاص مدينة القدس المقدسة، وسيكون وصفي واضحاً ودقيقاً بقدر ما أستطيع، وأيضاً بذلت جهدي بوساطة قلمي لأن أقوم بجمع النقوش الكتابية الموجودة هناك، سواء ما كان مكتوباً منها نثراً أو شعراً.

وأعتقد أن هذا الوصف سوف يكون مقبولاً لديكم، للسبب التالي، وهو أن كل واحد من هذه الأماكن سيكون معروفاً لديكم من خلال هذا الوصف، حتى إذا حدث وذهبتم إلى هناك بقدر رباني وحماية سماوية، سوف تقدم هذه الأماكن نفسها إلى أعينكم بشكل طبيعي، ولسوف تجدونهم بدون تأخير أو صعوبة، بمثابة أماكن معروفة تماماً، أو

إذا حدث ولم تذهبوا إلى هناك ولم تروهم بأعينكم مباشرة، مع هذا يمكنكم بمثل هذه المعرفة تخيلهم والحصول على المزيد من الشعور الديني بقداستهم، وأنا أعرف تمام المعرفة، أنه قبل الزمن الحالي قد وصفت هذه الأماكن كتابة من قبل رجل محترم (لعله أركولف أوبيد)، وشمل الوصف ليس فقط هذه الأماكن نفسها الموجودة في القدس، لابل حتى الأماكن الواقعة على مسافة كبيرة منها، ومهما يكن الحال، بما أن المدينة غالباً ما تم الاستيلاء عليها وتهديمها من قبل الأعداء، خلال المدة الطويلة التي مرت منذ ذلك الحين، نجد أن هذه الأماكن المقدسة نفسها، التي نقدرها كثيراً، مما هو موجود داخل أسوار المدينة، أو مما هو موجود على مسافة وجيزة خارجها، قد تعرض للهدم، وربما لتغيير الشكل فيما بعد، ولهذا السبب إن عنايتنا الدينية نحو مواقعها، التي تولينا وصفها كشهود عيان، ينبغي أن لا يظن أنها من نافلة القول أو غير ضرورية، وعلى كل حال إنه فيما يتعلق بالأماكن القائمة بعيداً في المناطق المجاورة، لم نكلف أنفسنا بالكلام عنها، لمعرفتنا أنها قد وصفت بما فيه الكفاية من قبل آخرين.

وصف جون أوف وورزبيرغ للأرض المقدسة

الفصل الأول

إنه الآن بما أن انقاذنا قد بدأ في مدينة الناصرة، من خلال تجسيد ربنا، فهناك تم الاعلان بوساطة الملاك، لذلك نقترح أن يبدأ الوصف مع هذه المدينة نفسها، التي تقع على نحو ستين ميلاً عن القدس، وأن نمر بسرعة وباختصار بالأماكن القائمة بينها وبين المدينة المقدسة، على أننا نعلم بأن آخرين قد كتبوا أكثر حولهم.

ومدينة الناصرة التي تبعد عشرة أميال عن طبرية هي البلدة الرئيسية في الجليل، وقد تدعى « مدينة المخلص »، لأن الحمل به جرى فيها،

وفيها أيضاً نشأ، ولهذا دعي بالناصرى (١)، ويفسر بعضهم كلمة الناصره بأن معناها هو «الزهرة» أو «النبته»، وهي حقاً جذيرة بهذا الاسم، لأن هناك نمت الزهرة التي فاح شذاها فملاً العالم أجمع، والزهرة هي العذراء مريم، التي أعلن إليها هناك رئيس الملائكة جبرائيل أنها سوف تحمل بابن العلي الأعلى حيث قال لها: «سلام لك يا مريم» الخ، وقد أجابته بقولها: «هو ذا أنا أمة الرب». (لوقا: ١/ ٢٨-٣٨)، وعن الناصرة قيل: «هل يمكن لشيء جيد أن يأتي من الناصرة»؟، ويجري في الناصرة النبع الصغير الذي اعتاد يسوع في طفولته أن ينضح منه الماء، ويأخذه إلى أمه.

وعلى ميل من الناصرة باتجاه الجنوب يوجد المكان الذي يدعى «الجرف»، ففي أسفله وقف الذين رغبوا في رميه نحو الأسفل، لكنه في لحظة اختفى عنهم، وفي هذا اليوم يدعى هذا المكان باسم «قفزة الرب».

والمدينة الثانية التي تبعد عن الناصرة مقدار ميل هي مدينة صفورية، وهي قائمة على الطريق الذي يقود إلى عكا، وقد جاءت حنة أم مريم، التي هي أم ربنا، من صفورية، وقد قيل أيضاً بأن العذراء المباركة مريم قد ولدت في صفورية، لكن تبعاً لجيرونم، حسبما نخبرنا في توطئة الكتاب حول ميلاد مريم المباركة، الموجه إلى هيليوودوروس Heliodorus :

١ — ينبغي أن نميز هنا بين كلمة «ناصرى» و«نصراني»، فالنسبة إلى الناصرة «ناصرى» لكن ليس نصراني، هذا ويعتقد بعضهم بأن التسمية الأخيرة. قد استخدمت للمرة الأولى في أنطاكية من قبل بولص الرسول، لأنها الاسم المناسب للعقيدة الجديدة المزيجة بالغنوصية، وذلك استناداً إلى اللغة السريانية ووثائقها التي تعود إلى تلك الآونة، وأحدث من هذا ما رآه بعضهم أن النسبة هي إلى نوع من السمك يصاد في خليج العقبة يحمل اسم نصراني، ويمضي هؤلاء إلى القول بأن مسرح أحداث الانجيل المبكرة هي شواطئ العقبة، لأن مدينة الناصرة لم تكن موجودة آنذاك، وتبقى هناك مشكلة تحتاج إلى حل، هي أن صابئة العراق يسمون أنفسهم نصارى، ويقولون إن نبيهم هو يوحنا المعمدان، أي النبي يحيى عليه السلام.

قد روي بأنها ولدت في مدينة الناصرة نفسها، وفي الغرفة نفسها تحدثت فيها بعد وهي طفلة مع الملاك، وهذا ما يزال يرى في بعض الأماكن الخاصة، وذلك حسبما رأيت أنا ولاحظت.

وعلى بعد أربعة أميال من الناصرة، وميلين عن صفورية، باتجاه الشرق، تقوم قانا الجليل التي جاء منها فيليب وناثانيل، وحيث كان المسيح الطفل وقت جلوسه مع أمه أثناء حفلة عرس، فحول الماء إلى خمر. وعلى مسافة أربعة أميال من الناصرة، باتجاه الشرق، يقوم جبل الطور، حيث تحول يسوع بحضور حواريه، ونذكر منهم: بطرس وجيمس، ويوحنا، وكذلك موسى والياس، ويحتفل بعيد ذلك بشكل مهيب في القدس وذلك في يوم عيد القديس سكستوس Sixtus (٦ - آب)، ولاسيما من قبل السريان، لأن هناك سمع صوت الآب يقول: «هذا هو ابني الحبيب» الخ. (متى: ٥/١٧)، وقدمن بطرس ويوحنا وجيمس من إخبار أي إنسان بما رآه، وذلك حتى يقوم ابن الانسان من الموت، وهنا قال بطرس: «يارب جيد أن نكون هنا» (متى: ٤/١٧) الخ. وعلى مسافة ميلين من الطور، باتجاه الشرق يقوم جبل حرمون، وعلى الطريق عند سفح حرمون، التقى ابراهيم وهو عائد من قتل أمالك بالملو ملكيصادق، الذي كان هو نفسه سام بن نوح، وكاهن سالم، وهو الذي منحه خبزاً وخمرة، وهو نمط مذبح المسيح تحت النعمة.

وعلى ميلين من الطور مدينة «نعين» التي رد يسوع عند بابها إلى الحياة ابن الأرملة، الذي يسميه السكان المحليون باسم بارثلميو، وهو الذي أصبح فيما بعد حواريا، وفوق نعين جبل عين دور (جبل الدحي)، الذي عند سفحه، إلى جانب نهر كادوميم Cadumim، والذي يدعى أيضاً باسم نهر قيشون، غلب باروخ بن عمون الأدوميين، وذلك بناء على رأي النبوة دبوره، وذلك عندما قتل سيسرا من قبل ياعيل زوجة حابر القيني، وطارد باروخ ذئب، وزبح، وصلمناع عبر الأردن وقتلهم

بالسيف، ودمر جيشهم تحت جبل عين دور وقربه (القضاة: ٤؛ ٧/٢٥؛ ١٢/٨)، وهكذا جاء في المزامير: «الطور وحرمون باسمك يهتفان» (المزامير: ١٢/٨٩)، الخ، وعلى مسافة ستة أميال من الناصرة وخمسة أميال من نعين تقوم مدينة يزرعيل التي تعرف أيضاً باسم زرعين، وهي التي تعرف الآن بشكل عام باسم «جينين الصغرى» ومن هذه المدينة كانت ايزابل، الملكة الأكثر شراً، التي انتزعت من نابوت اليزرعيلي كرمه، وهي التي لجشعها رميت نحو الأسفل من أعلى قصرها وقتلت، ومازال جبلها (هرمها) يُرى حتى هذا اليوم، وعلى مقربة من يزرعيل سهل مرج ابن عامر، الذي فيه غلب أوزياس Ozias وقتل من قبل ملك السامرة، ثم حمل فيما بعد إلى صهيون ودفن هناك.

وعلى مسافة ميل من يزرعيل يقوم جبل جلبوع (فقوعه) الذي تحارب عليه شاؤول ويوناثان، ولهذا قال داود: «يا جبال جلبوع لا يكن طل ولا مطر عليكن» (صموئيل: ٢/١/٢١) الخ. وعلى مسافة ميلين من جلبوع باتجاه الشرق تقوم مدينة بيسان، وهي المدينة الرئيسية في الجليل، وهي تعرف أيضاً باسم بيت شان (بيت الثعبان) أي بيت أو مدينة الشمس، فعلى أسوارها علقوا رأس شاؤول، وعلى خمسة أميال من يزرعيل تقوم مدينة «جينين»، التي تدعى الآن الكبرى أو جينين الأكبر.

الفصل الثاني

ومع مدينة جينين تبدأ منطقة السامرة، ويمتد بينها وبين سبسطية سهل يدعونه باسم دوثنان، ففي هذا السهل هناك إلى جانب الطريق الصهريج القديم الذي وضع فيه يوسف من قبل أخوته، وعلى بعد عشرة أميال من جينين تقوم مدينة السامرة التي تدعى أيضاً باسم سبسطية، وأوغسطة نسبة إلى أوغسطس، وفيها دفن رائد الرب، يوحنا المعمدان، الذي قتل صبراً من قبل هيرود، فيما وراء الأردن، وذلك على مقربة من البحر الميت في قلعة مكور، لكن جسده حمل من قبل حواربيه

وجلب إلى سبسطية، ودفن فيها بين إليجيا وعويديا، وأخذ جسده فيها بعد من هناك من قبل يوليان المرتد، حيث يقال بأنه قد أحرق، وذر رماده في الريح، لكن ذلك كان بدون الرأس، حيث كان قد حمل قبل ذلك إلى الاسكندرية، ومن هناك إلى القسطنطينية، وأخيراً إلى فرنسا حيث دفن في مقاطعة بواتو، وذلك من دون اصبع السبابة التي أشار بها إلى يسوع ليأتي حتى يعمد، قائلًا: «انظروا حمل الرب» الخ، وأخذت هذه السبابة وحملت من قبل العذراء المباركة تقلاً، إلى جبال الألب، وحفظت هناك وسط كثير من الاحترام في كنيسة (القديس يوحنا دي) مورين Maurienne. ويطلق اسم السامرة ليس على المدينة فقط بل على المنطقة أيضاً.

وعلى مسافة أربعة أميال من السامرة تقوم مدينة نابلس، التي تدعى أيضاً باسم شكيم، وهي قائمة فيما بين دان وبيت إيل، وحملت هذه البلاد اسم شكيم نسبة إلى شكيم الذي كان والده حمور، وشكيم هو الذي اغتصب دينه، عندما كانت تتمشى في برية. وإلى شكيم جلبت عظام يوسف من مصر، وفي شكيم، وقرب النبع صنع يربعام العجلين من الذهب، ومثله مثل هرون جعلهما يعبدان من قبل عشرة أسباط تمكن من إغوائها، واقتادها معه، مبعداً إياها عن القدس، وأقام واحداً من هذين العجلين في دان، ووضع الآخر في بيت إيل، وقد دمر أبناء يعقوب مدينة شكيم هذه، وقتلوا حمور، لأنهم قد غضبوا كثيراً بسبب مضاجعة أختهم دينة، وتدعى شكيم في هذه الأيام باسم نابلس، أي المدينة الجديدة، وتقع العسكر أمام شكيم (إلى الشرق)، قرب الحقل الذي أعطاه يعقوب إلى ابنه، وفيه يوجد بئر يعقوب، وهو أيضاً البئر، الذي حكى لنا في الإنجيل بأن الرب يسوع قد جلس فوقه، عندما كان متعباً من السفر، وتحدث إلى امرأة سامرية، وقد بني الآن في هذا المكان كنيسة، وعلى مقربة من شكيم توجد البطمة التي أخفى يعقوب تحتها

الأصنام في بيت إيل، وعلى مسافة ميل واحد عن شكيم تقوم مدينة لوز (خربة لوزه)، ففيها عاش إبراهيم لمدة طويلة، وهناك أيضاً رأى يعقوب في المنام السلم الذي يصل رأسه إلى السماء، والملائكة ينزلون ويصعدون بوساطته، وقال مباشرة عندما أفاق: «ما هذا إلا بيت الرب، وهذا باب السماء» (التكوين: ١٧/٢٨). وأقام عموداً ذكرى لهذا، وصب عليه زيتاً، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، حيث كان اسمه من قبل لوز، وتقوم بيت إيل الآن على جانب جبل جرزيم، وهو الجبل الذي يتوجه نحو جبل جبعال (عيبال) باتجاه الشمال، مقابل دان، ووراء شكيم، ويحكى أنه في جبل شكيم هذا حاول إبراهيم أن يضحي بابنه.

وعلى مسافة عشرين ميلاً من شكيم وأربعة أميال من القدس، وذلك على الطريق الذي يقود إلى اللد، هناك سيلو Silo (النبي صموئيل) وهو جبل ومدينة، تدعى أيضاً راما، فهناك بقي تابوت العهد وخيمة عهد الرب من أيام قدوم بني اسرائيل حتى أيام النبي صموئيل والملك داود.

الفصل الثالث

تقع القدس على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من شكيم، وستة عشر ميلاً من بيسان، وسبعة عشر ميلاً من الخليل، وعشرة أميال من أريحا، وأربعة أميال من بيت لحم، وستة عشر ميلاً من بير السبع، وأربعة وعشرين ميلاً من عسقلان، والقدر نفسه من يافا، وستة عشر ميلاً من الرملة، والقدس هي المدينة الأكثر قداسة في اليهودية، وتدعى أيضاً باسم صهيون، ومن هذا المنطلق قد قيل: «قد قيل بك أمجاد يا مدينة الرب» (المزامير: ٣/٨٧)، وعرفت أيضاً باسم إيليا، ذلك أنها نالت هذا الاسم من إيليس هديرانوس، الذي بناها، أو بالحري غيرها.

وتبعاً للفلاسفة تقوم القدس التي هي الحاضرة الرائعة لليهودية في وسط العالم، وقد حكم فيها داود أربع وثلاثين سنة ونصف السنة،

ويوجد في القدس جبل موريا، الذي عليه رأى داود الملاك يطعن الناس ويضربهم بسيف مجرد (صموئيل: ١٦/٢٤-١٧)، وخشية منه أن يتعرض هو والمدينة للعقوبة لأنه أذنب في تعداد الناس، انكب على الأرض في توبة حقيقية، وانفعال عميق، وقد سمعه الرب، ونال العفو، وعن داود قال الرب: «لقد وجدت رجلاً مطابقاً لقلبي»، وكان على جبل موريا عندما كان داود ملكاً مكان بيدر عرونة اليبوسي، ومنه أراد داود أن يبتاعه ليبنى هناك بيتاً للرب، لأنه تلقى رحمة منه ومغفرة في ذلك المكان، وأمسك ملاك الرب بيده وأبقاه هناك، وقد اشتراه، لكنه منع من قبل الرب من الشروع بمثل هذا العمل، بسبب أنه كان رجل دماء (أخبار الأيام: ١/٢٨/٣)، وبناء عليه سلم الكنز الذي أعدّه لهذا الغرض إلى ابنه سليمان، الذي أذن له من قبل الرب ببنائه، وذلك حتى يتمكن من بناء بيت للرب.

وبنى سليمان على أرض البيدر هيكلًا، صار يدعى باسم بيت إيل، ومذبحاً، كرسه مقابل نفقات واسعة، وسأل الرب أن كل من سوف يبتغي الاستشارة حول أي مسألة مهما كانت، ينبغي أن يصغى إليه وهو المطلب الذي ناله ومنح له من قبل الرب، وبناء عليه إن بيت الرب هو بيت الاستشارة، وعاقب الرب فيما بعد ذنوب الأمراء والشعب بجعل «نبوخذنصر» يقوم بتشعيث الهيكل على أيدي «نبوز دان» الذي كان كبير قواده، وحدث ذلك أيام الملك صدقيا، الذي حرم من مدينته، وحمل كل شيء جميل كان في المدينة أو في الهيكل إلى بابل من قبل نبوخذ نصر، وأمر بسوق الناس أمامه إلى بابل، وبعد أمد وجيز هدم الفرعون نيكو Necho كل من الهيكل والمدينة، والآن على كل حال، خشية مني أن تبدو الحكاية مضحكة بالنسبة للمروية له، ومتعبة للمستمع، كنت سأقوم بتعداد تحت أي ملوك وبوساطة من كان البناء، ثم كان تهديم الهيكل الأول، ثم الهيكل الثاني، ثم الهيكل الثالث، ومتى حدث ذلك،

وإنني سوف أحاول جاهداً يا أحبائي الأصدقاء، أن أقدم أصدق رواية بإمكانني تقديمها حول مدينة بيت إيل الحالية، فبالنسبة لبيت إيل الحالية، إنه غير معروف تماماً في أيام حكم أي ملك قد استردت وأعيد اعمارها، ذلك أن بعضهم يقول إنها بنيت من جديد في أيام حكم الامبراطور قسطنطين، وذلك من قبل أمه هيلانة (حنة). وذلك تشریفاً للصليب المقدس، الذي عثر عليه من قبلها: وبنيت أماكن أخرى من قبل الامبراطور هرقل، تشریفاً للصليب الرب الذي أعاده من خلال نصره على فارس، كما وبنيت أماكن أخرى من قبل الامبراطور جستنيان، وشيدت أماكن أخرى من قبل ملك القاهرة (مفيس) في مصر، تشریفاً لـ «الله الكبير»، لأن إليه تتحد جميع اللغات في التعبير عن عباداتها التقوية، وأقول أنا، إن الهيكل الحالي، هو المكان الذي — حسبما روي لي — جرى فيه ختن الطفل يسوع في اليوم الثامن من ولادته، وحملت غرلته بواسطة ملاك من السماء، من القدس وقدمت إلى شارلمان، وهذا الملك الكبير هو الذي جلبها إلى بلاد غاليا، إلى اكس لاشايل (آخن)، ثم نقلت فيما بعد بواسطة شارل الجريء إلى أكويتين، إلى مقاطعة بواتو إلى كنيسة تشارو Charroux ، التي بناها لنفسه تشریفاً لمخلصنا، ومنحها بشكل ملكي بوفرة وافرة من الممتلكات، ووضعها تحت الاشراف الديني للرهبان، وهذا الأثر المقدس محفوظ فيها منذ ذلك الحين بشكل مهيب، وهو يُتعبد هناك.

الفصل الرابع

ودعونا الآن بالنسبة لتقديم ربنا نضيف أنه على كل حال فيما يتعلق بختانه — الذي حدث في هيكل الرب في اليوم الثامن — أن هذا الطقس وإن كان قطع الجلد يرمز فيه في أذهان الناس إلى طرح الشرور جانباً، إنه في الحقيقة ينتمي إلى العهد القديم، وبالمسيح وصل إلى كماله، وينبغي من ذلك الوقت فصاعداً أن يتوقف، ولا يعد الختان بين طقوس

القداسات في العهد الجديد، كما أنه لا يتعلق مع أي من الأختام السبعة، وكما قلنا من قبل، أحضر ربنا يسوع المسيح إلى الهيكل بوساطة أمه، وقد وضع بين ذراعي سمعان المقدس، الذي بدأ يقول باسم روح النبوة: «أيها الرب، ذق الآن أنت فراق عبدك»، الخ، وبينما كان ربنا يسوع مقيماً في القدس، وكان قد وصل إلى الثانية عشرة من عمره، أخذ يتناقش في الهيكل مع اليهود، وغالباً ما اعتاد فيما بعد على تعليمهم، مع أنهم كانوا يكرهونه، وامتدح في الهيكل تقدمية الأرملة الفقيرة، التي وضعتها في الخزينة، لأنها أعطت كل ما كان لديها، وأوقف الشيطان عيسى على الزاوية العليا للهيكل، المعتقد أنها فوق طرف الجدار الخارجي، وكان تحتها نوافذ بدت وكأنها بيناس Pinnas ، أو سيناس Cinnas ، (كذا؟)، وأغراه للمرة الثالثة، وبسبب تعميده وصومه قال: «إذا كنت ابن الرب ارم نفسك من هنا». ويروى أن المباركة مريم عندما كانت في الثالثة من عمرها، كانت موجودة في هيكل الرب، وذلك في يوم ٢١ — تشرين الثاني، وذلك حسبنا تعلمنا هذه النقوش المكتوبة شعراً:

«في الثالثة من عمرها، ومعها سبعة من الرفاق الأعزاء

كرست أمة الرب ووهبت هناك».

وكانت غالباً ماتتلقى الارشاد من الملائكة، حيث جاء في الشعر:

«بخبز الحياة أطعم الملائكة

العذراء المباركة وقت حاجتها».

وكان تقديم العذراء المباركة وحضورها في الهيكل قد وقع يوم ٢١

تشرين الثاني، ولهذا يتلى الدعاء التالي في الهيكل نفسه:

دعاء

«يارب، يامن كنت بعد ثلاث سنوات مسروراً لتتلقى في الهيكل الأم

المقدسة للرب، التي هي هيكل الروح القدس، تفضل بقبول صلوات شعبك المؤمن، وامنحنا نحن الذين نحافظ الآن على عيد تقديمها، أن نتمكن نحن أنفسنا فنكون في هيكل يُجعل لك لتقيم به، من خلال مولانا»، الخ، الخ.

ولقد رمى مولانا يسوع المسيح وطرده البائعين والشراة من الهيكل، والبرهان على هذا أنه ما يزال هناك في الجانب الأيمن من الهيكل مرئياً حتى هذا اليوم صخرة تعامل بتبجيل كبير، وهي مغطاة بمصباح وبزينة، لأن الرب مشى عليها، وهي ما تزال تحمل علامة قدم الرب، وكان قد وقف عليها لوحده بوساطة القوة الربانية، وتصدى لعدد كبير من الرجال، وألقى بهم بالقوة إلى الخارج: وهذه الصخرة موصولة بصخرة أخرى، ويوجد فوقها كما لو كان فوق مذبح رسماً لحضور مولانا هناك، وهذا مرئي في الصورة هناك وفي النقش الكتابي الفائق عليها الذي جاء فيه مايلي:

«ملك الملوك الذي ولد من أم عذراء

كان موجوداً هنا. هذه أرض مقدسة.

هنا رأى يعقوب السلم، وهنا بنى

مذبحه. علّنا نتمكن من تعليق أعطيات حوله».

لكن بالنسبة ليعقوب، الذي رسم وقد وضع رأسه فوق الصخرة نفسها، عندما رأى في منامه السلم الواصلة حتى السماء، الذي كان الملائكة يصعدون عليه وينزلون، ومع جميع الاحترام للهيكل، هذا ليس صحيحاً، مع أن الشعر التالي قد كتب هناك:

«يعقوب، هذه ستكون أرضك

وأولادك من بعدك»

لكن هذا لم يحدث هنا، لكن في مكان آخر بعيد جداً، لأنه كان في طريقه إلى بلاد الرافدين، أي كان على مقربة من ماهو ميريا -Ma humeria ، الكبرى (البيرة).

وفي الهيكل أطلق ربنا سراح المرأة التي أمسكت بتهمة الزنا، وحررها من الذين اتهموها بقوله: «من هو الذي بلا ذنب» الخ، وقال أيضاً عندما كان متهموها يذهبون بصمت: «أيتها المرأة، اذهبي بسلام، ولا تذني من بعد الآن». ويعرض المكان للمشاهدة داخل كهف صغير في الهيكل نفسه، ومدخله هو على الجانب الأيسر للهيكل ويدعى «مكان الاعتراف»، وقد قيل بأن زكريا قد دخل إلى المكان نفسه، عندما أكد له الملاك خبر الحمل ببيحيى، وكل هذا قد شرح بوساطة صورة، كتب عليها ماييلي: «قال الملاك لزكريا: لا تخش يا زكريا لأن دعاءك قد استجيب» الخ، وعلى الافريز فوق الباب هناك تمثال للمسيح مع النقش التالي:

«من الذنب حررت أنا الناس

إذا ما اعترفوا بذنوبهم لي».

وفي الهيكل، وقرب مذبح قائم في الهواء الطلق، يبعد عن الهيكل أكثر من اثنتين وعشرين خطوة، عانى زكريا بن براخيا من الموت شهيداً، وعلى هذا المذبح اعتاد يهود العهد القديم على تقديم الطيور والحمام، وقد غير بعد ذلك من قبل المسلمين إلى مزولة، ومن الممكن رؤيته حتى هذا اليوم، وهو ملاحظ لأنه حتى هذا اليوم يأتي كثير من المسلمين إليه للصلاة، لأنه يشير نحو الجنوب، وهو الاتجاه الذي يتجهون إليه في صلاتهم.

والآن إن هذا الهيكل نفسه، هيكل الرب، قد زين من قبل أحدهم بألواح رائعة من الرخام وذلك من الداخل ومن الخارج، ولهذا الهيكل

شكل مستدير، أو بالحري دائري ثنائي، أي له ثمانية أضلاع، منتظمة على شكل دائرة، وجدرانها كلها مزينة من الخارج، من الوسط نحو الأعلى بأجل أنواع الفسيفساء، لأن البقية من الرخام، وهذا الجدار المنخفض نفسه مستمر، باستثناء أنه مخروق بأبواب أربعة، حيث يتجه أحد الأبواب نحو الشرق، وهو ملتصق ببيعة مكرسة للقديس جيمس، لأنه رمي من ذلك الجانب من سقف الهيكل نحو الأسفل، ثم قتل بعضا القصار، ذلك أنه كان أول كاهن أعلى في ظل الشريعة الجديدة للنعمة في القدس، ولهذا فإن الآيات الشعرية التالية قد نقشت في البيعة نفسها، على جانب الجدار:

«ابن ألفيوس، شبيه المولى بالوجه

رمي من الهيكل، فهلك في هذا المكان

هنا الجمهور الضال، بعضا القصار

قتل جيمس العادل، لأنه بشر بالمسيح علناً

وكتب في أعلى وداخل قبة السلسلة للبيعة نفسها مايلي:

«ابن ألفيوس، أخو ربنا

ناصرياً كان جيمس الذي بشر بالكلمة

اسرائيلياً، في الحقيقة، لم يوجد

به عيب — صياد سمك لبعض الوقت كان.

بأيد مدنسة رمي من أعلى الهيكل،

وضرِب بعضا، وطارَتْ روحه إلى المسيح».

ويوجد في الجانب الشمالي باب (باب الجنة) يقود إلى دير القانون،

وعلى الافريز فوقه كثير من الكتابات الاسلامية قد نقشت، وفي ذلك المكان نفسه إلى جانب ذلك الباب نفسه موقع الماء العذب، الذي قال عنه النبي: «رأيت ماءً يخرج من هذا الجانب» الخ، وعند المدخل إلى الهيكل باتجاه الشرق، يوجد فوق الساباط تمثال للمسيح، وقد نقش حوله النص التالي: «يتي سوف يدعى بيت الصلاة»، وله أيضاً باب في الجنوب (باب القبلة)، يطل باتجاه بناء سليمان، وهناك بالغرب أيضاً باب (الباب الغربي) يطل باتجاه ضريح ربنا، وهناك أيضاً بوابة جميلة (باب السلسلة)، من خلالها كان بطرس ماراً مع يوحنا عندما أجاب الرجل الأعرج الذي سأل احساناً بقوله: «ليس معي لافضة ولاذهبا» الخ، ولكل من هذين المدخلين — أعني ذاك الذي على الشمال والذي على الجانب الغربي — ستة أبواب مرتبة، كل باب بمصراعين: أي على الجانب الجنوبي هناك أربعة، واثنان فقط على الجانب الشرقي، ولكل مدخل من المدخلين مظلة جميلة.

هذا فيما يتعلق بالقسم المنخفض من الجدار، أما في القسم العلوي حيث أشكال السيفساء الرائعة فهناك الآن نوافذ مقحمة بالجدار بشكل جميل، حيث يوجد خمس نوافذ على كل جانب من الجوانب الثمانية، باستثناء الجوانب التي فيها أبواب الهيكل، فهذه في كل منها أربع نوافذ فقط، وهكذا يكون العدد الاجمالي للنوافذ ست وثلاثون نافذة، وبين هذا الجدار الذي يشكل الاطار الخارجي، والأعمدة الرخامية العظيمة، التي عددها اثني عشر عموداً والتي تدعم الرواق الداخلي الضيق، جدار أعلى، وهو جدار مستدير فيه اثنتي عشرة نافذة، ولها تحتها أربع من السواري الحجرية المربعة، ثم أعود لأقول: بين الجدار الأول والجدار الآخر ستة عشر عموداً وثمانية من السواري الرخامية المربعة، وهناك ثماني خطوات بينهم، وتدعم كل سارية على الطرفين سقفاً، قائماً بين الجدار الأكثر اتساعاً والجدار الداخلي الأضيق، موفرة بذلك مسافة

للسير في أي اتجاه، وفيه أنابيب من الرصاص لنقل مياه الأمطار، ويقوم فوق هذا الجدار الداخلي الضيق قبة مستديرة عالية، مطلية من الداخل، ومغطاة بالرصاص من الخارج، ويوجد في أعلاها تمثال للصليب المقدس، وكان الذي تولى وضعه هم المسيحيون، وهو مزعج جداً للمسلمين، ويود كثير منهم عن طوعية إنفاق الكثير من الذهب في سبيل إزالته، ومع أنهم يؤمنون بآلام المسيح، إلا أنهم يحترمون هذا المعبد، لأنهم يعبدون خالقهم فيه، وهذه العبادة ينبغي عدها وثنية، بناء على رأي القديس أوغسطين، الذي أعلن أن كل شيء هو كفر، إذا لم يكن فيه إيمان بالمسيح.

ويوجد حول الهيكل، وجزئياً تحت سقفه في الجانب الخارجي وذلك وأنت ذاهب نحو الغرب هذا النقش: «علّ هذا البيت يتمتع بسلام دائم من الآب السرمدي، ولتكن المباركة هي المجد للرب في موضعه المقدس». وكتب على الطرف الجنوبي مايلي: «بني بيت الرب بشكل جيد على صخرة ثابتة. مباركون الذين يسكنون في بيتك، ولسوف يحمدونك ويحمدونك إلى الأبد». ونقش على الجانب الشرقي: «في بيتك أيها المولى سوف يتحدث جميع الناس عن مجدك». وكتب على الجانب الشمالي: «هيكل الرب مقدس، والرب يعتني به، والرب هو الذي بناه». وكتب في داخل الهيكل بأحرف كبيرة فوق «الكورنيش» الأعلى حول البناء، الدعاء التالي: «أيها الرب اسمع ترنيمتي» مع جوابها الشعري: «انظر إلي يارب»، وكتب على الكورنيش أيضاً بأحرف ذهبية عدة أبيات من ترنيمة: «القدس المباركة».

وبني هذا الهيكل وزين بشكل جميل، وله على جوانبه جميعاً عتبات واسعة ومستوية، مبلطة بحجارة متناسقة مع بعضها، وهناك عتبة منها مربعة الشكل ويصعد إليها من ثلاثة جوانب، وفي الحقيقة بنيت هذه العتبة بشكل رائع جداً، وذلك تماشياً مع طبيعة الأرض، ولها في جدارها

الشرقي مدخل واسع من خلال خمسة أقواس، قد تم وصلها بوساطة أربعة أعمدة عظيمة، وبهذا الشكل ينفتح هذا الجدار نحو البوابة الذهبية، التي مرّ خلالها ربنا في موكب نصر قبل اليوم الخامس من آلامه، وكان راكباً على ظهر أتان، وقد جرت تحيته من قبل أطفال يهود كانوا يحملون سعف النخل، وكانوا ينشدون أماديح ويقولون: «التحيات لابن داود»، الخ، وبقيت هذه البوابة دوماً بوساطة الوقاية الربانية دون أذى، مع أن القدس جرى الاستيلاء عليها منذ ذلك الحين وهدمت من قبل جيوش معادية؛ زيادة على هذا تحمل هذه البوابة ذكريات دينية بشأن دخول مولانا الرباني المليء بالأسرار، عندما قدم من بيت عنيا عبر جبل الزيتون إلى القدس، وكانت البوابة مغلقة من الداخل، ومسدودة بالحجارة من الخارج، ولم تكن تفتح لأحد من الناس إلا يوم أحد السعف، وهو يوم محدد كل سنة اتخذ تذكاراً لما حدث، وهي تفتح بشكل مهيب للمسيرة ولجميع الناس سواء أكانوا من سكان المدينة أو من الغرباء، وعندما ينهي البطريرك موعظة القداس إلى الناس عند سفح جبل الزيتون، وعندما ينتهي القداس لذلك اليوم تغلق ثمانية طوال السنة، كما كان الوضع من قبل، اللهم إلا يوم تمجيد الصليب المقدس. ففي هذا اليوم تفتح أيضاً، وعند نهاية أسوار المدينة وقرب أسفلها على مقربة من هذه البوابة يقوم موقع المقبرة المشهورة.

وللعتبة عند طرفها الجنوبي مدخل واسع، خلال ثلاثة أقواس واسعة موصولة مع بعضها بوساطة عمودين، ولها عند الطرف نفسه مدخل آخر أوسع من الأول، ويوجد على الطرف الغربي باتجاه المدينة مدخل جميل، من خلال أربعة أقواس موصولة بوساطة ثلاثة أعمدة من الرخام، وعلى الطرف الغربي من هذه العتبة جزء ضيق بسبب وجود دير قانوني بني فوقها، لكن المتبقي من ذلك الجانب هو جميل واسع، وله مدخل أخاذ، ويوجد أيضاً على الطرفين الجنوبي والغربي فسحة مستوية، أنيقة وذات

حجم وافر، ويوجد على الطرف الشمالي أيضاً قطعة مستوية من الأرض، امتداداتها فيها وراء العتبة. (١)

ليكن هذا الوصف للهيكل المتقدم الذكر مع ما يحيط به كافياً، ولن نحسد أي إنسان يمكنه أن يكتب أفضل.

الفصل الخامس

وعندما تنزل إلى الشارع الرئيسي، تجد باباً كبيراً، بالدخول منه تصير في داخل ساحة واسعة تعود للهيكل، ويوجد على الطرف الأيمن باتجاه الجنوب قصر قيل إنه بني من قبل سليمان، حيث يوجد هناك اسطبل رائع، له حجم هائل يمكن أن يستوعب أكثر من ألفي فرس، أو ألف وخمسمائة جمل، ويمتلك فرسان الداوية إلى جانب هذا القصر كثير من الأبنية الواسعة المتصلة مع بعضها، وهناك أيضاً أساسات لكنيسة جديدة وواسعة، هي لم تنته بعد، لأن تلك الرهبة تملك الكثير من الممتلكات وموارد لاتعد ولا تحصى في كل من هذه البلاد وفي مناطق أخرى، وهي تقدم مبلغاً كبيراً من المساعدات إلى الفقراء في المسيح، لكن ذلك لا يعدل عشر ما يقدمه الاستبارية، ويمتلك بيت الداوية أيضاً عدداً كبيراً جداً من الفرسان لحماية أرض المسيحيين، لكنهم أصيبوا بانتكاسة، لست أدري أهى صحيحة أم مزيفة، لطخت سمعتهم وسببت إتهامهم بالخيانة، الأمر الذي تبرهنت صحته بشكل واضح، في قضية دمشق المعروفة، في ظل قيادة الملك كونراد (الثالث ملك ألمانيا الذي حاصر دمشق مع قوات الحملة الثانية).

١ - في العبارة الأخيرة إشارة إلى منطقة الحرم، وبما أن حديث الرحالة هنا ووصفه قد تناول المسجد الأقصى، فالقيمة كامة في وصفه للتغيرات والإضافات التي أحدثها الصليبيون، أما ما بناه من معطيات تاريخية فلا قيمة له، لأن المسجد بني بعد الفتح الاسلامي على بقعة فارغة بدون بناء، كما ثبت من خلال الحفريات الأثرية أن القدس لم تعرف لاهيكل أول ولا ثاني ولا ثالث.

وإلى جانب أبنية الداوية، على الجانب الشرقي، وفوق سور المدينة، كان مسكن سمعان العادل، حيث قيل بأنه استقبل فيه مراراً مريم العذراء المباركة، أم ربنا، باكرام وترحيب، حيث رعاها وأعطاهها طعاماً، وقد فعل ذلك ليلة النهار الذي كان اليوم الرابع عشر لميلاد ربنا، ولقد كان عليه تقديم الطفل وأمه في الهيكل، وبينما كان حاملاً إياه بين ذراعيه، وكان سيقدمه أمام المذبح، شعر بروح النبوة، أنه سيكون هو، المنتظر منذ أزمان طويلة مضت، والمتطلع إليه برغبة صامته من قبل الآباء الأقدمين، فغنى بشكل نبوي وقال: «مولاي، دعو أنتم الآن عبدكم يغادر بسلام» الخ، وفي هذا البيت نفسه، الذي تحول الآن إلى كنيسة يرقد مدفوناً سمعان المبارك، وذلك حسبما يخبرنا به الشعر الذي كتب هناك، وفي الأسفل، في قبو هذه الكنيسة نفسها، ما يزال المهد الخشبي العائد للمسيح موجوداً، ومحفوظاً، وهو معروض بتبجيل عظيم.

الفصل السادس

عندما كان وقت آلام ربنا يقترب، جاء ربنا يسوع إلى بيت عنيا في وقت متأخر في المساء، قبل أحد السعف، وفي اليوم التالي — أي في يوم الرب — دخل إلى المدينة المقدسة بالشكل المهيب الذي كنت قد تحدثت عنه، وتقع بيت عنيا على مسافة ميلين عن القدس، وهي البلدة التي غالباً ما كان يستقبل سمعان أو لعازر فيها المولى يسوع كضيف وعندما كانت مريم ومرثا تعتنيان به بإيمان واخلاص، وفي بيت عنيا كسرت مريم المجدلية الصندوق المرمري، ولكي تظهر تفانيها وإيمانها صبت الدهن الثمين على رأس المخلص، عندما كان جالساً إلى المائدة، وامتلاً ذلك البيت بشذى رائحة ذلك الدهن، وقيل أيضاً أن مريم المجدلية قامت في المكان نفسه، أو بالحرى في مكان آخر، هو بيت سمعان المجذوم، وذلك قبل وقت طويل، عندما كانت ماتزال مذنبة، دفعته توبتها للإرتقاء عند قدمي مولانا، عندما كان جالساً إلى مائدة، وغسلت

قدمي يسوع بدموعها، وجففتها بشعرها، ودهنتها بدهن آخر، هو دهن التوبة، وذلك حتى تنال من الرب العفو عن ذنوبها. وبناء عليه عندما نجد في أي مكان من الكتابات المقدسة بأن مريماً أخرى جاءت وارتمت عند قدميه، وواحدة أخرى هي التي دهنت رأسه، شرح ذلك علماءنا وبينوا أنها كانت واحدة أخرى — أي كانت امرأة متغيرة — لأنها جاءت في المرة الأولى كمذنبة تتحرق للتوبة، وجاءت في المرة الثانية امرأة قد تيب عليها وهي مليئة بالوجد والإيمان، ويوجد الآن داخل أسوار المدينة المقدسة كنيسة، قائمة على مقربة من كنيسة القديسة حنة، على الجانب الشمالي قرب سور المدينة، هي مكرسة على شرف القديسة مريم المجدلية، ويعيش فيها رهبان يعاقبة، قد ذكروا أن بيت سمعان المجدوم كان قائماً على تلك البقعة، وهو الذي دعا ربنا إلى عشاء، في أثناءه جاءت مريم المجدلية وارتمت على قدمي يسوع، وقد غسلتها بدموعها، وقبلتها، ومسحتها بشعرها، ودهنتها بدهن، وهم يؤكدون هذا، وبالفعل يعرضون للمشاهدة المكان عينه (وقد رسم على الأرض بوساطة صليب) المكان الذي ارتمت فيه مريم على قدمي يسوع، وبرهنا على ذلك بوساطة صور، وهم يعرضون للمشاهدة في هذه الأيام شعر مريم الموجود داخل وعاء شفاف موضوع فوق تلك البقعة.

وقالوا أيضاً هناك مريم أخرى، هي التي كانت أختاً لكل من لعازر ومرثا، وهي التي كسرت صندوقاً من المرمر في بيت عنيا، التي كانت هي البلدة التي عاش فيها الثلاثة، وصبت زيتاً ثميناً على رأس ربنا: ويحكى أن ضريحها مرثي في هذا اليوم في طبرية، مع جسدها المدفون هناك، وهم يقولون أن جسد مريم المجدلية يرقد في بلادنا، لأنها دفنت في فيزيليا (Vezelai) (في بيرغندي)، وهم يعلنون هذا، ذلك أنني سمعته بأذني شخصياً، لكن حسبما قيل أعلاه يقول العلماء المختصون لدينا بأن مريم التي دهنت قدمي يسوع ورأسه، وأخت لعازر كانت امرأة واحدة هي

نفسها، فهي قد كانت في إحدى المرات مذبذبة، هذا ويلاحظ أن نص الإنجيل حول هذا الموضوع صعب جداً حتى يمكن فهمه حول هذه النقطة، ويجعل، حتى أكثر القراء حرصاً غير متأكد فيما إذا كان سمعان الفريسي قد امتلك بيتاً في بيت عنيا، ودعا ربنا إليه، وهو أمر بعيد الاحتمال، لأن تلك البلدة كلها كانت ملكاً «لعازر» وأختيه، وإذا كان سمعان قد امتلك بيتاً في مكان آخر—ربما في المكان الذي تقدم وصفه أعلاه—بيات من الضروري متابعة القول أنه هناك، لا بد أن مريم قد قامت للمرة الأولى هناك فدهنت ليس فقط قدمي يسوع بل رأسه أيضاً، فهذا ما يمكن فهمه من كلمات ربنا في الانجيل، حيث قال: «سمعان إني قد دخلت بيتك» (لوقا: ٧/٤٤) الخ، لكن عندما كان في مرة أخرى في بيت عنيا—وكانه كان في بيته—قامت مريم هذه نفسها فدهنت رأسه لوحده، وكسرت صندوقاً من المرمز فوق رأسه، ولهذا نقرأ في الانجيل: «وفيما كان يسوع في بيت عنيا» الخ (متى: ٢٦/٦)، وإذا ما رغب أي واحد أن يتلقى معلومات أكثر تأكيداً حول هذه المسألة، دعوه نفسه يأتي ويبحث حول كيفية هذه المسألة وصدقها من سكان محليين من هذه البلاد، لأنني عرفت هذا من خلال الكتابات المقدسة، وليس تماماً من هؤلاء الناس.

وبين بيت عنيا هذه وقمة جبل الزيتون، في حوالي منتصف الطريق، كانت تقوم قرية بيت فاجي، وهي قرية كهنة، وماتزال آثار منها قائمة ممثلة في برجين حجريين، واحد منهما هو كنيسة.

الفصل السابع

وعندما كان—كما قلنا—وقت الآلام يزداد قرباً، وبعدما أقام لعازر، (من الموت) قدم إلى القدس في يوم أحد السعف، وبعد الدخول المهيّب لذلك اليوم، الأمر الذي تحدثنا عنه، عاد إلى جبل الزيتون، ناوياً البقاء هناك حتى اليوم الخامس من الأسبوع، وهو اليوم الذي قصد أن يأكل فيه

مع حواريه العشاء الذي جلب العهد القديم الى نهايته، وبدأ العهد الجديد، وعندما سأله حواريوه أين يرغب أن يتناول العشاء الأخير، بعث بواحد منهم الى المدينة، عليه يذهب ويعد له مكان إقامة، أو مكاناً مناسباً، لإقامة قداس هذا العشاء، الذي نقرأ عنه بتوسع أعظم في الانجيل قوله: «إذهبا الى المدينة ولسوف تلتقيان برجل يحمل جرة ماء» الخ (لوقا: ٢٢/ ١٠)، وعثر على مكان «عليّة العشاء الأخير» هذا فوق جبل صهيون، في المكان الذي يقال بأن سليمان قد بنى فيه بناء عظيماً، وهو البناء الذي نقرأ عنه في نشيد الانشاد قوله: «الملك سليمان عمل لنفسه تختاً» الخ (نشيد الانشاد: ٩/ ٣)، وكانت عليّة العشاء الأخير في الطابق الأعلى من البيت، وكانت كبيرة وواسعة، ويحكى أن ربنا تناول في أحد الجوانب مع حواريه العشاء وذلك من أجل الاحتفال بالقداس، وأوماً هناك بشكل حذر الى الذي سيتولى خيانتة، مطمئنا البقية حول ما يتعلق بآلامه، التي سوف تكون بعد قليل، وأعطاهم جسده على شكل خبز ليأكلوه، وأعطاهم دمه على شكل نبيذ ليشربوه قائلاً: «افعلوا هذا مرارا بقدر ما تستطيعون» الخ.

وبعد ماتعشى في الجزء العلوي من ذلك البيت، يبدو من المعقول أن مولانا عندما كان يعرض ذلك القداس، ضرب لحواريه مثلاً عن تواضعه بقيامه بالقسم الأسفل من البيت بغسل أقدامهم، وسواء اخترت أن ترى ذلك قد حدث قبل العشاء، أو بعده، حسبما أشارت الى ذلك بعض الشروح حول ذلك النص الوارد في انجيل القديس يوحنا قوله: «قام عن العشاء» الخ (يوحنا: ١٣/ ٤)، وسواء أحدث هذا قبل العشاء أم بعده، فهذا ليس بعظيم قيمة، ومع هذا يود الانسان أن يعرف ما حدث، لأن عرض المسألة في هذه الأيام في الكنيسة على جبل صهيون، يومئذ الى أنها قد حدثت في مكانين مختلفين، لأنه يوجد في هذه الكنيسة نفسها في الجانب اليساري منها، في الطابق العلوي صورة

للعشاء، وفي الطابق الأسفل — أي أن تقول في القبو — من الممكن رؤية منظر يمثل غسل أقدام الحواريين.

الفصل الثامن

وبعد الفراغ من هذه القداسات، عاد مع تلاميذه الى الصلاة فوق جبل الزيتون، الذي أضاع عند سفحه ومنحدره حواريين، وابتعد عن هناك لوحده مسافة حوالي رمية حجر، أي الى جيسماني، وصلى الى أبيه قائلاً: «أبي، إذا كان من الممكن» الخ، حيث أنه من آلام جسده صار عرقه يتصبب وكأنه نقاط من دم، وعاد الى حواريين فوجدهم نيام، وعندها قرعهم وقرع بطرس خاصة قائلاً: «ألم يكن بإمكانك السهر معي ساعة واحدة؟» وقال للحواريين الآخرين: «ناموا الآن وخذوا راحتكم» الخ، ثم ابتعد عنهم للمرة الثالثة وعاد الى المكان نفسه، وقدم الصلاة نفسها الى الرب الأب، وبعد طول لأي تطمأن من الأب، واطمأن في نفسه، وبعدها عاد المولى الى حواريين للمرة الثالثة وقال: «اسهروا وصلوا»، وهذه الأماكن التي بقي فيها الحواريون في الخلف والمكان الذي صلى فيه الرب، واضحة ويمكن رؤيتها في وادي يهوشافاط (شعفاط)، لأنه على مقربة من الكنيسة الكبرى، التي يوجد فيها قبر العذراء مريم المباركة — الذي سوف نتكلم عنه بعد قليل — هناك في اليوم الحالي على الجانب الأيمن من المدخل المؤدي إليها بيعة فيها قبو، بقي فيه الحواريون، ومكثوا حزينين ونائمين نوماً ثقيلاً، في حين ابتعد الرب عنهم ثلاث مرات ثم عاد إليهم العدد نفسه من المرات، ومن الممكن رؤية هذا بوساطة صورة ماتزال موجودة، لكن المكان الذي صلى فيه ربنا محاط بوساطة كنيسة جديدة، وهي الكنيسة التي تدعى باسم كنيسة المخلص «فعلى أرضيتها تقف ثلاث صخور غير منجورة، قيل بأن الرب صلى عليهن، وجثا ثلاث مرات، ويتعبد الناس المؤمنون بالمسيح هذه الصخور بتقوى عظيمة جداً ويقدمون لهن التقدّمات، وفي هذا القبو المتقدم الذكر عرف مولانا أن

يهودا كان يقترب منه ومعه أوباشه، لأنه بعد انقضاء العشاء بوقت قصير، وفي الوقت الذي بقي فيه الحواريون الآخرين مع مولانا، ذهب يهوذا وابتعد لوحده ماضياً إلى اليهود ليتساوم معهم حول خيانة مولانا، وبعدما استلم ثلاثين قطعة من الفضة ثمناً لخيانته، كان الآن يقترب مع حشد من الناس، وأقول: عرف يسوع بهذا، فقال في القبر نفسه لحوارييه: «انهضوا، ودعونا نذهب، انتهبوا إنه قد اقترب» الخ، وغادر جيسماني، وقد تم التعرف عليه بوساطة قبلة يهوذا، ولهذا اعتقل، وحمله الحشد معه، وهو الحشد الذي أرسل لاعتقاله، ومن الممكن الآن أن يرى الإنسان في هذا القبر المتقدم الذكر خمس علامات على صخرة واحدة، حيث قالوا بأنها انطبعت عليها بوساطة الأصابع الخمسة لمولانا، وعندما أقول: لمولانا، أعني عندما اعتقل وأبقى نفسه في الخلف بعيداً عن معذبيه، الذين كانوا يجرونه بعنف لإبعاده وأخذه، وهذا على كل حال ممكن الحدوث، مع أننا نعلم بدون أدنى شك أنه كان قادراً على تنفيذ أفعال أعظم قوة وأكثر قدرة.

الفصل التاسع

لقد جرت خيانة ربنا — كما قلنا — من قبل حوارييه، وقد حمل وكتف من قبل جندي روماني، وجلب إلى جبل صهيون، حيث قام في تلك الآونة الـ Praetorium أو قاعة القضاء لـ «بيلاطس»، التي عرفت باسم «الرصيف» أو جباثا «Gabbatha»، لأنه كان في ذلك الوقت أجمل أجزاء المدينة كلها وأقواها موجوداً على ظهر ذلك الجبل، وكذلك برج داود، الذي كان برج المراقبة والمكان الحصين لبقية المدينة، فهو قد بني هناك، وعلى هذا كان الجزء المنخفض من المدينة وكأنه قد جرى به واعتني به مثل أم دعت ابنتها، ومن هنا جاءت الكلمات التالية: «أخبرك يا ابنة صهيون» الخ، لكن بعد هذا عندما هدمت المدينة التي كانت قائمة هناك، ونقلت إلى مكان آخر، حيث هي الآن قائمة في

هذه الأيام، وذلك من قبل الامبراطور إليوس (هدريان)، اقتطع من ظهر الجبل ومن ارتفاعه كثيراً، وجعل أكثر انخفاضاً، وجرت إزالة البرج من عليه مع الأبنية الأخرى. وعلى كل حال من الممكن في هذه الأيام رؤية المكان الذي قامت فيه قاعة المحكمة وبرج داود، وقام في ذلك الحين بناء كبير إلى جانب قاعة المحكمة، على الطرف الجنوبي منها، ففي هذا البناء تناول الرب العشاء مع حواريه، وعلى مقربة من قاعة المحكمة، وعلى الطرف الشرقي منها كانت القاعة التي اقتيد إليها مكتوفاً، وأبقي فيها طوال الليل، وهو تحت رقابة الحرس ورقابة مقدمي اليهود، وذلك حتى ساعة ظهوره في المحكمة في صباح اليوم التالي، وفي قاعة المحكمة هذه أنكر بطرس الرب ثلاث مرات قبل صياح الديك، وهناك أيضاً عندما صاح الديك، التفت الرب ونظر إليه، وبتقوى تذكر كلمات يسوع، وكان بالفعل صبوراً، وبكى بمرارة، وعاد إلى القبو الذي يدعى في هذه الأيام «مكان صياح الديك» ومن قبل العامة «الجليلي».

وظهر المسيح على جبل صهيون لحوارييه، ولهذا جرت كتابة البيتين التاليين على جانب الطرف الأيمن من الكنيسة:

«هنا قام المسيح حسبما رئي من قبل رجال الجليل

والجليلي هو الاسم الذي سوف يعرف به هذا المكان دوماً»

وعلى الطريق الذي يقود نزولاً من صهيون إلى وادي يهوشافاط، وتحت باب جبل صهيون، وفوق هذا القبو، تمّ بناء كنيسة، هي في هذه الأيام بأيدي رهبان إغريق.

وحدث في اليوم التالي، بعد صدور الحكم غير العادل، جرى جلد الرجل المُدان في مكان قائم أمام قاعة المحكمة، وضرب وأهين وبصق عليه، وألبس ثوباً أرجوانياً، وتوّج بتاج من شوك، حسبما هو معروض بالنقش التالي الموضوع فوق تلك البقعة، ونص هذا النقش هو كما يلي:

«هنا بسخرية توجّ

الذي يحكم العالم كله»

زد على هذا، لقد تمت الإشارة الى هذا المكان أيضاً بوساطة بيعة قائمة إلى جوار الكنيسة الكبرى القائمة على صهيون، على الطرف الأيمن منها، وهي تحتوي على صورة لما حدث، مع النقش التالي:

«إن الذي جعل القديسين قديسين قد أدين بصوت المذنبين،

وهو الذي من أجل عبيده جلد ولطم،

وتحت الصليب قد سقط، لكن سمعان أعانه جيداً،

ولن يعاني من خسارة الذي يحمل ذلك الصليب المبارك».

وفي هذا المكان نفسه، وبعد قرار الحكم، وإبلاغه بالادانة والصليب، وضعوا على كتفي الرب الصليب الذي كان قد أُعدّ من أجله، وذلك من أجل حمله إلى مكان الصليب، ومن أجل أن تتحقق النبوءة التي تقول: «وتكون الرئاسة على كتفه» الخ (اشعيا: ٦/٩)، وصدف أن جاء رجلاً قيروانياً، أرغموه على خدمتهم بجعله يحمل الصليب إلى مكان الجمجمة، لأسباب طقوسية.

الفصل العاشر

وكان هنالك في ذلك الوقت في مقابل موقع المدينة القديم، موقع اسمه أكر (الجمجمة)، وكان خارج المدينة، وقد أقيم منعزلاً من أجل الذين حكم عليهم بالاعدام، وبسبب صلعمهم — لأن شعورهم قد قصت، وتغير لون جماجمهم بسبب الرياح، وجردت من الجلد ولم تدفن في الأرض — أطلق على المكان اسم الجمجمة، أو بسبب أن المجرمين كانت شعور رؤوسهم تقص، أي تنفذ العقوبات هناك، وكان هذا المكان المسمى بالعبرية الجلجلة صخرة قديمة، ومثلما الحال في كثير من المدن

في هذه الأيام، يتم عزل الأماكن المرتفعة خارج الأسوار، وتفرد من أجل تنفيذ حكم الإعدام بالذين حكم عليهم بالموت، وفي الوقت الذي أعدت فيه الصخرة لاستقبال الصليب، أبقى مولانا مكتوفاً، واحتفظ به في سجن كان موجوداً هناك بين الحقول، ولقد أخذ هذا المكان شكل بيعة، وما زال حتى هذا اليوم يدعى باسم «سجن الرب»، وهو في مواجهة الجمجمة تماماً، في الجانب اليساري المقبب من الكنيسة، وعلى كل حال، لآخرين مواقف أخرى حول هذا المكان، حسبما سمعت في تلك البقعة.

وبعد هذا، وفي موقع الجمجمة جرد الجنود الرومان الرب من مثزره، وذلك بناء على أوامر بيلاطس وعلى تحريض من اليهود، وأعطوه خلاً ممزوجاً بمرارة ليشربه، وربطوه إلى الصليب، وبينما كان يسوع يعاني الآلام فوق هذا الصليب، استقبل صديقه يوحنا — بناء على أوامره — أمه ووضعها تحت رعايته، وذلك حتى تتمكن عذراء من رعاية أخرى، لأن يسوعاً قال لأمه: «انتهي أيتها المرأة لابنك»، وهناك خلاف حول تفسير هذا، فبعضهم يقول مع يوحنا، وبعضهم يقول معه هو نفسه، ومع هذا فقد قال: «إنني أعاني من هذا منذ طفولتي، التي جاءت بسبب أمومتك، ثم إنني لم أمتلك من خلالها القدرة على صنع معجزات»، في حين قال في مكان آخر، أي في العرس في قانا الجليل: «أيتها المرأة ما الذي يمكنني أن أفعل معك؟»، فهكذا قد تكلم إلى أمه، ثم قال ليوحنا: «انته لأمك»، يعني في مسائل الخدمات العائلية والعناية.

وفي الجمجمة، بينما كان الضحية يقدم للعالم أجمع وهو يعاني على الصليب، وعد بثوب من الخلود اللص الذي صلب على يمينه وسأل الغفران، وفيما هو معلق على الصليب، طعن برمح، وتدفق منه دم مع ماء، وسببت نقاط من هذا استرداد يوجينوس لبصره (١)، ويوجينوس

١ — تبعاً للتقاليد كان يوجينوس أعمى أو بعين واحدة، لكن عندما أصابت بعض نقاط الدم والماء عينيه استرد بصره، وتحول عن دينه.

هو الذي طعنه صدوراً عن شعوره بالشفقة نحوه، وإقراراً، أي أن تقول أنه بفعله ذلك لن يعيش يسوع مدة أطول تحت العذاب، وفيما كان ربنا يموت على الصليب، ويسلم الروح بإرادته، إنهارت ستارة الهيكل من الأعلى إلى الأسفل، وانشطرت الصخرة التي كان الصليب مثبتاً عليها، من وسطها، وذلك في المكان الذي لامسه دمه، ومكّن هذا التصدع الدم من الانسياب نحو الأسفل، حيث يقال بأن آدم كان مدفوناً هناك تحتها، وبذلك يكون آدم قد تعمد بدم المسيح، وقد قيل إنه تخليداً لهذا، ترسم دوماً الجمجمة في أسفل الصليب، لكن هذا التعميد لآدم بدم المسيح لا يعني أكثر من أن آدم قد أنقذ بدم المسيح ذلك أن الكتابات المقدسة تروي لنا أنه قد دفن في الخليل، وبالحرى إنه الموت والدمار هو الذي جُسد بصورة وجه الإنسان المرعب، الذي اعتيد، على رسمه تحت قدمي المصلوب، لأن مولانا قد قال: «أيها الموت، انني سوف أكون موتك»، يعني دمارك. ومكان الجمجمة موجود على جانبك الأيمن وأنت داخل إلى الكنيسة الأكبر، وفي الجزء الأعلى منها شق الصخرة المشهور، وتجري عبادة هذا الشق باحتفاء عظيم، ويعرض بوضوح ليراه حتى في هذه الأيام الزوار، وهذا الجزء العلوي مزين بشكل جميل بوساطة الفسيفساء الأكثر أناقة، التي تمثل مشهد آلام المسيح ودفنه، مع نصوص من النبوءات التي فيها شهادة حول الحادثة.

ولاحظ في ذلك المكان نفسه، سواء أكان الصليب مثبتاً حول الثلثة التي هي ظاهرة مرئية حتى هذا اليوم، والتي تُرمى فيها تقدمات المؤمنين، أو في المكان الذي يوجد فيه صدع شاقولي داخل صخرة مستديرة، وهو أيضاً مرئي، حيث يعلن بعضهم أن هذا هو المكان، وبالفعل إن هذا المكان زيادة على ذلك واضح أنه يتماشى أكثر مع شكل الأرض وجريان الدم من طرفه الأيمن في الثلثة الموجودة في الصخرة، ويحكى أن وجه مولانا عندما كان معلقاً على الصليب، كان

دوماً ملتفياً نحو الشرق بحكم الضرورة، وبسبب وضعه.

وإلى جانب هذا المكان في الجزء الأعلى باتجاه اليمين يوجد مذبح مكرس على شرف آلام مولانا، وتلقى هذا المكان كله اسمه من الآلام نفسها، ويحتوي القسم السفلي من الجمجمة نفسها مذبحاً، وهو يدعى باسم بيعة الدم المقدس، لأنه يحكى بأن دم الرب قد جرى خلال الثلثة الموجودة في الصخرة إلى المكان المعلم في هذه الأيام عند ظهر المذبح المتقدم الذكر، وقد حدث الجريان بسبب نوع من التصدع في الصخرة، وهناك جرى تعليق مصباح يتقد دوماً، ومكتوب على المدخل الخارجي للجمجمة الآيات التالية:

«أحضر مولانا إلى هنا، جرت خيانتة، وصلب وُغسل،

ولهذا إن هذه الجمجمة الشهيرة أرض مقدسة، لأنه من المؤكد

أن دماء يسوع التي سفكت وسالت فوق هذه الرابية سوف تنقذنا

وتنجينا، وتحمينا، ولسوف تغسل ذنوبنا وتمحوها».

الفصل الحادي عشر

في وسط شرفة الكهنة، ليس بعيداً عن الجمجمة، وفي بقعة صنعت لتأخذ شكل مذبح بوساطة ألواح واقفة من الرخام مدعومة بحاجز مفتوح من الحديد له شكل صليب، وتحت ألواح الرخام هذه دوائر صغيرة على البلاط، يقولون إنها علامة على مركز الأرض، وذلك تبعاً لما جاء في النص الذي يقول: «صنع خلاصه في وسط الأرض»، ويقال بأن الرب قد ظهر في هذا المكان نفسه لمريم المجدلية المباركة، وكان هذا بعد قيامته، وهذا المكان مبجل جداً، وفيه مصباح معلق في داخله، ويذهب بعضهم إلى القول بأن يوسف (النجار) قد حصل على جسد يسوع من بيلاطس لأجل دفنه، وكان ذلك في اليوم نفسه، أي في اليوم السادس

من الاسبوع، فلقد أخذ جسده من على الصليب وغسله بتبجيل، ودهنه بدهن ثمين وبعطر، ولفه بقطعة نظيفة من قماش الكتان، ودفنه في مكان ليس بعيداً كثيراً، وكان ذلك في حديقته، في القبر الجديد الذي نحته لنفسه في الصخر، ونزل من هناك إلى رابية لتحرير الرجل، وفي هذا المكان نفسه قام الرب حقاً من الموت، وظهر هناك ملاك الرب إلى النساء المقدسات، عندما انزاحت الأحجار بعيداً، عن وجه الضريح، وأخبرهن أن يسوع قد قام حقيقة من الموت قائلاً: «اذهبن وأخبرن أخواني» وقال ثانية: «أخبرن حواريه وبطرس».

وفي اليوم نفسه، وبعدما مضت سحابة النهار، اختفى المسيح تحت مظهر رجل غريب، وظهر لاثنين من حواريه، وهما سيران وقد استبد بهما الحزن بسبب موته، وذلك على الطريق إلى نيقوبولس، أي عمواس (الأصح: قالونية) وهي بلدة على مسافة ستة أميال من القدس باتجاه الغرب، حيث استقبل من قبلهما كضيف لهما، وقد تعرفوا إليه بكسره للخبز، لكنه مالبث أن اختفى على الفور، وظهر بعد ذلك لجميع الحواريين، باستثناء توما، وكان ذلك على جبل صهيون، عندما كانت الأبواب مغلقة، قائلاً: «سلام لكم»، زد على هذا لقد ظهر على الجبل نفسه بعد مضي ثمانية أيام إلى توما وإلى بقية الحواريين، وقدم له جراحه ليشعر بها، وبناء عليه قال توما: «مولاي وربي»، وأعمال الظهور هذه مرئية على صورة، على أنها حدثت في مكان ما على جبل صهيون، أي أن نقول في قبو الكنيسة الكبرى، وهناك في الصورة تمييز في تقديم كل حادثة وعرضها، وفي هذا المكان رسم ربنا أيضاً وهو يغسل أقدام حواريه، وأظهر يسوع نفسه بعد القيامة ثلاث مرات أيضاً إلى حواريه إلى جانب بحيرة طبرية وفوقها، وكذلك في أماكن أخرى إلى جانب هذه الأماكن، وذلك من أجل أن يبرهن أنه قد قام من الموت، وأننا سوف نقوم فيها بعد.

الفصل الثاني عشر

والآبدة الحاوية للضريح المقدس لربنا دائرية تقريباً في شكلها، ومزينة في الداخل بأشكال فسيفسائية، ويدخل إليها من الشرق من خلال باب صغير، يوجد أمامه غرفة معاكسة ذات شكل رباعي تقريباً، مع بايين، يدخل من أحدهما الأشخاص الذين دخلوا إلى الآبدة، وسمح لهم بالدخول إلى الضريح، ويمر من خلال الأخرى المغادرون، ويسكن في هذه الغرفة المعاكسة حرس الضريح، وهناك فيها باب ثالث يؤدي إلى الشرفة، وهناك خارج هذه الآبدة نفسها، أن تقول عند رأس الضريح، يوجد مذبح، قد بني فوقه نوع من أنواع المظلات المربعة الشكل، وجدران هذه المظلة الثلاثة مصنوعة من الحديد الذي أخذ شكل صلبان متداخلة، ويدعى هذا المذبح باسم مذبح الضريح المقدس، وللآبدة قبة فوقها مثل الكأس، الجزء العلوي منها مغطى بالفضة، وهذه القبة شاهقة الارتفاع في الفضاء المفتوح المتجه نحو السماء، وهذا جعل من البناء الذي قامت فوقه بناء كبيراً، وهو بناء أخذ شكلاً مستديراً، لأنه قام على أرض ذات خطة دائرية، مع وجود فسحة واسعة حول الآبدة (أي آبدة الضريح المقدس)، ويوجد في نهايتها جدار متواصل مزين بصور تمثل مختلف القديسين على مستوى واسعاً، وهو مضاعف بعدد كبير من المصابيح، ويوجد في الإطار الضيق لهذا البناء الواسع ثمانية أعمدة مستديرة من الرخام، التي لها ثمان قواعد مربعة، مزينة من الخارج بالعدد نفسه من الألواح الرخامية، وهي موضوعة جميعها حول (النقطة المركزية)، وتدعم مجازاً تحت السقف الذي كما قلنا هو مفتوح في الوسط.

وفي الأسفل أبيات شعر متنوعة، يمكن رؤيتها في أماكن مختلفة، وقد كتب فوق اسكفة الضريح المقدس:

«لماذا أيتها المرأة تبكين، ولماذا تحثين أمام الذي يبتغي الموت؟

لاتلمسيني، انتبهني أنني وأنا حي جدير بأن أعبد».

وكتب فوق اسكفة المدخل الداخلي لضريح الرب:

«يشهد المكان والحارس على قيامة المسيح،
كذلك القماش الكتاني، والملوك، والفداء».

وكتب في الداخل حيث كان الرب قد مدد:

«أنزل جسد الرب من على الصليب وسط الدموع من قبل أصدقاء،
لقد تحمل الآلام من أجلنا، الذي يلبس التاج الآن»

وكتب في الداخل على مقربة من ضريح الرب:

«بالعطر مدهون هذا القبر الذي رقد المسيح فيه،
وبالفضيلة يمكن للاستقامة أن ترتفع إلى السماء،
الانسان مسرور، الأرواح تحركت، وجهنم كلها تزجر،
لأن ذنب حواء ألغاه قدوم المسيح»

وكتب في المكان نفسه، لكن في الوسط:

«هنا جرى تمديد المسيح في داخل هذا الضريح الصخري
ولقد فتح دفنه باب السماء للفانين»

ولقد قلنا أن الأعمدة التي عددناها من قبل قد صفت على شكل دائرة، لكن الآن على الجانب الشرقي اختلف عددها وصفها وترتيبها، وذلك بسبب الكنيسة الجديدة التي تبنى الآن عليهم، والتي مدخلها الآن قائم عند تلك النقطة، ويحتوي هذا المبنى الجديد، والذي أضيف حديثاً على شرفة واسعة للكهنة النظاميين، وحرّم واسع فيه مذبح مرتفع،

مكرس على شرف القيامة المقدسة، وذلك حسبها هو مشاهد من الصورة المصنوعة من الفسيفساء الموضوعة فوقه، لأن هذه الصورة تحتوي على صورة المسيح أثناء القيامة وقد خرق أبواب جهنم، وأخرج منها أبانا آدم القديم، وخارج حرم هذا المذبح، وداخل الإطار المغلق للبناء فسحة واسعة بما فيه الكفاية من جميع الاتجاهات، وذلك خلال كل من هذه الكنيسة الجديدة، وكذلك البناء القديم القائم من حول الأبدية المتقدمة الذكر، وذلك حتى تكون موائمة من أجل المسيرات التي تجري ليل كل أحد من الفصح حتى عشية العشاء الأخير، وتتجه هذه المسيرات إلى الضريح المقدس، وهي تردد نشيد «قام المسيح»، وقد نقش نص هذا النشيد على الإفريز الخارجي الأقصى للأبدية بأحرف من فضة، وعندما كان يجري ترديد هذا النشيد وغناؤه، يبدأ قادة الكورس يغنون على الفور قائلين: « لكن في المساء » الخ، وذلك مع مزموه: «تمجد روجي الرب» الخ، مع المجلد المتعلق بالقيامة، الذي نصه: «الجبار والسرمدي» الخ، مع استهلال بشطر البيت التالي: «قام الرب من هذا الضريح»، ويحتفل بالطريقة نفسها بقداس القيامة، في كل أحد، خلال هذه الآونة.

الفصل الثالث عشر

وعند رأس هذه الكنيسة الجديدة نفسها، بإتجاه الشرق، وإلى جانب دير الرهبان، مكان عميق جداً، على شكل قبة واسع جداً، يحكى أن الامبراطورة هيلانة (حنة) وجدت فيه صليب الرب، ويحتوي هذا المكان على مذبح بني على شرف هيلانة المذكورة، وقد حملت هذه الامبراطورة معها إلى القسطنطينية الجزء الأكبر من الخشبة المقدسة، لكن البقية تركت في القدس، وقد حفظت بعناية وتبجيل، في مكان محدد، في قسم آخر من الكنيسة المواجهة للجمجمة.

وصحيح أن هذا المكان قد تكرر وتقدس منذ زمن طويل بدم المسيح الذي سفك فيه، لقد أعيد تكريسه في الزمن الحالي من قبل

الكهنة المبجلين، في يوم ١٥ - تموز، وتخليداً لهذه الحقيقة كتبت أبيات الشعر التالية تحت عمل مذهب، وهي تحمل شهادة دائمة :

«تقدس هذا المكان من قبل بدم المسيح،

وتكريسنا له لا يمكن أن يجعله أكثر قداسة

وتاريخ تكريس هذه الأبنية حول هذه الصخرة

هو الخامس عشر من تموز»

وكانت القدس قد جرى تحريرها من قبل الجيش المسيحي في مثل هذا اليوم نفسه للشهر نفسه، وذلك بعدما بقيت في الأسر تحت حكم المسلمين من مختلف الأنواع، واحتفاء بذكرى هذه التحرير يحتفلون في هذا اليوم، وذلك بعد تجديد التكريس، ويكون ذلك على شكل قداس ديني، ويغنى في القداس الأول: «Jerusalem Laetare» ويغنى في ذروة قداس التكريس: «Terribilis est locus».

وجرى في اليوم نفسه أيضاً تكريس أربعة مذابح في الكنيسة نفسها، وهي: المذبح العالي، والمذبح العلوي في الجمجمة، ومذبحين في الجناح المقابل من الكنيسة، وقد كرس أحدهما تشريفاً للقديس بطرس، وكرس الآخر على شرف القديس ستيفن رائد الشهداء.

ويقومون في اليوم التالي أثناء تقديم المساعدات وخلال الصلوات بذكر مهيب لجميع المؤمنين الموتى، وبشكل خاص الذين سقطوا بمناسبة اقتحام القدس، وهم الذين مكان دفنهم مشهور جداً، وهو القائم قرب الباب الذهبي، وتصادف بعد ثلاثة أيام ذكرى الدوق النبيل غودفري، وهو صاحب الذكرى الطيبة، فهو قد كان مقدم وقائد تلك الحملة المقدسة، وقد ولد من أسرة ألمانية، وتجري مراعاة ذكره بشكل مهيب من قبل المدينة، بتقديم مساعدات وافرة في الكنيسة الكبيرة، وفقاً

لما كان قد نظمته أثناء حياته.

لكنه يكرم في هذه المدينة بهذه الطريقة لشخصه، مع هذا إن الاستيلاء على المدينة لا يعزى فضله إليه مع ألمانته، الذين لم يكن نصيبهم صغيراً في الجهد والتعب في تلك الحملة، بل إنه يعزى إلى الفرنسيين وحدهم، ولهذا استخف بعضهم بأمتنا ولم يعترفوا بأنهم شوهوا ما نقش على قبر ويغر Wigger (أوويكر Wicker صاحب سوابيا) الشهير، الذي قام بأعمال رائعة كثيرة، لأنهم ما كان بإمكانهم إنكار أنه كان ألمانيا، ومن ثم كتبوا نقشا أفاد بأن القبر يعود إلى فارس فرنسي أو آخر، وهذا يمكن رؤيته في هذه الأيام، لأن تابوته مرئي، وما زال موجوداً في زاوية قائمة بين الكنيسة الكبيرة، وبيعة القديس يوحنا المعمدان، وقد حذف اسمه وألقي جانباً وكتب اسم آخر هناك، وكبرهان وكمثل على النكران الذي عومل به شعبنا، ومدحاً للفرنسيين، من الممكن قراءة النقش التالي على الطرف الخارجي للأبدة:

«ألف سنة ومائة سنة، إلأسنة،

منذ أن حملت مريم المباركة بابنها الرائع،

عندما أشرقت شمس الخامس عشر من تموز،

نيلت القدس بقوى الفرنجة»

وجواباً لهذا كتبت:

«ليس الفرنجة، بل المحاربون الألمان الأعظم شجاعة،

أنقذوا القدس وحرروها من نير الكفرة،

كان ويغر ألمانيا، وهذا ما يعرفه كل فرنجي،

وألمانيا أيضاً كان غونترام وكذلك الدوق غودفري،

ومن السهل البرهنة على أن كلماتي صحيحة».

وعلى كل حال بما أن الدوق غودفري وأخاه بلدوين الذي اتخذ ملكاً في القدس من بعده، كانا من رجال بلادنا، ثم بما أن قلعة من شعبنا بقيوا هناك معهما، وعادت أعداد كبيرة من الآخرين بسرعة كبيرة إلى بلادها الأصلية صدوراً عن شدة شوقها إليها، وقعت القدس في أيدي أبناء الأمم الأخرى، هذا ومعروف أن الدوق غودفري رفض التاج من باب التواضع، ثم إن أبناء الأمم الأخرى الذين آلت القدس إليهم هم من: الفرنسيين، واللوريين، والنورمانديين، والبروفناساليين والأوفرانتيين، والايطاليين، والاسبانيين، والبرغنديين، الذين أسهموا في الحملة الصليبية (الأولى)، ومع هذا لم يتركوا في المدينة ولاحتى جزئاً صغيراً في أصغر شارع، وعزلوه جانباً لصالح الألمان، وذلك بسبب أن الألمان أنفسهم لم يهتموا بهذه المسألة، ولم تكن لديهم نية بالبقاء هناك، ولهذا لم تذكر أسماؤهم قط، وعزي فخار تخلص المدينة المقدسة إلى الفرنجة وحدهم، وهؤلاء الفرنجة مع أبناء الأمم الأخرى المتقدمة الذكر، يسيطرون في هذه الأيام على السلطة ويتصرفون بشؤون الحكم في القدس والمنطقة المجاورة، وفي الحقيقة كان من الممكن لهذه المنطقة المسيحية أن تمتد حدودها منذ وقت طويل مضى إلى ما وراء النيل نحو الجنوب، وإلى ما وراء دمشق نحو الشمال، لو كان فيها عدداً كبيراً من الألمان كما هو الأمر في المقاطعات الأخرى، وعلى كل حال دعونا الآن نتخلى عن هذه الإعتبارات، ومن ثم العودة إلى موضوعنا المحدد.

الفصل الرابع عشر

ويوجد على جبل الزيتون مكان صعود الرب، وهو معلم في وسط كنيسة قد بنيت منذ زمن طويل فوق البقعة، وهناك فتحة في سقف هذه الكنيسة من أعلاها، وحمل من هذا المكان وسط الغمام إلى السماء، في وقت وقفت فيه أمه وحواريوه وأناس آخرون من الجليل، ينظرون لصعوده

بدهشة، وكان من قبل قد أمر حواربيه بعدم مغادرة القدس قبل أن يتسلموا من الأب روح القدس الموعودة، والاطمئنان، حتى يستكملوا سكون أنفسهم، وحدث هذا في اليوم العاشر بعد صعود الرب، وفي اليوم الخامس عشر إثر قيامته، أي في يوم عيد الحصاد، ووقتها كان الحواريون مقيمون في إحدى غرف المبنى المتقدم الذكر، فوق جبل صهيون، وهو المكان الذي يقال بأن ربنا قد تعشى فيه (العشاء الأخير)، وكانوا أثناء اقامتهم ينتظرون تنفيذ الوعد، وهذا كله مرئي حتى هذا اليوم في المكان نفسه، في صورة فسيفسائية موجودة في داخل قبة حرم الكنيسة المتقدمة الذكر، ففي هذه اللوحة مثلما رسم في الصورة، الحواريين الاثني عشر مع صورهم الشخصية، وروح القدس نازلة فوق رأس كل واحد منهم على شكل ألسنة من اللهب، مع النقش التالي: «فجأة جاء صوت من السماء»، الخ.

وفي الكنيسة نفسها، على جهتك اليمنى وأنت داخل إليها، هنالك مكان يدعى مذبحاً، يتألف من ألواح ملمعة من الرخام، مصنوعة على شكل قبة، قائمة على البقعة التي يقال أسلمت عليها مريم المباركة الروح، وغادرت هذا العالم العالي، وهناك أيضاً ابنها، ربنا يسوع المسيح مثلاً على صورة على الجدار المقابل، وهو يتسلم روحها بحضور حواربيه، ويوجد حول المبنى الذي شيد فوق هذا المكان النقش التالي: «حملت الأم المقدسة للرب ممجدة فوق تراتيل الملائكة».

الفصل الخامس عشر

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، ووصفنا بشكل رئيسي الأماكن التي وقعت فيها، ووصفنا أيضاً الأماكن المجاورة لها، دعونا نعود إلى مدينة القدس المقدسة نفسها، لتتولى وصف الأماكن المقدسة الجديدة، والأماكن المبجلة القديمة، التي أعيد إعمارها حديثاً وكرست لخدمة الديانة.

وبالمناسبة لنلاحظ أن يهوذا تسلم في هذه المدينة ثلاثين قطعة من الفضة ثمناً لحياته لرينا، وبهذا المبلغ شري الحقل المسمى أكلكداما — أي حقل الدم — وعزل ليكون مدفنًا للغرباء حتى هذا اليوم، وهذا الحقل قائم على الطرف الأيمن من جبل صهيون على طول الطريق الذي يقود إلى بيت لحم.

وعبر هذا الحقل، وملاصق له يقوم جبل جيون Gion ، الذي عليه تسلم سليمان التاج الملكي، كما جرت العادة بمسح الملوك الآخرين على ذلك الجبل.

ويلاحظ أن ربنا أقام فتاة من الموت في وسط القدس، كما وصنع عدداً من المعجزات فيها، وعبر كنيسة الضريح المقدس، التي وصفناها أعلاه، وفي الطرف المواجه (للطريق) المتجه نحو الجنوب، هناك كنيسة جميلة بنيت تشريفاً ليوحنا المعمدان، ومضاف إليها مشفى فيه غرف مختلفة تحتوي في داخلها على حشد كبير من الناس المرضى، من النساء والرجال، الذين يلقون العناية فيها حتى يستردوا صحتهم يوماً مقابل نفقات عالية جداً، وسمعت عندما كنت هناك وعلمت أن عدد هؤلاء المرضى قد بلغ الألفين، يموت منهم أحياناً خلال يوم واحد وليلة أكثر من خمسين، وفي الوقت نفسه يدخل إليها ويصل أعداد جديدة، وماذا يمكنني أن أقول أكثر؟ فهذا المشفى يزود بالأطعمة أعداداً كبيرة من الناس في الخارج بقدر الذين هم في الداخل، وذلك إلى جانب ما يخصصه عدده من أعمال الإحسان التي تقدم يومياً للناس الفقراء، الذين يتسولون طلباً للخبز من باب إلى باب، ولا يسكنون في بيت، وعلى هذا من غير الممكن جمع المبلغ الإجمالي لنفقاته وحصره حتى من قبل مديره والعاملين فيه. وبالإضافة إلى هذه الأموال التي تنفق على المرضى وعلى الناس الفقراء، تقوم دار رهبنة هذا المشفى بالإنفاق، في قلاعها العديدة، على عدد كبير من الناس، الذين تدربوا على جميع أنواع

التمارين العسكرية، من أجل الدفاع عن أراضي المسيحيين ضد غزوات المسلمين، وإلى جانب كنيسة القديس يوحنا هذه، يوجد دير للراهبات بني على شرف مريم المباركة، ورأس هذا الدير ملاصق تقريباً لأبنية الكنيسة المتقدمة الذكر، وهو يسمى: دير القديسة مريم الكبير، وليس بعيداً عن هناك، وعلى الطرف نفسه من الشارع نفسه، هناك دير للربان، بني أيضاً على شرف مريم المباركة، ويدعى أيضاً باسم دير القديسة مريم لللاتين، ومحفوظ فيه وسط تبجيل عظيم رأس القديس فيليب الرسول، وهو أيضاً معروض للذين يأتون ليتعبده، ويطلبون رؤيته.

وفي الشارع الذي يقود من برج داود نزولاً من التلة نحو الهيكل، وعلى الطرف الأيمن، على مقربة من برج داود أيضاً هناك دير للربان الأرمن، بني على شرف القديس سابا، وهو راعي الدير الأعظم احتراماً، لأنه عندما كان مايزال حياً، صنعت له العذراء مريم المباركة كثيراً من المعجزات، وفي هذه المنطقة نفسها، وليس بعيداً، وفي أسفل النزول خلف شارع آخر، هناك كنيسة كبيرة بنيت على شرف القديس جيمس الكبير، وهي مسكونة من قبل الرهبان الأرمن، ولديهم في المكان نفسه مشفى واسعاً لاستقبال الفقراء من شعبهم، وفي هذا المشفى محفوظ وسط تبجيل عظيم رأس ذلك الرسول، لأنه قتل صبراً من قبل هيرود، وقد وضع جسده من قبل تلاميذه على ظهر سفينة عند يافا، وقد حملته إلى غاليليا، غير أن رأسه بقي في فلسطين، وهذا الرأس معروض في هذه الأيام في هذه الكنيسة للحجاج.

وأنت نازل في الشارع نفسه، وإلى الباب الذي يؤدي إلى الهيكل، وعلى الطرف الأيمن، هناك نوع من أنواع الممرات، خلال ساباط طويل، يوجد في شارع مشفى وكنيسة بنيت حديثاً تشريفاً للقديسة مريم، وهي تعرف باسم بيت الرهبان الألمان، ومن النادر أن يتلقى هذا البيت أية مساعدات من الذين يتكلمون لغة أخرى غير الألمانية.

الفصل السادس عشر

ويوجد في الشارع نفسه، قرب الباب الذي يذهب إلى جبل صهيون، بيعة، بنيت تشريفاً للقديس بطرس، فيها قبو عميق جداً ومظلم، حيث يقال فيه سجن القديس بطرس، وبقي تحت الرقابة المشددة بناء على أوامر مشددة من هيرود، وقد صفد بسلاسل من حديد، وتولى حراسته الجنود من كل من الداخل ومن الخارج، لكن هذا الحرص كله لم يفد شيئاً أمام القدرة الربانية، ففي الليلة نفسها، وبوساطة واحد من الملائكة، اقتيد القديس بطرس من قبل الملاك، وخرج دونها أذى، وذلك بعدما تقطعت سلاسله، وفتحت أبواب السجن، وكذلك أبواب المدينة، وقد قال: «عرفت الآن بشكل مؤكد أن الرب قد أرسل ملاكه»، الخ. وعند مدخل البيعة، كتبت الأبيات الشعرية التالية، شارحة المعجزة التي صنعت هناك:

«قم يا بطرس، وخذ رداءك، لقد تحطمت سلاسلك،

قم غادر هذا المكان، فقد غدوت حراً بفضل السماء».

«علمت الآن في الحقيقة، أنني قد تحررت من السجن،

حمداً لحب المسيح لي، ذلك أنه خلصني من الأصفاد».

وفي قبو القيود في هذه الكنيسة، قمت في يوم عيد القديس بطرس بالاحتفال بقديس، مع الدعاء المناسب للاستخدام في ذلك المكان وهو: «أيها الرب الذي سببت إطلاق سراح القديس بطرس من قيوده، ونجيته دونها أذى» الخ، وهذه البيعة بيعة فقيرة، وهي ليست غنية بالأعطيات أو مزينة بالزينة اللاتقة بمثل تلك المعجزة العظيمة التي حدثت لرئيس الحوارين، ويدعى الباب الذي يقود نحو جبل صهيون باسم باب

الحديد، وقد فتح عن طواعية للملاك ولبطرس.

وفي مقابل ساحة الهيكل، أي على الجانب الشمالي، قرب الباب الذي يذهب منه الانسان إلى وادي شعفاط، هناك كنيسة واسعة بنيت تشريفاً للقديسة حنة، وفيها يمكن رؤية كيف تمّ بالقدر الرباني وبلاانذار ولادة العذراء المباركة منها ومن يواكيم، وحسبما هو مروي بتفصيل وطول عظيم في حياة القديسة حنة، التي يحتفل بعيدها في تلك الكنيسة في يوم عيد القديس جيمس الكبير، بأبهة عظيمة، فقد كنت أنا شخصياً بين الحضور. وتتم عبادة الرب في هذه الكنيسة، من قبل معهد للراهبات المكرسات، اللائي آمل أن يكن مقبولات، وإذا ما غادر الانسان هذه الكنيسة، يجد على طرفه اليساري، على مسافة ليست كبيرة، أسفل زقاق هناك، باب بركة الضأن، أو Piscina Probatica ، ومياه هذه البركة اعتاد ملاك أن يحركها في أوقات محددة أيام يسوع، وكان أي انسان مريض يدخلها بعد تحرك الماء فيها يشفى من أي مرض كان يعاني منه، وقد عرفت باسم «بركة الضأن» Probaton ، بالاغريقية، لأن العادة جرت وقت الأضاحي بغسل الأوعية الداخلية للأضاحي فيها: وفي الحقيقة كان لون الدم أحمر بسبب (دماء) الأضاحي التي نظفت هناك، وأمام بركة الضأن هذه أعاد يسوع إلى الصحة، رجلاً مريضاً، بقوله له: «خذ فراشك واحمله واذهب».

ومن هذا الشارع نفسه، الذي يقود إلى خارج باب شعفاط، وفوقه في الشارع الآخر الذي يتفرع عن هذا الشارع، وعلى الطرف اليمين، صعوداً باتجاه سور المدينة يصل الانسان إلى كنيسة بنيت تشريفاً للقديسة مريم المجدلية، وفيها رهبان يعاقبة، وقد تحدثنا عنها بكل مانعرفه؛ ويمضي الانسان عبر هذا الشارع المتقدم الذكر، مباشرة من باب شعفاط إلى الشارع الذي يؤدي إلى باب القديس ستيفن، ومن هنا (يمضي الانسان) من الاتجاه الشمالي نحو الشوارع الثلاثية، أو بالحري الشوارع الكثيرة

الفروع والتشعبات، التي تحتوي جميع الأشياء التي هي للبيع (الاسواق)، وتمتد حتى واجهة الكنيسة الكبيرة للضريح المقدس، وأقول يوجد في وسط هذا الشارع، قوس حجري قديم عبر الشارع، استراحت تحته مريم العذراء المباركة، مع ابنها المبارك، الذي كان طفلاً رضيعاً، وأنها قد أرضعته هناك، وجرى تخليد ذكرى هذه الحادثة بوساطة صورة، وقد عزل المكان وأغلق بشكل لطيف دون المارة، لأنه مكان مقدس، لكن لم تعمر هناك كنيسة لرعاية المكان وتعبده بالتبجيل اللائق.

ويوجد أيضاً عبر هذا الشارع الذي يقود من باب القديس ستيفن إلى طرف كنيسة الضريح المقدس، وليس بعيداً عن شمال الضريح المقدس، شارع صغير، فيه في كنيسة عائدة للسريان يرقد الجسد المبارك للشهيد المقدس شاريتون Chariton ، وهو محفوظ هناك وسط تبجيل عظيم من قبل الرهبان السريان، وجسده في هذه الأيام كامل تقريباً، وهو محفوظ في داخل تابوت خشبي، يرفع غطاؤه، عندما يعرض أمام الحجاج ليره. وكان هذا الأب المبارك قد قتل من قبل المسلمين في داخل ديره (قرب تقوع) على ضفاف نهر الأردن، وقتل معه رهبانه، لأنه اعترف باسم المسيح.

الفصل السابع عشر

وخارج باب القدس الذي يتطلع نحو الغرب، وهو الجانب الذي جرى فيه تحرير المدينة من قبل اسرائيل الثاني، سقط رائد الشهداء المبارك ستيفن، بعدما أنهكه الرجم بالحجارة، وقد نقل جسده من هناك إلى كنيسة صهيون، ودفن فياين نيقوديموس وجائيل، وأبيون، ثم أعيد دفنه فيما بعد في القسطنطينية، ودفن أخيراً في روما بوساطة القديس لورانس، ولهذا كتب على قبره بيت الشعر التالي:

«أرسلت بيزنطة إلى هنا ضحية صهيون البري».

وخارج باب القدس — إلى جانب بركة (ماملاً) — المتجه نحو الجنوب يمكن رؤية الكهف الذي حمل إليه أسد أجساد اثني عشر ألفاً من الشهداء الذين هلكوا على أيدي كسرى، وكان ذلك بناء على أمر الرب القدير، ولهذا أطلق على الكهف اسم «مدفن الأسد».

وعلى ميلين من القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى شكيم، يقوم جبل جبع، في منطقة سبط بنيامين.

وعلى ميل من القدس، على كتف جبل الزيتون، يقع جبل (بطن الهوا) العدوان الملاصق له، لكنه منفصل عنه بواسطة الطريق الذي يقود من شعفاط خلال بيت فاجي إلى بيت عنيا، وهو يدعى باسم جبل «العدوان» (بطن الهوا)، لأن سليمان أقام هناك صنم مولوخ Moloch، وعبدته.

وملاصق للقدس تماماً، وعلى جانب الهضبة، تحت قصر سليمان، في وادي شعفاط، تقوم بركة سلوان، التي إليها أرسل يسوع الرجل الأعمى، الذي رد إليه بصره، ليغسل عيناه فيها، وذهب وغسل عيناه واسترد بصره، وهكذا فسرت كلمة سلوان بـ «أرسل»، وليس إلى هذا الماء نفسه أرسل نعمان أمير سورية من قبل النبي اليجيا، بل أرسل إلى الأردن، على أمل أنه إذا ما اغتسل فيه ثلاث مرات، يمكن أن يبرأ من جذامه، وقد نظر إليه باستخفاف وقال: «أوليس أبانا وفرفر» — النهران الموجودان في بلاده — «نهران أفضل من هذا»؟ ووافق على كل حال أخيراً على الأخذ بنصيحة خادمه، حيث نفذ أمر النبي فشفي، وسلوان تبعاً لتقاليد السريان، ينبع من سيلو، ويسيل ماء سلوان بصمت، لأنه يجري من تحت الأرض، وعلى مقربة من سلوان هناك شجرة بلوطة روجل، التي دفن تحتها إشعيا المقدس.

وقد دفن في وادي شعفاط جيمس المبارك ابن ألفيوس، الذي حسبنا

روينا من قبل قد رمي من أعلى الهيكل، وهناك بيعة جميلة في هذا الوادي نفسه، فيها برهان على دفنه، وقد كتبت عليها الأبيات التالية:

«هاجم الكفار اليهود ابن ألفيوس

وهو من أجل اسم الرب، وحباً بالموت فعل.

رمي ابن ألفيوس من أعلى الهيكل

وبأيد تقية دفن هنا أخيراً»

وعلى كل حال نقل رسول الرب فيما بعد من هنا إلى القسطنطينية. ودفن في وادي شعفاط الملك يهوشافاط تحت هرم حاد الذروة، ومن هذا الملك نال الوادي اسمه، ومعنى هذه التسمية هو «وادي الحكم»، وذلك إشارة إلى النص الذي يقول: «سوف أجمع معاً جميع الأمم»، وفي هذا الوادي نفسه الكثير من الكهوف في كل جزء منه، يعيش فيها رجال دين حياة النساك.

وتعود ملكية الوادي بأكمله إلى الدير الذي يقوم في الجزء الأعلى من الوادي القائم فوق نهر قدرون الصغير، وذلك إلى جانب الحديقة التي غالباً ما التقى فيها ربنا مع حواريه، ومعرض في قبو هذا الدير — في الوقت الحالي — ضريح العذراء مريم المباركة، الذي سوف نتحدث عنه بشكل أطول.

الفصل الثامن عشر

في اليوم الذي حدث فيه انتقال جسد العذراء مريم الأعظم مباركة، حمل هذا الجسد إلى الكنيسة القائمة في وادي شعفاط، وكان الاثنى عشر حوارياً من حواريه الرب جميعاً حضوراً، وذلك بناء على رغبتها، وكانوا هناك حيث دفنت بالتشريف اللائق في وسط القبو، المزين بأعمال رخامية رائعة، ولوحات مرسومة جميلة جداً بالألوان المختلفة، وضحيتها — مع أن

جسدها لم يعد فيه — بهي جداً بسبب لوحاته الرخامية، وما يشبه بناء قبة من الذهب والفضة، فبها مغطاة، وقد نقش عليها ما يلي:

«من هنا ومن وادي شعفاط، ممر يؤدي إلى السماء،

كانت العذراء هنا مرة راقدة، وهي الفتاة موضع ثقة الرب،

من بقعة غير محددة، من هنا قامت، ولها فتحت بوابة السماء،

للفقراء المذنبين وللدروب، أضاءت أمهم آمالهم».

وجسدها المبارك ليس هناك، بسبب هو كما أخبرنا، أن القبر عندما جرت زيارته في اليوم الثامن تماشياً مع العادة العبرية، ونظر في داخله لم يكن الجسد موجود هناك، ومن هذا نشأ اعتقاد قوي أنه ليست روحها فقط بل جسدها كذلك أقيم وسط مجد عظيم من قبل ابنها ورفع إلى السماء، الأمر الذي أشار إليه جيروم بشيء من الشك، بدلاً من التأكيد، وجاء ذلك في رسالة مطلعها: «أنتم ترغماني يابولا ويايوستوخيوم»، الخ. وهذا على كل حال ربما ممكن، لأننا نعتقد أن مريم العذراء المباركة، وحدها — لأنها وجدت جديرة بحمل خالقها — جديرة بكل تشريف وتطويب، وذلك بالنسبة لكل من جسدها وكذلك روحها، وبما أن ابنها حي أبداً وكله قدرة، فقد كان راغباً وقادراً على فعل هذا، وضحيتها مشرف أيضاً وتجري عبادته، لأن هناك بعض الترابط والتشابه بمجده ومكانته، والذي يقدم لضريح ابنها المبارك. ومن الممكن أن نرى عند مدخل القبر الصورة التالية مع النقش التالي:

«أيها الوارث للحياة، تعال، واحمد الرب، الذي

حياتنا له، وهو الذي قرر مصيرنا».

ويوجد على الجانب الأيسر صورة جيروم، وهو حامل للنقش التالي:

(هذا النقش مفقود في جميع المخطوطات)

والآن ضريحها معروض للمشاهدة في هذه الأيام في وادي شعفاط، ولقد شهدناه أثناء حضورنا، في وسط الوادي، حيث هناك كنيسة بنيت على شرفها، بتزيينات رخامية رائعة، ولقد تأكد من قبل الجميع أنها قد دفنت هناك، ويوجد عند الطرف الأيمن من المدخل إلى هذه الكنيسة تمثال لباسيل المقدس، وهو يحمل هذه الكلمات:

«أشد أعداء أم الرب

يوليان المرتد قد قام

الأول في القوة وفي المكان

من العرق الكافر المتوحش،

وبعزيمة من أم الرب، هو

قد هلك في طغيانه.

المجد دائماً أبداً

إلى الملكة التي نعبد،

والتي دفنت مرة تحت هذه الأرضية».

وهذه الأماديع وأما ديع أخرى كثيرة قيلت بالعدراء، قد وضعت عند مدخل القبو، وفي الداخل على الجدران التي تحيط بالضريح وعلى السقف كتبت النقوش التالية: على الجدار في الجهة اليمنى: «حملت مريم العدراء إلى قصر في الجنة»، الخ. زد على هذا، جاء على وصلة إطار الكنيسة النص التالي: «انتبهي أنت جميلة، يا حبيبتى، انتبهي أنت جميلة، أنت لك عيتي حمامة»، الخ، حتى إلى «ليلك الوادي»، وأضيف إلى هذا: «بنات صهيون قد رأينها»، «من مكان الصدق هذا صعدت العدراء الرائعة إلى السماء، أتمنى عليكم أن تبتهجوا، لأنها صعدت إلى

الأعالي بدون كلام وحكمت إلى الأبد مع المسيح»، وكتب على الجزء الأمامي: «حملت مريم إلى السماء» وعلى الجزء المقابل: «تمجدت أم الرب المقدسة»، الخ، وفي الوسط: «حشود الملائكة واقفة حول مريم المباركة، وهي تنظر إلى العرش، معلنة أنها أخذت طريقها إلى مملكة السماء».

ويوجد عند سفح جبل الزيتون، على الجانب الأقرب إلى المدينة، حيث الآن ضريح العذراء مريم المباركة، يمكن رؤية قرية صغيرة تدعى جيساني.

الفصل التاسع عشر

بيت لحم الذي يعني اسمها «بيت الخبز» هي مدينة في اليهودية، وهي تعرف أيضاً باسم إفراتا، وهذا ليس بدون سبب، لأنه من زهرة الناصرة تنامت هناك وجاءت ثمرة الحياة، وأعني بذلك من العذراء مريم، جاء ابن الرب الحي، يسوع المسيح، الذي هو خبز الملائكة والحياة بالنسبة لجميع العالم، ويوجد في بيت لحم، في مكان ولادته المزود الذي تمدد فيه الطفل يسوع نفسه، ومن هنا كان قول النبي: «يعرف الثور أصحابه، وتعرف الأتان مزود صاحبها»، وجرى حمل التبن من هذا المزود — أي التبن الذي تمدد عليه الطفل يسوع، وأخذته الامبراطورة هيلانة إلى روما، وهو معروض وسط مظاهر التبجيل في كنيسة القديسة الكبيرة، ومن الممكن أن نقرأ في موضع مهد ربنا البيتين التاليين وقد نقشا داخل عمل فسيفسائي مذهب:

«من محاسن مقدّم الملائكة التي لانظير لها،

حملت العذراء هنا بالرب نفسه»

وإلى بيت لحم جاء الملوك الثلاثة من الشرق يقودهم النجم الجديد، لعبادة الطفل يسوع، ولكي يقدموا احترامهم لملك الملائكة قدموا له الهدايا الرمزية المؤلفة من الذهب والبخور والمر، وفي بيت لحم والمناطق

المجاورة لها، أمر هيرود بقتل الأطفال الأبرياء، ويرقد القسم الأكبر منهم مدفونين في الجانب الجنوبي، على بعد أربعة أميال من بيت لحم وعلى ميلين من تقوعه.

وفي بيت لحم، دون الكنيسة نحو الأسفل، وليس بعيداً عن مزود ربنا، يرقد جسد القديس جيروم، وجسد باولا، وجسد يوستوخيوم، اللذين كتب إليهما جيروم نفسه رسائل، وهما مدفونان مثله في بيت لحم.

وعلى مسافة ميل واحد عن بيت لحم أضواء النجم للرعاة عندما ولد الرب، وظهر ملاك وهو يردد قائلاً: «المجد للرب بالأعالي وعلى الأرض السلام وللناس المسرة». (لوقا: ١٤ / ٢)، وعلى بعد ثلاثة أميال من بيت لحم تقوم تقوعه، وهي بلدة عاموس الذي يرقد مدفوناً هناك، وعلى أربعة أميال من بيت لحم وباتجاه الجنوب تقوم كنيسة القديس شارتون، حيث عندما غادر هو نفسه من هذا العالم هلك رهبانه معه، ذلك أنه كان معلمهم التقي، وكانوا قد تلقوا من قبل انذاراً من الرب، لأنه كان أباً تقياً لهم، وفي الحقيقة كانوا يهيمون حباً به، ولهذا لم يرغبوا بالعيش بعد موته، وفي الكنيسة المتقدمة الذكر يمكن رؤية هياكلهم العظمية في الأوضاع التي كانوا عليها، عندما استبدت بهم آلام الحزن عند موت أباهم، وقد نقلوا منذ أمد إلى القدس.

وعلى مسافة ميل من بيت لحم، وعلى الطريق الذي يقود إلى القدس، تقوم قبة راحيل، وهو المكان الذي توفيت به راحيل، بعد حملها ببنيامين، وقد دفنت هنا من قبل زوجها يعقوب، في قبر وضع يعقوب فوقه اثنتي عشرة صخرة عظيمة، وذلك بمثابة ذكرى ابنائها الاثني عشر، والهرم الذي تشكل من هذه الصخور يمكن رؤيته من قبل الذين يعبرون من هناك.

الفصل العشرون

عندما كان ربنا في التاسعة والعشرين وثلاثة عشر يوماً من عمره — حسبما يروي لنا لوقا — ولدى شروعه بدخول سن الثلاثين، ورغبة منه في وضع نهاية للاختتان، وليجدد الانسان العجوز بالماء المقدس، ذهب إلى الصحراء إلى يوحنا، الذي كان رائده، وتعمد من قبله في نهر الأردن، في مكان يبعد ثلاثة أميال عن أريحا، وهناك سمع صوت الآب يردد فوقه قائلاً: «هذا هو ابني الحبيب» الخ؛ وينبع نهر الأردن من نبعين هما: «أر» و «دان»، وهو ينبع عند سفح جبال لبنان، وبعدما يسير لمسافة طويلة يتشعب، ثم تعود مياهه إلى الاندماج قرب جبال جلبوع، وزيادة على ماتقدم، عندما كان المسيح يتعمد، جاء الروح القدس، وحلق فوقه على شكل حمامة، وبذلك أظهر، أنه هو، وليس يوحنا الذي يمتلك قوة تقديس الماء، وقرب البقعة نفسها، أي أن تقول على مسافة ميلين من أريحا، وعلى الجانب الأيسر، توجد الصحراء التي اسمها القرنطل، وعلى رابية صخرية فيها عمل المسيح صيامه الذي دام أربعين يوماً وليلة، وعندما كان جائعاً هناك جاء الشيطان لاغرائه قائلاً: «قل أن تصير هذه الحجارة خبزاً» (متى: ٤/٣)، ويقوم على ميلين من القرنطل باتجاه طبرية الجبل العظيم الارتفاع، الذي حاول الشيطان فيه ثانية إغراء المسيح، حيث أراه جميع ممالك الدنيا وقال له: «كل هذا سوف أعطيه لك»، الخ.

وعلى مقربة من القرنطل نهر صغير يصدر عن النبع الذي شفى فيه ألسيوس المقدس المرأة العاقرة، وجعله حلاً بدلاً من المارة، وقبل أريحا، وعلى طرف الطريق كان هناك متسول أعمى، وعندما سمع أن يسوع كان ماراً عبر الطريق صرخ: «يا يسوع، أنت يا بن داود، ارحمني»، وكان جديراً أن يتلقى النور منه في كل من الخارج ومن الداخل، وعلى مسافة ثلاثة عشر ميلاً من القدس باتجاه الشمال تقع أريحا، وهي مدينة راحاب العاهرة، التي استضافت أربعة من الجواسيس من بني اسرائيل، وأنقذت حيواتهم، وأخفتهم وأطعمتهم، وهي أيضاً مدينة زاخايوس (زكريا)

الذي عندما سمع بأن يسوع كان يسير في تلك الأطراف، ولأنه كان قصير القامة فقد تسلق شجرة جميز، حتى يمكنه أن يراه، ويتحدث إليه، حاكماً على نفسه وسائلاً من أجل العفو، وهي أيضاً مدينة الأطفال الذين سخرُوا من الياَس المقدس، عندما كان ذاهباً إلى القدس، وقالوا له: «ابتعد فأنت أصلع الرأس»، النخ.

وعلى ثلاثة أميال من أريحا، وعلى ميلين من الأردن تقوم بيت حجلة، التي فسر اسمها على أنه يعني مكان الدائرة، لأنه في هذا المكان، وحسب عادات النذب، عمل أبناء يعقوب والناس معهم دائرة حول قبره، عندما جلبوه من مصر إلى الخليل.

وعين الجدي، في منطقة سبط يهوذا، حيث أخفى داود نفسه في أيلون Aulon ، أي أن تقول في سهل منطقة أريحا، وعلى كل حال هناك قرية يهودية واسعة إلى جوار البحر الميت اسمها عين الجدي، وفيها ينمو شجر البلسم، ومنها يصدر، وهذا هو السبب الذي دعا إلى إطلاق اصطلاح عين جدي على الكروم.

الفصل الحادي والعشرون

وعلى الجانب الآخر من القدس، وباتجاه الجنوب قليلاً، تقوم مدينة الخليل، التي كانت في يوم من الايام المدينة الرئيسية في فلسطين، ومكان إقامة العمالقة، وهي على مسيرة يوم واحد من القدس، وقد أعدت هذه المدينة ونظمت لتكون مدينة كهنة ومدينة لاجئين في منطقة سبط يهوذا، ففي تلك المنطقة صنع الخالق أبانا العام آدم من طين، ونفخ فيه روح الحياة، وتدعى الخليل باسم «قرية — أربعة» حسبما ورد باللغة السريانية، ومعنى هذا وتفسيره «مدينة الأربعة» فمعنى كلمة «قرية» هو «مدينة» و (Arba) «أربعة» وسبب هذا أن أربعة من الآباء «البطاركة» قد دفنوا في الكهف المزدوج الموجود هناك، وهم: آدم وإبراهيم،

واسحق، ويعقوب، مع زوجاتهم، أمهاتنا: حواء، وسارة، ورفقة، وليا، وتقوم الخليل الآن على مقربة من وادي الدموع، وعرف وادي الدموع بهذا الاسم، لأن آدم ناح هناك على ابنه هابيل لمدة مائة سنة، وحدث هناك أيضاً فيما بعد، أن تعرف — بناءً أمر من ملاك — على زوجته، التي حملت منه فيما بعد ابنه شيث، الذي انحدرت منه أسرة المسيح، وعلى مسافة ميلين من الخليل يقوم ضريح لوط، ابن أخى إبراهيم، وفي الخليل حقل، التربة فيه حمراء، ويحفر هذا من قبل السكان، وتؤكل تربته من قبل السكان ويصدرونها إلى مصر، ويبيعونها هناك بثمن مرتفع، وبأمر من الرب، نجد هذا الحقل الذي يحفر عميقاً وعريضاً، يتجدد ويعود كما كان دوماً في نهاية السنة.

وعلى مقربة من الخليل يوجد جبل ممرا، الذي عند سفحه توجد شجرة تدعى «دربس» Dirps أي البلوطة المقدسة والخضراء دوماً، أو البلوطة فقط، وهي التي سكن إبراهيم تحتها لوقت طويل، وتحتها رأى الملائكة الثلاثة، وقد تعبد واحداً منهم، وأكرم وفادتهم بقدر ما أمكنه، وطمأنهم وأكل معهم.

وأوضح جيروم أن البلوطة المتقدمة الذكر ظلت موجودة حتى أيام الامبراطور ثيودوريوس، ومنها تفرعت البلوطة الموجودة الآن، وهي مرئية في هذه الأيام ومحط رعاية شعب ذلك المكان وعنايته، ومع أنها مازالت تمتلك سمات الإبراء كما تبرهن من خلال حقيقة أنه إذا ما قام فارس وحمل قطعة منها معه، فإن حصانه لن يكبو أبداً، وكانت الخليل أول مكان وصل إليه يشوع وكالب، ومعهما رفاقهما العشرة، وحكم داود في الخليل لمدة سبع سنوات ونصف السنة.

الفصل الثاني والعشرون

وعلى بعد عشرة أميال من الخليل، وباتجاه الشرق تقوم بحيرة اسفلت التي تدعى أيضاً باسم «البحر الميت»، وهو بالحقيقة بحر ميت، لأنه لا يحتوي على شيء حي، ويسمى أيضاً «بحر الشيطان»، لأن المدن الأربعة غير السعيدة بأعمالها غرقت فيه، وهي: سدوم، وعموره، ودومه، وساعور، لأنها ثابرت على اقتراف شرورها، فأحرقت بالنار، وبنار الكبريت، ومن ثم أغرقت في تلك البحيرة.

وعلى قرب من البحيرة، على منحدرات اليهودية تقوم سيجور، التي عرفت أيضاً باسم بلع، وزرع، وهي المدينة الخامسة من هذه المدن، وهي التي حفظت من الغرق بسبب صلاة لوط، ومن الممكن رؤيتها في هذه الأيام، وهي تعرف أيضاً باسم «قلعة النخيل»، وكانت زوجة لوط قد حولت إلى عمود من ملح، وعلى الطريق عندما يخرج الانسان من سيجور، يمكن أن يراها باقية ومن الممكن مشاهدتها، وعلى شواطئ البحيرة المتقدمة الذكر هناك الكثير من الشب، والقار، ويتولى جمعه السكان المحليون، ويستخرجون من البحر الحمر، أو الفحم القاري الذي يعرف باسم الحمر اليهودي، وهو ثمين يستخدم لأغراض كثيرة، وعلى كل حال تدعى سيجور من قبل سكانها باسم بلدة النخيل.

وليس بعيداً عن بحيرة اسفلت، عندما يذهب الانسان هبوطاً نحو العربية يوجد كهف الكرك، في جبل المآبيين، ففيه قاد بلع بن باعور النبي بلعام، علّه يقوم بلعن بني اسرائيل، ويدعى هذا الكهف بـ «الانقطاع» لأنه قائم وسط شعاب منحدر، وتفصل بحيرة اسفلت اليهودية عن العربية، وكانت العربية في أيام بني اسرائيل صحراء مهجورة بلا سكان، ومعزولة، لا يمكن المرور بها، ولاماء فيها، وأبقاهم الرب هناك لمدة أربعين سنة، وهو يمطر عليهم المن ليأكلوه، ويجعل الماء ينبع من الصخور.

ويوجد في العربية جبل سيناء، الذي بقي موسى عليه لمدة أربعين يوماً والعدد نفسه من الليالي بدون أي طعام، وهناك أعطى الرب موسى الشريعة وقد كتبت باصبعه على ألواح من الحجر، ويوجد في العربية وادي موسى، ففيه ضرب الصخرة مرتين، فأرسلت نهريْن من الماء من أجل شعب الرب، منهما ما تزال المنطقة كلها تشرب، وفي العربية سار عمود من نار أمام بني اسرائيل في الليل، وأظلتهم غمامة كل يوم، وفي العربية حلیم Helim (وادي وسيط، أو وادي غرندل) حيث قيست مساحة معسكر بني اسرائيل، وبما أن مكان هذا المعسكر كان في الصحراء، فإنهم عندما خرجوا من البحر الأحمر، وجدوا اثني عشر نبعا وسبعين شجرة نخيل، ويوجد في العربية أربعين محطة توقف فيها بنو اسرائيل، ويوجد في العربية جبل حوريب، الذي دفن عليه هرون، وفي العربية أيضاً جبل عبريم Abarim، الذي دفن فيه الرب موسى، الذي لا يمكن رؤية قبره في أي مكان، وفي العربية هناك الجبل الملكي (مونتريال)، الذي استولى عليه الملك بلدوين، الملك الأول للفرنجة في القدس، وألحقه بالأراضي التي كانت بحوزة المسيحيين، وعمل عليه حصناً قوياً (الشوبك) من أجل أرض داود، وتتصل العربية بأرض أدوم قرب بصرى، وأدوم هي بلاد دمشق، وعلى كل حال أدوم تابعة لسورية، ورأس سورية دمشق.

الفصل الثالث والعشرون

وعلى مسافة أربعة أميال من القدس، وباتجاه الجنوب، تقوم البلدة التي كان زكريا يسكن فيها عندما جاءت مريم أم يسوع، وهي حامل في رحمها بابن الرب، مسرعة لتقديم التحية إلى خالتها إليزابث، حيث كانت وقتها حامله بابنها يوحنا، الذي يقال بأنه ولد في ذلك المكان.

وعلى ستة أميال من القدس، وباتجاه الجنوب على الطريق الذي يقود إلى الرملة يقوم جبل مودين Modin، الذي جاء منه متيثا Mathath-

ias، أبو المكابيين، الذين يرقدون مدفونين هناك، ومن الممكن رؤية قبورهم هناك حتى هذا اليوم، وعلى ثمانية أميال من مودين، وعلى الطريق الذي يقود إلى يافا، تقوم مدينة اللد، والتي تعرف أيضاً باسم ديوبولس، ففيها مدفون جسد القديس جرجس، وهو معروض هناك على مسافة ميل من الرملة.

وعلى ستة عشر ميلاً من جبل الكرمل، وباتجاه الجنوب تقع مدينة قيسارية الفلسطينية، التي هي مطرانية، ومدينة كورنيلوس، قائد المائة الروماني، الذي عمده القديس بطرس هناك، وعمله أسقفاً، وهناك يوجد برج ستراتو، وهناك أيضاً بنى هيرود ميناءً من الرخام الأبيض لمواجهة قدوم أغسطس، وبنى هيرود نفسه البرج الذي يتحكم بالقدس، وهو الذي يعرف باسم برج داود، ونخبرنا يوسفوس بأنه بنى هذا البرج وسماه «أنطونيا».

وعلى مسافة ثمانية أميال من الناصرة، وباتجاه الكرمل يقوم جبل قيمون، فعند سفحه وإلى جانب نبع هناك قتل لامخ أبو نوح مقدمه قاين بقوسه ونشابه، ولهذا قال في ثورة جنونه وغضبه: «لقد قتلت رجلاً أنا معجب به، وذبحت رجلاً شاباً لإيذاء نفسي» وعن قاين قال الرب: «إن الذي قتل قاين على هذه الصورة سوف يعاقب عقاباً مضاعفاً سبع مرات». وعلى بعد سبعة أميال من جبل قيمون يقوم جبل الكرمل، الذي نقرأ عنه في نشيد الإنشاد قوله: «رقتك مثل جبل الكرمل»، وللعيش عليه اختار ذلك الياس المقدس لمدة طويلة ومعه تلميذه «إليشا».

الفصل الرابع والعشرون

يفصل لبنان أدم عن فينيقيا، وفي فينيقيا مدينة صور، وهي المدينة الأكثر شهرة بين مدن الفينيقين، وهي الحاضرة، التي — تبعاً لروايات

السريان — رفضت استقبال المسيح داخل أبوابها عندما كان يسير على شاطئ البحر، وهي أيضاً المدينة التي — وفقاً لصفحة مقدسة وبشهادة منها — قدمت شهداءً للرب، علمه فقط يمكنه أن يخبر عن عددهم، وفي صور قبر أورجين، وخارج صور تقوم الصخرة الرخامية الكبيرة التي جلس عليها يسوع، والتي بقيت بدون أذى منذ أيام المسيح حتى أيام إخراج المسلمين من المدينة، لكنها قطعت فيما بعد من قبل الفرنجة والبنادقة، وعلى كل حال لقد بني فوق المتبقي من تلك الصخرة كنيسة على شرف المخلص.

وعلى بعد ثمانية أميال من صور باتجاه الشمال، وعلى طرف البحر، تقوم الصرفند، وهي صربتا، Sarepta في أرض صيدا، حيث سكن هناك النبي إلياس مرة من المرات، فهناك أرجع إلى الحياة يونه، ابن الارملة التي أكرمت وفادته، وطمأنته وأطعمته، وعلى بعد ستة أميال من الصرفند تقوم مدينة صيدا، وهي مدينة نبيلة، جاء منها ديدو، وديدو هو الذي أسس قرطاج في إفريقية، وعلى مسافة ستة عشر ميلاً من صيدا تقوم بيروت، وهي مدينة ثرية جداً، وحدث في بيروت أنه ليس بعد مدة طويلة من آلام مخلصنا، كان هناك تمثال له، أخذه اليهود ووضعوه على صليب سخرية منهم ولاظهار كراهيتهم ورفضهم له، (وطعنوه) فصدر عنه دم وماء، وبناء عليه آمن كثيرون به، وهو الذي صلب فعلاً، وتعمدوا، وكان جميع الذين دهنوا بنقاط مما تساقط من التمثال قد تحرروا كلياً من كل مرض كانوا يعانون منه. وأرفات (تل ارفاد أو أرواد) مدينة تابعة لدمشق.

الفصل الخامس والعشرون

من أجل دمشق في سورية انظر التاريخ، فدمشق هي عاصمة سورية، وهي حاضرة مبدلة، وقد بنيت دمشق في سورية من قبل هيليزر He-liezer خادم إبراهيم، في الحقل الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، و

سكن عيسوفي دمشق، و سكير في أدوم، و سكير تعني صاحب الشعر الكثيف، ومعنى أدوم الأحمر، أو ذي الشعر الأحمر، ومن اسم أدوم عرفت تلك المنطقة كلها باسم أدوميا الذي ورد ذكرها في المزامير: «فوق أدوميا سوف أرمي حذائي» الخ، وتدعى أدوم أيضاً، ولذلك قال النبي: «من الذي جاء من أدوم، والذي يرتدي ثياباً ملونة من بصرى؟» وجزء من تلك البلاد يعرف باسم حوران (Hus)، ويدعى أيضاً باسم سوتا Sue-ta (السواد)، التي كان منها بلداد السوتي (السوادي)، وفيها أيضاً تيماء، التي هي المدينة الرئيسية في أدوميا، ومن تيماء جاء علفز Eliphaz التيمائي، ويوجد في موضعه مدينة نعمان، التي جاء منها زفر Sophar النعماني، وهؤلاء الثلاثة كانوا المطمئنين ليعقوب.

وفي منطقة أدوم، وعلى مسافة ميلين من الأردن، هناك مخاضة ييوق (غربي الزرقا)، وكان يعقوب، بعد عبوره لها، عندما كان عائداً من بلاد الرافدين قد تصارع مع الملاك، الذي غير اسمه من يعقوب إلى اسرائيل، وفي أدوم يوجد جبل سكير (حرمون)، الذي تقع دمشق على مقربة من سفوحه، وعلى مسافة ميلين من دمشق يقوم المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول، قائلاً: «شاول، شاول، لماذا أنت تعذبني؟»، وهناك أشع نور عظيم جداً من السماء حول بولص، وفي دمشق تولى أنانيس تعميد شاول، ومنحه اسم بولص، ومن فوق أسوار دمشق تمت تدلية بولص إلى الأرض، لأنه خاف من غضب معذبيه.

وفسر اسم لبنان بأنه البياض، وورد ذكره في نشيد الإنشاد قوله: «تعال ياحامتي من لبنان»، وينبع من لبنان نهرا: أبانا (نهر القاسمية)، وفرفر (العاصي)، وهما نهري دمشق، ويجري أبانا خلال جبال لبنان، وفي سهول منطقة أركاس Archas متخذاً طريقه نحو البحر الكبير، حيث الأمكنة التي اتخذها يوستاخوس Eustachius مقراً لحياته بعد فقدانه لزوجته وأولاده، بينما يجري فرفر خلال سورية إلى أنطاكية، وبعد عبوره

لأسوارها، يصب هو نفسه في البحر المتوسط، وذلك على بعد عشرة أميال من أنطاكية، في ميناء السويدية الذي هو ميناء القديس سمعان، وكانت أنطاكية لمدة سبع سنوات الكرسي بالنسبة للقديس بطرس الرسول، الذي لبس التاج البابوي هناك لمدة سبع سنوات وعند سفح لبنان تقوم مدينة بانياس أو بلبنياس، التي هي تدعى أيضاً باسم: قيسارية فيليب.

وعند سفح لبنان ينبع نبعاً «ار» و «دان»، ويشكل هذان النبعان الأردن، عند سفح جبال الجليل، ويدعى الوادي القائم فيما بين جبال جلبوع وبحيرة أسفلت باسم «الغور» أو أولون Aulon، التي هي كلمة عبرية (كذا واقرأ: اغريقية)، وأطلق هذا الاسم أيضاً على الوادي الخصب والواسع، المحاط بالجبال على الجانبين، من لبنان إلى صحراء فاران، ويفصل الأردن الجليل عن أدوم، وعن أرض بصرى، التي هي المدينة الثانية في بلاد أدوم، ومعنى الأردن هو «النزل».

ويجري دان تحت الأرض تقريباً من نبعه حتى مزيريب (Medan) فهناك يستأنف مسيره بشكل مكشوف فوق الأرض، ويدعى هذا السهل باسم «مدان» لأن دان في وسطه، وهكذا يعرف بلغة المسلمين، وباسم «بلاتيا Platea» باللاتينية، وتعرف «مدان» أيضاً باسم «موضع السوق»، لأن أعداداً لا تحصى من الناس تجتمع هناك في بداية الصيف، ويجلب هؤلاء الناس معهم جميع أنواع الأشياء للبيع، ويبقى هناك عدد واسع من الفرس والعرب طوال الصيف بغرض القيام بحماية الناس ورعي مواشيهم، وتتألف كلمة «مدان» من كلمتي: «مد» و «دان»، وتعني كلمة «مد» بلغة المسلمين «ماء» و «دان» نهر، وبعدما يغادر «دان» السهل المتقدم الذكر، يصبح نهراً يجري خلال السواد (Sueta) حيث الهرم التذكاري ليعقوب المبارك، وهو ما يزال موجوداً، وهو محط احترام من قبل الملوك والأمم، وينعطف دان نحو الجليل الإسلامية، ويجري

خلال مدينة جدر (أم قيس) إلى جانب الحمامات الطبية، خلال سهل الأشواك، ويندمج «بالأر»، و«الأر» يصنع بحيرة (الحولة) ليس بعيداً عن بانياس، ومنها نفسها يأخذ طريقه فيما بعد إلى بحر الجليل بين بيت صيدا وكفرنا حوم، حيث تكون هنا بدايته.

الفصل السادس والعشرون

وجاء من بيت صيدا بطرس، ويوحنا، وأندرو، وجيمس بن ألفيوس، وعلى مسافة ستة أميال من بيت صيدا تقع كوروزين Chorazain (قلعة الحصن) فهناك المسيح الدجال المضلل للعالم سوف ينشأ وينتفش، وعن كوروزين وبيت صيدا قال يسوع: «الويل لك كوروزين، والويل لك بيت صيدا»، وعلى بعد ستة أميال من كوروزين تقوم بلدة جدر (أم قيس)، وهي المدينة الأعظم مجداً، وهي التي نقرأ عنها في المزامير: «لقد سكنت بين سكان جدر»، وتفسير كلمة جدر هو «في الظلام»، وتقع كفرنا حوم (تلحوم) على الطرف الأيمن من البحر، وهي مدينة قائد المائة، وفيها شفى يسوع ابن قائد المائة، والذي قال عنه: «إنني لم أجد مثل هذا الايمان العظيم في اسرائيل»، وصنع يسوع في كفرنا حوم كثيراً من المعجزات، وقام بالتعليم في الكنيس، وتفسير اسم كفرنا حوم هو: «البيت الأعظم جمالاً» أو «ابنة الجمال»، الذي يعني بالنسبة لنا ويشير إلى الكنيسة المقدسة، فجميع الذين يأتون إليها من لبنان، أو بالحري من بياض الفضيلة، سوف يتحولون فيها وبها إلى أكثر ألقاً.

ويقوم على ميلين من كفرناحوم سفح الجبل (خان منية) الذي وعظ فيه الرب الحشود، وبعث أمامه حواريه لتعليمهم، وشفى هناك المجذوم، وعلى ميل من هذا السفح يوجد المكان الذي أطعم فيه خمسة آلاف انسان بخمسة أرغفة وسمكتين، ولهذا يدعى هذا المكان باسم المائدة، لأنه كان موضع الاطعام، ودونه غير بعيد يقوم المكان الذي ظهر فيه في الساعة الرابعة من الليل لبطرس وأندرو، عندما كانا يصطادان

السّمك، ووقتها رغب بطرس بالتوجه إليه فوق البحر، وبدأ يغرق، فقال المسيح له: «يا قليل الايمان لماذا شككت؟»، وهنا قام مرة أخرى بتهدة البحر، عندما كان حوار يوه في خطر، وعند رأس البحر، وعلى الجانب الأيمن هناك انهدام في الجبل اسمه جنسارث (الغوير)، وهو «المكان الذي يرعى الريح»، الأمر الذي مازال يشعر به حتى الآن الذين يزورونه.

وعلى بعد ميلين من جنسارث يقوم المجدل، وهو مكان ولادة مريم المجدلية، وتدعى هذه المنطقة باسم جليل المسلمين، وهي قائمة في دار سبطي: زبلون ونفطليم، وفي الجزء الأعلى من هذا الجليل تقوم العشرون مدينة اللاتني أعطاهن الملك سليمان إلى صديقه حيرام ملك صور، وعلى ميلين من المجدل تقوم مدينة سينيرث، التي تدعى أيضاً باسم طبرية، ذلك أنها نالت اسمها من القيصر تايبيروس، وهذه المدينة غالباً مازارها يسوع عندما كان شاباً، وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقوم مدينة بيت أوليا (كذا، والاشارة هنا إلى صفد، ولعل بيت أوليا الآن هي مثلثا) التي تنتمي إليها يودث، التي قامت أثناء حصار مدينتها بعمل على درجة كبيرة من البراعة بقتلها أولوفرنس، وأنقذت شعبها، وعلى أربعة أميال من طبرية باتجاه الجنوب (اقرأ: الشمال) تقوم دوثيرم (خان جب يوسف) فهناك وجد يوسف أخوته يرعون قطعانهم، ولكراهيتهم له باعوه إلى الاسماعيليين هناك، وعلى بعد ستة عشر ميلاً من الناصرة، وباتجاه الشرق، عبر بحر الجليل تقوم جرجوسيا Gergesa ، وهي القرية التي رد فيها المخلص إلى الصحة الذين تلبسهم الشيطان، وأرسل من هناك قطيع الأوز عبر مكان شديد الانحدار إلى البحر.

الفصل السابع والعشرون

إلى القاريء

هكذا قمت بقدر ما أستطيع بوصف الأماكن المقدسة في مدينة

القدس، شروعاً من كنيسة الضريح المقدس، وطفّت من حولها، من خلال باب داود، حتى عدت إلى المكان نفسه، وأسقطت ذكر عدد كبير من البيع والكنائس الصغيرة، المدارة من قبل أناس من مختلف الشعوب واللغات، لأنه هناك: الاغريق، والبلغار، واللاتين، والألمان، والهنگار، والسكوتلنديين، والبوهيميين، والجورجيين، والأرمن، والكفتوريين -Caph-eturici، والموارنة، وعدد كبير آخر يحتاج ذكرهم إلى وقت طويل: وهكذا دعونا مع هذا ننهي هذا الكتاب الصغير، آمين

صيغة الدعاء بمناسبة عيد ذكرى استرداد مدينة القدس من الكفار، وذكرى تبدل شكل ربنا، الذي يستخدم في الكنيسة الكاتدرائية للضريح المقدس في القدس.

صيغة الدعاء بمناسبة استرداد مدينة القدس

اليوم الخامس عشر من تموز هو يوم عيد تكريس كنيسة الضريح المقدس، حيث يقام في ذلك اليوم احتفال عظيم بمناسبة ذكرى تحرير القدس من قبل المسيحيين، وفي إيماة إلى هذا يتكون المدخل الطقوسي الغنائي الذي يجري قبل القداس، من الأناشيد التالية:

Laetare Jerusalem, Kyrie Eleyson, Cunctipotens
« genitor Deus .

والدعاء كما يلي:

«أيها الرب القدير، والسرمدي، لقد أنقذت القدس بفضل جودك الرائع، أنقذت القدس مدينتك من أيدي الكفار، وأعدتها للمسيحيين، كن معنا أيها الرب، فنحن نتوسل إليك، وساعدنا، نحن الذين نداوم على الاحتفال بهذا اليوم المقدس كل عام، بكل تقوى، علنا أن نكون أهلاً لنيل متع القدس السماوية من خلال ربنا» الخ.

وبعد النص الرسولي يغنى شعر «Surgeillum» وتكون الهلالية (أو الأناشيد التي تغنى قبل الانجيل) هي: Dies Sanctificatus ، بالتدريج ، أو بالترتيلة الجماعية Omnes de saba .
ويغنى بعد الانجيل شعر: «Cum Intraret Jesus Hierosolimam» .

وبعد الطقس تأتي المقدمة Offertoria ، أو جمل تُقرأ عند وقت المقدمة الأولى هي: الـ Secreta ، أو دعاء وقت التكريس للعناصروهو:
«أيها الرب، نلتمس منك أن تتقبل بكرمك هذه المقدمة التي نقدمها إليكم بتواضع، وأن تمنحنا بأسرار قدرتها نحن الذين نحافظ على هذا اليوم الذي أنقذت فيه القدس من أيدي الكفار، في أن نكون لائقين لأن نصبح من أهل القدس التي هي في السماء، من خلال ربنا» الخ، الخ.
ويُغنى عند القداس العام، أو الدعاء وقت تسلم عناصر التكريس النشيد التالي: «Jerusalem surge» الخ.

الدعاء

«امنحنا يارب، أن تكون التوضيحية التي قمنا بها، صحة لكل من أجسادنا وأرواحنا، وأن نكون نحن الذين نبتهج هذا اليوم بسبب تحرير مدينة القدس، جديرين بوراثة القدس التي هي بالأعلى، من خلال» الخ.

القداس في يوم تبدل هيئة الرب

دعاء

«يارب، يامن كنت مسروراً في تغيير هيئة ذاتك فوق الجبل، وفقاً لتركيبتنا، نلتمس منك أن تمنحنا أيضاً النور الذي تكرمته وأريته لحواريك، والذي هو مع الآب» الخ

ويحتفل بعيد تغيير هيئة ربنا على جبل الطور في اليوم الثامن من قبل
اليوم الرابع عشر من آب. (٦ - آب).

والمدخل الطقوسي الغنائي هو: «Benedicta sit sancta . Per Dominum» .

الدعاء

«يارب، يامن قمت في هذا الوقت بالكشف عن ذاتك على أنك ولد
مولود فقط، وتحولت بشكل رائع في السماء وعدت إلى الأب للعهدين
القديم والجديد، نلتمس منك أن تمنحنا، بعملنا هذه الأشياء التي هي
مرضية لك، أن ننال التأمل الأبدي في أعجاد من أنت أبوه، أنت يامن
أعلنت عن نفسك ورضاك، وذلك من خلال ربنا»، الخ.

والـ **Secreta**، أو الدعاء لدى تكريس العناصر:

«يارب، أيها الأب المقدس والقدير، نلتمس منك أن تتقبل التقديمات
التي نقدمها في ذكرى تغيير الهيئة الرائع لابنك، وامنحنا برحمتك أن
نتحرر من الاضطرابات الأرضية، وأن نشترك في البهجة السماوية من
خلال ربنا»، الخ، الخ.

والقداس العام، أو الدعاء لدى تسلم تكريس العناصر:

«يارب، يامن جعلت هذا اليوم مقدساً بتغيير هيئة كلمتك المتجسدة،
وباعترافك به بصوتك على أنه ابنك، نلتمس منك أن تمنحنا بفضيلة
الطعام المقدس هذا، أن نكون جديرين لأن نصبح أعضاء في جسده،
جسد الذي أمرنا أن نفعل هذا، في تذكرك لنفسه، إنه يسوع المسيح، ابنك
ياربنا، الذي هو معك»، الخ، الخ.

حواشي كتاب الاستيلاء على دمياط

١ — كانت الهدنة التي انتهت في سنة ١٢١٧، قد عقدت بين العادل الأيوبي، وبين إما عموري لوزغنان، أو جون دي إيبيلين عندما كان نائباً لملك القدس.

٢ — كان مجمع اللاتيران الرابع (المجمع المسكوني الثاني عشر) الذي عقد عام ١٢١٥، أعظم مجامع العصور الوسطى، ولهذا يشار إليه أحياناً بكل بساطة باسم مجمع اللاتيران، وقد عقد بناء على دعوة البابا انوسنت الثالث (ت: ١٢١٦)، ورفض هذا المجمع التجسيد والأسرار الأخرى، مراغمة للأليبيين، وأدان أخطاء جوشيم حول التثليث واعترف بالمكانة الثانية لبطريك القسطنطينية، ومنع تأسيس رهبانيات دينية جديدة، واتخذ موقفاً مضاداً للثنوية، وأقر بطلب اعتراف واحد على الأقل كل سنة وبقربان.

٣ — جون أوف برين، ملك القدس (١٢١٠ — ١٢٢٥)، وأمباطور القسطنطينية (١٢٢٨ — ١٢٣٧)، وقد تسلم تاج القدس عندما تزوج من ماري دي مونتفرات في سنة ١٢١٠، وفقده سنة ١٢٢٥ عندما تزوجت ابنته ايزابييل فردريك الثاني، ولقد كان قائداً عسكرياً، فهو الذي قاد الحملة ضد دمياط، لكنه كان متغيباً وقت المصاعب بسبب خلافه مع بيلاغوس، ولأنه انشغل بمطالبته بعرش أرمينيا.

٤ — أندرو الثاني، ملك هنغاريا (١٢٠٣ — ١٢٣٥)، كان ابن بيل الثالث ومرغريت أميرة فرنسا، وقد ترك الحملة الصليبية في بداية عام ١٢١٨، وغدا فيما بعد في سنة ١٢٣٣ زوجاً ليولاندا كورتني، امباطورة القسطنطينية.

٥- هيوچ أوف لوزغن، ملك قبرص (١٢٠٥ - ١٢١٨)، كان ابن عموري وإشيف دي إيبيلين، وقد تزوج من أليس أوف شامبين - القدس، ابنة ايزابيلا صاحبة القدس وهنري أوف شامبين، الذي شغل بعد وفاة هيوچ دوراً هاماً في سياسات الدول اللاتينية.

٦- ليوبولد السادس، الدوق المشهور للنمسا (١١٩٨ - ١٢٣٠)، الذي قاتل في اسبانيا في سنة ١٢١٢، لكنه وصل متأخر جداً بالنسبة لمعركة «لاس نافاس دي تولوزا».

٧- أوتو السابع، دوق ميران (١٢٠٤ - ١٢٣٤)، وقد انضم إلى أسرة بطركية شهيرة، وكان والداه: بيرثولد الرابع، دوق ميران (ت: ١٢٠٤)، وأغنس أوف غروتش - روشلتز (ت: ١١٩٤ أو ١١٩٥). وتزوج أوتو من بيتريس أوف هوهنستوفن، وارثة بيرغندي. وكان أخوة أوتو هم: هنري مرغريف أوف استريا (١٢٠٤ - ١٢٠٩)، وبيرثولد الخامس، بطريك أقويليا، وايجيرت، أسقف بامبيرغ، أما أخواته فكن: أغنس (ت: ١٢٠١)، زوجة الملك فيليب الثاني، ملك فرنسا، وغيرترود (ت: ١٢١٣)، زوجة أندرو الثاني ملك هنغاريا، والقديسة هيدويغ (ت: ١٢٤٣)، زوجة هنري دوق سيليزيا - برسلو. وحمل أوتو الصليب في سنة ١٢١٥، وعاد في كانون الثاني ١٢١٨.

٨- يوستورغيوس أوف مونتاغيو، رئيس أساقفة نيقوسا (١٢١٧ - ١٢٥٠)، ووردت الإشارة إليه بمثابة نائب لبطريك القدس في رسالة تعلقت بالحملة الصليبية، كتبها ثيبود، كونت شامبين، وكذلك الإشارة إلى بارونات فرنسيين آخرين، وكان يوستورغيوس أخصاً لغورين دي مونتاغيو، مقدم الاستتارية، ولبطرس مقدم الداوية.

٩- بطرس، أسقف رآب (في هنغاريا)، ١٢١٧ - ١٢٢٤.

١٠- توماس، أسقف ايرلو في هنغاريا (١٢١٧ - ١٢٢٤).

١١- بيرثولد الخامس أوف ميران، رئيس أساقفة كالوكزا وبكس (في هنجاريا)، ١٢٠٦-١٢١٨، انتقل إلى أقوييا ليشغل وظيفة البطريك ١٢١٨-١٢٥١، وكان أخا للدوق أوتو أوف ميران، وعن ايغبيرت أسقف بامبيرغ انظر الحاشية رقم ٧/ المتقدمة.

١٢- روبرت أوف أبلينغ، أسقف بيو Bayeux (١٢٠٦-١٢٣١).

١٣- ايغبيرت أوف ميران، أسقف بامبيرغ (١٢٠٣-١٢٣٧)، وهو أخ آخر لأوتو أوف ميران.

١٤- إيغلبيرت، أسقف زيتز (من قبل: نامبورغ) في أبرشية ماغبورغ (١٢٠٧-١٢٤٢).

١٥- أوتو أوف ألدنبرغ، أسقف أوف مونستر، (١٢٠٤-١٢١٨).

١٦- أوتو السادس، أسقف أوف أوترخت (١٢١٥-١٢٢٨).

١٧- أوتو أوف أفسن، (في فلاندرز)، ترك الوطن في ١٢١٧، غير أنه كان قد عاد في ربيع ١٢١٨، وقدمت أسرته عدة أعضاء للصليبيين، كان منهم جاك دي أفسن، الذي كان بارزاً في الحملة الصليبية الثالثة.

١٨- رالف أوف ميرنكورت، أسقف سالف لصيدا، وبطريك القدس (١٢١٤-١٢٢٥).

١٩- إلى الجنوب من عكا، وتعرف في هذه الأيام باسم خربة كرداني.

٢٠- في معركة حطين (٤- تموز ١١٨٧) عندما دمر صلاح الدين جيش مملكة القدس.

٢١- الفولة، جنوب شرق الناصرة مباشرة.

٢٢- غرب الناصرة، وتعرف في هذه الايام باسم عين طبعون.

٢٣ — منطقة جبلية ومدينة، شرقي الأردن، ويعرف الجبل في هذه الأيام باسم جبل عشه.

٢٤ — جنوب — غرب بحيرة طبرية، ويسان هي سكيذوبولس القديمة.

٢٥ — بلدة مدمرة على الطرف الشمالي لبحيرة طبرية، عند مصب الأردن ولعل موقعها هو الذي يعرف في هذه الأيام باسم التل.

٢٦ — مدينة مدمرة على الشاطئ الغربي لبحيرة طبرية، ولعلها تلحوم الحالية.

٢٧ — توجهت هذه الحملة إلى شقيف أرنون، وهي قلعة شقيقة لتبنين، وقائمة عند الطرف الآخر من نهر الليطاني.

٢٨ — هيوغ الأول لوزغنان مات في ١٠ — كانون ثاني ١٢١٨، وعمره ثلاث وعشرون سنة.

٢٩ — أصبح أندرو مريضاً، أثناء المرحلة المبكرة من الحملة الصليبية، وقد ذهب إلى عكا، وكان حاضراً في طرابلس أثناء زواج بوهموند الرابع من مالميساند، أخت هيوغ الأول، وعاد بعد أمد وجيز في أوائل عام ١٢١٨ إلى أوروبا عبر طريق الأناضول.

٣٠ — تأسست رهبانية فرسان الاستتارية، أولاً على شكل مشفى في القدس سنة ١٠٩٢، وكانت هذه الرهبة قوية وثرية، طبقت أحكام القديس أوغسطين، وعرفت من سنة ١٣٠٩ حتى ١٥٢٣ باسم فرسان رودس، ومن ١٥٣٠ حتى ١٧٩٨ باسم فرسان مالطا، ومازالت قائمة دينيا ومدنيا في الكنيسة الكاثوليكية.

٣١ — تأسست رهبانية الداوية في سنة ١١١٨، من أجل الدفاع عن الساكنة اللاتينية في القدس، وقد كتب لها أحكامها القديس برنارد،

وكانت رهبنة قوية وثرية جداً، وقد سحقها الملك فيليب الجميل، ملك فرنسا سنة ١٣١٢، إرضاء للبابا كليمنت الخامس.

٣٢— ارتبطت رهبانية التيوتون بمشفى أقيم في خيمة أثناء حصار عكا في سنة ١١٨٩، وكانت ألمانية صرفة.

٣٣— عثليت، على الشاطئ الفلسطيني، وقد جرى تحصينها في الوقت الذي حُصنت فيه قيسارية.

٣٤— توفي الأسقف أوتو في ٦— آذار ١٢١٨، في قيسارية.

٣٥— ليس هناك من معلومات إضافية عنه.

٣٦— عرفت قلعة تل الصافييه باسم قلعة ابن الرب.

٣٧— جاء وصف هذه الرحلة في: De Itinere Frisonum، وقد أخذت من تاريخ إمو، وحققت من قبل روهريخت في: Quinti Belli sacri scriptores Minores ص ٥٩ — ٧٠، فلقد جرى اعداد ثلاثمائة سفينة في كولون، وبعضها بقي وقسم هلك، لكن الأكثرية جاء إلى لشبونة في البرتغال، وغادر الاسطول لويرزي Lauwerzee يوم ٣١— أيار ١٢١٦، وكان أمام عكا في ٢٦— نيسان ١٢١٨.

٣٨— قصر أبي دانس على نهر سادو غربي سيتوبال Setubal في البرتغال.

٣٩— وليم الأول كونت هولاندا (١٢٠٤ — ١٢٣٦)، من بيت بيطرشيم، كان تحت الحرمان الكنسي عندما حمل الصليب، وقد قاد الفريزيين في اسبانيا، وقاتل بشجاعة ضد المسلمين، وفي ١٥— ايلول ١٢١٩، استعد لمغادرة الحملة الصليبية وتركها، وفي ١٩ نيسان ١٢٢٠ كان مع فردريك الثاني.

٤٠— كان الكونت جورج أوف ويد قائداً للأسطول الفريزي ضد

اسبانيا ومصر، وكان أخا لـ «ديتريخ» رئيس أساقفة ترير (١٢١٢) —
١٢٤٢)، وكان شريكاً (مع الكونت وليم صاحب هولاندا) في قيادة
الأسطول الذي أبحر من لويرزي.

٤١ — استخدم أولفر اصطلاح اسبارطي للدلالة على فرسان رهبانية
القديس جيمس صاحب السيف، وهي رهبانية قد تأسست في اسبانيا
في حوالي سنة ١١٥٨، وكان هدف هؤلاء الفرسان مساعدة المسيحيين في
الحرب ضد المسلمين، وكان شعارهم سيفاً أحمر مثبتاً على عباءة بيضاء.

٤٢ — كان ملك البرتغال من ١٢١١ حتى ١٢٢٣ هو ألفونسو
الثاني، وكانت زوجته التي اقترن بها سنة ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ اسمها أورাকা
Urraca، ابنة ألفونسو الثالث، ملك كاستيلا.

٤٣ — تعطي الـ Qcinti Gesta crucigerorum Rhenorum
Belli sacriscriptores Miniores, ed Rohricht, pp 27- 56
and De Itinere Frisonum (ibid, pp 57- 70) قليلاً من
التفاصيل حول القصر (المعروف لدى العرب باسم قصر أبي دانس تحت
حكم عبد الله بن محمد بن وزير — ويعطي Rohricht, Beitrage,
II, 241- 242 تفاصيل وافية).

٤٤ — جرى أعلاه التعريف بالبطريك رالف، وبأسقفني نيقوسا
وعكا، وبدوق النمسا، أما أسقف بيت لحم فكان رينير (حوالي:
١٢٠٧ — ١٢٢٧).

٤٥ — ألبيرك، رئيس أساقفة الرايم منذ ١٢٠٧، وقد توفي في ٢٤ —
كانون الأول سنة ١٢١٨.

٤٦ — جون دي فيراك، أسقف ليْمُويز Limoges ١١٩٧
(١١٩٨) — ١٢١٨.

- ٤٧ — سيمون الثاني كونت أوف ساربروكن ١٢١١ — ١٢٣٣.
- ٤٨ — تاريخ الاسكندر الكبير: ٤ / ٤٠، وكانت هذه هي الإحالة الوحيدة التي تمت إلى اسم كاتب كلاسيكي خلال الكتاب الحالي كله.
- ٤٩ — الكونت أدولف الخامس ١١٨٩ — ١٢١٨، ولقد توفي أمام دمياط في يوم ٧ — آب ١٢١٨.
- ٥٠ — القديس انغلبيرت الثاني، جُعل رئيساً للأساقفة في وقت مبكر، أي في سنة ١٢١٨، وقد توفي في سنة ١٢٢٥.
- ٥١ — آب وإيلول لسنة ١٢١٨.
- ٥٢ — بيلاغوس غالفاني، ولد في اسبانيا أو في البرتغال، كردينال — أسقف لألبانو، ١٢١١ — ١٢٤٠، وقد وُجه اللوم إليه من قبل كثيرين بسبب الاخفاق الكامل للحملة الصليبية، وكان عدم قبوله لشروط التهادن — وهو ما أيده فيه بعض القادة المدنيين — لرغبته العارمة بالاستيلاء على القاهرة نفسها، وأبعد عنه حبه للتسلط واستبداده بالرأي كثيراً من القادة المدنيين، وكانت له في الكنيسة أعمال متميزة، لذا جعل منه البابا انوست الثالث — كاردينالاً — شماساً، للقب سينت لوشيا، ثم كاردينالاً — كاهناً في سنة ١٢٠٦، وكان هو النائب البابوي في الحملة الصليبية، وذلك حسبما ذكر أولفر، وعاد بعد الاخفاق الذريع للحملة إلى أوربا، وقد استخدمه البابا هونوريوس الثالث في كثير من المناسبات. وقد توفي في مونت كازينو في ٢٧ كانون الثاني لعام ١٢٤٠.
- ٥٣ — كان هذا تبعاً لهوغويغ (ص ١٨٧ — حاشية ٢) هو جيمس كونت أوف أدريا، ولربما كان قريباً لهيوج الأول دوق أندريا (حوالي ١١٧٣ — ١٢٤٠).
- ٥٤ — وليم الثاني، Amanieu de Genies (١٢٠٧ — ١٢٢٧).

٥٥ — وليم أوف بيومونت، أسقف أنغر (١٢٠٢ — ١٢٤٠)، وقد صار رئيساً للأساقفة في سنة ١٢٠٧.

٥٦ — هنري أسقف مانتو (١١٩٣ — ١٢٢٠) (٢٢٥).

٥٧ — جيرارد الثالث، ورد ذكره للمرة الأولى في سنة ١٢٠٤، وكان ميتاً في سنة ١٢٢٨.

٥٨ — غير معروف.

٥٩ — رئيس جامعة باريس، وكاردينالاً ١٢١٢ — ١٢١٩، وكان أخصاً لولتر أوف شامبرلين في فرنسا، وتخلّى الأخوان عن الحملة الصليبية في ١٢١٨.

٦٠ — بيتر أوف نيموروس، رئيس أساقفة باريس ١٢٠٨ — ١٢١٩.

٦١ — ريموند أوف بالافول، رئيس أساقفة جيرونا ١٢١٤ — ١٢١٨.

٦٢ — من أجل أسقفي ايرلو وهنغاريا انظر ما تقدم تحت رقمي: ١٠ و ١١، ولم يمت توماس أوف هنغاريا — حسبما ورد هنا — بل عاد إلى وطنه في إيلول ١٢١٨.

٦٣ — انظر الحاشية ٦٨ المقبلة.

٦٤ — هيوغ الثاني أوف أنغوليم أوف لامارشي ١٢٠٨ — ١٢٤٩.

٦٥ — ميلو الثالث، كونت أوف بار — سور — سين منذ ١١٨٩، وقد توفي في ١٨ — آب ١٢١٩، أثناء حصار دمياط، وقد قتل ولداه هناك أيضاً.

٦٦ — وولتر أوف بوزيت، ابن ميلو.

٦٧ — وليم أوف بوزيت، كان يدعى باسم وليم أوف تشارترز، ابن

ميلو، ولقد كان أخاً لولتر مقدم الداوية ١٢٠٩ — ١٢١٩.

٦٨ — هرفيه الرابع أوف دونزي، كونت نافار من ١١٩٩ بزواجه من ماهوت ابنة بيتر أوف كورتني، وزوجته أغنس، وقد توفي في ٢٢ — كانون الثاني ١٢٢٣.

٦٩ — لعله انحدر من اثير الثالث، أكبر أولاد نارجوت الأول لورد أوف توسي ١١٤٧ — ١١٧٣، وكان اثير قد شارك في الحملة الصليبية مع لويس السابع.

٧٠ — كان أولفر ابنا غير شرعي لجون بلا أرض، الذي صار ملك انكلترا من ١١٩٩ حتى ١٢١٦.

٧١ — هذه غلطة تاريخية، فقد وقع فقدان السفينة في أوائل تشرين الثاني قبل العاصفة. انظر هوغويف ص ١٩٤، الحاشية ١.

٧٢ — كان رانولف إيرل أوف شيلستر قد ساعد جون بلا أرض في الحرب الأهلية في انكلترا، وفي أربعاء الرماد لعام ١٢١٥، حمل الصليب، وانطلق في ١٢١٨ نحو الشرق، وقد وصل إثر الاستيلاء على برج السلسلة، وعاد إلى انكلترا في حوالي ١ — آب سنة ١٢٢٠.

٧٣ — غالباً ما بعث سكان مدن الشمال الايطالي بوحدات عسكرية مع الصليبيين مقابل منافع اقتصادية، ولهذا وقفوا إلى جانب بيلاغوس بالاصرار على الاستيلاء على دمياط، وهي مدينة بدت واعدة بالنسبة للعمل التجاري.

٧٤ — كان تعداد فرسان قبرص حوالي المائة، وكانوا تحت قيادة وولتر صاحب قيسارية الذي كان متقلداً لهذا المنصب في سنة ١٢١٧، كما كان قسطلان قبرص على الأقل من سنة ١٢١٠ حتى ١٢٢٠، وقتل في ٢٤ — حزيران ١٢٢٩، أمام نيقوسيا أثناء قتاله من أجل جون دي

إيبيلين ضد مؤيدي الامبراطور فردريك.

٧٥ — وولتر الثالث أوف بيرثوت، وكان نبيلًا برابانتني، وصاحب مكلين (١١٨٠ — ١٢١٩) (١٢٢٠؟).

٧٦ — كان الأسقف المنتخب لبوفياس هو ميلون أوف تشاتلون — نويلي (١٢١٧ — ١٢٣٤) ابن غوشر لورد تشاتلون — سور — مارن وهلفي سيدة نانتويل، وقد غادر الشرق لدى سماعه بأخبار وفاة ألبيرك رئيس أساقفة الرايمز، الذي كان يدير له أسقفيته، ولم يطلق سراحه من أيدي المسلمين حتى سنة ١٢٢٢.

٧٧ — أندريه أوف نانتويل، وقد كان بين «فرسان الأعلام» تحت قيادة فيليب أوغسطس.

٧٨ — كان حاجب فرنسا من ١٢٠٥ هو وولتر الثاني أوف فيلابون Villebeon، وقد توفي في الأرض المقدسة بعيد سنة ١٢١٩، وغدا ابنه آدم دي فيلابون بدوره الحاجب في سنة ١٢٢٣، ومات في سنة ١٢٣٨.

٧٩ — من المحتمل أن رتشارد، فيزكونت أوف بيلمونت (أو بيمونت) ولورد أوف سينت — سوزان، كان هو أخو وليم أوف بليمونت وأسقف أنغر، وقد توفي رتشارد في معركة عند غزة في سنة ١٢٣٩.

٨٠ — هناك إشارة لجون أوف أرسيز لدى ألبيرك دي تروي فونتين باسم يوانس دي أرسيز، ووردت الإشارة إليه في تاريخ ليجج باسم «آرشي»، ولقد كان معه ابن غير شرعي هو أندريه أوف إبيسيس، وكان الأب مع الملك فيليب في معركة بوفين، وقاتل وقتها بشجاعة نادرة عند البرج حتى صار يعرف بـ «بيريز» وهذه الكلمة ربما تصحيف للكلمة العربية «بارز».

٨١ — كان هنري مشاركاً في الحروب الصليبية منذ الاستيلاء على

القسطنطينية وقد حمل معه إلى وطنه الكثير من الآثار المقدسة المسروقة.

٨٢- كان مارشال الاسبتارية هو أيمار دي ليرون، الذي كان صاحب قيسارية، ١١١٩٣ ١٢١٣، عن طريق زواجه بجوليانا صاحبة قيسارية، ولعله دخل في رهبنة الاسبتارية بعد وفاة جوليانا، وظهر مارشالاً للاسبتارية خلال الحملة الصليبية الخامسة، ومع أن ما قاله أولفر غامضاً، اننا نفترض أن أيمار قد قتل في هذا الوقت، ذلك أنه لم يظهر على مسرح الأحداث بعد ذلك.

٨٣- ساعد سافاري أوف موليون- في بواتو، وابن رالف دي موليون- كونت طولوز في النزاع ما بين فرنسا وانكلترا، وخدم فيما بعد في الجيش الانكليزي، وشارك في سنة ١٢٢٤ في المساعدة على الدفاع عن لي روشيك ضد لويس الثامن، وقدم أخيراً الولاء للملك فرنسا، وعين حاكماً للجزر القريبة من لي روشيل، وقد قاوم نائب الملك أثناء طفولة القديس لويس، ومات في سنة ١٢٣٣، وكان أيضاً شاعراً شهيراً، لكن بدون امكانات عظيمة، وذلك حسبما جاء في تاريخ الآداب الفرنسية (ط. باريس ١٨٩٥) : ٦٧١ / ١٨.

٨٤- ركز الايطاليون اهتماماتهم على المنافع التجارية التي ستؤول إلى بيزا، وجنوى، والبنديقية من استيلاء الأوربيين على الدلتا، ومن هنا جاءت معارضتهم لرفع الحصار عن دمياط، ومن الواضح هنا موقف أولفر المؤيد لبيلاغوس في معالجته لهذه الحادثة.

٨٥- هذا غير صحيح لأن كل من رمسيس وتينيس هما في جنوب دمياط.

٨٦- استولى بوهيموند صاحب العين الواحدة على السلطة في انطاكية بمساعدة الداوية، وانتزعها من ابن أخيه روبن - ريموند، ابن أخيه الأسن منه، وابن ابنة ليون صاحب أرمينيا، وعمل ليون لصالح

حفيدة، وهكذا وضع روبن مرتين حاكما في أنطاكية بوساطة القوة الارمنية ، لكنه طرد أخيراً، وقد مات وهو يحاول تأكيد حقه في عرش أرمينيا.

٨٧ — صحح أولفر هنا غلطته التي وردت في الفصل السادس والثلاثين.

٨٨ — لعل ذلك كان في الفصح ففي ٢٩ — أذار بات جون كثير الانزعاج من سلوك بيلاغوس، وقد استغل مشاكل أرمينيا عذراً له، وتزوج ستيفاني ابنة ليون الثاني، الذي توفي في سنة ١٢١٩، ورغب جون بالمطالبة بالعرش لنفسه باسم زوجته، وسيأتي أولفر على ذكر تطلعات جون الارمنية في الفصل الخامس والاربعين.

٨٩ — هنري سيبثالا، رئيس أساقفة ميلان ١٢١٣ — ١٢٣٠.

٩٠ — أسقف كريت غير معروف، وكان أسقف فانيزا هورولاند (١٢١٠ — ١٢٢١) .

٩١ — أسقف لاندو (١٢١٦ — ١٢٣٤) .

٩٢ — ألبرت ريزاتو (١٢١٣ — ١٢٢٨) .

٩٣ — هناك اشارة الى متى جينتايل في وثيقة تاريخها ١٢٢٩ باسم « ماثيوس جينتالس كونت اليسين (ليسينا حالياً) و القائد المدني وقاضي أبو لياوأراضيه » ، وكان الامبراطور فردريك قد جعله مسؤولاً عن ابوليا ، و بناء على أوامره التحق بالحملة الصليبية .

٩٤ — كان وليم إيرل أرونديل وسسكس ، فعالاً في الصراع ما بين جون بلا أرض و ملك فرنسا ، وقد مات في ايطاليا في سنة ١٢٢٠ أو ١٢٢١ ، بعد عودته من الحملة الصليبية .

٩٥ — انظر الحاشية المتقدمة رقم ٨٨ .

٩٦ — الجاثليق هو اللقب الذي منح لرؤساء الكنائس : الأرمنية، و الجورجية و النسطورية، وعدّ هذا اللقب اعلى من لقب مطران و أدنى من لقب بطريرك، لكنه بات الآن يساوي لقب بطريرك، مع استثناء أن في الكنيسة الأرمنية ثلاثة برتبة جاثليق مع بطريركين ، و المرتبة العليا هي لجاثليق اتشميدزين Etshmiadzin، وكان الجاثليق عند وفاة ليون هو جون ميدزابرو Medzabaro .

٩٧ — كانت زابل ابنة ليون الثاني، من زوجته الثانية سيبلا ابنة عموري دي لوزغان ملك قبرص ، وكانت قد تزوجت من فيليب بن بوهيموند الرابع صاحب انطاكية، و من بلا سانس Plaisance صاحب جبلة، و قتل فيليب في السجن بناء على أمر الدوق الكبير قسطنطين، الذي تزوج إثرها ابنة هيتوم من زابل (١٢٢٤ — ١٢٢٥)، و مارس هيتوم قليلاً من السلطة حتى وفاة والده، وقد خلع ١٢٧٠، و دخل الدير حيث نال اسم مكاروريوس .

٩٨ — كان هذا في تموز ١٢٢٠، وكانت هذه المرة الاولى، التي تقدم بها الجيش بناء على أمر بيلاغوس، وفيما عدا حملة النهب هذه، بقي الجيش بلا نشاط بقية سنة ١٢٢١ حتى تموز ١٢٢١ .

٩٩ — كما يبدو ييلمونت أخرى (دي ييلمونت)، و من هذا القياس قيل في اسم الفيزكونت رتشارد (دي بولكرو مونت)، انظر الحاشية ٧٩ - المتقدمة .

١٠٠ — بيترو زيباني دوج البندقية (١٢٠٥ — ١٢٢٩) .

١٠١ — هنري الأول الأسد، دوق سكسوني وكونت شويرن (١١٦٠ — ١٢٢٧) وهو معروف لارتباطه باعتقال دولدمير ملك الدانمارك في سنة ١٢٢٣، وقد بقي في الحملة الصليبية من ١٢٢٠ حتى عودته الى الوطن في آذار ١٢٢٢ .

- ١٠٢ — ديشر الثاني كونت كاتزنلنبوغن Katzenellenbogen (١٢١٩ — ١٢٤٤) و هو ابن ديشر الأول (١٢١٩ — ١٢٤٤) و قد عاد إلى وطنه سنة ١٢٢٢ .
- ١٠٣ — أليس، أرملة هيوغ أوف لوزغنان انظر الحاشية رقم 5/ المتقدمة، و هي قد كانت ابنة هنري الثاني دوق شامبين، وايزابيلا ملكة القدس .
- ١٠٤ — بطرس دي مونتافيو، وكان أخاً لكل من : يوستورغيوس Eustorgius أوف نيقوسا، و غارن مقدم الاستارية، وقد خلف وليم أوف تشارتز في مقدمة الداوية لدى موت وليم في سنة ١٢١٩، وقد بقي في منصبه حتى سنة ١٢٢٩ .
- ١٠٥ — بوهيموند الرابع صاحب العين الواحد كونت طرابلس . انظر الحاشية رقم 86/ المتقدمة .
- ١٠٦ — جون دي إيلين صاحب بيروت (١١٧٧ — ١٢٣٣)، كان أكثر البارونات نفوذاً في القدس، و كان نائباً للمملكة (١٢٠٥ — ١٢١٠)، و بالنسبة لحفيده ماري (انظر . ج . ل . لامونت في بيزنطة ١٢ (١٩٣٧) (٤١٧ — ٤٤٨) .
- ١٠٧ — كان غي صاحب جبلة ايناهيوغ الثاني صاحب جبلة، ولايتيني Etienne ابنه هنري أو ميللي، صاحب نابلس، و كانت أخته بلايسانس Plaisance زوجة لبوهيموند الرابع أمير أنطاكية، و خلف غي أباه في جبلة عندما كان مايزال صغيراً، وقد تزوج من أليس، زوجة بوهيموند السالفة، وقد عاش مأساة الصليبيين، و أعان فردريك ضد الإيلينيين (انظر الفصل ٨٧ المقبل) .
- ١٠٨ — انظر الملحق أ — المقبل .

١٠٩ — كان فردريك الثاني من أسرة هو هنتسوفن ابنا لهنري السادس و لكونستانس صاحبة صقلية ، وقد توج ملكاً لصقلية، و كان قد توج من قبل ملكاً لألمانيا، و تتويجه الآن كان امبراطوراً في روما .

١١٠ — لودويغ أوف وتلزباخ، دوق بافاريا، و كونت بالاتين في الراين (١٢١٤ — ١٢٣١) و قد حمل الصليب مع فردريك في سنة ١٢١٥ .

١١١ — أولريخ أوف أندخ — ديسين، أسقف باسو منذ سنة ١٢١٥، و قد توفي في رحلة عودته نحو الوطن في ٣٠ تشرين أول ١٢٢١، و قد حمل الصليب مع لودويغ صاحب بافاريا في سنة ١٢١٥ .

١١٢ — هرمان الخامس، مركيز بادن، أخو هنري الأول أوف بادن (١٢١٢ — ١٢٣١)، و كان هرمان قد عاد إلى وطنه في آذار ١٢٢٢ ، و قد توفي سنة ١٢٤٣ .

١١٣ — تبعا لروهرخت، Regesta regni hieros ص ٢٥٠، كان هذا هو وولتر الرابع أوف بريين، و ابن أخي الملك جون صاحب القدس، و قد تزوج من ماري القبرصية ابنة الملك هيوج الأول ، و قد صار كونت يافا، و قتل أثناء حربه ضد المسلمين .

١١٤ — كانت التعليمات لدى بيلاغوس تقضي بالاتصال بالبابا و إعلامه بأية مقترحات للهدنة، و عندما علم البابا هونوريوس . بمقترحات الكامل، ردّ بأنه قد أسف لفقدانه الحياة و الجهد والنفقات، مما دفعه إلى رفض المقترحات، و قد جعله تأكيد فردريك بعزمه على الابحار نحو الشرق، يتخذ موقفه ضد هذه المقترحات، و كان هونوريوس قد تأثر بالتقارير التي شاعت عن « برسترجون » و « الملك داود » التي بنيت على انجازات جنكيزخان و المغول ، يضاف إلى هذا أن فردريك قد حظر في رسائل صدرت عنه المبادلة ما بين دمياط و القدس .

١١٥ — كانت أقدم الاشارات إلى وجود الصليب الأصيل قد جاءت على لسان القديس سيرل المقدسي سنة ٣٤٧، و يحكى بأن الامبراطورة هيلانه قد قسمته إلى ثلاثة أقسام، و قد أرسلت قسماً واحداً إلى القدس، و كان هذا القسم هو الذي استولى عليه المسلمون في حطين، (و مع ذلك تحتاج المسألة إلى كثير من التدقيق) .

١١٦ — احتل هذا الكرسي منذ سنة ١٢١٩ من قبل أثناسيوس أوف كليرمونت في أوفرين .

١١٧ — كان هنري بسكاتور، كونت مالطا، قد أرسل من قبل الامبراطور فردريك، قائداً لأسطوله .

١١٨ — كان مقدم فرسان التيوتون في هذه الآونة هو هرمان فون سالزا المشهور، و هو الذي كان المستشار الأخير لفردريك الثاني .

١١٩ — كان غارن أوف مونتاغيو، فرنسيا من مقاطعة أوفرين، و أخا ليو ستوغويس رئيس أساقفة نيقوسيا، ولبطرس مقدم الداوية، و كان يعمل مارشالاً للاستبارية عندما رقي إلى مرتبة المقدم الأعلى في سنة ١٢٠٨، و قد ميز نفسه أثناء حصار دمياط، و أسهم في تتويج جون أوف بريين في سنة ١٢١٠، و كان حاضرا في المؤتمر الذي عقد في عكا سنة ١٢١٧، و قد توفي سنة ١٢٢٨، و خلفه في المقدمة برنارد أوف تكسي .

١٢٠ — كانت المناوشات أمراً عادياً في شمالي المملكة، حتى بعد عقد الهدنة، و رفض غي بكل بساطة في هذه المناسبة الاعتراف بالهدنة، و قد أرغم من قبل المعظم عيسى على عقد هدنة منفردة .

١٢١ — حدده روهريخت (Beitrage , 11 , 197 , nlos) على أنه صندقلي في فريجيا .

المحتوى

رقم الصفحة	الموضوع
٧	الاستيلاء على دمياط
٩	توطئة
١٣	مدخل
١٦	الحملة الصليبية الخامسة وكتابات أولفر
٢٣	حياة أولفر بعد الحملة الصليبية الخامسة
٢٧	الاستيلاء على دمياط
٢٨	استهلال
٢٩	الفصل الأول
٢٩	الفصل الثاني
٣١	الفصل الثالث
٣٢	الفصل الرابع
٣٢	الفصل الخامس
٣٣	الفصل السادس
٣٥	الفصل السابع
٣٥	الفصل الثامن
٣٦	الفصل التاسع
٣٧	الفصل العاشر
٣٩	الفصل الحادي عشر
٤١	الفصل الثاني عشر
٤٢	الفصل الثالث عشر
٤٤	الفصل الرابع عشر
٤٥	الفصل الخامس عشر
٤٥	الفصل السادس عشر

رقم الصفحة	الموضوع
٤٦	الفصل السابع عشر
٤٦	الفصل الثامن عشر
٤٧	الفصل التاسع عشر
٤٨	الفصل العشرون
٤٩	الفصل الحادي والعشرون
٥٠	الفصل الثاني والعشرون
٥٢	الفصل الثالث والعشرون
٥٣	الفصل الرابع والعشرون
٥٤	الفصل الخامس والعشرون
٥٥	الفصل السادس والعشرون
٥٦	الفصل السابع والعشرون
٥٧	الفصل الثامن والعشرون
٥٨	الفصل التاسع والعشرون
٦١	الفصل الثلاثون
٦٢	الفصل الحادي والثلاثون
٦٤	الفصل الثاني والثلاثون
٦٥	الفصل الثالث والثلاثون
٦٦	الفصل الرابع والثلاثون
٦٧	الفصل الخامس والثلاثون
٦٩	الفصل السادس والثلاثون
٧٠	الفصل السابع والثلاثون
٧١	الفصل الثامن والثلاثون
٧٢	الفصل التاسع والثلاثون

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأربعون	٧٤
الفصل الحادي والأربعون	٧٦
الفصل الثاني والأربعون	٧٦
الفصل الثالث والأربعون	٧٨
الفصل الرابع والأربعون	٧٩
الفصل الخامس والأربعون	٨٠
الفصل السادس والأربعون	٨١
الفصل السابع والأربعون	٨٢
الفصل الثامن والأربعون	٨٣
الفصل التاسع والأربعون	٨٤
الفصل الخمسون	٨٤
الفصل الحادي والخمسون	٨٥
الفصل الثاني والخمسون	٨٥
الفصل الثالث والخمسون	٨٦
الفصل الرابع والخمسون	٨٨
الفصل الخامس والخمسون	٨٩
الفصل السادس والخمسون	٩٠
الفصل السابع والخمسون	٩١
الفصل الثامن والخمسون	٩٣
الفصل التاسع والخمسون	٩٣
الفصل الستون	٩٥
الفصل الحادي والستون	٩٦
الفصل الثاني والستون	٩٦

رقم الصفحة	الموضوع
٩٧	الفصل الثالث والستون
٩٧	الفصل الرابع والستون
٩٨	الفصل الخامس والستون
٩٩	الفصل السادس والستون
٩٩	الفصل السابع والستون
٩٩	الفصل الثامن والستون
٩٩	الفصل التاسع والستون
١٠٠	الفصل السبعون
١٠١	الفصل الحادي والسبعون
١٠٢	الفصل الثاني والسبعون
١٠٣	الفصل الثالث والسبعون
١٠٤	الفصل الرابع والسبعون
١٠٦	الفصل الخامس والسبعون
١٠٨	الفصل السادس والسبعون
١٠٨	الفصل السابع والسبعون
١٠٩	الفصل الثامن والسبعون
١١٠	الفصل التاسع والسبعون
١١١	الفصل الثمانون
١١٢	الفصل الحادي والثمانون
١١٣	الفصل الثاني والثمانون
١١٤	الفصل الثالث والثمانون
١١٤	الفصل الرابع والثمانون
١١٥	الفصل الخامس والثمانون

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل السادس والثمانون	١١٥
الفصل السابع والثمانون	١١٥
الفصل الثامن والثمانون	١١٦
الفصل التاسع والثمانون	١١٦
ملحق آ	١١٨
المنتقى من تاريخ القدس	١٢١
استهلال	١٢٣
تاريخ القدس	١٢٧
بداية التاريخ	١٢٩
الفصل الحادي والعشرون	١٣١
الفصل الثاني والعشرون	١٣٢
الفصل الثالث والعشرون	١٣٣
الفصل الرابع والعشرون	١٣٣
الفصل الخامس والعشرون	١٣٤
الفصل السادس والعشرون	١٣٤
الفصل السابع والعشرون	١٣٥
الفصل الثامن والعشرون	١٣٥
الفصل التاسع والعشرون	١٣٦
الفصل الثلاثون	١٣٦
الفصل الحادي والثلاثون	١٣٧
الفصل الثاني والثلاثون	١٣٨
الفصل الثالث والثلاثون	١٤٠
الفصل الرابع والثلاثون	١٤١

رقم الصفحة	الموضوع
١٤١	الفصل الخامس والثلاثون
١٤٢	الفصل السادس والثلاثون
١٤٢	الفصل السابع والثلاثون
١٤٣	الفصل الثامن والثلاثون
١٤٣	الفصل التاسع والثلاثون
١٤٤	الفصل الأربعون
١٤٥	الفصل الحادي والأربعون
١٤٥	الفصل الثاني والأربعون
١٤٦	الفصل الثالث والأربعون
١٤٩	الفصل الرابع والأربعون
١٥١	الفصل الخامس والأربعون
١٥٢	الفصل السادس والأربعون
١٥٣	الفصل السابع والأربعون
١٥٤	الفصل الثامن والأربعون
١٥٥	الفصل التاسع والأربعون
١٥٦	الفصل الخمسون
١٥٦	الفصل الحادي والخمسون
١٥٧	الفصل الثاني والخمسون
١٥٧	الفصل الثالث والخمسون
١٦١	الفصل الرابع والخمسون
١٦٢	الفصل الخامس والخمسون
١٦٤	الفصل السادس والخمسون
١٦٥	الفصل السابع والخمسون

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الثامن والخمسون	١٦٥
الفصل التاسع والخمسون	١٦٧
الفصل الستون	١٦٨
الفصل الحادي والستون	١٧٠
الفصل الثاني والستون	١٧٢
الفصل الثالث والستون	١٧٥
الفصل الرابع والستون	١٧٦
الفصل الخامس والستون	١٨٠
الفصل السادس والستون	١٨٤
الفصل السابع والستون	١٨٦
الفصل الثامن والستون	١٨٨
الفصل التاسع والستون	١٨٩
الفصل السبعون	١٩٠
الفصل الحادي والسبعون	١٩١
الفصل الثاني والسبعون	١٩٣
الفصل الثالث والسبعون	١٩٦
الفصل الرابع والسبعون	١٩٦
الفصل الخامس والسبعون	٢٠٢
الفصل السادس والسبعون	٢٠٥
الفصل السابع والسبعون	٢٠٧
الفصل الثامن والسبعون	٢٠٩
الفصل التاسع والسبعون	٢١١
الفصل الثمانون	٢١٢

رقم الصفحة	الموضوع
٢١٣	الفصل الحادي والثمانون
٢١٧	الفصل الثاني والثمانون
٢١٩	الفصل الثالث والثمانون
٢٢٠	الفصل الرابع والثمانون
٢٢١	الفصل الثاني والتسعون
٢٢٣	الفصل الثالث والتسعون
٢٢٧	الفصل الرابع والتسعون
٢٢٩	الفصل الخامس والتسعون
٢٣٢	الفصل السادس والتسعون
٢٣٣	الفصل السابع والتسعون
٢٣٥	الفصل الثامن والتسعون
٢٣٨	الفصل التاسع والتسعون
٢٤٧	رهبان تحت السلاح
٢٤٨	الملحق أ — التنظيمات العسكرية الدينية
٢٤٩	المجموعة السورية
٢٥٠	تنظيم القديس لعازر
٢٥١	فرسان التيوتون
٢٥٤	فرسان القديس توماس
٢٥٦	تنظيم الضريح المقدس
٢٥٧	المجموعة الإيبيرية — فرسان أفيز
٢٥٨	فرسان قلعة زباح
٢٥٩	فرسان القديس جيمس
٢٦١	فرسان القنطرة

رقم الصفحة	الموضوع
٢٦٣	تنظيم المسيح
٢٦٤	تنظيم سيدتنا أوف مونثيزا
٢٦٥	الملحق ب - تاريخ وفيات المقدمين
٢٧٠	أختام المقدمين وأعيان الرهبنة
٢٧٦	الملحق د - حول رنوك المقدمين
٢٨٣	الملحق هـ - قانون ريموند دوبري
٢٩٠	وصف الأرض المقدسة
٢٩١	استهلال
٢٩٥	رسالة تكريس
٢٩٦	الفصل الأول
٢٩٩	الفصل الثاني
٣٠١	الفصل الثالث
٣٠٣	الفصل الرابع
٣١١	الفصل الخامس
٣١٢	الفصل السادس
٣١٤	الفصل السابع
٣١٦	الفصل الثامن
٣١٧	الفصل التاسع
٣١٩	الفصل العاشر
٣٢٢	الفصل الحادي عشر
٣٢٤	الفصل الثاني عشر
٣٢٦	الفصل الثالث عشر
٣٢٩	الفصل الرابع عشر

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الخامس عشر	٣٣٠
الفصل السادس عشر	٣٣٣
الفصل السابع عشر	٣٣٥
الفصل الثامن عشر	٣٣٧
الفصل التاسع عشر	٣٤٠
الفصل العشرون	٣٤١
الفصل الحادي والعشرون	٣٤٣
الفصل الثاني والعشرون	٣٤٥
الفصل الثالث والعشرون	٣٤٦
الفصل الرابع والعشرون	٣٤٧
الفصل الخامس والعشرون	٣٤٨
الفصل السادس والعشرون	٣٥١
الفصل السابع والعشرون	٣٥٢
حواشي كتاب الاستيلاء على دمياط	٣٥٧